



الكناية في القرآن الكريم

موضوعاتها ودلالاتها البلاغية



الكناية في القرآن الكريم

موضوعاتها ودلالاتها البلاغية

د. أحمد فتحي رمضان الحياتي

أستاذ البلاغة المساعد في قسم اللغة العربية
كلية الآداب / جامعة الموصل

الطبعة الأولى

٢٠١٤ م - ١٤٣٥ هـ

واللهراء

واللهري..

إحساناً.. وخفض جناح

والله زوجني. واللهي: سارة وعلي ومروة

والله أخواني وأخواتي

والله خال الله الله الكرم أبو بكر.

جميعاً للهري طمعة جهدي

الفهرس

المقدمة..

المهمل النظري (الكناية في الدراسات البلاغية) ..

- الكناية لغة

- مفهوم الكناية ودلالاتها الاصطلاحية

- الكناية بين الحقيقة والمجاز

- الفرق بين الكناية والتعريض..

- معيار الجودة في الكناية عند البلاغيين

الفصل الأول: الكناية الجنسية:

- الرفق واللباس والمباشرة

- الإفضاء

- التغشّي

- الاعتزال والتفرب والإتيان

- اللمس والتمس

- الهجر في المضاجع

- النحول

- التمتع

- السير

- تحت عيّنين

- الطمث والفرش المرفوعة

الفصل الثاني: الكناية اللونية:

- الكناية باللون المباشر:

*الكناية باللون الأبيض والأسود

*الكناية باللون الأزرق

*الكناية باللون الأخضر والأصفر..

الكناية باللون غير المباشر.

*الكناية بالإسفار والغيرة والفترة

*ناضرة وباسرة..

الفصل الثالث: الكناية النفسية:

- عضن الأنامل.

- عضن اليدين

- تقليب الكففين.

- السقوط في اليد..

- رد الأيدي في الأقواء

- جعل الأصابع في الأذان واستغشاء الثياب.

- النبذ وراء الظهر.

- الانقلاب على الأعقاب..

- تكليس الرؤوس..

- تسوية الأرض بالكافرين

- خضوع الأعناق..

- بلوغ القلوب الحناجر

- شخوص الأبصار والإهطاع وإفناع الرؤوس..

- خشوع الأبصار..

- الزلق بالأبصار..

- الإزدراء بالأعين..

- قرّة العين..

الفصل الرابع: الكناية الخلقية:

- أكل لحم الأخ الميت.

- حمالة الحطب.

- غل اليد إلى العنق ويسطها كلّ اليسط.

- قبض اليد..
- النقيير
- منع الماعون.
- تصغير الخد.
- لمي الرؤوس..
- التمسطي.
- غثي العطف
- إنغاض الرؤوس.
- الإعراض والنأي بالجانب
- السشي على الأرض هوناً..
- تثبييت الأقدام..
- القتال في قرى محصنة أو من وراء جُنُر
- الإصعاد واللي
- عضُّ الأبصار والضرب بالأرجل
- مد العين
- التجاهي عن المضاجع
- الفصل الخامس: الكناية الساخرة..
- الوسم على الخرطوم
- السقع بالناصية
- دُقْ إنيك أنت العزيز الكريم.
- الضرب على وجوه الكافرين وأدبارهم
- تولية الأدبار..
- خرق الأرض وبلوغ الجبال طولاً
- الصّدف.
- شرّ النواب
- لو يجدون ملجأ أو مغارات أو متخلاً لولوا إليه وهم يجمعون.

- نوران الأعين.

- الخوفا.

- أكل الطعام.

- الأخذ بالنواصي.

الفصل السادس: الكناية المعرفية.

- لاكتنه والوقر والحجاب.

- غلف.

- الختم.

- الطبع.

- الأقفال.

- الأغلال.

- الغطاء.

- لم يخرّوا عليها صنماً وغمينا.

- البلد الطيب يخرج نباته بأذن ربّه والذي حبّث لا يخرج إلا نكداً

- الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظلّ والحُرور، والأحياء والأموات

الفصل السابع: الكناية التعريضية.

- إنما يتذكر أولوا الألباب.

- فسئلواهم إن كانوا ينطقون.

- نبأ الحصم.

- ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض.

- المثل بامرأة نوح وامرأة لوط.

- يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا

- أفحسبتم أنما خلقتكم عبثاً

- ما هذا إلا بشر مثلكم

- أولوا الأيدي والأبصار.

- والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صنماً وغمينا

- وما هي من الظالمين ببعيد.
- وكأين من نبي قتل معه ربيون كثير فما وهوا لما أصابهم.
- وإنا أو أيناكم لعلى هدى أو في ضلال مبين.
- ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون.
- لا تسئلون عما أجرمتنا ولا تسأل عما تعملون.
- لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله.
- وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة.
- الفصل الثامن: كنايات عن يوم القياس:

- الواقعة.
- القارعة.
- الحاقة.
- الصالحة.
- الطامة الكبرى.
- الغاشية.
- الألفة.
- الراجفة والرافة.
- الكشف عن الساق.
- جعل الولدان شيبا.
- أصحاب اليمين.
- أصحاب الشمال.
- إتيان الكتاب من وراء الظهر.
- الفصل التاسع: كنايات في موضوعات متفرقة:
- كنايات عن الشدة والكرب:
- *النفاف الساق بالساق.
- *لتركين طيقاً عن طبق..
- *ضاق بهم ذرعاً.

- كُنَايَاتٌ عَنْ صَّارِعِ الْغَابِرِينَ:

*فَغَشَّيْهِمْ مِنْ أَلَيْمٍ مَا غَشَّيْهِمْ.

*قَطَعَ الدَّابِرَ

*الْمَشْيِ فِي الْمَسَاكِينِ..

*إِزْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، وَتُسُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ، وَفِرْعَوْنَ ذُو الْأَوْتَادِ.

*نَقَصَ الْأَرْضَ مِنْ أَطْرَافِهَا.

- كُنَايَاتٌ عَنْ الْعَذَابِ:

*مَنْ فَوْقَهُمْ وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ.

*مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ

- كُنَايَاتٌ عَنْ الرَّحْمَةِ:

*فَتَحَ الْمَبْرَكَاتِ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

*الْأَكْلَ مِنْ فَوْقٍ وَمِنْ تَحْتِ الْأَرْجْلِ..

*وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوِاحِ وَدَسَرَ

- كُنَايَاتٌ أُخْرَى..:

*الْتَفَتْنَا فِي الْحَلِيَّةِ وَفِي الْخَصَامِ غَيْرِ مَبِينِ

*تَطْهِيرِ الثِّيَابِ

*الْتِهَتَانِ الْمَقْتَرَى بَيْنَ الْيَدَيْنِ وَالرَّجْلَيْنِ

الْخَاتِمَةُ

ثَبَّتَ الْمَصَادِرَ وَالْمَرَاجِعَ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد البُلغاء وإمام الفصحاء محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهنهم إلى يوم الدين.
ويعد:

فإن هذا: محاولة جادة تنطلق من القرآن الكريم كتاب العربية الأكبر لدراسة ظاهرة أسلوبية من ظواهر أساليبه المعجزة، وهي ظاهرة الكناية بوصفها فناً من فنون القول التي يحفل بها القرآن الكريم

واختياري هذا الموضوع عند أساساً إلى سببين، أولهما: حبّي الكبير لكتاب الله منذ الصغر.. وثانيهما: إيماني بأن التخصص في علم البلاغة العربية يجب أن يتعمق في رحاب القرآن، فهو معجزة البلاغة العربية ومقياسها الأمثل الذي يُحتذى به على مدار الزمن. من أجل ذلك انعقدت الذية على أن تكون دراستي فيما يتعلق بالقرآن، موقع الاختيار على موضوع (الكناية) تحديداً لأهميته في الدرس البلاغي والأنبي من جهة، ولعدم دراسة هذا الفن البقي دراسة على وجه الاستقلال شاملة متقصة من جهة أخرى.
وقد اتبعت في كتابي منهجين:

الأول: منهج تاريخي تجلّى في المهاد النظري الذي صدرت به الكتاب، استعرضت فيه الكناية لغةً واصطلاحاً ونشأةً وتطوراً وقيمةً وبلاغةً، وكان هذا المنهج كفيلاً ببيان مفهوم الكناية وتطوره عبر المراحل التاريخية المتعاقبة.

والثاني: منهج تحليلي قامت عليه فصول الأطروحة رأيتها جديداً وكفيلاً ببيان الملامح الفنية التي توافرت عليها الكناية القرآنية، وقد وظّفتها القرآن وسيلة حيوية فاعلة في توصيل أغراضه ومقاصده التي هدف إليها.

وموضوع الكناية ليس سهلاً يسيراً، فهو يكاد أن يكون من أكثر الأساليب البلاغية دقةً وخفاءً، وقد اختلف البلاغيون القدماء في تحديده وبيان ما يدخل ضمنه من الظواهر والأساليب.. بيد أن مفهوم الكناية تبلور على يدي قدامة بن جعفر باسم "الأرداف" وأخذه عنه البلاغيون الذين جاءوا بعده، ونقل عبد القاهر الجرجاني تعريف قدامة للأرداف وسمّاه كناية، وكذلك فعل البلاغيون بعد الجرجاني.. ويتسع مفهوم الكناية عند ابن الأثير حينما

راها كل أسلوب يحتمل معنيين، أحدهما قريب، والآخر بعيد، وهو مراد المستكلم في الغالب، ويتحقق هذا المعنى البعيد عنده إما بالإرداف، وهو التعبير عن الملتزم بلازمه، وهو ما ذهب إليه قدامة بن جعفر، أو بالتمثيل، وهو التعبير عن المعنى بمثاله، أو بالمجاورة، وهو التعبير عن الشيء بتركه إلى ما جاوره، ومع هذا التوسع في مفهوم الكناية فإن ابن الأثير لم يعد التعريض مذهباً ثم يتسع مفهوم الكناية عند السكاكي حينما رآها تشمل التعريض والإرداف والتمثيل والتلويح والرمز والإشارة والإيماء، فجعلها طريقاً للكناية وإن اختلفت إذ يضمها بعد عام وهو الإشارة إلى المعنى البعيد عن طريق المعنى القريب الذي يدل عليه ظاهر اللفظ.

لذلك كان حقيقةً على الكتاب أن ينتهج هذا المفهوم الواسع للكناية بطرقها المتعددة في الدراسة وأن لا يقتصر على كناية الإرداف، كما استقرت تعريفاً واصطلاحاً لها عند المتأخرين كالقرويني وشراح تلخيصه.. لأن هذا المفهوم الواسع للكناية يستوعب أنواعها ويعبر عن طبيعتها الفنية والأدبية، وأجدي في دراسة الكناية القرآنية دراسة أدبية وقد شملت هذه الأنواع.

أما مصادر الكتاب ومراجعته فهي عديدة متنوعة، ويقف في طليعة المصادر القديمة المختصة التي حظي بها الكتاب وأعدته: تفسير (الكشف) للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) الذي استلزمه الكتاب واستأنس، فلا عجب أن يحتل مكانة متميزة فيه، فضلاً عما أفادته التفسير الأخرى والمصادر البلاغية المختصة والمراجع الحديثة، وقد عملت هذه المصادر والمراجع على نمو الكتاب واكتماله بالصورة التي خرج بها، وقيل كل ذلك كان (القرآن الكريم) هو مصدره الوحيد الذي تمس منه بالتناوذة المتكررة أثناء الليل والنهار الهداية إلى المعرفة والإفادة بما يعني الكتاب.

أما بناء الكتاب فقد قام على مهاد وتسعة فصول، اختص المهاد بدراسة الكناية من خلال المعاجم والمؤلفات التي تناولت بلاغة القرآن وتفسيره، والدراسات البلاغية المختصة غير المراحل التاريخية، ولما كان من المذعور بسط جميع الدراسات عمدت إلى مبدأ (الانتقاء) فأوردت أكثر المصادر دلالة على الموضوع وأوفاهها قدرة على استكمال متطلباته مركزاً في أثناء البسط على موضوع الكناية القرآنية ومجلباً آراء الدارسين القدامى

من خلال تحليلهم لهذا الفن، وقد امتاز عندهم - على الأغلب الأعم - بالروح الأدبية في تدوقه تدوقاً أدبياً أصيلاً.

وأعقب المهاد الكناية في القرآن الكريم، وقد انتظمت في فصول تسعة جاءت حسب المُكنى به والمُكنى عنه، فحملت عنوانات موضوعية مجترحة من طبيعة الكنايات التي تناولتها، وقد عمدت إلى الانتقاء في التحليل لكثرتها، فكان الفصل الأول بعنوان (الكناية الجنسية) يبحث في طبيعة هذه الكناية في القرآن، وقد كانت نوعين: كناية جنسية مشروعة بين الزوجين، وكناية جنسية غير مشروعة فيما وراء ذلك، وقد ركّز الفصل على الكناية الجنسية المشروعة في العرض والتحليل والتطبيق لكثرتها وأهميتها في أداء الدلالة الانسانية التي قيمها القرآن في العلاقة بين الزوجين.

وكان الفصل الثاني بعنوان (الكناية اللونية) وقد كثرت نوعين: كناية باللون المباشر كاللون الأبيض والأسود والأزرق والأصفر، وكناية باللون غير المباشر وهو يتغلغل في الصورة الكنائية فينداعي ليشير إلى دلالاته على نحو مكثف كاللون المباشر بوصفهما إشارة كنائية موحية.

وجاء الفصل الثالث بعنوان (الكناية النفسية) وقد كان ميدان التطبيق على الكنايات التي تجسد بالحركة المرئية سواء أكانت الحركة باليد أو بالعين أو بالراس أو بأي عضو من أعضاء جسم الانسان تجسد حالات نفسية معينة وخلجت شعورية متلونة حسب السياق الذي تنشكّل فيه..

أما الفصل الرابع فهو يحمل عنوان (الكناية الخلقية) تؤدي فيه كل كناية دلالة خلقية سلبية كانت أو ايجابية كالغوبة والتميمة، والبخل والتبذير، والشجاعة والجبن، والتكبر والتواضع والكرم، تُصل إلى المتلقي عبر فن الكناية ذي الطاقة التعبيرية والتصويرية فتكشف الكناية عن مكنوناتها بما يثري الفكر والشعور وتحدث بالمتلقي استجابة في تلقى الدلالات الخلقية ترغيباً أو تنفيراً.

وتناول الفصل الخامس (الكناية الساخرة) من خلال مجمل الآيات التي احتوت كنايات ساخرة وهي - على الأعم الأغلب - تستهدف اذمة الكفر والمشرک في صورة كاريكاتيرية تنير السخرية منهم والضحك، وتحطّم قواهم النفسية والمعنوية التي يوجهونها للمحاربة الاسلام وإيذاء المسلمين.

أما الفصل السادس الذي يحمل عنوان (الكناية المعرفية) فقد تناول الدلالة المعرفية في إطار ما يتعلق بالحواس والإدراك كالسمع والبصر والفؤاد بوصفها وسائل تلقى المعرفة التي تعدّ في المنظور القرآني أداة هادية إلى الإيمان بالله ﷻ، فحدثت هذه الكناية عالَمين متضادين: عالم الكفر والاضلال وأصحابه الكافرين الذين تصوّرهم الكناية وهم يترخّون في موانع حسية تحجبهم عن المعرفة في صورة بيانية معجزة، وعالم الإيمان والهدى وأصحابه المؤمنين الذين أفادوا مما منحهم الله من حواس ووسائل إدراك وفهم على نور وبصيرة.

وانتقد الفصل السابع (الكناية التعريضية) على دراسة نوع من الكناية يعدّ طريقة متميزة من طرفها في التعبير فاستخلصنا التعريف لهذا النوع من الكناية ثم أفضنا بالتحليل والتطبيق الكاشف عن وظيفته في مواقع الآيات الكريمة وبيان أثره التعبيري فيها.

وجاء الفصل الثامن بعنوان (كنايات عن يوم القيامة) يصوّر ذلك اليوم العظيم (يوم القيامة) من خلال كنايات متعدّدة، تجلّي كلّ كناية دلالة خاصة بها في بنائها وإيقاعها، فضلاً عن كنايات أخرى تتصل بذلك اليوم وما يحدث فيه من أهوال وأحداث مروّعة لتكون والحياة والإنسان.

واشتمل الفصل التاسع (كنايات في موضوعات متفرقة) على محاور متعدّدة هي: كنايات عن الشدة والكرب، وكنايات عن مصارع الغابرين، وكنايات عن عذاب الله، وكنايات عن رحمة الله، وكنايات أخرى تنفرد كل كناية بموضوع معين يصل إلى المتلقي عبر فن الكناية بحيوية وقوة وتأثير.. وكنايات تتعلق بخلق الكون، وأخرى تتعلّق بذات الله ﷻ يُستشف منها معاني عظمة الله وقدرته المهيمنة على الكون، وريسا كان وراء هذه الصور الكنائية من الأسرار والمعاني مالا يحيط بها الإدراك والاجتهاد.

وانتهى مطاف الكتاب بخاتمة عرضت لأهم النتائج وأميزها، ولم أذكر في كل مراحل الكتاب وسعاً لتحقيق بعض من طموح، ثم ألفت ب: جدولاً إحصائياً مفصلاً لكنايات القرآن الكريم مرتباً حسب السور القرآنية، وملحقاً إحصائياً آخر للكناية التعريضية، معتمداً في الأغلب التفسير والمصادر البلاغية المختصة، واجتهدت في تعيين طائفة من الكنايات القرآنية ممّا لم نذكر في الدراسات القرآنية والبلاغية مبيّناً نوعها ودلالاتها بمقتضى سياق الآية، ومتحرّياً الدقة والاستقصاء ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، والله حسبي وهو نعم الوكيل.

أحمد فتحي رمضان

المهاد

الكناية في الدراسات البلاغية

الكناية لغة:

كنى في (المعجم العربي) نل على (عدول عن لفظ إلى آخر دال عليه). قال الخليل (ت ١٧٠ هـ): " كنى فلان يكني عن اسم كذا، إذا تكلم بغيره مما يُستدل به عليه، نحو: الجماع.. والغائط والرفث ونحوه " (١)، فهو يشترط دلالة المكنى به على المكنى عنه. كما اشترط هذه الدلالة ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ): " يُقال: كذبت عن كذا.. إذا تكلمت بغيره مما يُستدل عليه " (٢).

إلا أن الجوهري (ت ٣٩٣ هـ) قال: " الكناية: أن تتكلم بشيء وتريد به غيره " (٣). وبذلك فهو لم يشترط دلالة المكنى به على المكنى عنه صراحة، ويبدو أن الجوهري لم يذكر الدلالة، لكونها لازمة للكناية، وأن المكنى لا يعتمد إلى مالا دلالة له على المكنى عنه، ولهذا فإن ابن منظور (ت ٧١١ هـ) يأخذ بالقولين (الذي يشترط الدلالة والذي لا يشترطها) وكان القولين واحد فيقول: " والكناية أن تتكلم بشيء وتريد به غيره، وكنى عن الأمر بغيره يُكنى كنايةً. يعني: إذا تكلم بغيره مما يستدل به عليه، نحو: الرفث والغائط ونحوه " (٤).

وفي ضوء هذا تُفسر الكناية بأي من هذين القولين. وهذا ما ذهب إليه الفيروز آبادي (ت ٨١٧ هـ)، إلا أنه يقدم ما اشترطت فيه الدلالة على ما لم تشترط فيه الدلالة على ما لم تشترط فيه فقال: " كنا به عن كذا يكنى، ويكنو كنايةً: تكلم بما يُستدل به عليه أو أن تتكلم بشيء وتريد غيره " (٥).

ونرى أن اشتراط الدلالة على المكنى عنه وتقييد الكناية به أولى من عدم اشتراطها وإطلاق القول فيها، إذ إن اشتراط الدلالة يميز الكناية من غيرها من الأساليب

١ كتاب العين: ٥ / ٤١١ (كنى).

٢ مقاييس اللغة: ٥ / ١٣٩ (كنو).

٣ الصحاح: ٦ / ٢٤٧٧ (كنى).

٤ لسان العرب: ١٥ / ٢٣٣ (كنى).

٥ القاموس المحيط: ٤ / ٣٨٦ (كنى).

قمع الاطلاق يفهم من الكناية مجرد العنول عن لفظ إلى غيره، فتختلط الكناية بغيرها كالتورية —————
المجلد (١)

وقد جعل قسم من اللغويين الكناية تورية، قال ابن فارس معقباً على قول الشاعر:
وإني لأكتمو عن قُذور بغيرها وأغرب أحياناً بها فأصارع
ألا تراه جعل الكناية مقابلة للمصراحة ؟ ولذلك تسمى الكنية كُتْمَةً، كنها تورية عن
اسمه " (١) " وانتهى إلى أن: "الكلف والنون والحرف المعتل يدل على تورية عن اسم
بغيره " (٢) وقال ابن منظور - أيضاً -: " الكنى: جمع كُذِبَ من قولك: كَذِبْتُ عن الأمر،
وكنوت عنه: إذا ورّيت عنه بغيره (٣) ".

وهكذا فسّر بعض اللغويين الكناية التي قالوا فيها: بأنها العنول عن لفظ إلى آخر دال
عليه بالتورية التي أجمعوا على أنها من الستر والإخفاء (٤).
ولعل هذا الخلط عائد إلى اشتراك الكناية والتورية في معنى (الستر والإخفاء) لغة
فكلاهما يستر المعنى ويخفيه وراء لفظ غير لفظه.

ومعلوم أن العنول عن ذكر اللفظ، لا يعني بالضرورة إخفاءه وستره، كما لا يعني
إبرازه وإظهاره، وإنما هو مجرد تركه، ومن هنا " فاللفظ في الكناية ليس بالواضح وضوح
المذكور صراحةً، ولا هو بالخفي الذي أخفي عن عمد وقصد، فهو أشبه ما يكون بالمكسو
بثوب رقيق، يشف عما تحته، فلا هو مستور، ولا هو عار، أما المورّي عنه فمكسو بكساء
سائر يستره ويخفيه، ولهذا يعتمد إلى التورية عند إرادة الإخفاء والإيهام والتضليل، بخلاف
الكنى، إذ هي دالة على أصحابها دلالة الأسماء على مسمياتها. ولولا هذه الدلالة لما عدل
الناس عن الأسماء إليها " (٥) وهذا ما أشار إليه ابن منظور في تعقيبهِ على قول القائل: "
رأيت علجاً يوم القادسية وقد تكنّى وتحنّى أي تستر، من كنى عنه إذا ورّى، أو من الكُذِبِ،

(١) ينظر: الكناية، د. محمد جابر فياض، ص ١٢٠.

(٢) مقاييس اللغة: ٥ / ١٣٩ (كنو).

(٣) المصدر نفسه: ٥ / ١٣٩ (كنو).

(٤) لسان العرب: ١٥ / ٢٣٤ (كني).

(٥) ينظر مثلاً: لسان العرب: ١٥ / ٢٨٩ (ورى).

(٦) الكناية، ص ١٢١.

كله ذكر كنيته عند الحرب ليعرف" (١) فقد أصاب في قوله: " كأنه ذكر كنيته ليعرف"، وجانب الصواب في قوله: "... أي تستر، من كنى عنه إذا ورى". إذ لماذا يستتر وهو علم من أعلام القادسية، وبطل من أبطالها؟ وممن يستتر؟ وليوث الحرب، وأبطال المعارك وأعلامها يزمجون بأسمائهم وكناهم والقابهم عندما يكررون على أعدائهم، ليُشيعوا الرعب في نفوسهم (٢).

والبيت الذي استدل به ابن فارس لم يرد فيه الشاعر التورية والإيهام والتضليل، ولو أراد ذلك لما ذكر اسمها صراحةً في صدر بيته، ولما قال في عجزه "وأعرب أحياناً بها فأصارع"، لأن الكنية دالة على ما عدل عنه، لا تخفي وتوهم وتضلل. وفي ضوء ما سبق يمكن القول أن الكنية - لغة - هي عدول عن لفظ (إلى آخر دال عليه).

والعدول في هذا المفهوم اللغوي للكنية لا يعني ستره وإخفاءه وتضليله كما هو في (التورية) (٣) ولا يعني - أيضاً - إبرازه وإظهاره وكشفه فيقلب التعبير إلى تعبير مباشر يقرر معناه بطريقة مباشرة. وإنما يعني أن المكنى عنه ليس بالواضح وضح المذكور صراحةً، ولا هو بالخفي المضلل الذي لا تكاد تثبته إلا بالتأمل وإمعان النظر. هو أشبه ما يكون بالمكسو بثوب رقيق شفاف يوحي بالمعنى ولا يباشر به، يلمح إليه ولا يقرره.

(١) لسان العرب: ١٥ / ٢٣٣ (كنى).

(٢) ينظر: الكنية، ص ١٢٢.

(٣) يمكن أن نلاحظ بعض الأفرق بين أسلوب (الكنية والتورية) في المعنى الاصطلاحي لهما على الرغم من اشتراكهما لغةً في الستر والإخفاء، فكلاهما يستر المعنى ويخفيه وراء لفظ غير لفظه - أهمها:

١ - أن الكنية تقع في المفردة والتركيب على حين أن (التورية) لا تقع إلا في المفردة.
٢ - تهدف التورية إلى تضليل المورّي عنه وإخفائه، إذ هي تركز إلى المغالطة والإيهام في حين أن الكنية دالة على المكنى عنه لا توهم ولا تضلل بل هي توحى بالمعنى المكنى عنه من وراء سطحها، وقال ابن الأثير الحلبي في جوهر الكنز: "ولا فرق بين التورية والكنية، إذ التورية ذكر لفظ له معنيان، والكنية كذلك. وما قبل أحد من العلماء بالفرق، إلا أن التورية أفردت وصار الناس يلجئون بذكرها في محاوراتهم، ونظمهم، ونثرهم، ويستحسنون لفظها، فصارت كنها غير الكنية" ص ١١١. فهو ينظر إلى المعنى اللغوي لهما دون المعنى الاصطلاحي كما هو واضح.

٣ - إن التورية ترد على الوجه الحقيقي، بينما ترد الكنية على الوجه المجازي.
وينظر: نشاط الصفدي في النقد والبلاغة، د. مناهل فخر الدين قليح، ص ٢٣٥ وما بعدها.

مفهوم الكناية ودلالاتها الاصطلاحية :

يحد الباحث في فن الكناية أقوالاً كثيرة متناثرة في مصادر متنوعة أسهم فيها جمع غفير من العلماء من مفسرين ولغويين وتحريريين وأدباء وبلاغيين، أسهموا جميعاً في تطوير الدلالة للكناية حتى استقرت بدلالاتها الاصطلاحية عند البلاغيين المتأخرين. وفي طليعة هؤلاء العلماء المفسرون لكتاب الله، فقد احتوى القرآن الكريم كُنَايَات كثيرة، نَصَمَنت منها أحكاماً شرعية، فكان لزاماً على المفسر أن يوضح معانيها والأمراء منها.

ويُعَدُّ ابن عباس (رضي الله عنهما) (ت ٦٨ هـ) من أوائل المفسرين، فقد أشار إلى عدد من كُنَايَات القرآن، وبين المكنى عنه في كل منها وعَلَّاه، فقال في قوله - تعالى -: ﴿أَوَلَمْ تَسْمَعْ لِلنِّسَاءِ﴾ ^(١) المَسَّ واللمس والمباشرة: الجماع، ولكن الله يعف ويكني ما شاء بما شاء ^(٢)، وفي قوله - تعالى -: ﴿أَجَلْ لَكُمْ يَسَاءُ الرِّفْقِ إِنْ فَسَّيْكُمْ﴾ ^(٣) الرِّفْقُ الجماع، ولكن الله كريم يكني ^(٤).

وفي قوله - تعالى -: ﴿ثَاقِنَ بَيْتُوهُمْ﴾ ^(٥) المباشرة: الجماع ولكن الله يكني ما شاء بما شاء ^(٦)، وفي قوله - تعالى -: ﴿مَلَّارَقَتْ...﴾ ^(٧) الرِّفْقُ هنا غير الرِّفْقِ الذي ذكر في ﴿أَجَلْ لَكُمْ يَسَاءُ الرِّفْقِ إِنْ فَسَّيْكُمْ...﴾ فهو من التعريض بذكر الجماع، وهو من العراية في كلام العرب، أي أدنى الرِّفْقِ ^(٨).

وكما هو واضح فإن استعمال الكناية عند ابن عباس يقيد ستر المعنى الذي نلجأ إليه باستعمال الفاظ مهذبة دالة على المعنى المراد بدلاً من الألفاظ الموضوعية لذلك المعنى.

(١) من الآية ٤٣ من سورة النساء ، وسورة المائدة ، من الآية: ٦
(٢) جامع البيان في تفسير القرآن ، الطبري: ٦٥ / ٥. وينظر: الاتقان في علوم القرآن ، للسيوطي: ٨ / ٢.

(٣) سورة البقرة ، من الآية: ١٨٧.

(٤) جامع البيان في تفسير القرآن: ٩٤ / ٢.

(٥) سورة البقرة ، من الآية: ١٨٧.

(٦) جامع البيان في تفسير القرآن: ٩٨ / ٢.

(٧) سورة البقرة ، من الآية: ١٩٧.

(٨) جامع البيان في تفسير القرآن: ١٥٤ / ٢.

وقد نهج أكثر المفسرين بعده نهجه في التفسير والبيان مثل: (مجاهد: ت ١٠٣ هـ)، و (قتادة: ت ١١٧ هـ)، وغيرهما (١).

أما اللغويون والنحاة فإن مفهوم الكناية عندهم يعني كلّ عدول عن صريح اللفظ إلى ما دلّ عليه من الضمائر والكُنَى وأسماء الأشياء والأعداد.

فأبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) يطلق الكناية على الضمير لحلوله محل الاسم الصريح، ودلالته عليه، فقال: " لا تُضَاف ﴿تُبَشِّرُونَ﴾ إِلَّا بَنُونَ الْكِنَايَةِ كَقَوْلِكَ (تُبَشِّرُونِي) " (٢).

ويذكر الخليل الكناية ودلالاتها والمدافع التهذيبي الذي يدفع إليها في الكلام في قوله المار ذكره (٣).

ويذكر سيبويه (ت ١٨٠ هـ) تكنية العرب بفلان وفلانة - من غير ما ألف ولام - عن أسماء المتحدث عنهم من الأدميين، وبالألف واللام في تكذبتهم عن غير الأدميين فقال: " هذا فلانُ بنُ فلان، لأنه كناية عن الأسماء التي هي علاماتُ غالبية، فأجريت مجراها فإذا كذبت عن غير الأدميين قلت: الأفلان والفلانة، جعلوه كناية عن الناقصة التي تسمى بكذا، والفرس الذي يسمى بكذا، ليفرقوا بين الأدميين والبهائم " (٤).

ومثّل (كم) في الكناية عن العدد بفلان وفلانة في الكناية عن الأسماء فقال: " وذلك قولك: له كذا وكذا درهماً، وهو مبهم في الأشياء بمنزلة (كم) وهو كناية للعدد، بمنزلة (فلان) إذا كنيت به في الأسماء " (٥).

وهكذا أطلق سيبويه الكناية على علامة المضمر من أسماء الأدميين وغير الأدميين والأعداد. وهذا المفهوم للكناية هو بالمعنى النحوي لا البلاغي، وهو ما نجده عند الفراء (ت ٢٠٧ هـ)، وقد أشار الفراء إلى عدد من كنايات القرآن، ونقل في بعضها ما قاله ابن عباس، فقال في قوله - تعالى - ﴿وَلَكِنَّ لَا تَوَاعِدُوهُمْ سِرًّا﴾ (٦) يقول: لا يصفن أحدكم

(١) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن: المواضع السابقة نفسها، و ١ / ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ وغيرها.

(٢) مجاز القرآن ، لأبي عبيدة: ١٣ / ١.

(٣) ينظر: ص ٧ من:.

(٤) الكتّاب: ٣ / ٥٠٧.

(٥) نفسه: ٢ / ١٧٠.

(٦) سورة البقرة ، من الآية: ٢٣٥.

نفسه في عدتها بالرغبة في الذكاح والأكثل منه بن ابن عباس أنه قال: السر - في هذا الموضوع - الذكاح

ألا زعمت بتباسه اليوم أنفك ببرت والأي شهة السر أمثالي
قال القراء: " ويرى أنه مما كنى الله عنه قال - تعالى - ﴿ أَوْجَعَهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِلِ ﴾^(١) " (٢)

وقال في قوله - تعالى - ﴿ سَمِعْتُمْ وَأَبْصَرْتُمْ وَجَلَدْتُمْ ﴾^(٣) الجلد - ها هنا - والله أعلم هو ما كنى عنه، كما قال - تعالى - ﴿ وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُمْ سِرًّا ﴾ يريد: الذكاح، وكما قال: ﴿ أَوْجَعَهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِلِ ﴾ والغائط الصحراء " (٤)

وقال في قوله - تعالى - ﴿ يَأْتِيَكُمْ بِهِ ﴾^(٥) كناية عن ذهاب السمع والبصر والختم على الأفئدة، وإذا كذبت عن الأفاعيل وإن كثرت وحذت الكناية، كقولك للرجل: أقبل لك وإدبارك يؤذيني. وقد يقال: إن الهاء التي في ﴿ بِهِ ﴾ كناية عن الهدى، وهو كالوجه الأول " (٦)

إن ضمير الغائب المفرد (الهاء) ناب عن ذهاب السمع والبصر والختم على الأفئدة، أو عن الهدى وأن يحل الضمير محل الاسم هو الكناية عند القراء، وهذا ما نفهمه في شرحه لقوله - تعالى - ﴿ فَكَفَّاهُمْ شَخَصَةً أَبْصَرُوا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾^(٧) وقال: وإن شئت جعلت ﴿ هُمْ ﴾ للأبصار، كنيته عنها ثم أظهرت الأبصار لتفسرها، كما قال الشاعر:
لعمري أيها لا تقول ظعيني أولا فر عني مالك بن أبي كعب
فذكر الظعينة وقد كنى عنها في (العمر) " (٨)

(١) سورة النساء ، من الآية ٤٣ ، وينظر : سورة المائدة : الآية : ٦ .

(٢) معاني القرآن : ١ / ١٥٣ ، وينظر : الاتقان في علوم القرآن : ٢ / ١٠٠ .

(٣) سورة فصلت ، من الآية ٢٠ .

(٤) معاني القرآن : ٣ / ١٦ .

(٥) سورة الأنعام ، من الآية ٤٦ .

(٦) معاني القرآن : ١ / ٣٣٥ .

(٧) سورة الأنبياء ، من الآية : ٩٧ .

(٨) معاني القرآن : ٢ / ٢١٢ .

ومقتضى كلامه أن ﴿م﴾ دخل محل ﴿أَصْمَرَ﴾ مضمرة في الآية، وجاءت الأبصار الثانية لتفسر هذا المضمّر، كما هو الأمر في بيت مالك بن أبي كعب الذي أضمرت فيه الطعينة الأولى وناب عنها الضمير "ها" وجاءت الطعينة الثانية لتشرح هذا المضمّر وتبينه.

ويتضح أكثر أن الكناية عند القراء هي ما ينوب عن المضمّر أو علامته على حد قول أهل النحو، حين يشرح الآية الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً قَبْهَىٰ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ (١)، قال: "فكأنى عن هي، وهي للأيمن ولم تذكر. وذلك أنّ الغل لا يكون إلا باليمين، والعنق، جامعاً لليمين، والعنق: فيكفي ذكر أحدهما من صاحبه" (٢). أي أنّ الإيمان مضمرة في الآية وحلت ﴿م﴾ محلها، فثبت أو كتّ عنها.

وشأن أبي عبيدة (ت ٢١٠ هـ) شأن القراء في أن السعنى الذحوي للكناية لم يمدحه من أن يشير إشارة عابرة - أيضاً - إلى الكناية بمعناها البلاغي، وهي إشارة تفيد المستر ولا شيء غيره، بمفهومه اللغوي الصرف. قال أبو عبيدة: "ومن مجاز ما يحول خبره إلى شيء من سببه، ويترك خبره قوله - تعالى -: ﴿فَقُلْتُ أَفَعْتُهُمْ مَا أَخْبُيُونَ﴾ (٣) - حول الخبر إلى الكناية التي في آخر الأعناق" (٤).

الكناية في ضوء هذا المعنى هي ما ينوب عن المضمّر - أي إضمار (الكفار) وظهور الضمير (هم): ﴿أَفَعْتُهُمْ﴾ ، والتقدير: (أعناق الكفار)، ولما كان الضمير سقراً لكلمة الكفار أطلق عليه أبو عبيدة لفظ الكناية.

ويقول: "ومن مجاز ما جاء من الكتابات في موضع الأسماء بدلاً منهن قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدًا سَاحِرًا﴾ (٥) فمعنى ﴿مَا﴾ معنى الاسم، مجازة: إنّ صنيعهم كيدٌ ساحرٌ" (٦).

- (١) سورة يس ، من الآية: ٨.
- (٢) معاني القرآن: ٢ / ٣٧٢.
- (٣) سورة الشعراء ، الآية: ٤.
- (٤) مجاز القرآن: ١ / ١٢.
- (٥) سورة طه ، من الآية: ٦٩.
- (٦) مجاز القرآن: ١ / ١٥.

إن (ما) كناية عن الصنيع، حسب مفهوم الكناية عنده، أي هي التي نابت في الآية عنه وحذت محله، وقد أضمر فصارَت علامة له. والأشياء نفسها في قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ (١) إذ ﴿يَا أَيُّهَا﴾ كناية عن المفعول ذكرت عوضاً عنه وقامت مقامه (٢). ويكشف أبو عبيدة عن المكنى عنه في براسه لطائفة من الآيات مثل قوله - تعالى -: ﴿أَوْجَلَكُمُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْكَايِطِ﴾ يقول: "كناية عن حجة ذي البطن" (٣) وفي قوله - تعالى -: ﴿أَوَلَمْ نَسْأَلِ الْمَاءَ﴾ "كناية عن الغشيان" (٤) وقال في قوله - تعالى -: ﴿أَنقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ (٥) كل من رجع عما كان عليه، فقد رجع على عقبه (٦) وفي قوله - تعالى -: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَتَى فِيهَا﴾ (٧) أي فأصبح نادماً، والعرب تقول ذلك للنادم: أصبح فلان يقلب كفَّيه نادماً وتلفهاً على ذلك، وعلى ما فاتته (٨) وقال في قوله - تعالى -: ﴿مَنْ يَأْمُرُكُمْ﴾ (٩) يقال لامرأة الرجل: هي فراشه، ولباسه، وإزاره، ومحل إزاره (١٠). إن الكناية بالمعنى النحوي هو الاستعمال الأساس عند أبي عبيدة وعند القراء كذلك، أي أنها تؤدي مفهوم ما نحويّاً لا بلاغيّاً بوصفها وسيلة تعبير تصويرية، أو تركيباً يشكّل مجموعة إشارات لغوية تدل على مدركات ننقل بواسطتها إلى المعنى المطلوب إذ إن مفهوم الكناية عندهما يفيد أنها إحدى وسائل لغة القرآن الفنية.

إن المعنى البلاغي للكناية نجده يوضح ويتعمق عند الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) فهو قد وقف عند الكناية وقفات متعددة، تحدث فيها عن هذه الطريقة في التعبير العربي بشكله الفني، حديثاً يحدّد معناها البلاغي الذي ارتآه علماء البيان بعده. فقد ذكر أمثلة مختلفة للكناية ينوعها: القريبة والبعيدة.

(١) سورة الفاتحة، من الآية: ٤.

(٢) ينظر: مجاز القرآن: ٢٤ / ١.

(٣) المصدر نفسه: ١٢٨ / ١.

(٤) المصدر نفسه: ١٥٥ / ١.

(٥) سورة آل عمران، من الآية: ١٤٤.

(٦) مجاز القرآن: ١٠٤ / ١.

(٧) سورة الكهف، من الآية: ٤٢.

(٨) مجاز القرآن: ٤٠٤ / ١.

(٩) سورة البقرة، من الآية: ١٨٧.

(١٠) مجاز القرآن: ٦٧ / ١.

وقد أفرد الجاحظ للكناية باباً في كتابه (الحيوان) سمّاه (باب من القطر وفهم الرطافات والكنائيات) ^(١)، ومما أورده في هذا الباب قوله: "أخبرني شيخ من بني العنبر قال: أسر بنو شيبان رجلاً من بني العنبر، قال: دعوني حتى أُرسل إلى أهلي ليقبوني، قالوا: على ألا تكلم الرسول إلا بين أيدينا، قال: نعم، قال: فقال للرسول: انت أهلي فقل: إن الشجر قد أورك، وقل: إن النساء قد استنكت وخرزت القريتم قال له: انطلق إلى أهلي فقل لهم: عزّوا جملي الأصهب، واركبوا ناقتي الحمراء، وسلوا حارثاً عن أمري - وكان حارث صديقاً له - فذهب الرسول فأخبرهم، فدعوا حارثاً فقصّ عليه الرسول القصة فقال: أما قوله: "إن الشجر قد أورك" فقد تسلّح القوم، وأما قوله: "إن النساء قد استنكت وخرزت القرب" فيقول: "قد اتّختت الشكا وخرزت القرب للأغزو، وأما قوله: "عزّوا جملي الأصهب" فيقول: ارتحلوا عن الصّتان، وأما قوله: "اركبوا ناقتي الحمراء" فيقول: انزلوا التّهناء، وكان القوم قد تهبّئوا لغزوهم، فخافوا أن ينذرهم، فأنذرهم وهم لا يشعرون، فجاء القوم يطلبونهم فلم يجنّوهم" ^(٢).

وهذا النص يشهد باستعمال الجاحظ لمصطلح الكناية حسب معناه اللغوي، لكنه في الوقت نفسه مرتبط بمعناه البلاغي ومندرج تحت المفهوم العام لهذه الوسيلة التعبيرية، لأن الكنائيات في النص:

- ١ - ستر للمعنى المراد.
 - ٢ - استعمال الألفاظ يريد بها المتكلم لازم معناها، لا معناها الذاتي المباشر.
 - ٣ - تحتمل أن تكون حقيقة من جهة أنها استعمال حقيقي للألفظ ومجازاً من حيث تعبيرها عن معنى آخر قريب من المعنى المقصود وذو علاقة دلالية به.
- وكذلك نلاحظ أن الجاحظ وعي نوعين من الكناية هما: (القريبة والبعيدة) وقد أشار إليهما أكثر علماء البلاغة بعده حين قسموها إلى قريبة وبعيدة. والقريبة هي: "أن تنتقل إلى مطلوبك من أقرب لوازمه إليه" ^(٣). والبعيدة هي: "أن تنتقل إلى مطلوبك من لازم بعيد بواسطة لوازم متسلسلة" ^(٤).

(١) الحيوان: ١٢٢ / ٣.

(٢) المصدر نفسه: ١٢٤ / ٣.

(٣) مفتاح العلوم، السكاكي، ص ١٩٠.

(٤) نفسه، ص ١٩٠ - ١٩١.

قال الجاحظ: " قالوا: حَيْثَا الْوَضَحُ، والوضح كناية عن النياض، والنياض كناية عن البرص، وأَوْضاح الخيل: ما فيها من النياض " (١)، إذ يصح عدّ هذا المثال من الكناية القريبة، إذ انتقلنا من الوضح إلى البرص، لا يقتضي مدًا عملية ذهنية بعيدة التخرج من اللازم إلى الملزوم.

ونجد وعي الجاحظ بالكناية البعيدة في أمثلة لم يتوخّ مدّها أصحابها ستر المعنى، الذي ترقّعوا عن التعبير عنه بشكل مباشر، وإدما تخيّلوا وعيروا عن تخيّلهم بلغة مبدعة سهّبة.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " هذا عدوّ شديدٌ كَلْبُهُ، قَلِيلٌ سَلْبُهُ " (٢)، فالانتقال من اللازم (المعنى المكنى به) إلى الملزوم (المعنى المكنى عنه) لا يتم في قول عمر إلّا بتلطّف وإعمال فكر، لأن الكلب يستدعي في ذهننا ضراوة الحيوان وشدّته الناتجتين عن الداء الذي أصابه، ثمّ ننزّل من هذا الذي ندرّكه من الكلام بشكل مباشر إلى المعنى المرتب عليه الخاضع لظروف الخطاب، وهو أن عمر وصف العدوّ بداء الكلب أو جنونه، ومعناه أنه شديد قاسٍ، وربما لا نحتاج إلى هذا الانتقال من المعنى المباشر إلى المعنى المراد، عبر معنى ضمني في قوله: " قليل سلبه ". لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، سواء فيما يتعلّق بالكلب أو السلب، بل يتعداه إلى كناية بعيدة أرادها عمر، وهي نهيّه عن أن يتعرّض المخاطب إلى هذا العدو أو يحاربه، لأن حربه شديدة وغائمه قليلة (٣) وقد أدرك ذلك الجاحظ قائلًا: " فذهي كما ترى عن التعرّض لهم، بأحسن كناية " (٤).

والكناية عند الجاحظ أسلوب تقتضيه الضرورة، فهو عنده أبلغ من التصريح إذا كان التصريح لا يحسن، أو كان متعذرًا، والتصريح أبلغ إذا كانت الكناية لا تفي بالغرض، يقول في ذلك " وقال بعض أهل الهند: ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإقصاد بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإقصاد أوعر طريقة " (٥).

(١) البرصان والعرجان، ص ٩٤.

(٢) رسائل الجاحظ: ١ / ٧٦.

(٣) ينظر: الرؤية البيانية عند الجاحظ، إدريس بلمليح، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٤) رسائل الجاحظ: ١ / ٧٦.

(٥) البيان والتبيين: ١ / ٨٨.

وبذلك فإن الجاحظ يملك في دراسة أسلوب الكناية مسائل مختلفة مع تبيين قيمتها التعبيرية، ومواقع صلاحيتها وعدم صلاحيتها في الاستعمال اللغوي^(١).
أما ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) فقد خصص في كتابه (تأويل مشكل القرآن) باباً سماه (الكناية والتعريض) وقد أطل الحديث فيه عنها. والكناية عنده أنواع، ولها مواضع يقتضيها مقتضى الحال والسياق. قال: "والكناية أنواع، ولها مواضع، فمهما ان تكني عن اسم الرجل بالأبوة لتزيد في الدلالة عليه إذا أنت راسلته، أو كتبت إليه، إذ كانت الأسماء قد تنفق، أو لتعظمه في المخاطبة بالكنية، لأنها تدل على الخنكة وتُخبر عن الاكتهال"^(٢).
فالكناية عنده ذات مدلول لغوي، بمعنى عدول عن لفظ إلى آخر دال عليه لظاهر المعنى بما يُلحق زيادة في الدلالة وتعظيماً للمخاطب.

وعلى الرغم من أن ابن قتيبة لم يتقدم إلا مفهوماً لغوياً للكناية إلا أنه عرض لكثير من شواهدا وبخاصة الكنايات القرآنية وحللها تحليلاً يدل على أنه كان يعي وظيفة قيمتها وقیمتها في التعبير عن المعاني. قال في قوله - تعالى - ﴿وَبَايَعَهُمْ قَاهِلٌ﴾^(٣) أي طهر نفسك من الذنوب، فكنى عن الجسم بالذباب، لأنها تشتمل عليه^(٤) وقال في قوله - تعالى - ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا لَّأَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ﴾^(٥) قال (قتادة) و (الحسن): اللهو المرأة. وقال ابن عباس: هو الولد.

والتفسيران متقاربان، لأن امرأة الرجل لهو، وولده لهو، ولذلك يُقال: امرأة الرجل وولده ریحانة. وأصل اللهو: الجماع، فكنى عنه باللهو، كما كنى عنه بالمر، ثم قيل للمرأة لهو لأنها تُجامع^(٦).

وقال في قوله - تعالى - ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾^(٧) أي يمسكون عن العطية، وأصل هذا: أن المُعطي بيده يمدّها ويبسطها بالعطاء، فقيل لكل من بخل ومنع: قد قبض يده. ومنه قوله - تعالى - ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾^(٨) أي: مُمَسِّكَةٌ. ومنه

(١) ينظر: البلاغة عند الجاحظ، د. أحمد مطلوب، ص ٩٨.

(٢) تأويل مشكل القرآن، ص ٢٥٦.

(٣) سورة المدثر، الآية: ٤.

(٤) تأويل مشكل القرآن، ص ١٤٢.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١٧.

(٦) تأويل مشكل القرآن: ٢٦٢-٢٦٣.

(٧) سورة التوبة، من الآية: ٦٧.

(٨) سورة المائدة، من الآية: ٦٤.

قوله - تعالى -: ﴿ وَكَلَّمْنَا أُنْثَىٰ لَمَّا أَحْبَبَتْ إِبْرَاهِيمَ ۚ ﴾^(١) أي: نذروا من الهلاك. وأصل هذا: أن العدو إذا أحاط بقوم أو بلد فحاصره فقد نذر أهلها من الهلكة^(٢).

وذكر (التعريض) وعده لونا من ألوان الكناية، وقال فيه: "والعرب تستعمله في كلامها كثيراً، فتبلغ إرادتها بوجه هو الطف وأحسن من الكشف والتصريح"^(٣)، وضرب له أمثلة قرآنية، فمن ذلك ما خبر الله ﷺ من نبي الحَصَم: ﴿ إِذْ تَحَلَّوْا عَلَىٰ نَارٍ وَكُفَّ عَنْهُمْ قَالُوا لَا تَحْفَظْ حَصَمَانِ بَعْنُ بَعْضَانٍ بَعْضٌ فَتَكْرِيْنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَحْلُطْ وَأَمَدْنَا إِلَيْكَ سَوَاءَ الْفَصْرِطِ ۖ إِنَّ مَدَا أَيْ لَمْ يَنْتَعِ وَمَعُونٌ نَجْمَةٌ وَلَيْ نَجْمَةٌ وَجِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۖ ﴾^(٤) إنما هو مثل ضربه الله ﷻ ونبيه على خطيئته به. وورى عن النساء بذكر النعاج، كما كنى الشاعر عن جارية بشاة، وكنى الآخر عن النساء بالقُورُورُ^(٥).

ومن التعريض قوله - تعالى -: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ۖ ﴾^(٦) أراد: بل فعله الكبير، إن كانوا ينطقون فسلوهم، فجعل النطق شرطاً للفعل، أي إن كانوا ينطقون فقد فعله، وهو لا يفعل ولا ينطق^(٧).

ويقدم أبو العباس المبرد (ت ٢٨٥ هـ) في كتابه (الكامل) دراسة عن الكناية أقسمت بالتصنيف العلمي.

يقول المبرد: "والكلام يجري على ضروب، فمنه ما يكون في الأصل لنفسه، ومنه ما يُكنى عنه بغيره، ومنه ما يقع مثلاً، فيكون أبلغ في الوصف"^(٨). وقسم الكناية ثلاثة أقسام، قال: "والكناية تقع على ثلاثة أضرب، أحدها: التعمية والتغطية، كقول النابغة الجعدي:

أَكْنِي بِغَيْرِ اسْمِهَا وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ حَقَائِقَ كُلِّ مُكْتَنِمٍ^(٩)
الكناية في هذا الضرب تعني الستر وعدم التصريح (أكني بغير اسمها).

(١) سورة يونس، من الآية: ٢٢.

(٢) تأويل مشكل القرآن، ص ٢٦٧.

(٣) نفسه، ص ٢٦٣.

(٤) سورة ص، الأيتان: ٢٢، ٢٣.

(٥) تأويل مشكل القرآن: ٢٦٦ - ٢٦٨.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٦٣.

(٧) تأويل مشكل القرآن: ٢٦٨.

(٨) الكامل: ٢ / ٢٩٠.

(٩) نفسه: ٢ / ٢٩٠.

أما الضرب الثاني، وهو الضرب الأحسن عند المبرد: "ويكون من الكناية - وذلك أحسنها - الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره، قال الله - وله المثل الأعلى -: ﴿إِنَّمَا لَكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ الرَّحْمَنُ إِلَهُكُمْ﴾ ^(١) وقال: ﴿أَوَلَمْ نَسْمِ الْأَنْثَاءَ﴾ والملازمة في قول أهل المدينة - مالك وأصحابه - غير كناية، وإنما هو التمس بعينه كذلك قولهم في قضاء الحاجة: جاء فلان من الغائط، وإنما الغائط الوادي، وقال الله ﷻ في المسيح بن مريم وأمه (صلى الله عليهما): ﴿كَانَا يَاصِلَيْنِ الْفَلَاحِ﴾ ^(٢) وإنما هو كناية عن قضاء الحاجة. وقال - تعالى -: ﴿وَقَالُوا لِمَوْلَاهُم لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ ^(٣) وإنما هو كناية عن القروج ^(٤)." (٥)

واستحسن المبرد لهذا الضرب من الكناية راجع إلى أنه يستر اللفظ الخسيس المعير عن معنى يدل عليه غيره، وهذا في حد ذاته يمثل محاولة من المبرد لدراسة الكناية دراسة تقوم على الموازنة بين دوافعها.

والضرب الثالث من الكناية: (التفخيم والتعظيم)، ومنه اشتقت (الكنية) وهو أن يُعْظَم الرجل من يدعى باسمه، ووقعت في الكلام على ضربين:

"وقعت في الصبّي على جهة التناول، بأن يكون له ولد ويدعى بولده كناية عن اسمه، وفي الكبير أن يُنادى باسم ولده صيغة لاسمه" ^(٦). وتعني الكناية ستر الاسم وإخفائه وهو يقوم على المفهوم اللغوي وهو الكنية.

وعلى الرغم من أن المبرد لم يعرف الكناية تعريفاً اصطلاحياً، إلا أنه في دراسته لها حاول فيها الموازنة بين ضروريها المتفاوتة بين حسن وأحسن، وأول من حاول تقسيمها إلى ثلاثة أضرب، وإن كان هذا التقسيم لا يرجع إلى تقسيم الجنس إلى أنواعه، وإنما هي ضروري لما توديه الكنية من فائدة في صناعة الكلام ^(٧).

وتدسم دراسة البلاغة بطابع التخصص عند ابن المعز (ت ٢٩٦ هـ) في كتابه (البدیع) وتصبح الكناية عنده واحدة من محاسن الكلام والشعر فقال: "ومنها - يقصد

(١) سورة البقرة - من الآية: ١٨٧.

(٢) سورة المائدة، من الآية: ٧٥.

(٣) سورة فصلت، من الآية: ٢١.

(٤) الكامل: ٢ / ٢٩١ - ٢٩٢.

(٥) نفسه: ٢ / ٢٩٢.

(٦) ينظر: علم البيان، د. بدوي ضيقة، ص ٢٣، وينظر: الأسلوب الكناني نشأته تطوره بلاغته، د. محمود السيد شيخون، ص ٩.

محاسن الكلام - التعريض والكناية. قال علي عليه السلام لعقيل، ومعه كبش له: أحد الثلاثة أحق. فقال عقيل: أما أنا وكبشي فعقلان. وكان عروة بن الزبير إذا أسرع إليه إنسان بسوء لم يجبه ويقول: إني لأتركك رفعاً لنفسك، فحجى بينه وبين علي بن عبد الله بن عباس كلام فأسرع عروة بسوء فقال: إني لأتركك لما تترك الناس له فاشتد ذلك على عروة.

وقال بعض ولد العباس بن محمد لاينه: يا ابن الراذية، فقال: **﴿وَالرَّازِيَةُ لَا يَكْفُحُهَا إِلَّا ذَا نَبْءٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾** (١) ج " (٢) - (٣) مُضْمِنًا الآية الكريمة على سبيل التعريض.

وما ذكره ابن المعتز من أمثلة هي أدخل في التعريض مذهبها في الكناية وإن كانت العلاقة بينهما علاقة عموم وخصوص، إلا أن فضله - على الرغم من أنه لم يقدم تعريفاً للكناية - يتمثل في أنه أوقف كتابه على موضوع البلاغة خلافاً لمن قبله كالجاحظ والمبرد اللذين اهتمتا دراسة الكناية عندهما بسمه لغوية حيث أريد بها غالباً (الستر والخفاء) ولكنها لم تخل من العمق والنضج ومن بعض الملاحظات التي حددت التعريف الاصطلاحي للكناية فيما بعد.

ووقف ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) في تفسيره على كثير من الكنايات القرآنية، وأشار إلى المكنى به والمكنى عنه فيها، وهو يعزز ما يذهب إليه أهل التأويل فيها. قال - تعالى - في الآية الكريمة: **﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ الرِّفْتُ إِلَيَّ فَسَابِكُمْ﴾** ، فأما الرقت فإنه كناية عن الجماع في هذا الموضوع يمثل الذي قلنا في تأويل الرقت قال أهل التأويل " (٤). وقال في قوله - تعالى - : **﴿مَنْ لِيَأْسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَأْسَ لَهُنَّ﴾** كما قال نابغة بن جعدة: إذا ما الضجيج ثنى عطفها - نداعت فكأنت عليه لباساً ويروي: (تثنت)، فكنى عن اجتماعهما متحدين في فراش واحد باللباس، كما يكنى بالثياب عن جسد الإنسان (٥).

وقال في الآية: **﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْمُكَّامِرِ لِيَأْكُلُوا مِنْ أَمْوَالِ الْفَاسِقِينَ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** (٦) يعني - تعالى ذكره - بذلك: ولا يأكل بعضكم مال بعض

(١) سورة النور ، من الآية : ٣ .

(٢) سورة النور ، من الآية : ٣ .

(٣) البنيع ، ص ٦٤ .

(٤) جامع البيان في تفسير القرآن: ٩٤ / ٢ .

(٥) نفسه: ٩٤ / ٢ .

(٦) سورة البقرة ، الآية: ١٨٨ .

بالباطل، فجعل - تعالى ذكره - بذلك أكل مال أخيه بالباطل كالأكل مال نفسه بالباطل، ونظير ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (١) وقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (٢) بمعنى لا يلزم بعضهم بعضاً، ولا يقتل بعضهم بعضاً - لأن الله تعالى ذكره - جعل المؤمنين أخوة، فقتل أخيه كقتل نفسه، ولا مزمه كلامه نفسه.

وكذلك تفعل العرب، تُكنى عن أنفسها بأخوانها، وعن أخوانها بأنفسها فتقول: أخي وأخوك أننا أبطش، نعي: أنا وأنت نصطرع، فننظر أننا أسد، فيكني المتكلم عن نفسه بأخيه، لأن أخا الرجل عندها كنفسه (٣).

وقال في الآية: ﴿وَأَنْ يَمْتَلِكُوا أَمْوَالَكُمْ بِذُنُوبِكُمْ لَا يَصْرُوهَا﴾ (٤) فقوله ﴿يَمْتَلِكُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ كناية عن انهزامهم، لأن المتهم يحول ظهره إلى جهة الطالب، هرباً إلى ملجأ وموئل ينل إليه منه، خوفاً على نفسه، والطالب في أثره، فدير المطلوب - حينئذٍ - يكون محاذي وجه الطالب الهازمة (٥).

ويذكر ابن عبد ربّه (ت ٣٢٨ هـ) في كتابه (العقد الفريد) عدداً من الكنايات القرآنية في الباب الذي خصصه للكناية والتعريض والذي أورد فيه أنواعاً منها، فقال: "باب الكناية والتعريض: من أحسن الكناية اللطيفة التكنية عن المعنى الذي يقبح ظاهره وقد كنى الله - تعالى - في كتابه عن الجماع بالملامسة، وعن الحدث بالغاطة قال - تعالى -: ﴿أَوْجَسَاءُ أَحَدُكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ والغائط: الفحص وجمعه غيطان. ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الظُّلُمَاتِ...﴾ (٦) وإذا كنى به عن الحدث. وقال - تعالى -: ﴿وَأَضْمَمْتُمْ إِلَيْكُمْ إِلَهُكُمْ فَتُخْرِجُ بَيْعَتَهُ مِنْ قَبْرِهِمْ...﴾ (٧) فكنى بالسوء عن البرص (٨).

وأردف ابن عبد ربّه هذا الباب بباب: (الكناية يورى بها عن الكذب والكفر)، وذكر له شواهد هي من التورية أو الإيهام والتضليل المتعمد المقصود وليس من الكناية، من ذلك: "ولما ولي الواثق وأقعد للناس أحمد بن أبي دواد للمحنة في القرآن ودعا إليه الفقهاء، أتى

(١) سورة الحجرات، من الآية: ١١.

(٢) سورة النساء، من الآية: ٢٩.

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن: ٢ / ١٠٦، ١٠٧.

(٤) سورة آل عمران، من الآية: ١١١.

(٥) جامع البيان في تفسير القرآن: ٤ / ٣١.

(٦) سورة الفرقان، من الآية: ٧.

(٧) سورة طه، من الآية: ٢٣.

(٨) العقد الفريد: ٢ / ٤٦٢، ٤٦٣.

فيهم بالاحارث بن مسكين، فقيل له: أشهد أن القرآن مخلوق ؟ قال: أشهد أن التوراة والانجيل والزبور والقرآن، هذه الأربعة مخلوقة، ومدا أصابعه الأربع، فعرض بها وكفى عن خلق القرآن، وحلص منهجه من القتل وعجز أحمد بن نصر - فقيه بغداد - عن الكناية فلماها فقتل وصليب " (١)

وأمثلة هذا الباب كأمثلة الباب - أيضاً - الذي جاء به بعنوان: الكناية عن الكذب في طريق المدح " فهي من التورية والإيهام وليس من الكناية، من ذلك الذي أورده: " ودخل على عيسى بن موسى وعنده ابن شيرمة، فقال له: أعرف هذا الرجل ؟ - وكان رسي عنده بريية - فقال: إن له بيتاً وقدماً وشرفاً، فخلّى سبيله، فلما انصرف ابن شيرمة، قال له أصحابه: أكنت تعرف هذا الرجل ؟ قال: لا، ولكنني عرفت أن له بيتاً يلقى إليه، وقدماً يمشي عليها، وشرفاً: أذناه ومنكباه " (٢)، وأردف هذا كله بباب: " الكناية والتعريض في طريق الدعاية "، قال فيه: " سئل ابن سيرين عن رجل، فقال: توفي بالراحة، فلما رأى جزع السائل، قال: ﴿ اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ مِنْ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَاسِكِهَا ﴾ (٣) وإنما أردت بالوفاة: التوم " (٤)

وبذلك خلط ابن عبد ربّه بين الكناية والتورية. ولم يدخل في باب الكناية إلا ما ذكره من آيات قرآنية كريمة.

ثم نجد أسلوب الكناية يتطور من مفهومه اللغوي إلى المفهوم الاصطلاحي عند قدامة ابن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) في كتابه (نقد الشعر)، وهو أول من عرفها باسم (الأرداف) ولم يسمها كناية، وذلك في دراسته لأنواع ائتلاف اللفظ والمعنى. قال: " ومن أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى، وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل يلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دلّ على التابع أبان عن المتبوع " (٥)

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٤٦٥.

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٤٦٦ - ٤٦٧.

(٣) سورة الزمر، من الآية: ٤٢.

(٤) العقد الفريد: ٢ / ٤٦٧.

(٥) نقد الشعر، ص ١٥٧.

وهذا التعريف للأرداف هو تعريف (الكناية) عند الدارسين بعده كأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) (١) وابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) (٢) وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) (٣) وغيرهم (٤) والشواهد التي سبقها للأرداف هي من شواهد الكناية عند البلاغيين.

ثم يحاول قدامة أن يجلي هذا التعريف للأرداف بأبيات شعرية يبين فيها المعنى الذي ينطوي تحت هذا الفن، من ذلك قول عمر بن أبي ربيعة:

بعبدٌ سهوى القرط إمّا لنسوف لأيوها وإمّا عبدٌ شمس وهائم

يقول: "وإنما أراد الشاعر أن يصف طول الجيد فلم يذكره بلفظه الخاص به، بل أتى بمعنى هو تلخ لطول الجيد، وهو بعد سهوى القرط" (٥).

ويقول في بيت امرئ القيس:

ويضحى فليت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنطق عن تفصيل

وإنما أراد أن يذكر ترفقه هذه المرأة وأن لها من يكتفيها فقال: "نؤوم الضحى" وأن فليت المسك يدق إلى الضحى فوق فراشها، وكذلك سائر البيت أي هي لا تنطق لتخدم ولكنها في بيتها متفضلة" (٦).

وتؤكد الدراسة التي قام بها قدامة بشواهدنا نجدها في دراسة الكناية عند من جاء بعده.

وقد أشار قدامة إلى الوساطين المكنى به والمكنى عنه وأثرها في وضوح المعنى وغموضه، قال: "ومن هذا النوع ما يدخل في الأبيات التي يسمونها أبيات المعاني، وذلك إذا ذكر الردف وحده، وكان وجه اتباعه لما هو ردف له غير ظاهر، أو كانت بينه وبينه أرداف آخر، كأنها وسائط وكثرت حتى لا يظهر الشيء المطلوب بسرعة إذا غمض، ولم يكن داخلاً في جملة ما ينسب إلى جيد الشعر إذ كان من عيوب الشعر الانغلاق وتعدّر العلم بمعناه" (٧).

- (١) كتاب الصنائع، ص ٣٥٠.
- (٢) سر القصاحة، ص ٢٢١.
- (٣) دلائل الإعجاز، ص ١٠٥.
- (٤) العمدة: ١ / ٣١٣ - ٣١٤ مثلاً.
- (٥) نقد الشعر، ص ١٥٧ - ١٥٨.
- (٦) نفسه، ص ١٥٨.
- (٧) نقد الشعر، ص ١٥٩.

وفي ضوء هذه الوسائط التي أشار إليها قدامة يؤسس البلاغيون المتأخرون - خاصة - معياراً لجودة الكناية ورداءتها، ومصطلحات توصف بها الكناية بحسب تلك الوسائط كالتلويح والرمز والإيماء والإشارة (١).

وبذلك يُعدّ قدامة أول من أعطى التعريف الاصطلاحي لفن الكناية، متجاوزاً بذلك الدراسات السابقة عليه والتي كادت لا تتجاوز المفهوم اللغوي للكناية.

أما أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) فنجدّه يفرّق بين المفهوم اللغوي للكناية ومفهومها الاصطلاحي، إلا أنها موزعة بين عدة مصطلحات هي: (الكناية، والتعريض، والأرداف، والمسائلة) (٢).

ويعرّف الكناية والتعريض - وكأيهما شيء واحد عنده - بقوله: "وهو أن يُكنى عن الشيء ويعرّض به ولا يصرّح، على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء، كما فعل الغنيري إذ بعث إلى قومه بصرّة شوك وصرة رمل وحظلة يريد: جاءكم بلو حظلة في عدد كثير ككثرة الرمل والشوك" (٣).

مفهوم الكناية هنا مفهوم لغوي، ويعني: السرّ والخفاء. ومن الشواهد القرآنية التي أوردها لها، قوله - تعالى -: ﴿أَوَجَلُّ أَمَدٍ بِكُمْ مِنَ الْقَائِلِ﴾ قال: "فالغائط كناية عن الحاجة، وملامسة النساء كناية عن الجماع" وقوله - تعالى -: ﴿وَقُرْشٍ مَرْجُوعَةٍ﴾ (٤) قال "كناية عن النساء" (٥).

في حين نجد التعريف الاصطلاحي للكناية في تعريفه للأرداف كما عرّفه قدامة من قبل، قال أبو هلال: "أن يُريد المتكلم الدلالة على معنى فيترك اللفظ الدال عليه، الخاص به، ويأتي بلفظ هو رُفْءه وتابع له، فيجعل عبارة عن المعنى الذي أراده" (٦).

ومن الشواهد القرآنية التي أوردها، قوله - تعالى -: ﴿فَبِمَنْ قَلْبُكَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٧) قال: "وقصور الطرف في الأصل موضوعة للعفاف على جهة التواضع والأرداف، وذلك أن

(١) ينظر: مفاتيح العلوم، ص ١٩٤، وستكلم عليها بالتفصيل في موضعها.

(٢) ينظر: كتاب الصناعتين، ص ٣٥٠ - ٣٧٠.

(٣) نفسه، ص ٣٦٨. وينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب: ٣ / ١٥٧.

(٤) سورة الواقعة، الآية: ٣٤.

(٥) كتاب الصناعتين، ص ٣٦٨.

(٦) كتاب الصناعتين، ص ٣٥٠. وينظر: نقد الشعر، ص ١٥٧، للمقارنة.

(٧) سورة الرحمن، من الآية: ٥٦. وينظر: سورة الصفات، الآية: ٤٨، وسورة ص، الآية: ٥٦.

المرأة إذا عَقَّتْ قَصْرَتْ طرفها على زوجها، فكان قَصُور الطرف رَدْفاً للعَقاف، والعَقاف رَدْف وتابع لقصور الطرف " (١).

كذلك نجد صوراً من الكناية عند العسكري في فصل (المماثلة) وقد عرّفها بقوله: " المماثلة: أن يريد المتكلم العبارة عن معنى، فيأتي بلفظ يكون موضوعاً بمعنى آخر، إلا أنه ينبيء إذا أوردته عن المعنى الذي أراد، كقولهم: " فلان ثَقِي الثوب "، يريدون به أنه لا عيب فيه. وليس موضوع ثقاب الثوب البراء من العيوب، وإنما استعمل فيه تمثيلاً " (٢).

وأورد للمماثلة شواهد من القرآن الكريم منها قوله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ (٣) قال: " فمَثَل البِخِيلِ السَّمَنَعِ مِنَ البِذْلِ بالمَغْلُولِ، لسعني بجمعهما، وهو أن البخيل لا يَمُدُّ يَدَهُ بالعطية فشبَّهه بالمَغْلُولِ " (٤)، وقوله - تعالى -: ﴿ كَأَنِّي تَقَعَّبْتُ عِزَّهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةِ أَنْكُنَّا ﴾ (٥)، قال: " فمَثَل العمل ثم إحباطه بالنقض بعد الفشل " (٦). وقوله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَمْرَكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدْ بَعَدَ ثَبُوتُهَا ﴾ (٧) وأورد قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نِجْمَةً وَهُوَ إِلَهُكُمْ وَإِنَّهٗ عَلِيمٌ ﴾ (٨) وهو ليس من باب المماثلة، وإنما هو كناية عن موصوف (النساء)، أي: كَذَى بالنتعاج عن النساء ولم يَدَّضِح في هذه الكناية التمثيل. فهو قد خلط بينهما كما خلط الكناية بالتعريض إلى حدٍّ لم يَدِين القارئ ما يراه العسكري كناية وما يراه تعريضاً (٩).

وهذا الخلط في المصطلحات نجده عند ابن رشيقي (ت ٤٥٦ هـ) أيضاً في دراسته للكناية وقد جعلها في باب المجاز وباب الإشارة.

في باب السجاز يقول: " وكذلك الكناية في مثل قوله **يُنَادِي بِأَخْبَارٍ** عن عيسى ومريم - عليهما السلام -: ﴿ كُنَّا بِأَعْيُنِنَا **وَنَنْظُرُ إِلَيْكَ** ﴾ (١٠). كناية عما يكون عنه من حاجة

(١) كتاب الصناعتين ، ص ٣٥٠.

(٢) نفسه ، ص ٣٥٣. وقارن بقائمة في نقد الشعر ، ص ١٥٩ - ١٦٠.

(٣) سورة الإسراء ، من الآية: ٢٩.

(٤) كتاب الصناعتين ، ص ٣٥٤.

(٥) سورة النحل ، من الآية: ٩٢.

(٦) كتاب الصناعتين ، ص ٣٥٤.

(٧) سورة النحل ، من الآية: ٩٤.

(٨) سورة ص ، من الآية: ٢٣.

(٩) ينظر: كتاب الصناعتين ، ص ٣٦٨.

(١٠) سورة المائدة ، من الآية: ٧٥.

الإنسان، وقوله - تعالى - حكاية عن آدم وحواء - صلى الله عليهما -: ﴿فَلَمَّا تَفَسَّحَا﴾ (١)
كناية عن الجماع (٢).

ثم يذكر الكناية في باب الإشارة، والإشارة عنده تشمل عدة مصطلحات أغلبها يندرج
تحت مفهوم الكناية الاصطلاحي مثل: (التخيم والإيماء والتعريض والتلويح والكناية
والتمثيل والرمز والسمة والتورية والتتبع).

والتتبع عنده الاراداف عند قدامة بن جعفر، قال ابن رشيق: "ومن أنواع الإشارة
التتبع، وقوم يسمونه التجاوز، وهو: أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيتجاوز، ويذكر ما يتبعه
في الصفة وينوب عنه في الدلالة عليه، وأول من أشار إلى ذلك أسرو القيس يصف امرأة:
ويُضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنطق عن تفصل
فقوله: "يُضحى فتيت المسك" تتبع، وقوله "نؤوم الضحى" تتبع ثانٍ، وقوله "لم
تنطق عن تفصل" تتبع ثالث، وإذا أراد أن يصفها بالترفة، والنعمة، وقلة الامتهان في
الخدمة، وأنها شريفة مكفئة المؤنة، فجاء بما يتبع الصفة ويدل عليها افضل دلالة" (٣).

ونجد المعنى اللغوي للكناية عنده في التورية التي يقول فيها: "وأما التورية في
أشعار العرب فإذا هي كناية: بشجرة، أو شاة، أو بيضة، أو ناقة، أو مهرة، أو ما شاكل
ذلك كقول المسنّب بن غلس:

دعا شجر الأرض داعيهم لينصرة السدر والأثاب

فكنى بالشجر عن الناس، "يقولون في الكلام المنثور: جاء فلان بالشوك والشجر،
إذا جاء بجيش عظيم" (٤).

وأكثر ما أورده من شواهد للتورية هو من الكناية، من ذلك إيراد لقوله - تعالى -: ﴿
إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْتُونَ نَجْمَةً وَلِيَّ نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ قال: "كناية بالنعجة عن المرأة" (٥) ويبدو أن
المعنى اللغوي للتورية والكناية الذي يشتركان فيه وهو (الستر والخفاء) هو الذي جعل ابن
رشيق وغيره يخلط بينهما ويسمي أحدهما بالآخر (٦).

(١) سورة الأعراف، من الآية: ١٨٩.

(٢) العمدة: ١ / ٢٦٨.

(٣) نفسه: ١ / ٣١٢-٣١٤.

(٤) العمدة: ١ / ٣١١.

(٥) نفسه: ١ / ٣١٢.

(٦) ينظر، ص ٢٦ من: (الهامش).

وعقد ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) في كناية (سر الفصاحة) دراسة للكناية امتازت بالعمق والتحليل الأدبي لها لتجلية قيمتها التعبيرية والجمالية من خلال موازنتها مع غيرها من التعبير في حدود النصوص التي تناولها.

وهو قد درس الكناية في موضعين:

الأول: تحت اسم الكناية، وذلك في دراسته للأجناس التي يجب فيها وضع الألفاظ موضعها، قال: "ومن هذا الجنس حسن الكناية عما يجب أن يُكنى عنه في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح، وذلك أصل من أصول الفصاحة، وشرط من شروط البلاغة" (١).
فالكناية عنده أصل من أصول الفصاحة، وشرط من شروط البلاغة، والكناية أسلوب له مقامه وغرضه الذي يحسن فيه، والعدول عنه في المكان الذي يقتضيه يؤدي إلى فقدان الأسلوب الفصاحة والبلاغة. قال: "وإنما قلنا في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح، لأن مواضع الهزل والمجون وإيراد التوارد يليق بها ذلك، ولا تكون الكناية فيها مرضية، فإن لكل مقام مقالاً، ولكل غرض فناً وأسلوباً" (٢).

ويورد ابن سنان مما يستحسن من الكنايات ومما يستقبح منها، قال: "ومما يستحسن من الكنايات قول امرئ القيس:

فصيرنا إلى الحسنى ورقّ كلامن
لأنه كنى عن المباشرة بأحسن
ورضت فذلت صغية أي إذلال
ما يكون من العبرة.
ومن هذا الفن أيضاً منت حسن الكناية قول أبي الطيب:
تدعي ما ادعيت من ألم الشوق إليها والشوق حيث التحول
لأنه كنى عن كذبها فيما ادعته من شوقها بأحسن كناية، وأضداد هذا من قبح العبارات قول أبي الطيب:

أني على شغفي بما في خمره
الأعف عما في سراويلاتها (٣)
فالحسن عند ابن سنان في التعبير الكنائي أن يُكنى عن المعنى الذي لا يحسن في التصريح بالألفاظ أخرى لا يدل ظاهراً عليه، والقبح عنده خلاف ذلك وهو التصريح باللفظ

(١) سر الفصاحة، ص ١٥٥، ١٥٦. وينظر: المبيان والتبيين: ١ / ٨٨.

(٢) سر الفصاحة، ص ١٥٦.

(٣) سر الفصاحة، ص ١٥٦، ١٥٧.

المفحش كما فعل المتنبي. وهذا هو ما ذهب إليه المبرد من قيل في أن " من الكناية - وذلك أحسنها - الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره " (١).

كما نجد الكناية عند ابن سنان في نعوت البلاغة والفصاحة، وهو يتابع في هذا قدامة بن جعفر في التحليل والتعريف، قال: " ومن نعوت البلاغة والفصاحة أن تراد الدلالة على المعنى، فلا يستعمل اللفظ الخاص الموضوع له في اللغة، بل يؤتى بلفظ يدبغ ذلك المعنى ضرورة، فيكون في ذكر التابع دلالة على المتبوع، وهذا يُسمى الارداق والتبديع، لأنه يؤتى فيه بلفظ هو ردف اللفظ المخصوص بذلك المعنى وتابعه " (٢).

ويقدم الخفاجي أمثلة لهذا النوع من الكناية ويحللها تحليلًا يجلي فيه القيمة التعبيرية له، من ذلك تحليله لبنت عمرو بن ربيعة:

بعيدة مهوى القُرط إِمَّا لِنَوَقِلْ أَبَوْهَـا وَإِمَّا عَبْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمٌ

" فإنه إنما أراد أن يصف هذه المرأة بطول العنق، فلو عبّر عن ذلك باللفظ الموضوع له لقال - طويلة العنق - فعدل عن ذلك وأتى بلفظ يدل عليه وليس هو الموضوع له، فقال - بعيدة مهوى القُرط - فدل بعيد مهوى قرطها على طول الجيد، وكان في ذلك من المبالغة ما ليس في قوله - طويلة العنق - لأن بعد مهوى القُرط يدل على طول أكثر من الطول الذي يدل عليه - طويلة العنق - لأن كل بعيدة مهوى القُرط طويلة العنق، وليس كل طويلة العنق بعيدة مهوى القُرط، إذا كان الطول في عنقها يسيرًا، وهذا موضع يجب فهمه " (٣).

فهو يوازن بين التعبير لو جاء مصرحاً بطول العنق، والتعبير الكنائي (بعيدة مهوى القُرط) لسببين قيمة التعبير الكنائي والمبالغة التي يحققها مما لا نجده في التعبير الحقيقي الصريح.

ومثل هذه الموازنات تكلل على نضج دراسته للكناية، من ذلك تحليله لبنت البختري، قال: " ومن هذا الفن من الارداق قول أبي عبادة:

فَأَوْجَزُهُ فَأَضْلَلَتْ تَصْلَهُ بِحَبِّ يَكُونُ اللَّبُّ وَالرَّغَبُ وَالْحَبْدُ

(١) ينظر: ص ١٩ من:.

(٢) سر الفصاحة، ص ٢١٣، وثق الشعر، ص ١٥٧.

(٣) سر الفصاحة، ص ٢٢١.

لأنه أراد - القلب - فلم يعبر عنه باسمه الموضوع له، و عدل إلى الكناية عنه بما يكون اللب والرعب والحقد فيه، وكان ذلك أحسن لأنه إذا ذكره بهذه الكنايات كان قد دلّ على شرفه وتميزه من جميع الجسد بكون هذه الأشياء فيه، وأنه أصاب هذا المرمى في أشرف موضع منه، ولو قال - أصبته في قلبه - لم يكن في ذلك دلالة على أن القلب أشرف أعضاء الجسد، فعلى هذا السبيل يحسن الإرداف " (١)

ورغم هذا التحليل الذي يبين قيمة الكناية في التعبير عن المعنى، إلا أن الخفاجي يفصل بين الكناية والإرداف ولكل منهما موضعه الخاص به. والكناية عنده مقصورة على ما يستقبح ذكره من الألفاظ " (٢) وهذه النظرة في دراسة الكناية تدعّ غرضاً واحداً من أغراضها وليست هي مفهومها العلم، وهي نظرة لغوية تقوم على ستر ما يستقبح ذكره - من الكلام - وتضع الكناية في موضع ضيق محتود يفصل بينها وبين (الإرداف) الذي هو معناه الاصطلاحي عند البلاغيين " (٣)

وسبب ذلك راجع إلى أن الكناية عنده ذات معنى لغوي لستر ما يستقبح ذكره وأما الإرداف وهو المعنى الاصطلاحي، فهو عنده من النعوت، فعمر بن أبي ربيعة بنعت صاحبه (يبعد مهوى القرط)، والبدتري يصف القلب بأنه مكنن اللب والرعب والحقد، وأن في الإرداف من المبالغة في الوصف ما لا يكون في التعبير الصريح " (٤)

إن دراسة الخفاجي للكناية مهّدت لمرحلة جديدة في دراستها، وذلك على يد عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) الذي أفاد قائدة كبيرة من الدراسات السابقة له، خصوصاً ما قدمه الخفاجي في تحليلاته لأسلوب الكناية، وما قدمه قدامة بن جعفر من قبل من حيث تحديد المفهوم الاصطلاحي للكناية وعدم الفصل بينه وبين المفهوم اللغوي.

خصص عبد القاهر الجرجاني فصلاً للفظ يُطلق والمراد به غير ظاهره، قال فيه: " أعلم أنّ لهذا الضرب اتساعاً، وثقناً لا إلى غاية، إلا أنه على اتساعه يدور في الأمر الأعم على شيئين: الكناية والمجاز. والمراد بالكناية ههنا: أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في

(١) سر القضاة، ص ٢٢٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص ١٥٦ وما بعدها.

(٣) الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، محمد الحسن علي الأمين أحمد، ص ٣٥٤.

(٤) ينظر: الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، ص ٣٦.

الوجود، فيوسيه به إليه، ويجعله دليلاً عليه " (١) فهو يُعرَف الكناية كما عَرَف قُدامة الإرداف من قبله، إلا أن عبد القاهر يسميها الكناية.

وقد أورد عبد القاهر أمثلة لهذا النوع من الكناية وأفاض في التحليل لإبيان قيمتها وبلاغتها وأثرها في تصوير المعنى المقصود. مثال ذلك قولهم: " هو طويل النجاد "، يريدون طويل القامة، و " كثير رماذ القدر " يعنون كثير القبرى، وفي المرأة: " نؤوم الضحى "، والمراد أنها مترفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنتم إلى الضحى " (٢) ويقول في بيت الشاعر:

وما يكف في من غيب فبيح بيان الكلب مهزول الفصيل

" فكما أنه إنما كان من فاخر الشعر ومما يقع في الاختبار لأجل أن أراد أن يذكر نفسه بالقبرى والضيافة فكفى عن ذلك بجبن الكلب وهزال الفصيل، وترك أن يصرح فيقول: قد عرف أن جنابي مألوف وكنبي مؤتب لا يهر في وجه من يغشني من الأضياف، وإني أنحر المتالي من إبلي وأدع فصاليها هزلي " (٣).

وكما تحدث عبد القاهر عن الكناية بطريق الإرداف في إثبات الصفة، تحدث عن نوع ثانٍ من أنواع الكناية اصطلاح عليه بالكناية عن تسمية، وهو أول من تحدث عنه وعلّى أسرارهِ ودقته في التعبير (٤)، يقول في هذا النوع من الكناية: " هذا فن من القول دقيق المسلك، لطيف المأخذ، وهو أنا نراهم كما يصنعون في نفس الصفة بأن يذهبوا بها مذهب الكناية والتعريض، كذلك يذهبون في إثبات الصفة هذا المذهب، وإذا فعلوا ذلك بدت هناك محاسن تملأ الطرف، ودقائق تعجز الوصف، ورأيت هناك شعراً شاعراً، وسجراً ساحراً، وبلاغة لا يكمل لها إلا الشاعر المغلق " (٥). ثم يُفسر هذا الكلام بقوله: " وتفسير هذه الجملة وشرحها أنهم يرسمون وصف الرجل ومدحه وإثبات معنى من المعاني الشريفة له فيدعون التصريح بذلك ويكونون عن جعلها فيه يجعلها في شيء يشتمل عليه ويتلبس به ويتوصلون

(١) دلائل الإعجاز، ص ١٠٥. والمقارنة، ينظر: نقد الشعر، ص ١٥٧.

(٢) نفسه، ص ١٠٥.

(٣) نفسه، ص ٢١٧.

(٤) ينظر: الصورة الأدبية، د. مصطفى ناصف، ص ١٥٢. وينظر: عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، د. أحمد مطلوب، ص ١٥٨.

(٥) دلائل الإعجاز، ص ٢٩٦.

في الجملة إلى ما أرادوا من الإثبات.. " (١) ويورد عبد القاهر أمثلة كثيرة على هذا النوع من الكناية، من ذلك قول زياد بن الأعجم:

إِنَّ السَّمَاةَ وَالْمَرْوَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُحِرَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ
يبين عبد القاهر قيمة الكناية في البيت بتصويرها المعنى بطريقة حسية مؤثرة من خلال موازنته للبيت بما يقابله من معنى على سبيل التصريح.

ثم يقول: " وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويح فجعل كونها في القبة المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه والإشارة إليه فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج إليه من الجزالة، وظهر فيه ما أنت ترى من الفخامة " (٢).

ومن هذا النوع أيضاً من الكناية (كناية عن نسبة) عنده ما ذكره في قوله: " ومما هو اثبات للصفة على طريق الكناية والتعريض قولهم: المجد بين ثوبيه، والكرم في برديه، وذلك أن قائل هذا يتوصل إلى إثبات المجد والكرم للممنوح بأن يجعلهما في ثوبه الذي يلبسه، كما يتوصل زياد إلى إثبات السماحة والمروءة والندى لابن الحشرج بأن يجعلهما في القبة التي هو جالس فيها " (٣).

وكل ما ذكره عبد القاهر من شواهد سواء للكناية عن صفة أو الكناية عن نسبة دارت في كتب البلاغة بعده قاطبة ولم يكذب يخرج أحد عنها.

إن قيمة الكناية في التعبير الأدبي عند عبد القاهر لا تنحصر في نطاق ضيق لا تخرج عن تغطية المعنى المستقش كما رأينا عند ابن سنان مثلاً، وإنما هي وسيلة حيوية من التعبير لكونها من الأساليب الإيحائية، فهي لا تدل على المعنى في صورة مباشرة، وإنما يشتغل بها ذهن ويعمل فيها الخيال.

في الكناية معنى يقود إلى معنى مقصود من وراء الألفاظ والتراكيب وهو الذي سماه عبد القاهر " معنى المعنى " ومن خلاله وضع عبد القاهر قيمة الكناية وأثرها في إيصال المعاني في أشكال وصور متعددة، يقول عبد القاهر: " الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة، فقلت: خرج زيد، وبالاتفاق عن عمرو فقلت: عمرو منطلق. وعلى هذا

(١) نفسه، ص ٢٩٦.

(٢) نفسه، ص ٢٩٧.

(٣) نفسه، ص ٢٩٩.

القياس.. وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن بذلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثنائية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل " (١)

ثم قدم عبد القاهر أمثلة للكناية والاستعارة والتمثيل، موضحاً فيها " معنى المعنى " من ذلك أمثله على الكناية: " ألا ترى أنك إذا قلت: هو كثير رماذ القدر، أو قلت: طويل النجاد، أو قلت في المرأة: نؤوم الضحى، فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ ولكن بدل اللفظ على معناه الذي يوجه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانياً هو غرضك، كمعرفتك من كثير رماذ القدر أنه مضيف، وإذا عرفت هذه الجملة، فما هنا عبارة مختصرة، وهي أن تقول: المعنى، ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يقضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر، كالذي فسرت لك " (٢)

إن " معنى المعنى " الذي لا يفهم من ظاهر اللفظ في أسلوب الكناية جعل البلاغيين يقسمون الكناية إلى قريبة وبعيدة، والقريبة إلى جلية وخفية، وذلك في ضوء الوسائط بين المكنى به والمكنى عنه ومدى قربها وبعدها أو ظهورها وخفائها. وقد تحدث عبد القاهر عن كل هذا بقوله: " وإذا كان ذلك كذلك علم علم الضرورة أن مصروف ذلك إلى دلالات المعاني على المعاني، وأنهم أرادوا من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلاً على المعنى الثاني ووسيطاً بينك وبينه متمكناً في دلالاته مستقلاً بوساطته، يسفر بينك وبينه أحسن سفارة، ويشير لك إليه أبين إشارة، حتى يخیل إليك أنك فهمته من حاق اللفظ، وذلك لقلة الكلفة فيه وسرعة وصوله إليك " (٣)

فالوسائط بين المكنى به والمكنى عنه عند عبد القاهر هي الروابط التي تربط بين المعاني الظاهرية للفظ والمعاني الخفية التي تولد عنها، أو معنى المعنى كما يسميه عبد القاهر مما يجعل الصورة الكنائية متماسكة موحية بالمعاني بوصفها تعبيراً فنياً غير مباشر.

(١) دلائل الإعجاز، ص ٢٦٢.

(٢) نفسه، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٣) نفسه، ص ٢٦٦-٢٦٧.

وعلى كثرة ما أورد عبد القاهر الجرجاني من شواهد للكناية بنوعيتها التي ذكرها (كناية عن صفة، وكناية عن نسبة) كما اصطلاح عليهما عند المتأخرين والتي دارت في كتبهم، إلا أنه لم يقف عند الكنايات القرآنية فيما ساق من أمثلة.

إلا أن الكناية القرآنية ستحظى بعناية كبيرة عند الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) في تفسيره البلاغي للقرآن الكريم، يقول الزمخشري: "ولا يغوص على شيء من ذلك الحقائق - يقصد الحقائق التي تضمنها آيات القرآن - إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما: علم المعاني وعلم البيان" (١).

ولما كانت الكناية من فنون البيان فقد حظيت عنده بعناية كبيرة، وأشاد بكنائيات القرآن الكريم في أكثر من موضع فقال: "... ولا ترى أحسن، ولا ألطف، ولا أحد للمفاصل من كنائيات القرآن وأدابه" (٢) وقال: "وقوله: ﴿هُوَ أَذَىٰ فَاعْرِضُوا أَلْسِنًا فِي الْمَحْجُوزِ وَلَا تَقْرُبُوهُ سَخًى يَلْمُوهُ فَإِذَا تَلَمَّهْرٌ فَأَقْوَمُكُمْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُسْتَطِيعِينَ﴾ (٣) من الكنايات اللطيفة، والتعريضات المستحسنة وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة، على المؤمنين أن يتعلموها، ويتأدبوا بها، ويتكلموا سؤلها في محاوراتهم ومكاتباتهم..." (٤).

وهذه الكنايات القرآنية التي تهدف إلى التهذيب بتغطية المعاني المستقدشة بالفاظ حسنة دالة على المعنى، قد وقف الزمخشري عندها كثيراً موازناً بين معانيها التي تقصدها.

قال في قوله - تعالى -: ﴿فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ (٥) فكنى به عن الجماع لأنه لا يكاد يخلو من شيء من ذلك (فإن قلت): لم كنى عنه ههنا بل فقط الرفث الدال على معنى الفحش، بخلاف قوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ (٦) ﴿فَلَمَّا تَقَسَّسْنَا﴾ (٧) ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٨) ﴿أَوَلَمْ نَسْأَلِ الْمَاءَ﴾ (٩) ﴿وَحَلَّلْنَاهُ مِنْهُ﴾ (١٠) ﴿فَأَتَوْا حَرْثَكُمْ﴾ (١١).

(١) الكشف: ١٦ / ١.

(٢) نفسه: ٢ / ٢٤١.

(٣) سورة البقرة، من الآية: ٢٢٢، ومن الآية: ٢٢٣.

(٤) الكشف: ١ / ٣٦٧.

(٥) سورة البقرة، من الآية: ١٩٧.

(٦) سورة النساء، من الآية: ٢١.

(٧) سورة الأعراف، من الآية: ١٨٩.

(٨) سورة البقرة، من الآية: ١٨٧.

﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْؤِرُوا ﴾^(٤) ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ ﴾^(٥) ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا ﴾^(٦) (قلت): استهجاناً لما وجد منهم قبل الإباحة، كما سماه اختيانياً لأنفسهم. (فإن قلت) لم عدّ الرقت بالي^(٧) (قلت): لتضمنينه معنى الإفشاء لما كان الرجل والمرأة يعتدقان ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه في علاقته شبه باللبس المشتمل عليه^(٨).

والزمخشري قد ذكر الأنواع الثلاثة للكناية حسب المعنى المكنى عنه، كما استقرت عند البلاغيين المتأخرين. وهذه الأنواع هي: الكناية عن صفة، والكناية عن موصوف، والكناية عن نسبة. والزمخشري وإن لم يسمها بما اصطلح عليه فيما بعد، إلا أنه عني بمفهومها ووجه جهوده نحو الكشف عن قيمتها البلاغية في التعبير القرآني. وبذلك فهو بضيف نوع (الكناية عن موصوف) التي لم يذكرها عبد القاهر الجرجاني الذي اقتصر على ذكر الكناية عن صفة والكناية عن نسبة.

فالكناية عن صفة نجدها عند الزمخشري في تفسيره لقوله - تعالى - مثلاً: ﴿ وَلِيُحِيطَ بِشَرِّهِمْ فَاصْبِرْ يَطْلُبُ كُنْهَهُ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ... ﴾^(٩) قال: " وأحيط به عبارة عن إهلاكه. وأصله من أحاط به العدو، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه، ثم استعمل في كل إهلاك. ومنه قوله - تعالى -: ﴿ إِنْ أَنْ يَخَاطَبُ بِكُمْ ﴾^(١٠) ومثله قولهم: أتى عليه، إذا أهلكه، ومن أتى عليهم العدو: إذا جاءهم مستعلاً عليهم. وتقلب الكفين: كناية عن الندم والتدبر، لأن الندم يقاب كفيه ظهراً لبطن، كما كنّى عن ذلك بعض الكف^(١١) والسقوط في اليد^(١٢). ولأنه في معنى الندم عدّ تعديته بعل، كأنه قيل: فأصبح يندم^(١٣).

(١) سورة النساء، من الآية: ٤٣، وسورة المائدة، من الآية: ٦.

(٢) سورة النساء، من الآية: ٢٣.

(٣) سورة البقرة، من الآية: ٢٢٣.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ٢٣٧.

(٥) سورة النساء، من الآية: ٢٤.

(٦) سورة البقرة، من الآية: ٢٢٢.

(٧) يقصد قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَكُنْ لَكَ الْوَسَايِرُ الْأَرْثَةُ إِلَىٰ بَنَاتِكُمْ مِنْ بَنَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ... ﴾ سورة البقرة، من الآية: ١٨٧.

(٨) الكشف: ٣٢٨/١.

(٩) سورة الكهف، من الآية: ٢٤.

(١٠) سورة يوسف، من الآية: ٦٦.

(١١) وورد في القرآن ﴿ مَطَامِرُكُمْ الْأَنْبَايَا ﴾ سورة آل عمران، من الآية: ١١٦. و ﴿ يَشْعُرُ الْعَالَمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ سورة الفرقان، الآية: ٢٧.

ونجد الكناية عن موصوف في تفسير لقوله - تعالى - مثلاً: ﴿وَحَمَلَتْهُ عَلَى ذَاتِ الْوَجْهِ وَمُوسَى﴾ (٣)، "أراد السفينة، وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتنبؤ منابها وتؤدي مؤداها، بحيث لا يفصل بينها وبينها" (٤).

ويقول في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِمَا مِنْ يَمِينٍ أَوْ شِمَالٍ﴾ (٥)، كانت المرأة تلقت المولود فقالت لزوجها: هو ولدي منك، كذى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً، لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليمين، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين (٦).

والكناية عن النسبة نجدها عنده في تفسير لقوله - تعالى - مثلاً: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ (٧)، قال: "والجنب: الجانب، يقال: أنا في جنب فلان، وجانبه وناحيته، ثم قالوا: قرط في جنبه وفي جانبه، يريدون في حقه، قال سابق الزبيري: أما تثقين الله في جنب وأما قلته كذباً حري عليك تقطع وهذا من باب الكناية، لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه فقد أثبتته فيه. ألا ترى إلى قوله:

إِنَّ السَّمَاةَ وَالْمَرْوَةَ وَالنُّجُودَ فِي قَبَّةِ صُورٍ عَلَى ابْنِ الْحَسَنِ
ومنه قول الناس: لمكانك فعلت كذا: يريدون لأهلك.

وفي الحديث: ((من الشرك الخفي أن يصلي الرجل لمكان الرجل))، وكذلك فعلت هذا من جهتك. فمن حيث لم يبق فرق فيما يرجع إلى أداء الغرض بين ذكر المكان وتركه قيل: ﴿قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ ، على معنى: قرطت في ذات الله " (٨).
ثم يزيد الكناية توضيحاً وبياناً بقوله: "فإن قلت: فمرجع كلامك إلى أن ذكر الجنب كالأمر سوى ما يعطي من حسن الكناية وبلاغتها، فكانه قيل: قرطت في الله، فما معنى في

(١) كما ورد في قوله تعالى: - جى ي ي □... سورة الأعراف ، من الآية ١٤٩.

(٢) الكشف: ٥٦٥ / ٢.

(٣) سورة القمر ، الآية: ١٣.

(٤) الكشف: ٣٤٥ / ٤.

(٥) سورة الممتحنة ، من الآية ١٢.

(٦) الكشف: ٤١٥ / ٤.

(٧) سورة الزمر ، من الآية ٥٦.

(٨) الكشف: ٤٠٦ / ٤.

الله ؟ قلت : لا بد من تقدير مضاف محذوف، سواء ذكر الجنب أو لم يذكر . والمعنى : قرّطت في طاعة الله وعبادة الله، وما أشبه ذلك " (١).

إن أسلوب الكناية عند الزمخشري ذو مدلول أو سمع مما نجده عند المتأخرين، وهذا شأن المتقدمين فإنهم انطلقوا نحو الدرس البلاغي من منطلق اللغة، ونحوها به نحواً أدبياً رحباً، إذ إن قضية الانتقال من اللازم إلى الملزوم ومن الملزوم إلى اللازم التي أثارها البلاغيون الذين دخلوا دائرة العلمية الدقيقة من بعد الزمخشري كالسكاكي والقزويني، لم يلتفت الزمخشري إلى شيء منها، فللكناية أن تنتقل من أيهما شاعت، ففي الوقت الذي يرى السكاكي أن الكناية انتقال من اللازم إلى الملزوم يرى القزويني أن اللازم لا بد من أن يكون ملزوماً في الكناية، وحينئذ يكون الانتقال من الملزوم إلى اللازم، وهذا ما نجده في قول الخطيب القزويني: " وفرّق السكاكي وغيره بينهما [يعني الكناية والمجاز] بوجه آخر وهو أن مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم، وفيه نظر لأن اللازم ما لم يكن ملزوماً يمتنع أن يُنتقل منه إلى الملزوم فيكون الانتقال حينئذ من الملزوم إلى اللازم " (٢). فكما أن طول التجاذب لازم لطول القامة هو ملزوم لها أيضاً، فيصح الانتقال في الحالتين.

يقول د. محمد أبو موسى: " وقد شغلت هذه المسألة أعلام الشراح بقدر ربما لم يكن في حاجة ماسة إليه، لأن الانتقال في الدلالات اللغوية لا يلتزم بهذه الدلالات المنطقية " (٣). والزمخشري لم يشغل بهذه المسائل المنطقية، وإذا انشغل ببلاغة الكناية في التعبير عن المعاني، يقول في قوله - تعالى -: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ ﴾ (٤)، فإن قلت: ما معنى اشتراطه في إلقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله ؟ قلت: إنهم إذا لم يأتوا بها وثبتت عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق رسول الله ﷺ وإذا صح عندهم صدقه ثم لم يأتوا العناد ولم يذللوا ولم يشايعوا استوجبوا العقاب بالنار، فقيل لهم: إن استبنتم العجز فتركوا العناد، فوضع ﴿ فَأْزَنُوا النَّارَ ﴾ موضعه لأن انتفاء النار لصيقه وضميمة ترك العناد، من حيث إنه من نتائجها، لأن من أدّى النار ترك المعاندة، ونظيره أن يقول الملك

(١) نفسه: ٤ / ١٠٦.

(٢) الإيضاح: ٢ / ٤٥٦ - ٤٥٧.

(٣) التصوير البياني، دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص ٣٧٠.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ٢٤.

لحسمه: إن أردتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي، يريد قاطيعوني واتبعوا أمري وافعلوا ما هو نتيجة حذر السخط، وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شعب البلاغة، وفائدته الإيجاز الذي هو من حلية القرآن، وتهويل شأن العنك بلناية إلقاء النار منابه، وإبرازه في صورته مشبعاً ذلك بتهويل صفة النار وتقطيع أمرها " (١). فالانتقال هنا من اللازم (ترك المعاندة) إلى الملزوم (إلقاء النار) وترك المعاندة (لازم) لإلقاء النار.

وفرق الزمخشري بين الكناية والتعريض، فقال: " فإن قلت: أي فرق بين الكناية والتعريض؟ قلت: الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، كقولك: طويل النجاد والحمائل لطويل القامة، وكثير الرماد للمضيف.

والتعريض: " أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للسحتاج إليه: جئتكم لأسلم عليكم، ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا: وحسبك بالتسليم مدي تقاضياً.

وكفه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض، ويسمى التلويح لأنه يلوح منه ما يريد " (٢).

إن أسلوب الكناية وجد مناحاً خصباً في تفسير الزمخشري مفهوماً وتطبيقاً، بل إن علم البيان والمعاني تطور تطوراً كبيراً، فقد كان تفسيره تطبيقاً عملياً وظف فيه الظواهر البلاغية للكشف عن أسرار بلاغة التعبير القرآني.

يقول د. شوقي صيف: " يمكن أن يقال إن قواعد علم البيان قد كملت عنده كما كملت قواعد علم المعاني، وكل ما هنالك أنه بقي من يستقصيها ويتتبعها عنده وعند عبد القاهر وينظمها في مصنف يجمع متفرقاتها ويضم منشورها " (٣).

وفي طليعة من استقصى وتتبع ما قاله الجرجاني والزمخشري فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ)، وأبو يعقوب السكاكي (ت ٦٢٦ هـ)، وعلى يديهما دخلت الكناية مرحلة جديدة في الدراسة هي مرحلة التبويب المنطقي والتنظيم والتعريف.

لخص الفخر الرازي ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني في فصول ثلاثة تحدث فيها عن الكناية (١). خصص الفصل الأول للكلام في حقيقة الكناية، والفصل الثاني في أن الكناية

(١) الكشف: ٢٤٨/١ وما بعدها.

(٢) نفسه: ٣٧٢/١، ٣٧٣.

(٣) البلاغة تطور وتاريخ، ص ٢٦٥.

ليست من المجاز، والفصل الثالث في ترجيح الكناية على التصريح وترجيح الاستعارة على التصريح بالتشبيه.

أوضح الفصل الأول حقيقة الكناية بقوله: "إن اللفظة إذا أطلقت وكان الغرض الأصلي غير معناها فلا يخلو أما أن يكون معناها مقصوداً أيضاً ليكون دالاً على ذلك الغرض الأصلي، وإما أن لا يكون كذلك. فالأول هو الكناية، والثاني هو المجاز" (١).

وأوضح في الفصل الثاني أن الكناية ليست من المجاز، فقال: "وبيانه أن الكناية عبارة عن أن تذكر وتفيد بمعناها معنى ثانياً هو المقصود وإذا كنت تفيد المقصود بمعنى اللفظ وجب أن يكون معناه معديراً وإذا كان معديراً فما نقلت اللفظة عن موضوعها، فلا يكون مجازاً" (٢). ثم يوضح ما قاله بقوله: "مثاله إذا قلت: كثير الرماد فأنت تريد أن تجعل حقيقة كثرة الرماد دليلاً على كونه جواداً فأنت قد استعملت هذه الألفاظ في معانيها الأصلية ولكن غرضك في إعادة كونه كثير الرماد معنى ثانٍ يلزم الأول وهو الجود، وإذا وجب في الكناية اعتبار معانيها الأصلية لم تكن مجازاً أصلاً" (٣).

وأوضح في الفصل الثالث ما ذهب إليه عبد القاهر في تعليل بلاغة الكناية، وترجيحها على التصريح، فقال: "فاعلم أن السبب في كون الكناية أبلغ من الإفصاح هو أن الكناية ذكر الشيء بواسطة ذكر لوازمه ووجود اللازم يدل على وجود الملزوم، ومعلوم أن ذكر الشيء مع دليله أوقع في النفوس من ذكر الشيء لا مع دليله فلأجل ذلك كانت الكناية أبلغ" (٤) وهو يصف هذا الرأي الذي نقله عن عبد القاهر لوجهين:

"الأول: أنك إذا قلت: فلان طويل النجاد فطول النجاد مشكوك فيه كما أن طول القامة مشكوك فيه، وليس أحدهما أظهر عند العقل من الآخر حتى يستدل بالأعرف على الأخفى اللهم إلا إذا جعلنا الطريق إلى معرفة طول النجاد الحس، ولكنه أيضاً كان في معرفة طول القامة، فظهر ضعف هذه العلة.

(١) نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز، ص ١٣٥-١٣٧.

(٢) نفسه، ص ١٣٥.

(٣) نهاية الإيجاز في دراسة الأعجاز، ص ١٣٦.

(٤) نفسه، ص ١٣٦.

(٥) نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز، ص ١٣٧. وللمقارنة، ينظر: دلائل الإعجاز، ص ١١٠-١١١.

الثاني: وهو أن الاستدلال باللازم على الملزوم طريقة باطلة، فإن الحجة لازمة للمعلم، ولا يمكن الاستدلال بوجود الحجة على وجوده، فيبطل ما قاله " (١) -
وبذلك ينقل الرازي فن الكناية من ميدانه البلاغي إلى الحجاج المنطقي، والاحتكام إلى العقل، وإقحام اللازم والمعلوم، نون أن يشير إلى موضع المزبة في التعبير الكنايني والاستعاري من التصريح به.

" أن اللزوم الذي أبرزه الرازي كان له أثره غير الحميد، في توجيه دراسة هذا اللون من ألوان التعبير وجهة منطقية، أضرت به أكثر مما أفادته، إذ شغل الدارسون بعده باللازم والملزوم، وتعدّر الانتقال من اللازم إلى الملزوم، ما لم يكن اللازم ملزوماً بنفسه، أو بانضمام قرينة إليه، لجواز أن يكون اللازم أعم، ولا دلالة للعام على الخاص. فضلاً عما قيل فيهما، من أنهما عقليان أو عرقيان، وعنى هذا الجدال العقيم على الناحية الفنية في هذا اللون من التعبير الفني الرائع " (٢).

أما السكاكي فقد عرّف الكناية بقوله: " الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك، كما تقول: فلان طويل النجاد لينتقل منه إلى ما هو ملزومه، وهو طول القامة " (٣).

إن الكناية عنده مبنية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم، والمطلوب بالكناية لا يخرج عن أقسام ثلاثة:

- الكناية المطلوب بها نفس الموصوف.

- الكناية المطلوب بها نفس الصفة.

- الكناية المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف.

وهذه الأقسام قد ذكرها الجرجاني والزمخشري من قبله، فالجرجاني ذكر الكناية عن صفة والكناية عن نسبة (تخصيص الصفة بالموصوف)، وأضاف الزمخشري إليهما الكناية عن موصوف، إلا أن السكاكي نظم هذه الأقسام وقسمها تقسيمات أخرى وقسمها من جهة أخرى إلى قريبة وبعيدة وحاول تقنينها وتعريفها.

(١) نهاية الإيجاز في دراسة الأعجاز ، ص ١٣٧.

(٢) الكناية ، ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٣) مفتاح العلوم ، ص ١٨٩.

ففي القسم الأول: في الكناية المطلوب بها نفس الموصوف، تقرب الكناية تارة وتبعد أخرى. وعرف القرينية بقوله: "هي أن يتفق في صفة من الصفات اختصاص بموصوف معين عارض، فنذكرها متوصلاً بها إلى ذلك الموصوف، مثل أن تقول: جاء المضيف، وتريد زيدا، لعارض اختصاص للمضيف يزيد" (١) وعرف البعيدة بقوله: "هي أن تتكلف اختصاصها بأن تضم إلى لازم آخر وآخر فتلتق مجموعاً وصفاً مانعاً عن دخول كل ما عدا مقصودك فيه، مثل أن تقول في الكناية عن الإنسان، حي مستوى القائمة، عريض الأظفار" (٢).

أما القسم الثاني: في الكناية المطلوب بها نفس الصفة، الكناية فيه أيضاً تقرب تارة وتبعد تارة، وعرف القرينية بقوله: "هي أن تنتقل إلى مطلوبك من أقرب لوازمه إليه، مثل أن تقول: فلان طويل نجاه، أو طويل النجاد، متوصلاً به إلى طول قامته، أو مثل أن تقول: فلان كثير أضيافه، أو كثير الأضياف، متوصلاً به إلى أنه مضياقوان هذا النوع القريب تارة يكون واضحاً كما في المثالين المذكورين، وتارة خفياً كما في قولهم: عريض القفا، كناية عن الأيلة، وفي قولهم: عريض الوسادة عن هذه الكناية" (٣) يريد (البه) وعرف البعيدة بقوله: "فهي أن تنتقل إلى مطلوبك من لازم بعيد بوساطة لوازم متسلسلة مثل لأن تقول: كثير الرماد، فتنتقل من كثرة الرماد إلى كثرة الجمر ومن كثرة إحراق الحطب تحت القنور، ومن كثرة إحراق الحطب إلى كثرة الطيانخ، ومن كثرة الأكلة، ومن كثرة الأكلة إلى كثرة الضيقان، ثم من كثرة الضيقان إلى أنه مضياق، فانظر بين الكناية وبين المطلوب بها كم ترى من لوازم" (٤).

أما القسم الثالث: في الكناية المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف: "فهي أيضاً تتفاوت في اللطف، فتارة تكون لطيفة، وأخرى لطف، واللطف قول زياد الأعجم: ابن السامحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الخشرج والطف منته قول الشنفرى الأزدي في وصف امرأة بالعدة: يبيت بمنجاة من النوم بيوتها إذا ما بيوت بالملامة خلّت" (٥).

(١) مفتاح العلوم، ص ١٩٠.

(٢) نفسه، ص ١٩٠.

(٣) نفسه، ص ١٩٠.

(٤) نفسه، ص ١٩٠-١٩١.

(٥) مفتاح العلوم، ص ١٩٢-١٩٣.

وأشار السكاكي إلى فنون الكناية كالرمز والإشارة والتلويح والإيماء والتعريض،

قال:

"ثم أن الكناية تنفّلت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة، ومساق الحديث يحدر لك اللثام عن ذلك" (١)

وما ذكره السكاكي من تقسيمات للكناية وما يتعلّق بها من فنون وقف عندها المتأخرون ولم يخرجوا عنها أو يضيفوا إليها، ودخلت البلاغة عهداً جديداً امتاز بالشروح والتلخيص، وأشهر التلخيصات، كتاب (التلخيص) للخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ)، لخص فيه كتاب (المفتاح) للسكاكي.

وقد عرّف القزويني الكناية فيه، بقوله: "الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه" (٢). وفي كتابه الآخر (الإيضاح) عرّفها أيضاً بقوله: "لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذٍ" (٣).

فهو يفرّق بين الكناية والمجاز من جهة إرادة المعنى الحقيقي، فالكناية يجوز فيها إرادة المعنى الحقيقي، أما المجاز فإنه لا يجوز فيه إرادة المعنى الحقيقي، وبذلك تفرّق الكناية عن المجاز.

وقسم القزويني الكناية ثلاثة أقسام، كما قسمها السكاكي وهي:

- ١ - المطلوب بها غير صفة ولا نسبة (٤)
- ٢ - المطلوب بها صفة، وتنقسم إلى قريبة وبعيدة وواضحة وخفية (٥)
- ٣ - المطلوب بها نسبة (٦)

ثم أن الكناية تدلّون كما هي عند السكاكي إلى تعريض، وتلويح، ورمز، وإيماء، وإشارة.

وامتازت الكناية في (تلخيصه) بالافتضاب، والجفاف من الشواهد والأمثلة على خلاف ما عرضه في كتابه (الإيضاح) لأن الكناية، فقد امتازت بالتنظيم وإيراد الشواهد

(١) مفتاح العلوم، ص ١٩٠، وللإستزادة، ينظر: ابن رشيق في: العمدة، من هذه الفنون الكنائية: ٣٠٢ / ١ وما ذكر منها بعده.

(٢) التلخيص، ص ٣٣٧.

(٣) الإيضاح: ٢ / ٤٥٦.

(٤) نفسه: ٢ / ٤٥٧.

(٥) نفسه: ٢ / ٤٥٨.

(٦) الإيضاح: ٢ / ٤٦٢.

وشرحها، وهذا أمر وارد في التلخيصات، وكتاب (التلخيص) كما هو معروف، لخص كتاب (الإيضاح)، ومن الشواهد القرآنية التي عرض لها قوله - تعالى -: ﴿ وَكَأْسِيْقَافٍ أَيْدِيَهُمْ ﴾^(١) قال فيها: "أي ولما اشتد تدمهم وحسرتهم على عبادة العجل، لأن من شأن من اشتد تدمه وحسرتة أن يعض يده عماً، فتصير يده مسقوفاً فيها، لأن فاه قد وقع فيها"^(٢)

ولم يخرج الذين اتبعوا القزويني في منهجه في الدرس البلاغي، وبخاصة فيما يتعلق بالكناية إلى غير ما ذهب إليه مما يلفت انتباه الباحث. ومن هؤلاء بهاء الدين السبكي (ت ٧٧٣ هـ)^(٣) وسعد الدين التفتازاني (ت ٧٩١ هـ)^(٤) وأبو يعقوب المغربي (ت ١١١٠ هـ)^(٥) وابن معصوم المدني (ت ١١٢٠ هـ)^(٦)

وإذا كان القزويني يمثل امتداداً للأسكاكي في منهج الدرس البلاغي العلمي ربما بحكم تلخيصه لمفتاحه، فإن ضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ)، والعلوي (ت ٧٤٩ هـ)، يمثلان الامتداد الحق لعبد القاهر الجرجاني في منهج الدرس البلاغي الأدبي القائم على الذوق والتحليل والتعريف الموجز والاقبال من التقسيم والمصطلح العلمي. ولذلك أرجأنا الحديث عنهما إلى هذا الموضوع وجعلناهما في صعيد واحد.

فأما ابن الأثير فإنه يقدم دراسة بلاغية وافية لأسلوب الكناية، يقول د. أحمد مطلوب واصفاً دراسة ابن الأثير للكناية: "ولعل ما كتبه ابن الأثير في (الجامع الكبير) و (المثل السائر) يغني الباحث في هذا الموضوع، فقد جعل لهذا الفن روحاً، وبحث فيه حياة، فإذا بالكناية صور متحركة، وإذا بالأمثلة توشي بكل بنيع عجيب، وليت المتأخرين استقنوا مما ذكره ابن الأثير"^(٧)

(١) سورة الأعراف، من الآية: ١٤٩.

(٢) الإيضاح: ٢ / ٤٦١.

(٣) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص: ٤ / ٢٣٧ وما بعدها.

(٤) المختصر على تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص: ٤ / ٢٣٧ وما بعدها.

(٥) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص: ٤ / ٢٣٧ وما بعدها.

(٦) أنوار الزبيع في أنواع البيوع: ٥ / ٣١٦-٣١٩.

(٧) القزويني وشروح التلخيص، ص ٤٢٠.

أشار ابن الأثير إلى خلط كثير من البلاغيين بين الكناية والتعريض، وبدأ بالكناية وقال أنها خُذت: "باللفظ الدال على الشيء، على غير الوضع الحقيقي، بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه" (١).

وقال بفساد هذا التعريف، لأنه يمكن أن يكون حدًّا للتشبيه كذلك، ودل ما ذهب إليه علماء أصول الفقه من أنها: "اللفظ المحتمل" (٢). وقال: أنهم يريدون به اللفظ الذي يحتمل الدلالة على المعنى وخلافه. وأشار إلى فساده أيضاً، لأن كل كناية لفظ محتمل، وليس كل لفظ محتمل كناية.

وحدّ الكناية الجامع لها عنده هو: "أنها كل لفظة دلّت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز" (٣). وقال أن الكناية مشتقة من الستر، يقال: كنيت عن الشيء إذا سترته، وأجري هذا الحكم في الألفاظ التي يُستر فيها المجاز بالحقيقة، فتكون دالة على السתר وعلى المستور معاً. "ألا ترى إلى قوله -تعالى-: ﴿أَوَلَمْ تَسْمَعْ لِلنِّسَاءِ﴾ فإنه إن حُمِلَ على الجماع كان كناية، لأنه ستر الجماع بلفظ اللامس الذي حقيقته مصافحة الجسد الجسد، وإن حُمِلَ على الملامسة التي هي مصافحة الجسد الجسد كان حقيقة، ولم يكن كناية، وكلاهما يتم به المعنى" (٤).

وابن الأثير يرى الكناية جزءاً من الاستعارة، لأنها لا تكون إلا بطي المكنى عنه، ونسبتها إلى الاستعارة نسبة خاص إلى عام، فكل كناية استعارة، وليست كل استعارة كناية. ويفرق بينهما من وجه آخر، فيقول: "الاستعارة لفظها صريح، والصريح هو ما دلّ عليه ظاهر لفظه، والكناية ضد الصريح، لأنها عدول عن ظاهر اللفظ، وهذه ثلاثة فروق أحدها: الخصوص والعموم، والآخر الصريح، والآخر الحمل على جانب الحقيقة والمجاز" (٥). وأورد تقسيم البلاغيين للكناية أقساماً ثلاثة فقال: "وقد ذهب قوم إلى أن الكناية تنقسم أقساماً ثلاثة: تمثيلاً، وإردافاً، ومجاورة" (٦).

(١) المثل السائر: ٣ / ٥٠.

(٢) نفسه: ٣ / ٥١.

(٣) نفسه: ٣ / ٥٢.

(٤) نفسه: ٣ / ٥٣.

(٥) نفسه: ٣ / ٥٥.

(٦) المثل السائر: ٣ / ٥٨. وينظر: الجامع الكبير، ص ٢٥٧.

وفصل القول في كل قسم مبيّناً المقصود منه، ثم انتهى إلى أنه تقسيم ليس بصحيح " لأن من شرط التقسيم أن يكون كل قسم منه مختصاً بصفة خاصة، تفصله عن عموم الأصل " (١)، وذلك لأن الكنايات عنده كلها تمثيل " فإن التمثيل عبارة عن مجموع الكناية، لأن الكناية إنما هي أن تراد الإشارة إلى معنى، فيوضع لفظ لمعنى آخر، ويكون ذلك اللفظ مثلاً للمعنى الذي أرادت الإشارة إليه " (٢).

والتمثيل في الكناية يتضح في التركيب، ويقال في المفرد، قال: " ألا ترى إلى قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ مَثَلَنَا لَنْحَرِيقٌ - يَسْعَوْنَ فِيهِمْ - وَنَجْمَةٌ وَنَجْمَةٌ ﴾ فإنه أراد الإشارة إلى النساء، فوضع لفظاً لمعنى آخر، وهو النعاج، ثم مثل به النساء. وهكذا يجري الحكم في جميع ما يأتي من الكنايات، لكن منها ما يتضح التمثيل فيه، ومنه ما يكون دون ذلك في الشبيهة " (٣)، ثم قال: " فوجدت الكناية إذا وردت على طريق اللفظ المركب، كانت شديدة المناسبة واضحة الشبيهة، وإذا وردت على طريق اللفظ المفرد لم تكن بتلك الدرجة في قوة المناسبة والمشابهة " (٤).

ثم يعقد مقارنة بين الكناية المركبة والكناية المفردة لتوضيح ذلك، فيقول: " ألا ترى إلى قولهم (فلان ذكي الثوب) وقولهم (الأمس) كناية عن الجماع، فإن ذكاء الثوب أشد مناسبة وأوضح شبيهاً، لأننا إذا قلنا: ذكاء الثوب من الذنوس كنزاً همة العرض من العيوب أتضح المشابهة، ووجدت المناسبة بين الكناية والمكنى عنه شديدة الملاءمة، وإذا قلنا: (الأمس كالجماع) لم يكن بتلك الدرجة في قوة المشابهة. وهذا الذي ذكر في أن من الكناية تمثيلاً وهو كذا وكذا، غير سائغ ولا وارد، بل الكناية كلها هي ذلك " (٥).

ويعرف ابن الأثير التعريض بقوله: " اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي، ولا المجازي، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب: والله إني لمحتاج، وليس في يدي شيء، وأنا عريان والبرد قد أذاني، فإن هذا وأشباهه

(١) المثل السابق: ٣ / ٥٩.

(٢) المثل السابق: ٣ / ٥٩. وللمقارنة، ينظر: نقد الشعر، ص ١٥٩ - ١٦٠.

(٣) نفسه: ٣ / ٥٩.

(٤) نفسه: ٣ / ٥٩.

(٥) نفسه: ٣ / ٥٩.

تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعاً في مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازاً، إنما دل عليه من طريق المفهوم، بخلاف دلالة اللمس على الجماع " (١).

ويقول: " والتعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي وإنما سمي التعريض تعريضاً لأن المعنى فيه يفهم من عرضه أي من جانبه، وعرض كل شيء جانبه، والكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً، وأما التعريض فبه يختص باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد البتة " (٢).

ومن الكتابات القرآنية التي أوردها قوله - تعالى - ﴿يَجِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ كَبْشَةٍ مَيْتًا فَكَرْهُتُمْ﴾ (٣)، قال: " فبه كنى عن الغيبة يأكل الإنسان لحم إنسان آخر سئل، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتاً، ثم جعل ما هو في الغيبة من الكراهة موصولاً بالمحبة، فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة للمعنى الذي وردت من أجله " (٤).

ثم يوضح المتناسبات في الدلالات بين المكنى به والمكنى عنه في المواضع الأربعة التي عقبتها الآية، أي يبحث عن الوصف الجامع في الدلالات، قال: " فإما جعل الغيبة كأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله فتشديد المتناسبة جداً، لأن الغيبة، إنما هي ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم، وتمزيق العرض مسائل لأكل الإنسان لحم من بغتبه، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة، وأما جعله كلحم الأخ لما في الغيبة من الكراهة، لأن العقل والشرع مجتنبان على استكراهها، إمران يتركها واليعد عذابها، ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ في كراهتها، وأما جعل اللحم ميتاً فمن أجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس بها. وأما جعله ما هو في الغيبة من الكراهة موصولاً بالمحبة، فلما جُبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة والشهوة لها مع العلم بقيحها " (٥).

(١) نفسه: ٥٦ / ٣.
(٢) المثل السائر: ٥٧ / ٣، وينظر: حقائق الزهر والرياحن في البيان عن بلاغات القرآن، محمد أمين الخطيب العمري، ص ٣١.
(٣) سورة الحجرات، من الآية: ١٢.
(٤) المثل السائر: ٦٢ / ٣.
(٥) نفسه: ٦٢ / ٣.

فهو يشترط المناسبات في الدلالات في الأسلوب الكنائي، فإذا لم يجد المناسبة والوصف الجامع بين المكنى به والمكنى عنه لم يعد التعبير كنادياً. قال: "أنه لابد من الوصف الجامع بينهما لتلا يلحق بالكناية ما ليس منها، ألا ترى إلى قوله - تعالى - ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَةً وَابْنَةً﴾ فكنى بذلك عن النساء، والوصف الجامع بينهما هو التأسيس من أجل ذلك لم يُلَفَّتْ إلى تأويل من تأول قوله - تعالى - ﴿وَبَيْنَهُمَا نِسَاءٌ﴾ أنه أراد بالثياب القلب على حكم الكناية، لأنه ليس بين الثياب والقلب وصف جامع، ولو كان بينهما وصف جامع لكان التأويل صحيحاً" (١). وجعل من الكنايات القرآنية قوله - تعالى -:

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ (٢). وذلك لوجود المناسبة والوصف الجامع، وحمل اللفظ على جانبي الحقيقة والمجاز، فقال: "هذه الآية من باب الكنايات التي لفظها يجوز حملة على جانبي الحقيقة والمجاز. وقد رأيت جماعة من أئمة الفقه لا يحققون أمر الكناية، وإذا سئلوا عنها عتبروا عنها بالمجاز، وليس الأمر كذلك، وبينهما وصف جامع، كهذه الآية وما جرى مجراها، فإنه يجوز حمل الماء على المطر النازل من السماء وعلى العلم، وكذلك حمل الأودية على سهابط الأرض وعلى القلوب، وهكذا يجوز حمل الزبد على الغطاء الرابي الذي تنقذه السيول، وعلى الضلال، وليس في أقسام المجاز شيء يجوز حملة على الطرفين معاً سوى الكناية" (٣).

وقال في قوله - تعالى - ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَوَارِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَقْلُوبُوا﴾ (٤). والأرض التي لم يطأوها كناية عن مناحج النساء، وذلك من حسن الكناية ونادره" (٥). وقد تتبع ابن الأثير أساليب الكناية في القرآن والشعر والنثر المركبة منها والمقردة، وامتازت تحليلاته لها بالحيوية والعمق.

وأما العلوي (ت ٧٤٩ هـ) فهو يفيد من دراسة الكناية عند الجر جاني وعند ابن الأثير بخاصة، فيعد لها دراسة بلاغية أدبية امتازت بالعمق في صورة منظمة تعتمد التقسيم والتبويب. وهو يناقش فيها كثيراً من التعاريف للكناية وبخاصة تعريف الجر جاني وتعريف ابن الأثير، ثم ينتهي بعد المناقشة إلى تعريف الكناية بقوله: "فالمختار عندنا في

(١) المثل السائر: ٣ / ٥٣.

(٢) سورة الرعد، من الآية: ١٧.

(٣) المثل السائر: ٣ / ٦٣.

(٤) سورة الأحزاب، من الآية: ٢٧.

(٥) المثل السائر: ٣ / ٦٣.

بيان ماهية الكناية، أن يُقال: هي اللفظ الدال على معنيين مختلفين، حقيقة ومجاز من غير واسطة، لا على جهة التصريح ^(١)، ثم يفسر تعريفه بقوله: "ولنفسر مرادنا بهذه القيود، فقولنا: اللفظ الدال يحترز به عن التعريض، فإنه ليس مدلولاً عليه بلفظ، وإنما هو مفهوم من جهة الإشارة والفحوى قولنا على معنيين، يُحترز به عما يدل على معنى واحد، وقولنا حقيقة ومجاز، يحترز به عن اللفظ المشترك، فإن دلالاته على ما يدل عليه من المعاني على جهة الحقيقة لا غير، وقولنا من غير واسطة، يحترز به عن التشبيه، فإنه لا بد فيه من أداة التشبيه، إما ظاهرة كقولك: زيد كالأسد، وإما مضمرة كقولك: زيد البحر، وقولنا على جهة التصريح، يحترز به عن الاستعارة، فإن دلالتها على ما تدل عليه من جهة صريحها، إما من غير قرينة، كدلالة الأسد على الحيوان، وإما مع القرينة كدلالة الأسد على الشجاع، فكلاهما مفهوم من جهة التصريح، بخلاف الكناية فإن الجماع ليس صريحاً من قوله - تعالى -: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ وإما هو مفهوم على جهة الشئ كما دلّت عليه بحقيقتها ^(٢).

والكناية عند العلوي هي من المجاز، لأن المقصود منها هو المعنى المكنى عنه، وليس المقصود هو المعنى الحقيقي للفظ، قال: "أن الكناية قد دلّت على معناها اللغوي الذي وُضعت من أجله، فبعد ذلك لا يخلو حالها، إما أن تدل على معنى مخالف لما دلّت عليه بالوضع أم لا، فإن لم تدل فلا معنى للكناية، وإن دلّت عليه وجب القول بكونه مجازاً، لما كان مخالفاً لما دلّت عليه بالوضع ^(٣)".

وقسم العلوي الكناية إلى ثلاثة أقسام باعتبار ذاتها، وباعتبار حالها، وباعتبار حكمها. فالقسم الأول: باعتبار ذاتها تنقسم لديه إلى مفردة، ومركبة. فأما المفردة: "فهي ما كانت الكناية حاصلة في اللفظة الواحدة، وهذا كقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ مَثَلَنَا لَبَدِيدٌ﴾، فإلى قوله - تعالى -: ﴿وَلِيَّ تَجَمُّعٍ وَتَجَمُّعٍ﴾، فالمراد بالتجمع في كلا الموضعين المرأة، وإنما كنى بالتجمع عن المرأة لما بينهما من الملاءمة في التذلل والضعف والرحمة وكثرة التالف، وكقوله - تعالى -:

(١) الطراز: ١ / ٣٧٢.

(٢) الطراز: ١ / ٣٧٢، ٣٧٤.

(٣) نفسه: ١ / ٣٧٠، ٣٧٦.

(أَوَلَمْ نَسْمَعْ الْإِنْسَانَ إِذْ قَالَ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ اسْقُوا هَٰذَا الْمَاءَ (١) - وأما المركبة " فهي أكثر ورود الكناية عليها، كقولك: (الكرم في برّذيه، والمجد بين توبيه، والعفاف في عطفه)، هذا في المدح، وفي الذم: (إنه لعريض الوساد) (٢)

ثم يوازن بين النوعين (المفردة والمركبة) بقوله: " فإذا وردت على طريقة التركيب كانت أشد ملاءمة، وأعظم بلاغة، وإذا وردت على صورة الافراد لم يكن لها ذلك المزية التي حصلت للمركبة، ومثاله أنك إذا قلت في الكناية المركبة: فلان ذبي الثوب، وأردت إيراده على صورة المشابهة، فإك تقول: هو في نزاهة العرض من العيوب كنزاهة الثوب من الأذناس، فإذا حصل على هذا التأليف اتضحت المشابهة ووجدت المناسبة وظهر أمر الكناية، وإذا قلت في الكناية المفردة، اللبس في الجماع لم تكن في تلك الدرجة من المناسبة وقوة المشابهة " (٣)

واقسم الثاني: باعتبار حالها تنقسم إلى قريبة وبعيدة. والقريبة هي: " ما يكون الانتقال إلى المطلوب بقرب اللوازم.. ومثالها: (بعيدة مهوى القُرط) فإنه كناية عن طول عنقها، وهذا حاصل على القرب من غير اعتبار واسطة " (٤) وأما البعيدة: فهي " ما يكون الانتقال إلى مطلوبها من لازم أبعد منه، مثالها، (فلان كثير الرماد) فهذه تكثر فيها الوسائط، لأنك تنتقل من كثرة الرماد إلى كثرة الجمر، ثم إلى كثرة الإحراق تحت القدر، ثم إلى كثرة الطبخ، ثم إلى كثرة الأكلين، ثم إلى كثرة الأضياف، ثم إلى كونه مضيقاً " (٥)

أما القسم الثالث: باعتبار حكمها فإنها تنقسم إلى حسنة وقبيحة. فالحسنة كقول أعرابية تصف زوجها: (إنه إبلٌ قليلات المسارح، كذيرات المبارك، إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هو لك) (٦) والقبيحة ما تخلو من الفائدة المرادة من الكناية، وهو عيب عند أهل البلاغة، من ذلك قول أبي الطيب المتنبي:

أني على شغفي بما في خمرها لأعف عمّا في سراويلاتها (٧)

(١) نفسه: ١ / ٢٧٧: ٤٢٨.

(٢) نفسه: ١ / ٤٢٩.

(٣) النظائر: ١ / ٤٣٠. وينظر: المثل السائر: ٣ / ٥٩ للمقارنة.

(٤) نفسه: ١ / ١٣٠. وللمقارنة، ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٦٠-١٩١.

(٥) نفسه: ١ / ١٣١. وللمقارنة، ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٦٠-١٩١.

(٦) نفسه: ١ / ٢٢٢.

(٧) نفسه: ١ / ٤٣٢-٤٣٣.

إذ إن (خمرها وسراويلاتها) فقدت غرض الستر والأخفاء وقربت من التصريح بالمعنى.

ويورد العلوي كثيراً من أمثلة الكناية من القرآن الكريم، والسنة النبوية، وكلام علي أمير المؤمنين عليه السلام، وكلام البلاغاء، والكنائيات الشعرية، وحفل كل نوع من هذه الأنواع الخمسة بعدد واغر من الشواهد.

ومن الكنائيات القرآنية التي أوردتها قوله - تعالى - ﴿يَجِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَعَنَ أَخِيهِ شَيْئًا مَكْرُومًا﴾ ، وقوله - تعالى - ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ..﴾. وهو لا يكاد يخرج في تفسيره لهذه الكنائيات القرآنية عما قاله ابن الأثير من قيل (١).

والعلوي يفرق بين الكناية والتعريض، والفروق بينهما تظهر من أوجه ثلاثة:
الوجه الأول: الكناية واقعة في المجاز، بخلاف التعريض فلا يعد من المجاز.
الوجه الثاني: الكناية تقع في المفرد والمركب، والتعريض لا يقع إلا في اللفظ المركب.

الوجه الثالث: التعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية مدلول عليها من جهة اللفظ بطريق المجاز، بخلاف التعريض، فإن دلالاته من جهة القرينة والإشارة (٢).

ولم يصف الذين جاءوا من بعده إلى فن الكناية إضافات جوهرية، بل الملاحظ عليهم النقل من عبد القاهر الجرجاني والزمخشري وابن الأثير وغيرهم من علماء البلاغة والبيان.

ومن هؤلاء ابن القيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) (٣)، وبنر الدين الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) (٤)، وابن حجة الحموي (ت ٨٢٧ هـ) (٥)، والسيوطي (ت ٩١١ هـ) (٦)، وابن معصوم المدني (ت ١١٢٠ هـ) (٧).

(١) الطراز: ١ / ٤٠٠ - ٤٠٧. وينظر للمقارنة: المثل السائر: ٣ / ٦٢ - ٦٣.

(٢) الطراز: ١ / ٣٩٧ - ٣٩٨. وقارن بين الأثير، المثل السائر: ٣ / ٥٦ - ٥٧.

(٣) ينظر: القوائد المشوق إلى علوم القرآن، ص ١٢٦ وما بعدها.

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣٠٠ - ٣٠١.

(٥) ينظر: الخزائن، ص ٣٥٦ - ٣٦١.

(٦) ينظر: الاتقان في علوم القرآن: ٣ / ١٤٣ - ١٤٨.

(٧) ينظر: أنوار الربيع في أنواع البديع: ٥ / ٣١٩ - ٣١٢.

ولا نجائب الحقيقة إذا قلنا إن المحدثين والمعاصرين من البلاغيين^(٢) لم يخالفوا ما انتهى إليه البلاغيون المتأخرون خلافاً جوهرياً في دائرة فن الكناية وإن كان لكل منهم ملاحظته وطريقة تناوله لهذا الفن النيباني^(٣)

الكناية بين الحقيقة والمجاز:

أكثر علماء البيان على مذهب أن الكناية من المجاز^(٤) لأن اللفظ المستعمل لا يراد منه معناه الحقيقي.

قال ابن الأثير: "وقد تقدم القول في باب الاستعارة أنها جزء من المجاز وعلى ذلك تكون نسبة جزء الجزء، وخاص الخاص^(٥) ولما كانت الكناية عند نسبتها للاستعارة نسبة جزء الجزء وخاص الخاص، فهي من المجاز، إلا أن مجازيتها تختلف عن مجازية الاستعارة وتفرق عنها بالقرينة، القرينة مع الاستعارة تمنع من إيراد المعنى الحقيقي، فالاستعارة صريحة في مجازيتها.

أما الكناية فلا مانع يمنع من إيراد المعنى الحقيقي مع المعنى المكنى عنه المجازي، والمعنى المكنى عنه في الكناية هو المستور وهو المجاز. يقول ابن الأثير: "فإن المستور هنا - يقصد الكناية - هو المجاز، لأن الحقيقة تفهم أولاً ويتسارع إليها الفهم قبل المجاز، لأن دلالة اللفظ عليها دلالة وضعية، وأما المجاز فإنه يفهم بعد فهم الحقيقة، إذ ما يفهم بالنظر والفكرة"^(٦)

وذهب العلوي إلى ما ذهب إليه ابن الأثير^(٧) ورأى بعضهم أنها ليست من المجاز لأنك تعتبر في ألفاظ الكناية معانيها الأصلية، ثم يفيد بمعانيها معنى ثانياً هو المقصود. ترى هذا عند فخر الدين الرازي، يقول: "الكناية عبارة عن أن تذكر لفظة وتفيد بمعناها معنى

(*) ينظر مثلاً: علم البيان، د. بدوي طبيلة، ص ٢٣٤ وما بعدها. وينظر: البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطروب، د. حسن البصير، ص ٣٦٧ وما بعدها. وينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، د. كامل حسن البصير، ص ٣٢٨ وما بعدها. وينظر: التصوير البياني، د. حذني محمد شرف، ص ٢٢١ وما بعدها. وينظر: جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، ص ٣٤٥ وما بعدها. وينظر: البلاغة الواضحة، علي الجارم، مصطفى أمين، ص ١٢٣ وما بعدها.

(١) ينظر: الكناية، د. محمد جابر فياض، ص ١٩٧.

(٢) الطراز: ١ / ٢٧٥.

(٣) المثل السابق: ٣ / ٥٥.

(٤) نفسه: ٣ / ٥٤.

(٥) الطراز: ١ / ٣٧٦ وما بعدها.

ثانياً هو المقصود، وإذا كنت تفيد المقصود بمعنى اللفظ وجب أن يكون معناه معديراً، وإذا كان معديراً فما نقلت اللفظة عن موضوعها فلا يكون مجازاً " (١) أي أن المعنى الثاني هو " معنى المعنى " كما يسميه الجرجاني (٢) الذي يفيد اللفظ الكناني ليس بمجاز، لأن المعنى الأصلي هو دليل يقود إليه فينتهما تلازم وارتباط، وبذلك نحن نستعمل الألفاظ في معانيها الأصلية.

ويُفهم من كلام السكاكي أن الكناية حقيقة، قال: " واعلم أن التعريض نارة يكون على سبيل الكناية وأخرى على سبيل المجاز، فإذا قلت: أدبني فستعرف، وأردت المخاطب ومع المخاطب انساناً آخر معتمداً على قرائن الأحوال كان من القبيل الأول، وإن لم ترد إلا غير المخاطب كان من القبيل الثاني " (٣).

فالكناية عنده ليست مجازاً، وأن التعريض هو لون من ألوان الكناية، أو طريق من طرقها، ويكون أحياناً مجازاً على خلاف الكناية، كما مثل له في قوله " أدبني فستعرف " إذا كان المقصود غير المعنى الحقيقي الذي يمثله (المخاطب) وإذا المقصود من هو مع المخاطب بإمالة الكلام إليه.

وقال الخطيب القزويني: " فرّق السكاكي وغيره بوجه آخر وهو أن مدنى الكناية على الانتقال من الملزوم إلى اللازم " (٤).

وفرّق الخطيب بين الكناية والمجاز من جهة إرادة المعنى الحقيقي ولازمه، ولا يجوز في المجاز ذلك، لأن " المجاز ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة، وملزوم معاندة الشيء معاندة لذلك الشيء " (٥).

والذي يميل إليه: هو أن الكناية تعبير مجازي (٦) لأنه من أساليب التعبير غير المباشرة، وإن كان ظاهر اللفظ يوحي بمعناه الحقيقي، إلا أن هذا المعنى الحقيقي ليس هو المقصود في الكناية، وإنما المقصود معنى آخر يخدفي وراء ظاهر اللفظ ويرتبط به. وما دام المراد ليس هو معنى ظاهر اللفظ، فالأولى أن تكون الكناية من المجاز، كما أن هناك

(١) نهاية الإيجاز في تروية الإعجاز، ص ١٣٦. وينظر: نهاية الأرب، للتوحيدي: ٧ / ٦٠.

(٢) دلائل الإعجاز، ص ٢٦٣.

(٣) مفتاح العلوم، ص ١٦٤. وينظر: الإيضاح: ٢ / ٤٦٧.

(٤) الإيضاح: ٢ / ٤٥٦.

(٥) نفسه: ٢ / ٤٥٦.

(٦) ينظر: البلاغة العربية، المعاني والبيان والفتوح، د. أحمد مطلوب، ص ٢٣٨.

الوائءاً من الكناية يتعدّر فهم معناها الحقيقي أو إرادته، يتّضح ذلك بخاصة مع الكناية بالتمثيل.

الفرق بين الكناية والتعريض:

لاحظنا فيما عرضناه من أسلوب الكناية عند البلاغيين جمع الكناية مع التعريض عند أغلبهم كأنهما أسلوب واحد أو أنهما لفظان مترادفان (١). ولعل سبب هذا التقارب وجمع الأسلوبين في صعيد واحد عائد إلى أن " دلالة الكناية كدلالة التعريض في أن كلّ منهما لم يُصرّح فيه بالألفاظ الدالة على المعنى المقصود " (٢).

فالتعريض كالكناية في كونه لا يُراد به معناه الذي يدل عليه ظاهره، وإنما يُراد به معنى آخر يرتبط باللفظ الظاهر ويلزمه، إلا أن التلازم بين المعنيين في الكناية والتعريض مختلف، ففي الكناية أسسه العرف والعادة - في الأعم الأغلب - ولا يرتبط بموقف محدد أو سياق معين، على حين أن التلازم بين المعنيين في التعريض ينبع من الموقف الخاص الذي يُقال فيه الكلام (٣).

وفرق السكاكي بين الكناية والتعريض، وجعل التعريض جزءاً من الكناية وطريقة من طرقها (٤).

ووضع ابن الأثير الفروق الظاهرة بين الكناية والتعريض، فالتعريض عنده هو: " اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم " (٥) - فقوله - تعالى - ﴿ قَالُوا أَأَتَتْكَ مُنْكَاهُ ﴾ (٦) - دلالة إلى السامع من جهة المفهوم، لأن هدف إبراهيم عليه السلام إقامة الحجة والبرهان على قومه، بأن هؤلاء لا يضرّون ولا ينفعون فهم لا ينطقون، وأبسط مظاهر توقع الذفع أو الضر أن يعي الشيء، ويتكلم ليحقق ما يُريد، والحجر لا يعي ولا يتكلم فسلب حديث أبسط مظاهر

(١) ينظر مثلاً: كتاب الصناعاتين، ص ٣٦٨، والمقدمة: ٣٠٢ / ١ - ٣٠٣.

(٢) علم البيان، د. بدوي طيبة، ص ٢٥٦.

(٣) ينظر: التعبير النبائي، د. شقيع السيد، ص ١٥١.

(٤) ينظر: ص. من:، وينظر: مفتاح العلوم، ص ١٩٠، ١٩٤.

(٥) المثال السائر: ٥٦ / ٣.

(٦) سورة الأنبياء، الآيةان: ٦٢ و ٦٣.

الضر والنفع (١) وفي قوله - تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَدَّدْتُمْ إِلَّا يَسْعَى تَتَلَوْنَا وَما تَرَدَّدْتُمْ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنَّا بَاوُونَ أَرْأَى وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَذِبِينَ ﴾ (٢)، تعريض بأن الله لو أرسل بشراً رسولاً، لاخترنا دونك لاعتبارات في مقابلتهم نقضي أحدهم الذبوة كما يتخيلون (٣) وفي قوله - تعالى: ﴿ حَرَبَكُمْ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْراتٌ نوحٌ وأَمْراتٌ لوطٌ كانا تحتَ عِدينِ مِن عبادنا صالحين فخانتاهما فلا يُغْنِيانِ عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شيئاً وقيل أَدْخَلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِيَيْنِ ﴾ (٤) في هذه الآية تعريض. قال الزمخشري: " وفي طي هذين التمثيلين تعريض بأبي المؤمنين المذكورين في أول السورة (عائشة وحفصة) وما قرط منهما من الظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه، وتحذيرهما على أغلب وجه واشدهوان لا تنكلا على أنهما زوجا رسول الله ﷺ فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين " (٥)

وبذلك تكون دلالة التعريض أخفى من دلالة الكناية، لأن دلالة من جهة المفهوم، ودلالاتها لفظية وضعية من جهة المجاز، وقول ابن الأثير في ذلك وفي بيان الفروق الأخرى سبق ذكره (٦).

ومفهوم التعريض عند العلوي لا يختلف عن مفهومه عند ابن الأثير (٧) والذي تنتهي إليه أن التعريض لون من ألوان الكناية، أو طريقة متميزة من طرقها له خاصية فنية في التعبير عن المعنى إذا جاء في سياقه النابع من الموقف الخاص الذي يقال فيه الكلام. ويبرز التعريض في القرآن الكريم بخاصة بوصفه " أسلوباً مشرقاً من الأساليب النبائية يحتمل الأدب القرآني، وتدعو إليه لغته المهدية، تقويماً للخلق، وصيانة للنفس الانسانية من العبث والغيب والإثارة المؤذية " (٨).

(١) ينظر: المثل السائر: ٣ / ٧٢. وينظر: حقائق الزهر والريحان في البيان عن بلاغات التبيان، ص ٣٢. وأصول البيان العربي رؤية بلاغية معاصرة، د. محمد حسين علي الصغير، ص ١١٨.

(٢) سورة هود، الآية: ٢٧.

(٣) ينظر: المثل السائر: ٣ / ٧٢، وأصول البيان العربي، رؤية بلاغية معاصرة، ص ١١٩.

(٤) سورة التحريم، الآية: ١٠.

(٥) الكشف: ٤ / ٤٥٨.

(٦) ينظر: ص ٤٥ من: • وينظر: المثل السائر: ٣ / ٥٧.

(٧) ينظر: الطراز: ١ / ٣٩٧ - ٣٩٨.

(٨) أصول البيان العربي، رؤية بلاغية معاصرة، ص ١١٩.

معيّار الجودة في الكناية عند البلاغيين :

أجمع دارسو البلاغة على أن أسلوب الكناية هو أبلغ من الإفصاح، وأن التعريض أوقع من التصريح.

يقول عبد القاهر الجرجاني: " قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح " (١).

ويقول الأسكاكي: " واعلم أن أرباب البلاغة وأصحاب الصياغة للمعاني مطبقون على أن المجاز أبلغ من الحقيقة وأن الاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه وأن الكناية أوقع من الإفصاح بالذكر فيصير حال الكناية كحال المجاز في كون الشيء معها مدعى ببيئة ومع الإفصاح بالذكر مدعى لا ببيئة " (٢).

وذهب السبكي أن الكناية " هي أبلغ من كل مجاز مرسل ويحتمل أن يقال إنها أبلغ من الاستعارة أيضاً " (٣).

وفي إطلاقهم بأن المجاز أبلغ من الحقيقة، والكناية أوقع من التصريح هكذا مجرداً من سياق، بجانب الحقيقة، إذ أن أبلغية أي أسلوب يحدده السياق الذي يتشكل فيه، فالأسلوب المجازي يكون أبلغ من الحقيقي إذا جاء في سياقه الذي يتطلبه، والحقيقي يكون أبلغ من المجازي في مقامه، فليس هناك أسلوب أبلغ من أسلوب مجرداً من سياق ومقتضى حال، فالسياق هو الذي يحدد أبلغية الأسلوب.

والملاحظ أن البلاغيين القدماء قد استندوا في تحديد أبلغية الأسلوب الكنائي إلى معيار دقيق واضح، بوصفه أسلوباً قنياً غير مباشر، يؤدي لفظه الصريح بمعناه إلى معنى ثانٍ يرتبط بالمعنى الأول ويلزمه، وفي هذا إثارة للذهن وحسن وقع في النفس وشدة تأثير في المخاطب بما يتمثله من لوازم حسية تجسد له المعنى المقصود.

وللو صول من المعاني الأول إلى المعاني الثانوي كما يُسميها الجرجاني (٤) يتم بوسائط، وفي ضوء هذه الوسائط من حيث قريتها أو بعدها، خلقها أو جلاوها كان تقويم البلاغيين لأسلوب الكناية.

(١) دلائل الإعجاز ، ص ١٠٩.

(٢) مفتاح العلوم ، ص ١٦٤-١٦٥. وينظر: الإيضاح: ٢ / ٤٦٨.

(٣) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، ضمن شروح التلخيص: ٤ / ٢٧٧.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز ، ص ٢٦٣-٢٦٤.

وأول من أشار إلى هذه الوسائط هو قدامة بن جعفر في دراسته للكناية التي سمّاها (الأرداف). وقد استبعد قدامة من الأرداف من دائرة الشعر، لكونه غامضاً بسبب كثرة الوسائط وغموضها إلى الحد الذي يتعذر معه فهم معناه. قال: "ومن هذا النوع ما يدخل في الأبيات التي يسمونها أبيات المعاني، وذلك إذا ذكر الردف وحده، وكان وجه اتباعه لما هو ردف له غير ظاهر، أو كانت بينه وبينه أرداف آخر، كذاها وسائط، وكثرت حتى لا يظهر الشيء المطلوب بسرعة إذا غمض، ولم يكن داخلاً في جملة ما ينسب إلى جيد الشعر إذ كان من عيوب الشعر وتُعذر العلم بمعناه" (١).

وأشار الجرجاني في تحليلاته لأسلوب الكناية إلى هذه الوسائط وجعل معيار الجودة فيها راجعاً إلى بيانها ووضوحها في الدلالة على المعنى المقصود، وجعل ذلك شرطاً من شروط البلاغة، قال: "إن من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلاً على المعنى الثاني ووسيطاً بينك وبينه متمكناً في دلالاته، مستقلاً بوساطته، يسفر بينك وبينه أحسن سفارة، ويشير لك إليه أبين إشارة، حتى يخيل إليك أنك فهمته من حاق الألفاظ وذلك لقلة الكلفة فيه عليك، وسرعة وصوله إليك" (٢).

فبلاغة الأسلوب الكنائي تعتمد على النسج الداخلي الذي يربط بين المعنيين الأصلي والمقصود (٣) من حيث بعد الوسائط وقربها، وغموضها، ووضوحها.

ويتضح معيار الجودة في الأسلوب الكنائي عند السكاكي في صورة واضحة منظمّة، إذ يجترح مصطلحات في ضوء الوسائط، ويقسم الكناية على ضوئها، فيقول: "مئى كانت الكناية عرضية على ما عرفت كان اطلاق اسم التعريض عليها مناسباً، وإذا لم تكن كذلك نظر فإن كانت ذات مسافة بينها وبين المكنى عنه سباً عدة لتوسط لوازمها في كثير الرماد وأشباهه كان اطلاق اسم التلويح عليها مناسباً لأن التلويح هو أن تشير إلى غيرك عن بعد، وإن كانت ذات مسافة قريبة مع نوع من الخفاء كنحو: عريض القفا وعريض الوسادة كان اطلاق اسم الرمز عليها مناسباً، لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على

(١) نقد الشعر، ص ١٥٩.

(٢) دلائل الإعجاز، ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٣) الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، ص ١١٣.

سبيل الخفية، وإن كانت لا مع نوع الخفاء كان اطلاق اسم الايماء والإشارة عليها مناسباً " (١)

وهذه المصطلحات التي ذكرها السكاكي من (تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة) قد تبنّاها البلاغيون بعده في دراستهم الكنائية، ومن ثم حدّدوا قوّتها أو ضعفها، فقد استندت إلى معيار تابع من رؤية بلاغية تحدّد بوضوح الصورة الكنائية ووظيفتها في التعبير غير المباشر عن المعنى.

وفي ضوء هذا الاستعراض التاريخي لمفهوم الكناية عند البلاغيين القدامى والمتأخرين يمكن استنتاج خلاصة واقية تحيط بتعريفها وأنواعها، ويمكن بوساطتها دراسة الكناية القرآنية بوصفها أسلوباً من أساليبه المتميزة لها خصائصها الفنية في التعبير والتصوير والتأثير.

تبيّنت الخلاصة تعريف الكناية عند البلاغيين المتأخرين بأنه: " لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذٍ.

وفي المذطور المعاصر هي لفظ أو صورة مذكورة على سبيل المجاز بديلة عن أخرى محذوفة، وهذه الصورة تعبر عن المعنى المراد بطريق الحقيقة والمسوخ لذلك أن الأولى لازمة لتحقيق الثانية، أي هي " ضرب من العدول عن لفظ يقرّر معناه حقيقةً وصراحةً والإتيان بلفظ آخر يؤدي هذا المعنى في شيء من التناول على أن تكون هناك علاقة لازمة بين اللفظين فيما يؤديه، لذلك فإن هذه العملية اللغوية تنتج لنا صورة بديلة لازمة لما عدل عنه وترك إلى سواء " (٢).

ومثال ذلك قولهم: " طويل الدجاد " و " كثير الرماد " و " تؤوم الضحى " هي صور كنائية بديلة عن الرجل طويل القامة، وعن الرجل الكريم، وعن المرأة المترفة التي لها من يخدمها. وثمة فرق بين الصورة الكنائية وبين ما عدل عنه من معانٍ حقيقية، فالصورة الكنائية هي تصوير للمعنى لا نلاحظه في المعنى الذي عدل عنه. فقولنا: (هذا رجل كريم) هو تعبير مباشر من غير تصوير فني، أما إذا عدلنا عن هذا اللفظ وقلنا " كثير الرماد " رسمنا صورة حسية مُشاهدة لصفة ذلك الرجل يصل فيها المعنى إلى المتلقي

(١) مفتاح العلوم ، ص ١٦٤.

(٢) بناء الصورة الفنية في البيان العربي ، د. كامل حسن البصير ، ص ٣٢٨.

بتجسيد يخضع للمقايسة ويُفضي من ثم إلى التوكيد وقوة التأثير، وهذا الملحظ الفني في الكناية قد عبر عنه عبد القاهر الجرجاني بقوله: "أما الكناية فإن السبب في أن كان للادِّبَات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عقل يعلم - إذا رجع إلى نفسه - أن أثبتت الصفة بأدِّبَات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، أكد وأبلغ في الدعوة من أن تحيء إليها فتشبهها هكذا سائجاً غفلاً، وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف وبحيث لا يشك فيه ولا يظن بالمخبر التجوُّز والغلط" (١).

ومثاله أيضاً قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (٢) فالآية الكريمة تنهى عن صفتين مذمومتين هما: البخل والتبذير. وقد عدل التعبير القرآني عن صفة (البخل) إلى التصوير الكنائي الفني ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾، نرى فيه البخل وقد بدا ذراعه متجعداً وكفه مقبوضة في صورة محسوسة تتماثلها العين ويتحسسها الوجدان فهو مغلول اليد قد شنت إلى عنقه لا يبدر منه عمل يُنتفع به، ولا ينهى بمهمة يفيد منها الآخرون. فالصورة الكنائية بديلة عن حقيقة لازمة لصفة البخل، فهي صفة تنفر الناس منه لما يروته عليه عياناً ويحسونه فيه مشاهدة.

وعدل التعبير القرآني كذلك عن صفة (الاسراف) إلى الصورة الكنائية البديلة ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ فإذا المصرف الباذخ يبسط يده غاية البسط ويلج على بسطها في عناء وعنت، فهو يُصوِّر للناس في هذه الصورة البديلة واقع أمره واللازم لهذا الواقع، فيفهم المتلقون أنه بهذا يصير نفسه بعدم الإبقاء على شيء يتفقد ويجنح سواء (٣).

وبذلك يتجلى الفرق في التعبير عن الأفكار والمعاني بين الأسلوب الكنائي المصوِّر الموحى بطريق إثارة الحواس والذهن والمخيلة وبين التعبير الحقيقي المباشر الذي عدل عنه القرآن، وهنا وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم.

ونظر البلاغيون في طبيعة (المكنى عنه) الذي يتوارى خلف سحف الكناية فجعلوه ثلاثة أصرب وتبعاً لذلك قسموا الكناية إلى أنواع هي: الكناية عن الصفة، والكناية عن الموصوف، والكناية عن النسبة (٤).

(١) دلائل الإعجاز، ص ١١٠-١١١.

(٢) سورة الإسراء، من الآية: ٢٩.

(٣) ينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص ٣٣.

(٤) ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٩٠ وما بعدها. وينظر: الإيضاح: ٢ / ٤٥٧.

كما نظروا في السياق والوسائط التي توصلنا إلى المكنى عنه، فنبينا على ذلك خمسة أصرب هي: التعريض والتلويح والإيماء والإشارة والرمز (١).

وكل ما ذكرناه من هذه الأصرب هي صور بدئية لازمة للمعنى المقصود يتميز الواحد من الآخر بسمة لغوية وفنية في التعبير عن الأفكار والمعاني بحيوية وقوة تأثير في المتلقي (٢).

فالتعريض هو ضرب من الكناية، ويعتمد إدراك مفهومه على السياق، لذا فإن مدلوله خفي مستتر يهتدي إليه المتلقي ويكشفه من خلال ظرف القول ومناسبته وما إليهما من قرآن لا ينض بها البناء اللغوي مباشرة وإنما تنهادى في حدث تاريخي ومدعاة اجتماعي وعارض شخصي، ومع ذلك كله ينبغي أن تتوفر هذه القرائن لنلاً وضل المتلقي وينتبه عن المراد من التعريض (٣)، وقد ورد (التعريض) في القرآن الكريم بكثرة ملحوظة تكشف أمثله القرائنية عن طبيعته بوصفه ضرباً من ضروب الكناية.

أما التلويح فهو في اللغة أن تشير إلى غيرك من بعد (٤) وفي الاصطلاح: هو الكناية التي بينها وبين المعنى المكنى عنه مسافة متباعدة وذلك بسبب كثرة الوسائط التي تتوسط بين اللفظ الكنائي وبين المعنى المكنى عنه المقصود (٥).

وأما الإشارة والإيماء فهما لفظان مترادفان يلتقيان لغة في أن تشير إلى قريب منك إشارة واضحة (٦) وفي الاصطلاح هما الكناية التي قلّت وسائطها مع وضوح المكنى عنه الذي تفضي إليه (٧).

أما الرمز فهو في اللغة أن تشير إلى قريب منك بنحو شفه أو حاجب (٨) وقيل أصل الرمز: "الكلام الخفي الذي لا يكاد يفهم، ثم استعمل حتى صار الإشارة وقال القراء: الرمز بالشفنتين خاصة (٩) وقال ابن منظور: "الرمز تصويت خفي باللسان كالهمس، ويكون

(١) ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٩٠. وينظر: الإيضاح: ٢ / ٤٦٦.

(٢) ينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص ٣٢٤.

(٣) بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص ٣٣١ - ٣٣٢.

(٤) ينظر: لسان العرب: ٢ / ٥٨٦ (لوح).

(٥) ينظر: الإيضاح: ٢ / ٤٦٦. وينظر: البلاغة والتطبيق، ص ٣٧٥.

(٦) ينظر: لسان العرب: ١ / ٢٠١ (وما) و: ٤ / ٤٣٦ - ٤٣٧ (شور).

(٧) مفتاح العلوم، ص ١٩٤. الإيضاح: ٢ / ٤٦٧، والبلاغة والتطبيق، ص ٣٧٧.

(٨) ينظر: أساس البلاغة، ص ١٢٧٨ (رمز)، الإيضاح: ٢ / ٤٦٦.

(٩) العمدة: ١ / ٣٠٦.

بتحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إيانة صوت، إنما هو إشارة بالشفتين " (١).
فالرمز في لغة العرب على وجه الاجمال هو الإشارة، وفي كلامهم ما يدل على أن
الإشارة أو الرمز طريق من طرق الدلالة، فقد تصحب الكلام فتساعده على البيان
والافصاح، لأن حسن الإشارة باليد أو الرأس من تمام حسن البيان كما يقول الجاحظ (٢). أو
تنوب الإشارة عن الكلام فتستقل هي بالدلالة، أو أن الانسان يلجأ إلى الإشارة حين العجز
عن الكلام كالذي جعله الله آية لذكرى عليه السلام على ما بشره به من الولد، لما دعا الله - تعالى -
أن يجعل له آية على ذلك: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ مَا يَتْلُوكَ إِلَّا تُحَكِّمُ النَّاسَ فَلَئِنَّ آيَاتِهِ إِلَّا وَعْزًا
(٣) ﴾

والجاحظ أول أديب عربي اطلال في الكلام على الإشارة، وجعل الإشارة ضرورة
للخطيب، لكنه لم يبالغ فيها (٤) وتمتاز دلالة الإشارة بما يأتي:
- إنها سريعة قصيرة.

- غير مباشرة أي لا تفصح عن دلالتها إفصاحاً مباشراً، لأن الدلالة المباشرة تكون
بطريق الالفاظ بحسب ما تدل عليه من معانيها اللغوية الوضعية.
- أن تكون خفية، والخفاء هو نتيجة الخاصيتين السابقتين، فهي لسرعتها وقصرها
لا يفهمها إلا الفطن الذي يكون ذهنه مهياً لها، كما أن الدلالة غير المباشرة
بطبيعتها هي أقل وضوحاً من الدلالة التقريرية المباشرة (٥).

أما في الاصطلاح فقد أطلق البلاغيون المتأخرون (الرمز) على الكناية الرامزة
وهي التي قادت وسانطها إلى المكنى عنه مع خفاء (٦) وقد تناول البلاغيون أمثلة من
التعابير العربية الموروثة شواهد عليها، منها قولهم: (عريض القفا) كناية عن البلادة (٧).
فإن لزوم البلادة لعرض القفا لا يعرفه إلا القليل، وكذلك قولهم: عريض الوسادة، لينتقل منه

- (١) لسان العرب: ٥ / ٣٥٦ (رمز).
- (٢) البيان والتبيين: ٧٠/١. وينظر: الرمزية في الأدب العربي، د. درويش الجندي، ص ٤١، ٤٤.
- (٣) سورة آل عمران، من الآية ٤١. وينظر: الرمزية في الأدب العربي، ص ٤٢.
- (٤) ينظر: البيان والتبيين: ١ / ٦٩، ٧٠، ٧٧، ٧٨.
- (٥) ينظر: الرمزية في الأدب العربي، ص ٤٣.
- (٦) ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٩٤. وينظر: الإيضاح: ٢ / ١٦٦، والبالغة والتطبيق، ص ٣٧٦.
- (٧) ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٩١. وينظر: الإيضاح: ٢ / ٤٥٨.

إلى عرض القفا، ثم إلى اليلادة، فالواسطة بين الكناية وما ترمز إليه شيء واحد، ولكنه لازم خفي^(١) ومنها قولهم: (أملس الجلد) كناية عن الذي لم يُدَنَّ من بعار ولم تُصبه مثابة حيث كان يُقال للرجل الذي لا يلصق به دم هو أملس الجلد^(٢).

فالكناية الرامزة عند هؤلاء البلاغيين قد استوت تحبيراً لغوياً، لا يعسر تحديدها ومداولها كما لو كانت بناءً لغوياً متعارفاً عليه في تداوله والعدول به عن اللفظ المباشر الصريح^(٣). وحتى الشعراء الذي استخدموها أداة في التعبير والتصوير على الرغم من خفائها فإنها قريبة إلى ذهن المتلقي فيما تُشير إليه من معان وأفكار ولا تجهد في خفائها وغموضها، ومما مثّل به البلاغيون للرمز قول أحد القدماء يصف امرأة قُتل زوجها ومُسيّت:

عَقَلْتُ لَهَا مِنْ زَوْجِهَا غَذَّةَ الْحَصَى شَعِجَ أَوْ شَعَجَ جَنَحَ كُلِّ أَصِيلٍ
يريد اني لم اعطها عقلاً ولا قوياً بزواجها، ألا الهم الذي يدعوها إلى عد الحصى.
وأصله من قول امرئ القيس:

ظَلَلْتُ رِدَائِي فَوْقَ رَأْسِي قَاعِدًا أَعَدَّ الْحَصَى مَا تَنْقُضِي عِبْرَاتِي^(٤)
فالشاعر في حالة نفسية من القلق والهم والحزن، وقد رمز لحالته النفسية بوضع الرداء على الرأس، وعد الحصى، وسيلان العبرات وهي بديلة عن عبارات صريحة مثل (أنا حزين أشاعل نفسي فلا تجدي مشاغلتي فما أنفك أبكي). فما استعمله الشاعر من كنايةات رامزة عللها غم من خفائها فإنها قريبة إلى المتلقي فيما ترمز إليه لا يتيه في الإغراب ولا يضل عن المقصود، وبهذا المفهوم أصبح الرمز من الكنايةات الفنية بما فيها من طاقة إيحائية قد تقرر بناؤها على وفق سنن العربية وما جرى به معجمها الاجتماعي الفني^(٥).

وأجلى خصائص الكناية الرامزة الإيجاز وغير المباشرة في التعبير عن المعنى، وبسبب هاتين الخاصيتين بلغها الخفاء والغموض. والإيجاز وغير المباشرة هما الدعامتان

(١) ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٩٠.

(٢) بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص ٣٣٣.

(٣) ينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص ٣٣٤.

(٤) العمدة: ١ / ٣١٥. وينظر: البلاغة والتطبيق، ص ٣٧٦.

(٥) ينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص ٣٣٤.

الأساسيتان للرمزية في الأدب العربي (١)، فالإيجاز يزيد في دلالة الكلام من طريق الإيحاء، لأنه يترك على أطراف المعنى ظلالاً خفيفة يشتغل بها ذهن، ويعمل فيها الخيال، حين تبرز وتقلون وتتنوع، وتتسحب إلى معان أخرى، يتحملها اللفظ بالتفسير أو التأويل (٢)، وأما غير المباشرة في التعبير - الدعامة الثانية للرمزية العربية - فهي من خواص اللغة الأدبية بوجه عام. ومعنى هذه الخاصية: الخروج على أوضاع اللغة، لصلة من الشيء، أو لاية علاقة من التجوز (٣) وقد سلك الأدب العربي إلى غير المباشرة في التعبير مسالك مختلفة أهمها: الكناية والمجاز، يقول عبد القاهر الجرجاني في "فصل في اللفظ يطلق والمراد غير ظاهره": "اعلم أن لهذا المضرب اتساعاً وتقناً لا إلى غاية، إلا أنه على اتساعه يدور في الأمر الأعم على شيئين: "الكناية والمجاز" (٤).

والغموض الناشئ عن هذين الخاصيتين هو غموض مستحسن ما دام سببه دقة الفكرة وعمقها، ويرجع عبد القاهر الجرجاني استحسنه لهذا الغموض الفني إلى طبيعة نفسية فيقول: "من المركز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالميزة أولى، فكان موقعه من النفس أجلاً وألطف، وكانت به أضن وأشغف، وكذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظما" (٥). أما الغموض المتفعل الذي يكون نتيجة تعقيد الأسلوب وسوء ترتيب الكلام فهو غموض مذموم عند الجرجاني، لأنه يكدّ الذهن فيما لا طائل تحته، ويقول عبد القاهر: "والمعقد من الشعر والكلام لم يذمّ لأنه مما تقع حاجة فيه إلى الفكر على الجملة، بل لأن صاحبه يعثر فكرك في متصرفه، ويشيك إلى المعنى، ويوعر مذهيك نحوه. بل ربما قسم فكرك، وشعب ظنك، حتى لا تدري من أين تتوصل وكيف تطلب" (٦).

فالأصل في جمال الغموض في التعبير الأدبي عند العرب أن يكون مصدر طاقة إيحائية يترك على أطراف المعاني ظلالاً خفيفة تعمق المعنى وتلونه وتوسعه لا أن يكون

(١) ينظر: الرمزية في الأدب العربي، ص ٥٥، ٦٨.

(٢) دفاع عن البلاغة، ص ٩٩.

(٣) ينظر: الرمزية في الأدب العربي، ص ٥٥.

(٤) دلائل الإعجاز، ص ١٠٥.

(٥) أسرار البلاغة، ص ١١٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٢٥-١٢٦.

مغلقاً يقف أمامه القارئ حائراً دهشاً - فلا جمال ولا فن - (١) ومن ثم يمكن أن يلتقي مفهوم الرمز في المذهب الرمزي الغربي مع مفهوم الرمز في الأدب العربي في عدد من الخصائص الفنية، فكلاهما إيحائي بجوهره لا يكفني بتصوير الأشياء المادية، بل يسعى إلى نقل تأثيرها في النفس بعد أن يلتقطها الحس. وغاية الشاعر الرمزي الوصول إلى خلق حالة نفسية معينة في جو القصيدة.

ولما كانت اللغة العادية، التي لا تتعدى الشيء المحسوس عاجزة عن نقل الحالات النفسية الغامضة، لجأ الشاعر إلى الرمز لما فيه من طاقة إيحائية في التعبير عنها (٢). فالرمز هو استحضار لتجربة شعورية، يقول الناقد كيث بيرك: إن الرمز هو المقابل اللفظي للتجربة الإنسانية المعاشة، ولذلك فهو يتميز بالقوة والحيوية والتدفق والتعقيد، ولا يعني التعقيد صعوبة إدراكه ولكنه يعني تعدد الأبعاد والجوانب، وهذا يمكن الرمز من أن يبرز الخط الرئيسي في العمل الأدبي ويزيد من اقناعنا به (٣)، وأحياناً يكون الرمز بمثابة تنفيس للعواطف والاحساسات التي أثارها العمل الأدبي داخل القارئ، وأحياناً أخرى يقوم الرمز ذاته بإثارة العواطف والاحساسات الراكدة داخله، وهكذا تتعدد وظائف الرمز بتعدد واختلاف التصوص الواردة بها (٤) وهو في كل يقوم بوظيفة عضوية في العمل الأدبي.

أما إذا أصبح الرمز وسيلة تعقيد وعموض شديدين كما هو طابع الرمز عند الغربيين - على الأعم الأغلب - وهو من السأخذ التي أخذها النقاد عليها (٥) فإنها تفرق بذلك عن مفهوم الرمز العربي في التعبير الأدبي عند العرب بوصفه طاقة إيحائية في التعبير والتصوير.

(١) ينظر: الرمزية في الأدب العربي، ص ١٦.

(٢) ينظر: الرمزية والأدب العربي الحديث، أنطوان كرم، ص ١٢. وينظر: الأنثى الرمزية، هنري بير، ترجمة: هنري زعيب، ص ١٠- ١١. وينظر: الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني، أمية حمدان، ص ٢٨- ٢٩.

(٣) المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العنيفة، د. نبيل راغب، ص ١١٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٥) ينظر: الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني، ص ٣١.

وثمة مأخذ كثيرة أخذها النقاد على الرمزيين منها: إصرافهم في عذ الشعر ضرباً من الموسيقى الخالصة^(١)، ونزعهم الذاتية المسرفة في تبليغ آرائهم في الحقائق النفسية والكونية، واعتمادهم الأحلام والروى للوصول إلى أعماق النفس، فجاءت صورهم الشعرية غريبة غامضة يعسر على القارئ إدراكها^(٢) وفهمها. هو ما يلاحظ في الرمزية الغربية وما يأتي على شاكلتها في الأدب العربي الحديث حيث نزع أصحابها إلى تقليد الغرب^(٣) ويمكن القول على وجه الإجمال: "أن الرمزية الغربية في جملتها مذهب انطواني يجنح إلى الأثرة ويعيش في الظلام. مذهب يدعو إلى اعتزال المجتمع ويضنّ بالأسب أن يكون هادياً ومرشداً إلى الخير والحق، وينفر من العقل والمنطق ويجنح إلى الخيال الشارد والوهم الذي لا سند له من التفكير المستقيم ويخلط بين المدركات الحسية التي أراد لها الله أن تكون متميزة، فجعل لكل مدرك حاسة وجعل الحواس خمساً لا واحدة. وهو مذهب يطلب المستحيل فلن يكون الشعر أبداً موسيقى خالصة، لأنّ الشعر مكوّن من كلمات، والكلمات مرتبطة بمعانيها، ولا يمكن أن تتجرد من هذه المعاني لتصير نغمات خالصة كما تبين ذلك للرمزيين الغربيين أنفسهم، فاعترفوا بعجزهم عن تحقيق هذا المطلوب الجامع، كما لا يمكن كذلك أن يتصل الفنان الشاعر بعالم الجمال الأعلى عن طريق شعره وفنه، يتخذ من ذلك تعويذ ورقى ليصل إلى سر الوجود وهو معمور في حمأة الدنس والذيلة، كما كان معظم أدباء الرمزية"^(٤).

أما الرمزية في القرآن الكريم فلا بدّ من الإلمام بها إلمامة عاجلة لأنها متصلة بموضوعنا اتصالاً وثيقاً، فقد احتوى القرآن على صور تمثّل الرمزية العربية في أسمى مظاهرها وفي كلا ركنيها: الإيجاز، وغير المباشرة في التعبير^(٥)، فالرمزية في القرآن في جملتها جارية مجرى الرمزية العربية ذات المعاني المقررة المحددة التي تسدّ شفا من

(١) ينظر: الخلاصة في مذاهب الأدب الغربي، د. علي جواد الطاهر، ص ٥٧. وينظر: المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العنيفة، ص ١١٦.
(٢) ينظر: الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني، ص ٢٨.
(٣) ينظر: الرمزية والأدب العربي الحديث، انطوان عطاس كرم، ص ١٨٣.
(٤) الرمزية في الأدب العربي، ص ٥٤٢-٥٤٣.
(٥) نفسه، ص ١٨٨.

العبارة الموجزة والصور المجازية والكنائيات وما إلى ذلك مما لا يعبر مباشرة عن المعاني (١)

والتعبير الرمزي في القرآن تجده مذكراً في أغلب سورته مما يحمل على إرادة الرمزية بمعناها الدقيق (٢) فهو يأخذ الرمز وسيلة مهذبة من وسائل التعبير الفني، دون تجريح أو تفرع أو لوم أو تعذيف، بما يترك شعوراً غامضاً بالذنب أو أسمى داخلياً في المشاعر والعواطف، وإنما يمس النفس مساً رفيقاً، ويداعب العواطف مداعبة هادفة (٣) من ذلك كنياته الأدبية المبنوثة في كثير من سورته، منها قوله - تعالى - في صفة المسيح ﷺ: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُتِمَّتْ صِدْقُهُ كُنَّا نَمْكِنُ لَكَ الْأَعْمَالُ﴾ (٤) فاي أدب أسمى من هذا الأدب الذي يتمثل في الكناية يأكل الطعام عن الغائط والنول، لأنهما بسبب منه إذ لابد للأكل منهما (٥) وقوله - تعالى - في المهر: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ (٦) فكنى بالإفضاء عن الإصابة، وقيل عن الخلوة، والأول أصح لأن العرب إنما تكني عما يفتح ذكره، والخلوة لا يفتح ذكرها (٧) وغير ذلك من الكنائيات القرآنية التي أولاها البلاغيون والنقاد العرب عناية بالذكر وبيان المعاني التي تنطوي تحتها، كما عرضناها في هذا التمهيدي، ولابد من القول إن ما ذكره البلاغيون والنقاد والمفسرون من الكنائيات القرآنية كان محدوداً إذ يكرر - على الأغلب - اللاحق منهم ما ذكره السابق من شواهد الكناية القرآنية، لذلك ظلت الكناية القرآنية بحاجة إلى استقصاء شامل في القرآن كله (٨) استقصاء يجمعها على صعيد واحد يمهّد لدراستها دراسة موضوعية شاملة تبين خصائصها التعبيرية والتصويرية بوصفها أسلوباً من أساليب القرآن البليغة المعجزة.

(١) الرمزية في الأدب العربي، ص ١٩٤.

(٢) أصول البيان العربي رؤية بلاغية معاصرة، ص ١٢٢.

(٣) نفسه، ص ٢١.

(٤) سورة المائدة، من الآية: ٧٥.

(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣٠٤.

(٦) سورة النساء، من الآية: ٢١.

(٧) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣١١.

(٨) ينظر: الأسلوب الكناني نشأته تطوره بلاغته، محمود السيد شيخون، ص ٥٧-٥٨.

الفصل الأول

الكناية الجنسية

الفصل الأول

الكناية الجنسية

نقصد بالكناية الجنسية الكناية الدالة على العلاقة الجنسية بين الزوج وزوجته بالدرجة الأساس، إذ إنّ هناك نوعين من العلاقة الجنسية: العلاقة الجنسية المشروعة، وهي علاقة التزاوج بالطريق المشروع الذي أحله الله ﷻ، وهي علاقة تُحقّق أهدافها ومنها الحفاظ على كيان المجتمع الإنساني من الضياع والتفكك والدمار، أما النوع الثاني: العلاقة الجنسية غير المشروعة بطريق القوضى والإنحلال والتفصيح في الخلق، فهي العلاقة التي حرّمها الله وحرّمها الشرائع والقوانين^(١)

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذين النوعين من العلاقة الجنسية بالأسلوب الكناني السوحي، وبخاصة عن الفعل الجنسي بين الزوج وزوجته، إذ لا يصرح بهذا الفعل في القرآن كلّهُ^(٢)، وإنما يُكنّى عنه بالألفاظ تدلّ عليه، فهو مرة يكنّى عنه بـ (الملاسة والامس والغشيان والتقرّب والإقضاء والدخول والإتيان والمباشرة والرفق والتمتع والاعتزال واللباس والهجر في المضاجع والسر...) في الحياة الدنيا، ومرة يكنّى عنه بـ (الطمث والفرش المرفوعة) في الجنة في الحياة الأخرى.

وإذا لا يصرح القرآن بالفعل الجنسي فإنه يعمد باستبدال الألفاظ قبيحة فاحشة بالألفاظ حسنة في التعبير عن المعنى المقصود، وبذلك يتجلى البعد التهديبي الذي تدطوي عليه الكناية القرآنية الجنسية، فهي تتسامى وترفع عن التصريح بالألفاظ المفحشة التي تخذش الشعور وتخط من النوق الجمالي، وبذلك تبعث الكناية القرآنية جواً نفسياً إيجابياً خاصاً عند المتلقي لها يختلف عما تبعثه الدلالة التي يؤديها التعبير المباشر.

(١) ينظر: العلاقات الجنسية غير الشرعية وعقوبتها في الشريعة والقانون، د. عبد الملك السعدي، القسم الأول، ص ٣٤.

(٢) أما الفعل الجنسي بالطريق غير المشروع كالزنا، فإن القرآن يصرح به أحياناً كما سيأتي بيانه.

وقد أشار البلاغيون القدامى إلى هذا البعد التهذيبي في دراستهم للكنائية، من ذلك ما ذهب إليه المبرد بقوله: "من الكناية - وذلك أحسنها - الرغبة عن اللفظ المخسّيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره" (١).

فالبعد التهذيبي التربوي هدف من أهداف الكناية القرآنية، ويتجلى هذا الهدف بخاصة مع الكناية الجنسية في التعبير عن العلاقة بين الزوجين، فيرتفع بهذه العلاقة إلى أفق كريم يبنى بها عن الصورة الحيوانية الغليظة، ومن مجموع إحياءات الكناية القرآنية الجنسية نلاحظ إحياءاً للإنسان بالصورة "الإنسانية" في المباشرة والالتقاء.

وفضلاً عن هذا البعد التهذيبي التربوي فإن الكناية القرآنية الجنسية تحقق كذلك إحياءات فنية تتسجم مع السياق الذي تتشكل فيه لا نلمحها في التعبير الصريح الفاحش، وذلك لأن الكناية وسيلة حيوية في التعبير، لكونها من الأساليب الإيحائية، فهي لا تدل على المعنى في صورة مباشرة، وإنما يعمل الذهن فيها والخيال في الوقوف على المعنى المقصود.

والقرآن يختار الكناية اختياراً دقيقاً في التعبير عن المعنى المراد، إذ إن "كل كلمة في القرآن موضوعة في موضعها اللائق بها" (٢) تؤدي معناها، وتحقق في سياقها أبعاداً معنوية ونفسية وجمالية.

(١) الكامل: ٢ / ١٩١، وينظر مثلاً: الزهران في وجوه البيان، ابن وهب، ص ١٢٢، وسر الفصاحة، ص ١٥٥ - ١٥٦، ونبيع القرآن، ابن أبي الأصمعي المصري، ص ٥٢، والتبيان في البيان، للطبري، ص ٢١٤.

(٢) تفسير المنار، محمد عبده: ٢ / ١٢، وينظر: من بلاغة القرآن، أحمد بدوي، ص ٥٧.

(٣) لا يعبر القرآن بلفظ (الزنا) إلا عندما يكون هناك داعٍ للتعبير بهذا اللفظ الصريح كسياق تهي يتطلب التعبير المباشر كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوَاجَ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا مَمْسُكٌ سَبِيلاً﴾ [سورة الإسراء: الآية: ٣٢]، وهذا التعبير المباشر قليل إزاء التعبير الكناية عن الزنا نفسه، فهو يعبر عنه بالتعبير الكناية: ﴿مَنْ أَمْسَكَ زَوْجَهُ فَكَانَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٧] و [سورة المعارج: الآية: ٣١]، وبالفحشة في عدة مواضع: [سورة النساء، الآية: ١٥، ١٦، ٢٢، ٢٥] و [سورة النور، الآية: ١٩]، و [سورة الأحزاب، الآية: ٣٠] و [سورة الطلاق، الآية: ١]، وبالعت في موضع واحد: [سورة النساء، الآية: ١٢]، وبالمراوغة في ستة مواضع من [سورة يوسف، الآية: ٢٣، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١].

أما (الزواجر) فلم يرد بلفظه، بل مكنت عنه بالفحشة، ينظر: [سورة الأعراف، الآية: ٨٠]، و [سورة النمل، الآية: ٥٤] و [سورة العنكبوت: ٢٨]، وكنت عنه بالمراوغة في [سورة القمر، الآية: ٣٧]، وبالاتيان في [سورة النساء، الآية: ١٦] و [سورة الأعراف، الآية: ٨٠] و [سورة النمل، الآية: ٥٤] و [سورة العنكبوت، الآية: ٢٨]، وجعل (الزواجر) من جملة الأعمال الخبيثة، فقال في حق قرية لوط: ﴿كَانَتْ تَعْمَلُ لَفَظِيَّتٍ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٧٤]

فيتجلى بذلك البعد التهذيبي الذي يحرض عليه القرآن لتربية الأدواق والنفوس، وفضلاً عما ذكرنا، ينظر الآيات الآتية التي احتوت كنايةات نوات بعد تهذيبي: [سورة النساء، الآيات: ١٩، ٢٠، ٢١]

كما أننا نلاحظ على هذا اللون من الكناية الجنسية في القرآن (الآلوفين والتجدد)، إذ يستخدم القرآن أكثر من سبع عشرة مادة لغوية كناية في التعبير عن المعنى المكنى عنه (الجماع) بين الزوج وزوجته، وفي كل كناية نلاحظ إحياءاً جديداً في سياقها فهي كلها تشترك في التعبير عن المعنى المكنى عنه الرئيس (الجماع)، وتفترق فيما توحى به من إحياءات تندمج مع السياق الذي تكون فيه وتتسق، وفضلاً عن ذلك فإن هذا التعدد في الكناية الجنسية وهذه الكثرة الملحوظة - فيما نرى - تنطوي على دلالة موحية خاصة إذا ما قورنت بما ورد في القرآن من ألفاظ صريحة دالة على الفاحشة كـ (الزنا والواط) (١) التي تقل قلة ملحوظة إزاء الكنايات الجنسية المشروعة بين الزوجين، وتتمثل هذه الدلالة في الحث على تصحيح النطق بها والتداول بها في المجتمع، لأن تداولها يعمل على إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة، فتشيع في النفوس، فتشيع بعد ذلك في المجتمع فهو بعد اجتماعي مرتبط بالبعد التهذيبي، وهما من أهداف القرآن الذي يحارب الفاحشة أن تشيع في الواقع لأنها لا تلبى الفطرة السليمة، وتعمل على فساد المجتمع وتهديمه، على خلاف التعبيرات الكنائية المعبرة عن العلاقة الجنسية، بين الزوجين والسوافة للفطرة الإنسانية، إذ يردف القرآن بعلاقة الزوجين والتقائهما عن المستوى الحيواني، ويقيم العلاقة الجنسية بينهما على أساس من المشاعر الإنسانية الكريمة، التي تجعل من الدقاء جسدين الدقاء إنسانين نفساً وقلباً وروحاً، توجه فيه طاقة الزوجين في هذا الالتقاء وجهة بناءة في المجتمع غايتها استئناف الحياة بإنجاب عنصر الحياة الفعال وهو الإنسان.

وسنعمد إلى توزيع الكنايات الجنسية إلى موادها اللغوية المتنوعة في سياقاتها التي جاءت فيها، ثم ننظر في وظيفة الكناية في التعبير بوصفها أسلوباً إيحائياً غير مباشر يؤثر نوازع التأمل ويؤدي المعنى خير أداء.

[سورة الأنعام ، الآية: ١٢٠] و [سورة النور ، الآية: ٢٦] و [سورة المؤمنون ، الآية: ٧٢]
و [سورة القصص ، الآية: ٥٥] و [سورة فصلت ، الآيات: ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢] .

الرفث واللباس والمباشرة:

وردت هذه الكنايات الثلاث (الرفث واللباس والمباشرة) في سياق عبادة الصيام في قوله - تعالى -: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرِّفْثُ إِلَى يَسَائِكُمْ مَنْ يَأْسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ بِأَسْ لِهَرٍّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَابُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ تَشِيرُونَ وَاتَّعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْغَيْطُ الْأَيْسُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَى الْبَيْتِ وَلَا تَبَشِّرُوا مِنْهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ يَوْمَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ بُيُوتٌ كُودٌ وَاللَّهُ فَلاَ يُغْنِي عَنْكُمْ كَذَلِكَ شَيْئاً يَذَّبُ عَنْهُ الْعَيْنُ لِلنَّاسِ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ ﴿١﴾

يختار القرآن الكناية المفردة ﴿الرِّفْثُ﴾ في سياق عبادة الصيام، وتعني بالكناية المفردة وقوعها في اللفظة الواحدة^(٢)، والرفث هي أنسب كناية في التعبير عن معناها في هذا السياق، لأن الرفث في حقيقته هو: "كلام متضمن لما يستقبح من ذكر الجماع ودواعيه"^(٣)، أو هو "النحش من القول، وكلام النساء في الجماع"^(٤)، فاللفظ الكنائي في حقيقته دال على معنى القبح لا تجده في لفظ كنائي جنسي آخر كالأقضاء أو الغشيان أو المباشرة أو غير ذلك مما جاء في القرآن كله من كنايات جنسية، وذلك لأن معنى القبح في كناية الرفث مقصود في سياقها، وقد علل الزمخشري استعمال هذه الكناية في سياقها بالاستهجان، وذلك لما وجد منهم قبل الإباحة كما سماه احتيائاً لأنفسهم^(٥)، ويذكر المعنى الحقيقي لهذا اللفظ بظلال السياق بمعناه، وإن كان المقصود منه المكنى عنده الموصوف وهو (الجماع)، ويدل على هذا المكنى عنه تعدية بحرف الجر ﴿إِلَى﴾: ﴿الرِّفْثُ إِلَى يَسَائِكُمْ﴾ فيتعين المعنى المقصود وهو الأقضاء (الجماع) لأن الرفث في معنى الإقضاء، يُقال: أفضيت إلى المرأة، فجاء يلقى مع الرفث إيداناً وإشعاراً أنه بمعناه^(٦) وبينهما - المعنى الحقيقي والمعنى المكنى عنه - من

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٢) ينظر: المثل السابق: ٥٩ / ٣، والطراز: ١ / ٢٢٧.

(٣) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصبهاني، ص ٢٩٠.

(٤) لسان العرب: ٢ / ١٥٣ (رفث)، وينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن، حسين محمد مخلوف، ص ٤٤.

(٥) ينظر: الكشاف: ١ / ٣٢٨، وينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١ / ٣٠٩ - ٢١٠، فيما وجد منهم قبل الإباحة.

(٦) ينظر: لسان العرب: ٢ / ١٥٤، وتفسير التحرير والتنوير: ٢ / ١٨٢ الكتاب الأول.

(*) وهو أن تريد دلالة على معنى من المعاني، فلا تكتفي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل يلاحظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دل على التابع أبان عن المقبوع. ينظر: نقد الشعر، ص ١٥٧. وحلية المحاضرة: ١ / ١٥٥، وكتاب الصناعاتين، ص ٣٥١، وتحرير التحرير، لابن أبي الأصميصي المصري، ص ٤٠٧.

التلازم والارتباط، وهذا هو الازداف عند البلاغيين^(١)، فالتابع هو ﴿الرَّفَثُ﴾ بمعناه الحقيقي وهو المكنى به، والمتبوع هو (الجماع) وهو المكنى عنه المقصود، ولما تحقق المقصود من قرب، والقرب هو الانتقال إلى المطلوب بسهولة ويسر تسمى الكناية عندئذ قريبة واضحة^(٢)، ولقرب كناية الرفث ووضوحها قيل بأنها حقيقة فيما تشير إليه من معناها الحقيقي وفي إطلاقها على الجماع^(٣).

ولما كانت الكناية في سياق عبادة الصيام، فقد عبرت عن جو عبادة الصيام في صورة يعجز التعبير عنه غير هذا الكناية، لأن اختيارها كان لقصد جمع المعنيين الصحيح والكنائي^(٤)، لا الاقتصار على المعنى المكنى عنه حسب، وبهذا الجمع بين المعنيين توحى الكناية بإحياء ينسج مع عبادة الصيام انساقاً فنياً ملحوظاً، إذ وظل المعنى الحقيقي الصريح يظل السياق بمعناه، وهو من المفطرات للأصنام، فإذا كان محرماً في أثناء الصيام بين الزوج وزوجته نهراً، فإنه مباح ليلاً، وبذلك تكون الكناية موحية بما يصاحب المكنى عنه من قول يلزمه وشعور يرتفع بالفعل الجنسي لأنه من شؤون الالتذاذ بين الزوجين بما يليق بهما بوصفهما إنسانين، وتتواشج من كناية الرفث وتتصل بها وتعمق معناها الإنساني الكناية المفردة الأخرى ﴿يَاسَ﴾: ﴿مَنْ يَاسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ يَاسَ لَهُنَّ﴾ القاسمة في بنيدها على الاستعارة التصريحية^(٥) حيث استعار (اللياس) للزوجين يجامع شدة الاتصال بينهما، فاللباس من معانيه التغطية والستر، فالمراد هو "قرب بعضهم من بعض واشتغال بعضهم على بعض كما تشتغل الملابس على الأجسام"^(٦)، وبهذا المعنى الذي أشارت إليه الاستعارة تتجلى رحمة الله وعنايته برفع العنت والمشقة وتحليل الرفث إليهن في الليل، لأن الأمساك عن قربان النساء في الليل عنت ومشقة لأنه وقت الاضطجاع، على خلاف الأمساك عنهن في النهار لإمكان الاستعانة عليه في النهار بالبعد عن المرأة^(٧) ففي تحليل الرفث وقاية من تعاطي القبيح، قال الراغب: "ليس الثوب: استتر به.. وجعل اللباس لكل

(١) ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٦٠.

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢ / ١٨٢، الكتاب الأول.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢ / ٢٣٤، الكتاب الأول.

(٤) الاستعارة التصريحية: هي الاستعارة التي يذكر فيها (المشبه به) الذي هو (المستعار منه) صريحاً، ويحذف (المشبه) الذي هو (المستعار له). ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٧٤.

(٥) تلخيص البيان في مجازات القرآن، للشريف الرضي، ص ١٢. وينظر: المنتخب من كفايات الأدباء وإشارات البلغاء، للجزجاني، ص ٤٧، ١٠.

(٦) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢ / ١٨٢، الكتاب الأول.

ما يغطي من الإنسان عن قبيح، فجعل الزوج لزوجته لباساً من حيث أنه يمنعها ويصدها عن تعاطي قبيح" (١) سواء أكان المقصود بالقبيح ما وجد منهم قبل الإباحة، أو غير ذلك من مذكر أو خيانة، وبذلك تلوح الملامحة في الاستعارة بين الزوجين بالمعنى المكنى عنه المقصود وهو "الجماع" (٢)، وبه يتحقق معنى ستر الزوج الزوجة، والزوجة الزوج، فكلاهما يستر الآخر، كما دلّ اشتراكهما بمشبه به واحد ﴿لِيَأْسَ﴾، ولينعمق ذلك الملمح الإنساني في اتصالهما، إذ يغدو الزوجان وكأنهما حالة واحدة، جسداً ونفساً وروحاً، بل هما كذلك، صلة النفس بالنفس، وهي صلة السكن، قال ابن عباس: "هَنْ سَكُنْ لَكُمْ وَأَنْتُمْ سَكُنْ لِهْن" (٣) وهي صلة الستر والتجمل، إن الكناية جيب دلّهي تعبير كامل عن حقيقة الصلة التي يقرضها القرآن بين الزوجين، وبهذه المعاني الإنسانية الكريمة التي أوحى بها كناية ﴿لِيَأْسَ﴾ بباشر الزوج زوجته ﴿فَأَلْفَنَ بَشِيرُوهُنَّ﴾ فكنى بالمباشرة عن الجماع لما فيه من التقاء البشريتين (٤) وفيها إيحاءان يتسجمان مع السياق:

- أن المبادرة في الفعل للزوج، أي أعطائه الفاعلية من خلال الأمر (باشر)، فهو أولى بالفاعلية، وهو أشد حاجة بالتذكير بالمعاني الإنسانية التي أوحى بها كناية ﴿لِيَأْسَ﴾ فطرة، وأقدر على رفع هذه العلاقة الإنسانية إلى مستوى القداسة.

- الإيحاء بإباحة الفعل (المكنى عنه) الذي كان محرماً قبلاً ذلك (٥).

والكناية المباشرة تنطوي على حكمة سديدة لأنها تحقق الغاية المرجوة، كما أفاد التعبير الكنايني ﴿وَاتَّقُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الذي يذيد في معناه القرئبي: طلب ما إباحه الله من مباشرة النساء في غير وقت الصيام، أما معناه المكنى عنه البعيد فهو (الولد)

(١) المفردات، ص ٦٧٤.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٣٠٤ / ٢. وينظر: المعاني الثمانية في الأسلوب القرآني، فتحي أحمد عامر، ص ٤٢٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢٠٩ / ١. وينظر: صفوة التفسير، محمد علي الصابوني: ١١٢ / ١.

(٤) البرهان في علوم القرآن: ٣٠٣ / ٢. وينظر: المعاني الثمانية في الأسلوب القرآني، ص ٤٢٤.

(٥) كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فأمسى فنام حرم عليه الطعام والشراب والندسام حتى يفطر في الغد، فأنزل الله: ﴿أَلَيْسَ لَكُمُ اللَّيْلُ الْمَسَامُورَةُ إِلَى سَابِغَةِكُمْ...﴾ ففرحوا بذلك فرحاً شديداً. ينظر: لباب القول في أسباب النزول، لاسيوطي، بهامش تفسير الجلالين، ص ٦٧ وما بعدها. وينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢٠٩ / ١.

(١) الثمرة المرجوة، ففي الكناية تحريض للناس على مباشرة الذساء عسى أن يكون الذم من ذلك، وذلك لتكثير الأمة وبقاء النوع في الأرض (٢).

ثم تنتهي الآية بالتقوى ﴿لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾ إذ التذكير بالله وتقواه نلاحظه - على الأعم الأغلب - مع الكنايات الجنسية، وهو مقصود إذ يعمل على إظهار الحالة الانسانية الكريمة للزوجين وبروزها في علاقتهما الجنسية لينأى بها عن الطابع الحيواني البهيمي، ويعطيها بعداً إنسانياً فيرفع هذه العلاقة إلى مستوى القداسة المتصلة بالله وتقواه.

وتتكرر الكناية (الرفث) في سياق عبادة الحج فتؤحي بمعناها بدقة مقصودة، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ مِّن رَّحْمَتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَلَّحُّجُّوْنَ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْتَدَنَّ اللَّهُ وَتَرْتَوَدُوا فَلَا تَحْزَنُوا إِنَّا نَحْنُ الْغَنِيُّ وَالْغَنِيُّ الْغَنِيُّ وَالْغَنِيُّ الْغَنِيُّ﴾ (٣).

فالكناية (الرفث) تتسق مع جو عبادة الحج الذي يتجرد فيه العبد لله من كل أو هاق الدنيا وأدرانها، والارتدفاع على دواعيها، فهو رياضة روحية على التعلق بالله ﷻ دون سواه. ويصعد معنى التجرد الوصل بالواو الذي جمع الجدال والفسوق بالرفث على صعيد واحد بصيغة الذم التي يراد منها الذم ﴿لَعَلَّكُمْ تَلَّحُّجُّوْنَ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجِّ﴾ أي: "لا يرفث ولا يفسق وهو أبلغ من الذم الصريح، لأنه يفيد أن هذا الأمر مما لا ينبغي أن يقع أصلاً، فإن ما كان مذكراً مستقبلاً في نفسه ففي أشهر الحج يكون أقبح وأشنع، ففي الاتيان بصيغة الخبر وإرادة النهي مبالغة واضحة" (٤)، وإذا كانت الكناية يراد منها المكنى عنه (الجماع)، فإن المعنى الحقيقي لها (الفحش من القول...) يذم مقصوداً، بأن اختيارها دون غيرها كان لقصد جمع المعنيين الصريح والكنائي (٥) وهو مظهر من مظاهر دقتها وإعجازها، لأن إرادة المعنيين يتطلبه سياق عبادة الحج، وذلك تضيقاً لمساحة المحذور إلى أقصى حد، وتبقى منافذ الخير والتقوى مفتوحة على إطلاقها، يحث عليها السياق ويحجب إليها ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْتَدَنَّ اللَّهُ﴾. ثم يذكر السياق بالتقوى كما ذكر بها في سياق عبادة الصيام ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمَ تُأْوَلَى الْأَتَابِ﴾ لأن التقوى هي الضمانة الحقيقية في

(١) ينظر: الكشف: ١ / ٣٣٨.

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢ / ١٨٣، الكتاب الأول.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٤) صفوة التفاسير: ١ / ١٣١.

(٥) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢ / ٢٣٤، الكتاب الأول.

الطاعة وأولو الألباب هم خير من ينتفع بالتوجيه ويتقى، كما أنها تظلل السياق بذلك التطهر الروحي الذي تحث عليه والنظافة الشعورية في بيت الله الحرام.

ومن وراء الكنايات السابقة ما يربني حاسة الذوق والنفوس، والترفع عن ذكر حاجات الجسد، والتحفظ على أسرار الإنسان، وصيانة الشرف ممثلاً في ذلك العلاقة الكريمة بين الزوج وزوجته، فيرق احساسهما، ويخصب شعورهما، فيكونان أقرب إلى العالم المثالي^(١) بما يليق بالإنسان.

الإفضاء:

ورد الفعل ﴿أَفْضَى﴾ كناية عن (الجماع) في قوله - تعالى -: ﴿وَلَمَّا أَرَادْتُمْ أَنْ تُشِيرُوا إِلَىٰ الْمَكَاتِرِ الَّتِي هِيَ أَعْيُنُكُمْ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ فَلَا تَأْخُذُوا بِهَا وَلَا يَتَزَلَّلُ بِهَا فَرَجُوكُمْ إِذْ هِيَ أَفْضَىٰ إِلَيْكُمْ وَأَعْيُنُكُمْ غُلُظٌ ۚ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ ذَا قُرْبَىٰ ۖ ضَلَّ السَّبِيلَ ۚ وَاتَّبَعَ هُدًى مِنَ رَبِّهِ فَتَزِلَّ الْجُنُودُ رَوْدًا وَمِنْ فِيثَلٍ قَبْلُ ۚ وَاصْلًا مِنْ لَدُنْهِ يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُفَضِّلُ بَيْنَكُمْ أَهْلَ الْأَرْسَالِ إِنَّكُمْ لَعِندَهُ قَائِمُونَ ۝١٠٢﴾^(٢) قال ابن عباس: "الإفضاء في هذه الآية الجماع ولكن الله كريم يكنى"^(٣).

ثمّة نلاحظ دقة الكناية في موضعها، فضلاً عن إيجازها وتكثيفها للمعنى، والإيجاز من طبيعة الكناية. إذ في الكناية ﴿أَفْضَى﴾ إحياء الاتساع في المعنى الذي يتناسق مع سياق الآية، فالفضاء هو: "المكان الواسع، ومنه أفضى بيده إلى كذا، وأفضى إلى أمرائه - في الكناية أبلغ وأقرب إلى التصريح من قولهم: خلا بها"^(٤) وهو اتساع مادي ومعنوي ملحوظ في العلاقة الزوجية يهدف سياق الآية إظهاره والتذكير به في موضعه، لأن السباق

(طلاق) ورغبة عن الزوجة. فالجماع هو المعنى الرئيس وهو المعنى المكنى عنه، فضلاً عما تحقّقه الكناية من إحياءات تتصل بصلة حيوية بين الزوجين يتحقّق بها معنى المباشرة الزوجية أمام التحقق فيلابس كل منهما الآخر حتى كأنهما حقيقة واحدة^(٥). لذلك فإن الكناية ﴿أَفْضَى﴾ تطوي على وسائط متعددة بين المكنى به والمكنى عنه فتكون بذلك تلويحاً، والتلويح: أن يُشار إلى

(١) ينظر: المعاني الثمانية في الأسلوب القرآني، ص ٤٢٤، ٤٢٥.

(٢) سورة النساء، الآية ٢٠، ٢١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١٠٢ / ١. وينظر: تفسير القرآن العظيم: ١ / ٤٤٣.

(٤) المفردات: ٥٧٤.

(٥) ينظر: تفسير المنار: ٤ / ٤٥٩.

المطلوب من بعد، أي ينتقل إلى المقصود عبر وسائط متعددة^(١)، وفي الكناية تتمثل هذه الوسائط بسعة المعاشرة الزوجية بينهما في كل صورها المادية منها والمعنوية كما تُوحي الكناية، إذ إن الفعل الكنائي ﴿أَفَنَّى﴾ مطلق في دلالاته لم يقيد مفعول محدد، أي لا يقف مدلوله عند حدود (الجماع) بل هو يشمل العواطف والمشاعر، والأسرار والهموم، والتجاوب في كل صورة من صور التجاوب، فالكناية على إطلاقها تُوحي بكثير من الصور لتلك الحياة المشتركة بين الزوجية أثناء الليل وأطراف النهار فيضاءل إلى جوار هذه المعاني ذلك المعنى المادي، فيدخل الزوج أن يطلب بعض ما دفع، وهو يستعرض في خياله، وفي وجدانه ذلك الحشد من الصور والذكريات والمشاعر الماضية في لحظة الأفراق الأسيف^(٢).

وفي الكناية معانٍ أخرى تُوحي بها، إذ فيها إحياء التحول من حالة إلى حالة يَذكر بها القرآن الزوجين، التحول والانتقال من فردية الزوج - الرجل والمرأة - بالإقضاء إلى قضاء الأسرة الرحيب، أي التحول بالإقضاء من عالم الفرد المغلق على ذاته إلى عالم التواصل الأسري الذي هو قضاء إنساني يتجاوز فردية الإنسان ويسمو به حيث الطمأنينة والسكن والاستقرار، وفيه يقضي ما بداخله إلى زوجه، فيلامس أحدهما الآخر إلى حد التوحد من أجل خلق كيان واحد جديد، فيقدر ما يكون الإقضاء انطلاقاً في النفس والروح والمشاعر هو توحيد بالزوج أيضاً وغايته بناء الأسرة التي تنعم بالاستقرار والطمأنينة وبذلك تجلي الكناية أهمية هذه العلاقة الزوجية التي يقطعها الزوج إذ كان الإقضاء بكل معانيه التي كتفها ﴿يَتَغَلَّظًا غَلِظًا﴾ كما تجسمه الاستعارة المكنية ﴿غَلِظًا﴾^(٣) تعظيماً لشأنه وأهميته، فهو: "حق الصلبة والمضاجعة؛ كانه قيل: وأخذن به منكم ميثاقاً غليظاً: أي بإقضاء بعضكم إلى بعض، ووصفه بالغلظ لقوته وعظمته"^(٤)، وليكون المعنى مؤثراً لإحداث الاستجابة النفسية المرجوة في الزوج، وهي الامتناع عن أخذ مال الزوجة المرغوب عنها.

(١) ينظر: التبيان في البيان، ص ٢١٣، وينظر: الإيضاح: ٢ / ٤٦٩.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٢ / ٢٨٧، ٢٨٨.

(٣) الاستعارة المكنية: هي الاستعارة التي يحذف فيها المشبه به (المستعار منه) ويرمز له بأدبيات بعض لوازمه للدلالة عليه. ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٧٩. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والابديع، أحمد الهاشمي، ص ٣٠٥.

(٤) الكشف: ١ / ٥١٤.

ولا يخفى ما في الكناية ﴿أَفْضَى﴾ من معنى يرتفع بالمرأة وبالعلاقات الزوجية إلى المستوى الإنساني الكريم. وللزوجة القيمة والاعتبار، ولها حقوق الرعاية حتى وهي مطلقة مرغوب عنها.

التفشي:

ورد الفعل ﴿تَفَشَّيْنَهَا﴾ كناية عن الجماع في قوله - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَكُمْ زَوْجَهَا لَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَفَشَّيْنَهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا لَبَنَ أَمْتَيْنَا فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْفَالِكِينَ﴾ (١)

﴿تَفَشَّيْنَهَا﴾ كناية دقيقة عن "الجماع" (٢) في موضعها، فقد عبرت بإحواءاتها عن جو السياق الذي تشكلت فيه، فهي منبثقة في معناها ومنصلة بقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَكُمْ زَوْجَهَا لَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، فالزوجة مخلوقة من نفسه، فهي بعض منه، وبذلك يتحقق معنى السكن والمحبة والإيناس على أبلغ وجه، قال الزمخشري: "﴿لَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: ليطمن إليها ويميل ولا يتفر، لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه انس، وإذا كانت بعضاً منه كان السكن والمحبة أبلغ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبّه مخبة نفسه لكونه بضعة منه" (٣)، والكناية ﴿تَفَشَّيْنَهَا﴾ تصعد هذه المعاني وتصورها، يُقال: "غشيه غشاوة وغشاء: أتاه اثنيان ما قد غشيه أي ستره، والغشاوة ما يغطي به الشيء" (٤)، فهي تفيد ادخال كل واحد منهما في الآخر بلطف الممازجة وشديد الملازمة حتى ليغدو الفعل الجنسي معها امتزاج طائفتين لا التفاء جسدين، وفي ذلك إحياء للإنسان بالصورة "الإنسانية" في الفعل، واقتراحها عن الصورة الحيوانية البهيمية، فضلاً عن تدنيق الكناية فذياً مع جو السكن (٥) والخلق من نفس واحدة.

فالكناية رمزاً لها أشارت إلى المطلوب من قرب بخفاء، وسميت رمزاً للأنطى الإشارة (٦) إلى المقصود.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٩.

(٢) الإتيان في علوم القرآن: ٣/ ١٤٤. وينظر: المنتخب من كنويات الأنبياء وإشارات البلاغ، ص ١٠.

(٣) الكشف: ١٤٥/٢.

(٤) المفردات: ٤٥١.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ٣/ ٧٠١.

(٦) ينظر: التبيان في البيان، ص ٢١٣.

ومن وراء الدلالة الحسية التي صورتها الكناية بين الزوج وزوجته التي يسكن إليها

نلاحظ:

- السر والتغطية التي صورتها الكناية بالملابسة الحسية والاختلاط بشير إلى السر
بالدلالة المعنوية كذلك، إذ المعنى المكنى عنه (الجماع) يأتي حاجة النفس فطرة،
يلينها بالكناية الموحية بالمودة القائمة بين المتغشّي والمتغشى، وأن المتغشّي
(الزوجة) تتقبل فعل الغاشي بارتياح وأنس وطمأنينة.

- فعل التغشية الكناي في خفاء لطيف بدسج والتعدير عن المكنى عنه (الجماع)
الذي

يتم بخفاء وتسّر، وهو من لوازم الهدوء والطمأنينة والسكن.

- في الكناية ﴿تَغَشَّيَهَا﴾ إحياء بالفعل الجنسي الأول: فض (غشاء البكارة) ويعزز
ذلك ويقويه سياق الآية أن هذا التغشي مرتبط بهدفه وغايته، فهو ليس لمجرد
الشهوة ﴿فَلَمَّا تَغَشَّيَهَا حَمَلَتْ حَمَلاً...﴾ هو فعل إنساني هدفه بقاء نوع الإنسان
والحياة.

ثم يظل السياق كناية (التغشي) بدعاء الزوجين وتضرعهما لله ربهما، مما يضفي
عليها ذلك الطابع الإنساني الهادف، وهو المعنى الملحوظ عقب كل كناية جنسية.

الاعتزال والتقرب والأتیان:

وردت هذه الكنايات الثلاث عن (الجماع) في قوله - تعالى - ﴿ وَتَسْتَعْتُونَكَ عَنِ الْمَجِيسِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَجِيسِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ ﴿ وَسَاوَكُمْ حُرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَلَى شَيْعَتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُلْقَوْنَ إِلَى يَدَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

الاعتزال في قوله - تعالى - ﴿ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ ﴾ كناية عن الامتناع عن الجماع في فترة الحيض، جاء في التفسير: "الحيض شيء يستقذر ويؤذي من يقربه ذفرة منه وكراهة له ﴿ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ ﴾ فاجتنبوهن: يعني فاجتنبوا مجامعتهن" (٢) "فالكناية أطلقت وأريد بها لازم معناها، وهو الامتناع عن إتيان الفعل الجنسي في هذه الفترة، والاعتزال هو: "تجنب الشيء بالبدن كان ذلك أو بالقلب" (٣) "وليس المقصود بالكناية مطلق الاعتزال، وإنما هو اعتزال بالجسد عن ممارسة الفعل الجنسي حسب، وذلك على وجه الالتزام والوجوب كما دلت صيغة الأمر الحقيقي. جاء في التفسير: "والمراد التنبيه على أن الغرض عدم المعاشرة لا عدم القرب منهن وعدم مواكبتهن ومجالستهن كما يفعل اليهود إذا حاضت عندهم المرأة" (٤)، وهذا المعنى المكنى عنه تعززه كناية التقرب ﴿ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ ﴾ بأسلوب التثني الحقيقي، فهي كناية عن الكف عن الجماع على وجه الالتزام والوجوب، والنهي عن قربهن أبلغ من النهي عن ممارسة الفعل، فالكناية وإن كان المقصود منها النهي عن الجماع، إلا أنها تشير في معناها الحقيقي القريب إلى دواعي الفعل (التقرب) المنهي عنه وهو يمثل واسطة بين اللفظ الكناني والمعنى المكنى عنه، وفي ذلك تشنيع ومبالغة في إتيان الفعل (الجماع) في فترة الحيض، وذلك لما فيه من ضرر للزوجين نفسياً ومادياً وبخاصة الزوجة. ثم تأتي الكناية ﴿ فَأَتُوهُنَّ ﴾ بصيغة الأمر على وجه الإباحة والترغيب بممارسة المعنى المكنى عنه (الجماع) بعد الطهارة من الحيض: "فإذا تطهرن بالماء فاتوهن في المكان الذي أحله الله لكم، وهو مكان الذمّل والولد" (٥). وتوحي الكناية ﴿ فَأَتُوهُنَّ ﴾

(١) سورة البقرة: الآيةان: ٢٢٢- ٢٢٣.

(٢) الكشف: ١ / ٣٦١. وينظر: تفسير القرآن العظيم: ١ / ٢٤٦.

(٣) المفردات: ٤٩٩.

(٤) صفوة التفسير: ١ / ١٤٢.

(٥) صفوة التفسير: ١ / ١٤٢.

بدلالة السهولة والبس في ممارسة المكنى عنه بعد تطهره^(١)، قال الراغب: "الاتيان مجيء بسهولة" (١)، وهي دلالة نفسية ملحوظة بعد تطهر الزوج من الحيض على خلاف وهي حائض. وتتعمق هذه الدلالة بذكر كناية الاتيان في السياق ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ﴾ متواشجة مع التشبيه البليغ ﴿يَسَاؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ حيث شبه النساء وذلك لاندساجمه مع سياق الاخصاب والنسل. قال الرمضري: "شبههن بالمحارث تشبيهاً لما يلقي في ارحامهن من التطف التي منها النسل بالبحر، وقوله: ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ تمثيل: أي فاتوهن كما تقولون اراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أي جهة شئتم لا تحظر عليكم جهة دون جهة. والمعنى: جامعوهن من أي شق أردتم بعد أن يكون المأوى واحداً وهوة موضع الحرث" (٢). قال ابن عباس: "اسق نباتك من حيث يذيت" (٣) وذلك لتحقيق الهدف الأسمى: هدف النسل لامتداد الحياة، فكما أن الأرض موضع انبات الزرع الذي به بقاء الحياة والانسان، كذلك النساء موضع انبات الذي فيه بقاء نوع الانسان والحياة.

ونلاحظ على الكنايات الثلاث ﴿فَاعْتَرِلُوا، وَلَا تَقْرُوهُنَّ، فَأَتُوهُنَّ﴾ اعطاء الفاعلية فيها للزوج فيتناسب ذلك مع السياق والحالة النفسية للزوجة في فترة الحيض، فالحيض هو ﴿أَذَى﴾، والجماع فيه يضر بالزوجة مادياً وبخاصة، ولا ترغب هي فيه نفسياً كما أثبت الطب ذلك (٤). فلا جرم أن تكون الفاعلية للزوج لا للزوجة.

ثم بقي تذكير الزوجين بتقوى الله وملاقاته - طريقة القرآن - بعد الكنايات الجنسية، لوضفي على العلاقة الزوجية ذلك الملمح الانساني الكريم، فضلاً عن التحنن من اتيان المرأة في غير موضع الحرث الذي لا يحقق الهدف الأسمى المرجو من الالتقاء.

(١) المفردات: ٧.

(٢) الكشاف: ١ / ٣٦٢. وينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن، ص ٤٤.

(٣) صفوة التفسير: ١ / ١٤٢.

(٤) ينظر: الطب النبوي، ابن قيم الجوزية، ص ٢٠٣. وينظر: الاسلام والتربية الجنسية، د. وجيه زين العابدين، ص ٥٩. وينظر: الاعجاز الطبي في القرآن، د. السيد الجميلي، ص ٢٣٤. وينظر: العلاقات الجنسية غير الشرعية وعقوبتها في الشريعة والقانون: ٢ / ٤١٠.

اللمس والمس:

وردت الكناية عن (الجماع) بمادة (لمس) في موطنين بصيغة فاعل (لامس) الدالة على المشاركة في قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْهُونَ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝ (١)﴾

قوله - تعالى -: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ كناية، أي: "جامعتموهن" (٢)، ونجد من بين اللفظ الكنائي ﴿لَمَسْتُمُ﴾ وبين المعنى المكنى عنه (الجماع) واسطة تتمثل في المعنى الحقيقي للمس، واللمس لا يكون إلا باليد خاصة (٣)، فالذهن لا يتنقل من المعنى الأصلي للفظ إلى المعنى الكنائي له مباشرة، وإنما يتم عبر واسطة تتمثل في فعل يتوسط بينهما، وهو المعنى الحقيقي للكناية (لمس) إذ يمثل مقدمة للفعل بوصفه مسهداً للفعل الجنسي بين الزوجين، فالكناية موحدة بمراعاة هذه الحالة النفسية والوجدانية للزوجين قبل اتصالهما جنسياً لكونه فعلاً إنسانياً متميزاً.

وأحسب أن اختيار الكناية من مادة (اللمس) في هذا السياق دون كناية (اللمس) هو لقصد جمع المعنيين الحقيقي والكنائي إذ بهما يتعمق المعنى الإنساني للاتصال الجنسي بين الزوجين.

كما نلاحظ أن اختيار الكناية من مادة (اللمس) وبصيغة فاعل (لامس) الدالة على المشاركة منطوق فيه سياق الآية، إذ إن (لامس) أكثر انسجاماً من غيرها كـ (اللمس). واعطاء الفاعلية للزوج يتناسق مع سياق الآية وما فيها من أسلوب نهى حقيقي عن التقرب إلى الصلاة في حالة السكر - قبل تحريم الخمر نهائياً - (٤)، فهو ذهبي بموضوعه الصق بالرجل من المرأة، وكذلك موضوع المنكر. وإن كان المخاطبون بالآية هم المؤمنون جميعاً. إلا أن ما ذكر من صفات الصق بالرجل من المرأة. فضلاً عن إحياء الكناية بذلك البعد الإنساني في العلاقة الزوجية بما يليق بالزوجين برعاية الجانب النفسي والروحي، إذ

(١) سورة النساء، الآية: ٤٣، وسورة المائدة، الآية: ٦.

(٢) صفوة التفسير: ١ / ٣٢٩، وينظر: من بلاغة القرآن، ص ٢٢٧.

(٣) ينظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص ٢٤٩.

ليس المقصود مجرد (الجماع) حسب، وإنما إظهار ذلك الطابع الاندسالي الذي يطبع الفعل الجنسي بين الزوجين والذي يعمل على تمييز علاقتهما الجنسية وادامتها والارتفاع بها عن المعنى الحيواني الغليظ.

كما يتجلى من الكناية وسياق الآية الذي تشكلت فيه صورة من الأدب الخطابي السامي الرفيع يعلمنا القرآن إياه حين يتخاطب البشر فيما بينهم في مثل هذه الشؤون، فقد سبق الكناية الجنسية، الكناية: ﴿أَرْجَاءَ أَمَدٍ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ ، والغائط: كناية عن حاجة ذي

البطن (١)، والغائط هو المكان الذي يتم فيه الفعل، فهو يكتفي بذكر المكان والعودة منه لأنه ملازم له كناية عما تم فيه، وتصبيحاً لهذا الأدب في الخطاب لا يستند الفعل إلى المخاطبين، وإنما يكره زيادة في أدب الخطاب المؤثر في النفس.

أما كناية (المس) عن الجماع فقد وردت في سبعة مواطن:

- بصيغة الفعل المضارع ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾ في ثلاثة مواطن في سياق الطلاق، في قوله

— تعالى ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرُبُوهُنَّ لهنَّ فَرْجَةٌ وَمِمَّا عَمِلْتُمْ عَلَى التَّوْبَةِ وَعَلَى الْمَغْفِرَةِ فَعَسَى أَنْ تَكُونُوا مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢)

وبصيغة الفعل المضارع ﴿يَمَسُّنِي﴾ في موطنين على لسان السيدة مريم (عليها

السلام) في قوله - تعالى - ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسُّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ

أَلَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا ضَعِيَ أَمْرٌ فَلَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣)

- وبصيغة الفعل المضارع ﴿يَتَمَسَّأَنَّ﴾ في موطنين في قوله - تعالى - ﴿وَالَّذِينَ

يُظَاهِرُونَ

مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لَهَا قَالَوا قَدْ أَخَذَ رَبُّنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَسَّأَنَّ ذِكْرُ تَعْظُوتٍ بِهِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ
جَبْرٌ﴾ (٤)

(*) حَرَّمَ اللهُ الْخَمْرَ في الاسلام على مراحل ، ينظر السور الآتية: البقرة ، الآية: ٢١٩ ، والدساء ، الآية: ٤٣ ، والمائدة ، الآية: ٩٠ ، على الترتيب في نزول الآيات بتحريمها. ينظر: آداب النقول في أسباب النزول ، ص ٢٢٠- ٢٢١.

(١) ينظر: مجاز القرآن: ١ / ١٥.

(٢) سورة البقرة ، الآية: ٢٣٦ ، وفي سورة الأحزاب ، الآية: ٤٩.

(٣) سورة آل عمران ، الآية: ٤٧ ، وفي سورة مريم ، الآية: ٢٠.

(٤) سورة المجادلة ، الآية: ٣ ، والآية: ٤ من السورة نفسها.

نلاحظ أن كناية (المس) عن الجماع أدسب وأدق في التعبير عن هذا الموصوف في سياق الطلاق وما يترتب عليه من أحكام ففي قوله - تعالى - ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ ... ﴾ (١) إذ لا نجد بين اللفظ الكنائي والمعنى المكنى عنه واسطة، فالذهن ينتقل إلى المعنى المكنى عنه (الجماع) إذ لا يشترط أن يكون المس باليد، قال أبو هلال العسكري: " والمس يكون باليد وبالحجر وغير ذلك ولا يقتضي أن يكون باليد، لهذا قال - تعالى - ﴿ مَسَّهُمْ الْيَأْسَاءُ ﴾ (٢) وقال: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَمْسِرْ ﴾ (٣) ولم يقل يلمسك " (٤) لذلك نرجح أن لا يكون هناك واسطة، وإنما المقصود هو المسيس (الجماع) فذكون الكناية بذلك من النوع القريب الواضح، لأن الانتقال فيها إلى المقصود سهل يسرور. وهذا الفهم للكناية يناسب السياق الذي يهدف إلى بيان هذا الحكم، جاء في التفسير: " أي لا أثم عليكم أيها الرجال إن طلقتم النساء قبل المسيس (الجماع) وقبل أن ترضوا لهن مهرًا ... " (٥)

كذلك مع كناية ﴿ يَمْسِي ﴾ في سياق السيدة مريم (عليها السلام): ﴿ وَلَوْ يَمْسِي يَمْسِرْ ﴾ في تبرئة نفسها من هذا الموصوف، إلا أننا نلاحظ في الكناية ﴿ يَمْسِي ﴾ التجزئة عند التلطف بها، فتوحي بمعناها، وكأنها بهذه التجزئة للفعل تنفع الموصوف الذي لا تستطيع التلطف به إلا بتقطيعه لبراءتها منه، فالكناية هنا تجسد الحالة النفسية الظاهرة للسيدة مريم أحسن تجسيد.

أما الكناية ﴿ يَمْسَأُ ﴾ عن الجماع فقد جاءت في سياق الظهار من الزوجة (٦): ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمْسَأَ ... ﴾ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يمسأ ... ﴾ . أي من قبل أن يمسأ ... ﴾ . أي من قبل أن يستمتع أحدهما

(١) سورة البقرة ، من الآية: ٢١٤ . وينظر: سورة يونس ، الآية ٢٦ . وسورة الأنبياء ، الآية: ٤٦ .

(٢) سورة الأنعام ، من الآية: ١٧ . وينظر: سورة يونس ، الآية: ١٠٧ .

(٣) اللروق اللغوية ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٤) صفوة التفسير: ١ / ١٥٢ .

بالبخر، فيحرم عليهما الجماع" (١). وقال الزمخشري: "ثم يعودون لمثله، فكفارة من عاد أن يحرر رقبة ثم يماس المظاهر منها لا تحل له مماستها إلا بعد تقضي الكفارة" (٢). وبلغت الانتباه أن الكناية ﴿بِمَآئِدَةٍ﴾ أسندت فيها الفاعلية للزوجين، والبادي أن ذلك منظور فيه الحالة النفسية للزوجين، فالسياق يحدد الكفارة بتحرير رقبة أو صيام شهرين متتابعين لمن لم يجد رقبة يحررها أو إطعام ستين مسكينا إن لم يستطع الصيام. ولا يخفى - على الأقل - ما في صيام الشهرين المتتابعين من مشقة وجهد وهي فترة زمنية طويلة نسبياً، فلا يستبعد أن تحرك نفساهما لتلبية دواعي الغريزة، مما لا يستبعد إزارنه حدوث الميل والفعل الجنسي من أي منهما على حد سواء.

ويتجلى ما في الكناية من تذكريم للزوجة على الصعيد الإجتماعي والإنساني، إذ يحرر المرأة مما كانت تواجهه من عنث وخسف - كما دلّت حالة الظهار - فهو يكرمها وينشئ لها القيمة والاعتبار والحقوق والضمانات، بوصفها زوجة لها حقوق الرعاية والتكريم، فارتفع بها وبالعلاقات الزوجية إلى ذلك المستوى الإنساني الرفيع.

المجر في المضاجع:

وربت الكناية ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ في قوله - تعالى -: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَإِنَّهُنَّ كَفَّيْنَتْ حِفْظًا لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ تُشْرُوكَ فَمِطُّوهُمْ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا تَعْصُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ (٣).

﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ كناية، فهي تعبير أطلق وأريد به لازم معناه وهو (الاستناع عن الجماع)، قال ابن عباس: "الهجر هو أن لا يجامعها ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره" (٤). ويكون ذلك إذا نشزت الزوجة ولم يقد معها الوعد والتذكير، والنشور:

(*) كان الرجل في الجاهلية يغضب لأمر من امراته فيقول لها: (أنت علي ظهر أمي) فحرم عليه، ولا تطلق، وتبقى هكذا، لا هي حل له فتقوم بينهما الصلات الزوجية، ولا هي مطلقة منه فتجد لها طريقاً آخر. وكان هذا طرفاً من العنت الذي تلاقيه المرأة في الجاهلية^٥. ينظر: في ظلال القرآن: ١٠ / ٨. وتفسير القرآن العظيم: ٤ / ٣١٩.

(١) صفوة البيان لمعاني القرآن، ص ٧٠٧.

(٢) الكشف: ٤ / ٣٨٧. وينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٣٢٢، ٣٢١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ١ / ٤٦٦. وينظر: الكشف: ١ / ٥٢٤.

العصيان، وهو صورة حسية يجسد الحالة النفسية للمرأة المستعلية، لأن الدشور في أصله هو الارتفاع والاستعلاء عن المكان^(١)، جاء في التفسير: "أي عصيانهن وارتفاع طبيعتهن وطفغياتهن على الأزواج فعطو هن بالمواعظ الحسنه المناسبة لعقولهن فإن رجعن إلى الاعتدال، والآن فاهجروهن في المضاجع: اتركوهن متفرقات في المضاجع... ولا تباشروهن بالجماع، لأن الغاية من الهجر ذلك"^(٢).

ثمة نلاحظ ما في هذه الكناية من عقوبة نفسية بالغة التأثير للزوجة، لأن الهجر في المضجع يتعلق بقوة ما تملكه المرأة الناشز من سلاح في إغراء الزوج واستمالة، فإذا ما عاقبها الزوج من هذه الجهة واستطاع أن يقهر دوافعه إزاء هذا الإغراء، فقد سدد إليها سهماً موجعاً قد يكون علاجاً ناجعاً في إصلاحها والرجوع عن عصيائها وطفغياتها، وذلك بسبب ما يجلب الهجر من الام نفسية، ومن هذا نلاحظ دقة استخدام الكناية بلفظ الهجر دون غيره كـ الاعتزال مثلاً، فقال: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ ولم يقل "اعتزلوهن في المضجع"، وذلك لأن الهجر يحمل دلالة الارتباط الوجداني بين الهاجر (الزوج) والمهجور (الزوجة)، وهو يوحي بأن ثمة مودة قائمة في نفسيهما على الرغم من تعالي الزوجة على زوجها، ومن ثم قد يكون الهجر في المضجع موعظة حسنة يحقق الهدف المتوخى منه برجوع الزوجة إلى الاعتدال وهو الهدف لا إذلالها والاعتداء عليها.

الدخول:

جاءت هذه المائدة كنايةً عن (الجماع) مكررة في قوله - تعالى -: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْتُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي فِي حَبْوَاسِكُمْ مِنَ إِبْنَاتِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَالَاتُكُمُ اللَّاتِي مِنْ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا رَحِيمًا﴾^(٣).

(١) ينظر: أساس البلاغة، ص ٥٦-٥٧ (شذ).

(٢) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، محمد عبد الكريم المنصور: ٣ / ٣٨١-٣٨١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٣.

تتناول الآية سائر أنواع المحرمات من النساء، أي اللواتي يحرم الزواج منهن وقد جاء التعبير ﴿دَخَلْتُمُوهُنَّ﴾ كناية عن (الجماع)، قال الزمخشري: "﴿دَخَلْتُمُوهُنَّ﴾: كناية عن الجماع، كقوله بنى عليها وضرب عليها الحجاب، يعني: أدخلتموهن الستر" (١)، وفي تفسير الجلالين: "دخلتم بهن: جامعتموهن" (٢).

فهي كناية واضحة عن الجماع حمل فيها معنى الدخول على جانبي الحقيقة والمجاز، فالدخول حقيقة في ضرب الحجاب عليهن وادخالهن الستر، ويراد منه المعنى المكنى عنه وهو الجماع (٣) وجاء في تفسيرها: "كناية عن الجماع أي من نساكم اللاتي أدخلتموهن الستر - قاله ابن عباس - فإن لم تكونوا أيها المؤمنون قد دخلتم بأسمهاتهن وفارقتموهن فلا جناح عليكم في نكاح بناتهن" (٤)، وقال الراغب: "ودخل بأمراته: كناية عن الإفضاء إليها" (٥) وهو يقصد بالإفضاء إليها (الجماع)، وإن كانت كناية الإفضاء التي فسر بها غير دقيقة في التعبير عن كناية الدخول في الآية، لأنه ليس في كناية ﴿دَخَلْتُمُوهُنَّ﴾ إيهاء كناية الإفضاء - وإن كانت الكنيتان دالتين على الجماع - كما أن الإفضاء لا يتسم في الآية بالدخول، فكل منهما إيهاء الخاص وسياقه الخاص. في الأقل لا نلاحظ في كناية ﴿دَخَلْتُمُوهُنَّ﴾ ذلك الاتساع في المعنى كما نلاحظه في كناية الإفضاء عبر الوسيط المتعددة بين اللفظ الكناني والمعنى المكنى عنه، وإنما ينتقل الذهن في كناية ﴿دَخَلْتُمُوهُنَّ﴾ إلى المعنى المكنى عنه عبر واسطة واحدة وهي الدخول إلى مضجعها مما لم يكن مسوفاً به قبل الزواج، وهي واسطة حقيقية في معناها تقود إلى الدلالة المجازية وهي المعنى المكنى عنه (الجماع)، وبذلك تكون الكناية من النوع القريب الواضح لأن الانتقال فيها إلى المقصود سهل ميسور.

وفي ضوء ذلك نلاحظ دقة الكناية في السياق الذي جاءت فيه تعبيراً عن الجماع، فهي قد جاءت في سياق آية تقرر أحكاماً تتعلق بالمحرمات من النساء في أسلوب تقريرى مفصل لا يحتمل غير معناه الذي هدف إليه على وجه من التحديد والتوضيح.

(١) الكشف: ١ / ٥١٧. وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١١٢ / ٥.

(٢) تفسير الجلالين، ص ١٠٧.

(٣) ينظر: أساليب المجاز في القرآن الكريم، أحمد حمد حسن، ص ٦٣.

(٤) صفوة التفاسير: ١ / ٢٦٩.

(٥) المفردات: ٢٤٠.

التمتع؛

ورد التمتع كنايةً عن (الجماع) في قوله - تعالى - ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِلَّكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَسْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْتَفْهِينَ قَمًا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَبِضْعًا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْقَرِيبَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ (١) ﴾

﴿ قَمًا اسْتَمْتَعْتُمْ ﴾ كنايةً عن الجماع، قال الزمخشري: ﴿ قَمًا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ ﴾ فما استمتعتم به من المنكوحات من جماع " (٢) " ونقل القرطبي عن الحسن ومجاهد وغيرهما أن معنى ﴿ قَمًا اسْتَمْتَعْتُمْ ﴾ انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح " (٣) " فالتمتع كنايةً عن الجماع لا تطابق التمتع عليها، لأن التمتع لغةً مراد ومشار به إلى معنى الجماع لأن التلذذ لا يحصل في الغالب إلا منه (٤) فبينهما من التلازم والارتباط يستدعي أحدهما الآخر، والسين والتاء في الكناية للمبالغة، وسمّاه الله استمتاعاً لأنه متفعة دنيوية، وجميع منافع الدنيا متاع، كما قال - تعالى - ﴿ وَمَا لِحَيَّةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ۝ (٥) ﴾

ولا تعني كناية التمتع النظر إلى الزوجة على أنها أداة للمناع، واشباع الغريزة، ومن ثم ينظر إلى الزوجة من الناحية الانسانية نظرة هابطة، وإنما هو استمتاع حسن ينبثق عن استقرار العلاقة الزوجية بمعناها الانساني القائم على المودة والرحمة، والسكن والراحة، والأنس والأطمئنان، فهو استمتاع منظور فيه تلبية الحاجة الفطرية: نفسية وعقلية وجسدية، والمرتبطة بغيتها الانسانية في امتدادها بالنسل الذي ينشأ عن هذا الاستمتاع الذي جعله الله لذة للاتصال بين الزوجين.

ومن دمة نلاحظ دقة الكناية في سياقها في التعبير عن المعنى المقصود، فالسياق يكمل سياق آية سابقة تتناول مائر المحرمات من النساء (٦)، أي اللواتي يحرم الزواج منهن، وقد ذكر من المحرمات في هذه الآية ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ كنايةً عن " ذوات

(١) سورة النساء . الآية: ٢٤.

(٢) الكشاف: ١ / ٥١٩. وينظر: المنتخب من كليات الأدباء وأشعار البلغاء: ص ١٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٥ / ١٢٩.

(٤) أماليب المجاز في القرآن الكريم ، ص ٦١٦.

(٥) سورة الرعد ، من الآية: ٢٦. وينظر: تفسير التحرير والتوير: ٥ / ٣.

(٦) سورة النساء ، الآية: ٢٣.

الأزواج " من أحصنها زوجها إذا حفظها واستقل بها عن غيره " (١)، واستثنى ما ملكت اليمينين ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ كناية عن المملوكات بالسبي فإنه يحل وطؤهن إذا استبرأتموهن (٢) و ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ وهي كناية فيها تمثيل لحال المخاطبين بحال السائر يترك ما وراءه ويتجاوز به إلى غيره، والمعنى: احل لكم ما عدا أولكم المحرمات (٣) و هن اللاتي يحل الزواج منهن، وبهذه تتحقق تلبية الحاجة القطرية في الاستمتاع بعد دفع أجورهن ﴿فَنَأْتِيَنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ كناية عن المهور في مقابلة ذلك. وبذلك تتجلى عظمة الخالق وحكمته في خلق النفوس، وفي جعل كل من الجنسين سلباً لحاجات القطرة نفساً وعقلاً وجسداً - في دائرة ما احل الله - وبالمعنى الانساني الكريم.

السر:

وورد (السر) كناية عن (النكاح) في قوله - تعالى - ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّسْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَسْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلَمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَعَدْتُمْ وَهِنَّ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ نِسَاءً إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ عَلِيمٌ﴾ (٤).

ذهب جمهور العلماء على أن (السر) هنا كناية عن (النكاح) (٥)، أي: " لا تعتدوا معين وعداً صريحاً على الزوج " (٦)، وذلك لأن المواعدة السرية معها - أي مع المتوفى عنها زوجها في عدتها - وسيلة للفطنة، فضلاً عن عدم مراعاتها نفسياً بالتصريح على الزوج، لأنها ما تزال في عدتها عالقة النفس بذكرى زوجها المتوفى عذافاً في التصريح إهانة لها ولكرامتها. لذلك نهى القرآن عنه وحرّمه على خلاف التعريض الذي هو: " إمالة الكلام عن منهجه إلى عرض منه وهو الجانب ويقابله التصريح فهو أن تفهم المخاطب ما تريد بضرب من الإشارة والتلويح يحتمله الكلام على بعد بمعونة القرينة " (٧) كأن يقول

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٥ / ٥.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤٤٨ / ١.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٨ / ٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٥.

(٥) تفسير المنار: ٢ / ٢٣٣.

(٦) المصدر نفسه: والمكان نفسه.

(٧) تفسير المنار: ٢ / ٤٢٢. وينظر: الكشف: ٣٧٣ / ١.

لها مثلاً: إنك لجسيمة ومن يجد مثلك ورب راغب فيك، وهذا التعريض وأمثاله هو القول المعروف ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي ما عرف شرعاً من التعريض (١) فالسر كناية تشير إلى دلالتها المجازية المتمثلة بالدكاح وهو المعنى المكنى عنه، والذي يقوى هذا المعنى الكفائي أن الكناية وقعت في مقابلة التعريض أي التلويح بالدكاح وعدم التصريح به كما أفاد معنى (السر)، فضلاً عن أن الدكاح المقصود بالكناية إنما يقع في السر وليس جهراً وعلاذية (٢) وبذلك تكون كناية (السر) قد ناسبت السياق مناسبة لطيفة، تدسج بطبيعتها سره من حيث التعبير عن المعنى، فالسياق يحث على التلويح بالمعنى وعدم التصريح به ﴿عَرَضْتُمْ بِهِ﴾ و ﴿أَكْتَنُتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ والكناية وإن كانت قريبة في معناها بمعونة السياق إلا أنها خفية، ونعني بالخفاء أن الانتقال فيها من المعنى الأصلي (صد الجهر والعلن) إلى المعنى الكفائي يتم بلا وساطة، بل هي تحتاج إلى شيء من التأمل للوصول إلى المقصود.

ولا يخفى ما في الكناية من بعد تهنئي في التعبير عن المعنى المقصود يربي الأذواق والنفوس، وهو البعد الملحوظ مع الكناية الجنسية القرآنية.

تحت عيلين:

وربت هذه الكناية في قوله - تعالى - ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ زُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا مَكِيدَتَيْنِ فَمَا تَنَاهَا فَلَمْ يَقْنِيَا عَنْهَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِينَ﴾ (٣)

هذا مثل ضربه الله للكافرين مدل بيه حال الكافرين في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير إبقاء ولا سحابة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم من لحة نسب أو صلة صهر، لأن عداوتهم للمؤمنين وكفرهم بالله ورسوله قطع العلق، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبياً من أنبياء الله - بحال امرأة نوح وامرأة لوط: لما تافقتا وحقنا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما بحق ما بينهما من وصلة الزواج اغناء ما من عذاب الله ﴿وقيل﴾ لهما عند موتهما أو يوم القيامة: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ﴾

(١) ينظر: تفسير الجلالين، ص ٥١.
(٢) ينظر: الكشاف: ١ / ٣٧٣، والبرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣٠٣، والاعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرقي، ص ٤٧٢.
(٣) سورة التحريم، الآية: ١٠.

سائر ﴿الذَّالِمِينَ﴾ الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء، مع داخلها من أخوانكما من قوم نوح وقوم لوط ^(١).

ففي خيانة امرأة نوح وامرأة لوط الدينية التي أحدثتاها انفصلت عرى الزوجية عن معناها الحقيقي، ولابد من القول أن الخيانة المقصودة هنا ليست (الخيانة الزوجية) فهذا مالا يليق بالأنبياء المعصومين، وإنما هي (الخيانة الدينية)، وهي عبارة عن "تفلقهما وأبطأتهما الكفر، ونظاهرهما على الرسولين، فامرأة نوح قالت لقرمها: إنه محدثون، وامرأة لوط دلت على ضيفاته، ولا يجوز أن يُزاد بالخيانة الفجور لأنه سمح في الطباع نقيصاً عن كل أحد.. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - ما بغت امرأة نبي قط ^(٢) فهي الخيانة الدينية، والانحراف عن الهدى الإلهي، ولا شك في أنها أبلغ أنواع الخيانة، لأنها مقومة للقطرة الإنسانية ^(٣).

والقرآن يستعمل كلمة ﴿أَمْرَاتٍ﴾ بدل (زوج) بالنسبة لامرأتي نوح ولوط، وهما زوجتان، وهذا الاستعمال الدقيق ذو دلالة اجتماعية واضحة، توضحه الكثيرة عداثة عبد الرحمن بقولها: "وتدبر استعمال القرآن للكلمتين (امرأة وزوج)، فيهدينا إلى سر الدلالة: كلمة زوج تلي حيث تكون الزوجية هي مناط الموقف: حكمة وأية، أو تشريعاً وحكماً: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾ ^(٤). فإذا تعطلت آيتها من السكن والمودة والرحمة، بخيانة أو تبليغ في العقيدة، فامرأة لا زوج ^(٥). وهذا بين بامرأتي نوح ولوط، فثبتت عرى الزوجية، وعاد كل زوج منهما امرأة فحسب، لا تربطهما رابطة من سكن، ولا صلة من مودة ^(٦).

وفي ضوء هذه الحقيقة التي قررتها الآية نلاحظ الكناية ﴿تَحْتِ عِمَدَيْنِ﴾ وهي قادمة في بنيتها على الاستعارة ﴿تَحْتِ﴾ "لأن وصف المرأة بأنها تحت الرجل ليس يراد به حقيقة الفوق والتحت، وإنما المراد أن منزلة المرأة منخفضة عن منزلة الرجل لقيامه عليها، وغلبته على أمرها، كما قال ﷺ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ يَمَا فَكَّرَ اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَى

(١) الكشف: ٤ / ٤٥٧. وينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٣٩٣.

(٢) الكشف: ٤ / ٤٥٨. وينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٣٩٣.

(٣) الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٣٢٠-٣٢١.

(٤) سورة الروم، من الآية: ٢١.

(٥) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص ٢١٢-٢١٣.

(٦) الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٢٤٢. وينظر: ابن الأثير وحده البلاغي في تفسير القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، ص ١٣٢.

بَعْضٌ وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ^(١) ... ﴿٢﴾، فالاستعارة تعبير عن تقاصر مكانة المرأة عن مكانة الرجل، لا التحذية في العرف واللغة وهي الجهة المعروفة بالحس في الموضع، فاستعارها وهي محسوسة لأمر معقول وهو المكانة والمنزلة^(٣)

إلا أن التعبير ﴿تَحْتَ عَهْدَيْنِ﴾ ينطوي على معنيين مكنى عنهما هما:

- الأول: الفعل الجنسي (الجماع) بحكم قيامه عليها، وهو معنى بَيِّن واضح.

- الثاني: الدونية والتسفل لهاتين المرأتين في المكانة والمنزلة، وليس المقصود بها المكالمة.

والمنزلة في حالتها الطبيعية التي أشارت إليها الاستعارة والآية أنفَاءً، وإنما مكانة ومنزلة أوحى بها التعبير الكنايني ﴿تَحْتَ عَهْدَيْنِ﴾ بمعونة سياق المثل القرآني - وهو إحياء دقيق في سياقه - يشير إلى مكانة هاتين المرأتين ومنزلتهما دينياً واجتماعياً إزاء النبيين الكريمين (عليهما السلام) فهما امرأتان كافرتان منحرفتان عن الهدى الإلهي، وسلوكهما يجسد عملياً دونيتهما، لأنه سلوك منبثق عن الكفر والضلال.

ومن ثَمَّ نلاحظ دقة القرآن الكريم في اختيار التعبير ﴿تَحْتَ عَهْدَيْنِ﴾ كناية عن العلاقة الجنسية في سياق المثل القرآني، فليس المقصود التعبير عن هذه العلاقة كما عبرت عنه الكنايات الجنسية السابقة في ظل تحقق الزوجية القائمة على المودة والرحمة اللتين تجلبان الجانب الإنساني بين الزوجين، وإنما التعبير عن هذه العلاقة في ظل انعدام الزوجية بمعناها الحقيقي بسبب التباين والخيانة في العقيدة، وقد عبرت الكناية بإحياءاتها عن هذه الحالة خير تعبير.

الطَّمْثُ والفرش المرفوعة :

وردت الكناية ﴿يَطْمِئِنَّ﴾ في نساء أهل الجنة في موطدين، الأول في قوله -

تعالى :- ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتٌ الْفُرُشُ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ لَأَنَّ قَبْلَهُنَّ وَلَا جَانِبَهُنَّ﴾^(٤)

(١) سورة النساء، من الآية: ٣٤.

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ٣٢٨. وينظر: الكشف: ٣ / ١٣٩.

(٣) الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٢٠٧.

(٤) سورة الرحمن: الآية ٥٦. والآية: ٧٤ من السورة نفسها.

ووردت الكناية ﴿وَفَرُّشٍ مَّزْمُوعَةٍ﴾ فغني نساء أهل الجنة - أيضاً - في موطنين، في قوله

تعالى: ﴿وَفَرُّشٍ مَّزْمُوعَةٍ﴾ ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنَفًا﴾ ﴿حَمَلْنَهُنَّ أَكْبَارًا تَعْرُبًا﴾ ﴿لَا ضَرِيحَ

الْيَمِينِ﴾ (١).

نلاحظ في الآية الأولى الكناية الجذسية ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ﴾ ، وقد تواسجت معها الكناية العفاف للظرف وهي على الرغم من أنها كناية أخلاقية تصور بطريقة حسية مؤثرة سمة العفاف لنساء أهل الجنة والقناعة بلزواجهن، إلا أنها قد تواسجت من حيث المعنى والصورة مع الكناية الجنسية ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ﴾ في وصف هذه الكناية لتكتمل الصورة الجمالية لهن التي قصد القرآن تقريبها إلى الأذهان.

﴿قَصِيرَتُ الظَّرْفِ﴾ كناية عن العفاف على سبيل التوابع والأرداف، قال أبو هلال العسكري: "وقصور الطرف في الأصل موضوعة للعفاف على جهة التوابع والأرداف، وذلك أن المرأة إذا عَفَّتْ قصرت طرفها على زوجها، فكان قصور الطرف ردفًا للعفاف، والعفاف ردف وتابع لقصور الطرف" (٢). أي عدل عن المعنى الخاص إلى لفظ الأرداف، وبذلك تحققت بالكناية صفة العفاف على نحو فريد "لأن كل من عَفَّتْ عَضُنَ الظَّرْفِ عن سَطْمُوحِ إِلَيْهِ، فَقَدْ يَمْتَدُّ نَظْرُ الْإِنْسَانِ إِلَى شَيْءٍ وَتَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ، وَيَعْفُ عَنْهُ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ لِأَمْرِ أَمْرٍ، وَقَصُرَ ظَرْفُ الْمَرْأَةِ عَلَى بَعْضِهَا، أَوْ قَصُرَ ظَرْفُهَا حَيَاءً وَخُفْرًا أَمْرًا زَائِدًا عَلَى الْعِفَّةِ، لِأَنَّ مَنْ لَا يَطْمَحُ ظَرْفُهَا لِغَيْرِ بَعْضِهَا، أَوْ لَا يَطْمَحُ حَيَاءً وَخُفْرًا، فَاجْتِبَاهَا ضَرُورَةٌ تَكُونُ عَقِيقَةً قَاصِرَةِ الظَّرْفِ" (٣). فالكناية تصوير مؤثر للعفة ولو أن القرآن استخدم التعبير المباشر "عفيفات" لما اطلعنا على ذلك الهيئة الراضية القادعة لنساء أهل الجنة اللاتي لا يطمحن فيها إلى غير أزواجهن، ولا يفكرن في غيرهم (٤). وهذا الوصف بالصورة الكنائية يكاد يكون سمة جمالية خاصة بنساء أهل الجنة، وتعمق هذه السمة بسمة جمالية أخرى تؤدبها الكناية ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ﴾ فهي كناية عن صفة (البكارة) أي (لم يجمعهن) أنس قبلهم ولا جان، وفيها دلالة الفعل الجنسي الأول (فرض البكارة) لأن الطمئ هو "الجماع المؤدي إلى

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٣٤-٣٨. وينظر: سورة الغاشية، الآية: ١٣.

(٢) كتاب الصناعتين، ص ٣٥. وينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ٢٧٧. وينظر: الانقاف في علوم القرآن: ٣ / ١٤٦.

(٣) إعجاز القرآن البياني، حنفي محمد شرف، ص ٣٤٧.

(٤) ينظر: من بلاغة القرآن، ص ٢٢٧.

خروج دم البكر " (١) وقال الراغب: " طمئت المرأة: إذا افتضها، ومنه استعير: ما طمئت هذه الروضة أحد قبلنا - أي ما افتضها - " (٢). فالكناية دقيقة في سياقها وتجلي إيحاءاً خاصاً مناسباً في وصف نساء الجنة، ويسبب هذا الإيحاء الخاص - فيما يبدو - لم ترد هذه الكناية في القرآن إلا في هذين الموطئين في صفتين وبوصفهن لونا من ألوان النعيم في الجنة لعباده المتقين، ولتوحي الكناية بذلك ما أعده الله لأهل الجنة من نعيم هو أعظم رفعةً وجسلاً وسعةً مما هو متعارف عليه في الحياة الدنيا.

كما أن الكناية ﴿تَرْيَلِيْنَهُنَّ﴾ الدالة على صفة البكارة تكسب دلالة الديمومة لهذه الصفة من وصفين بالآية الثانية بأنهن ﴿أَزْوَاجٌ﴾ - قال الزمخشري: " ﴿أَزْوَاجٌ﴾ على ميلاد واحد في الاستواء كلما اتاهن أزواجهن وجنوهن أبكاراً " (٣)، فالفعل الجنسي الأول (قض البكارة) دائم متكرر، وبذلك يتصاعد هذا النعيم، حتى يحقق في ذهن المتلقي معنى الخلود في الجنة وصورة ديمومته.

ثم تأتي الكناية ﴿وَفَرَشَ مَرْوُوعَةً﴾ في النص القرآني لتوحي بصفات جمالية جديدة تنهض من خلالها عناصر مادية محسوسة محببة إلى النفس بحيث تصعد من وصف العلاقة الزوجية والمتعة الجنسية إلى مستوى جمالي غير معهود في الحياة الدنيا.

﴿وَفَرَشَ مَرْوُوعَةً﴾ الفراش ملزوم وأريد به لازمه، وهي الزوجة في الجنة، لأن " المرأة تكنى عنها بالفراش " (٤) وقال أبو هلال العسكري: " ﴿وَفَرَشَ مَرْوُوعَةً﴾ كناية عن النساء " (٥). وقد دل على ذلك قوله - تعالى -: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرْسًا أَزْوَاجًا﴾ و﴿عُرْسًا﴾ هن - كما قال ابن عباس -: " المتحبات إلى أزواجهن " (٦) - فضلاً عن الدلالة الحسية الذي أفادتها

(١) صفوة البيان لمعاني القرآن، ص ٦٩١.

(٢) المفردات: ٤٥٧، ٤٥٨. وينظر: أساس البلاغة، ص ٢٨٤ (طمئت).

(٣) الكشف: ٣٨ / ٤. وينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢٩٤ / ٣.

(٤) الكشف: ٣٦٧ / ٤. وينظر: المنتخب من كليات الأدباء وأشارات البلغاء، ص ٣.

(٥) كتاب الصناعات: ٣٦٨.

(٦) تفسير القرآن العظيم: ٢٩٤ / ٤.

(*) وصف الله ﷻ نساء أهل الجنة يصفات جمالية شتى بالغة التأثير والتشويق. مثل قوله تعالى :-

﴿كَأَنَّهُنَّ يَمْشُونَ فِي سُرُورٍ﴾ [سورة الصافات، الآية ٤٩]، وقوله: ﴿وَعُورٌ عِينٌ﴾ [سورة النور، الآية ٣٠].

[سورة الواقعة، الأيتان ٢٢-٢٣]، وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَاللَّازُكِيُّ﴾ [سورة الرحمن، الآية

٥٨]، ينظر: السور الآتية: الصافات، الآية: ٤٩. والرحمن، الآية: ٥٨، والواقعة، الأيتان: ٢٢-٢٣ على التوالي. وكلها تشبيهات تقرب إلى الأذهان معاني جميلة متلونة، فهن مصونات

الكناية **﴿ وَفُتِي مَرْغُومَةً ﴾** فإنها موحدة بالرفعة والطهارة، وهي دلالة معنوية فوق الدلالة الحسية تستدعي أحدهما الأخرى، فهو نعيم تلتذ به الأجسام والنفوس (*).

ومما تقدم من كنايات جنسية تتجلى دقة القرآن الكريم في استخدامه الكناية بوصفها تعبيراً غير مباشر عن المعنى، إذ إن لكل كناية جنسية، فضلاً عن المعنى المكثى عنه

الـ (الجماع) إحياءات خاصة بها تنسجم مع السياق الذي تتشكل فيه، فهي موضوعة في موضعها اللائق بها وهو وجه من وجوه إعجاز القرآن. كما يتجلى من الكناية الجنسية البعد التهديبي، فالقرآن بالكناية يتسامى ويرفع عن التصريح بالألفاظ البذيئة المقدسة التي تخدش الشعور وتحط من الذوق الإنساني، وهو يرتفع بالعلاقة الزوجية إلى أفق كريم ينال بها عن الصورة الحيوانية الغليظة، ومن مجموع إحياءات الكناية الجنسية نلاحظ إحياءاً للانسـ

"الانسانية" في المباشرة والالتقاء.

كالدر في أصنافه، مع رقة ولطف ونعومة وصفاء، فمن نعيم خالد يُلْتَذ به بالأجسام والنفوس. ينظر: الكشاف: ١ / ٢٣، ٣٦٠. وتفسير القرآن العظيم: ٤ / ٢٦٣. وتفسير الجلالين، ص ٥٩٢، ٧١٠، ٧٠٨.

الفصل الثاني

الكناية اللونية

الفصل الثاني

الكناية اللونية

يعد اللون " وسيلة هامة من وسائل التعبير والفهم، وقد دلت الأبحاث والتجارب على أنه لا يزال كنزاً مخبئاً لم يستطع الإنسان أن يصل إلى قراره. وأنه قوة موجبة تؤثر في جهازنا العصبي" (١).

ونلاحظ اللون - في الأغلب - من خلال ذكر الألفاظ الدالة عليه بوصفه مدركاً بصرياً، إذ يستثير ذكر اللون "حاسة البصر الخاصة المكلفة بتوصيل ذبذبات اللون الإيقاعية إلى المخ، وذلك من جراء استثارة المراكز العصبية وتحريكها بواسطة التخيل" (٢). كما نلاحظ اللون من خلال ذكر مفردات ليست دالة على الألوان دلالة مباشرة، وإنما تدل عليها في صورة غير مباشرة، فهي تدعو المتلقي إلى إدراك اللون بعملية ذهنية أكثر منها عملية رصد لألوان مرئية كما في الألوان المباشرة.

وقيمة اللون في التعبير الأدبي - سواء كان محصلاً بصورة مباشرة من المفردات، أو يتداعى منها في صورة غير مباشرة - لا يقل أهمية عن العناصر الأساسية الأخرى في بثائه كالموسيقى والعاطفة والخيال لذلك كان لحضوره في الشعر أهمية في تلوين صورته، وفي تحريك أجوائه، منذ عصر ما قبل الإسلام وحتى اليوم (٣).

وانطلاقاً من أهمية اللون في النص القرآني الكريم، يحلول هذا الفصل دراسة الكناية القرآنية اللونية، في حدود ما ورنيت فيه من نصوص كريمة، إذ نجد آيات قرآنية قد شكّلت فيها الكناية باللون بنوعيه، الأول: ذكر الألفاظ الدالة على اللون مباشرة في التعبير عن المعاني والمشاهد والمواقف النفسية المتنوعة، كالكناية باللون الأبيض، والأسود، والأزرق، والأخضر، والأصفر. والثاني: التعبير عن اللون بصورة غير مباشرة إذ يدرك اللون فيها من خلال الصورة الكنائية التي يتغلغل فيها اللون فيتداعى للمتلقى بطريقة ذهنية، فيشير

(١) اللون، محمد يوسف همام، ص ١٠. ويتظر: اللغة واللون، د. أحمد مختار عمر، ص ١٤٨.
(٢) إيقاع اللون في القصيدة العربية الحديثة، د. علوي الهاشمي، ص ٢٦٩. ويتظر: جنل اللون في شعر خليل حاوي، د. بشرى البستاني، ص ١٦٥.
(٣) ينظر: التعبير عن اللون في الشعر العربي القديم، د. وولف دتريش فيشر، ص ١١-١٢.

بذلك إلى المعاني والإيحاءات المتنوعة، إذ إن الإيحاء بالمعاني سمة من سمات الكناية باللون لما فيها من قوة تعبيرية تتجاوز مدلولها الظاهر إلى جملة من المعاني الموحية فتتصل بالقلوب والنفوس فتلونها بألوانها.

ولما كثرت الكناية القرآنية باللون نوعين ارتأينا دراسة كل نوع على حدة انسجاماً مع طبيعة كل نوع في سلك أسلوبه. وجعلنا كل لون على حدة، أو لونين على سبيل التقابل لما في ذلك من تصعيد الدلالة وتكثيفها.

الكناية باللون المباشر:

تنوع الصور الكنائية بالألوان المباشرة في القرآن الكريم في مشاهدتها وإيحاءاتها تبعاً للون المكنى به عن المعنى، من ذلك:

الكناية باللون الأبيض والأسود:

يأتي هذان اللونان على التبادل في مشهد من مشاهد يوم القيامة في قوله - تعالى -: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ عَيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ٥ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِهِ رَحْمَةٍ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٦﴾ (١).

فكل من اللون الأبيض واللون الأسود إشارة كنائية مكثفة وذلك لقلة الوسائط بين اللون وما يشير إليه مع وضوح الدلالة، وتطوي هذه الإشارة الكنائية معاني وإيحاءات وهي تعلو على الوجه، فتشير إليها دون وسائط بين المكنى به (اللون الأبيض) والمكنى عنه (حال المؤمنين في ذلك المشهد)، والمكنى به (اللون الأسود) والمكنى عنه (حال الكافرين على التقابل)، وهذه هي الإشارة في المفهوم الكنائي (٢) يتخذها القرآن وسيلة من وسائل التعبير الفني.

واعتمد تركيب الآية المذكورة ظواهر بلاغية متعددة في تصوير حال الفريقين في هذا المشهد، ومن شأن هذه الظواهر هو تصعيد دلالة الكناية باللون بطرقها المتقابلين. والتقابل هو الإطار الفني الذي يشد أجزاء الصورة على سبيل التضاد، وهذه الأجزاء كما هو واضح للعين الراصدة هي:

(١) سورة آل عمران ، الآيتان: ١٠٦، ١٠٧.
(٢) ينظر: مفتاح العلوم ، ص ١٩٤. وينظر: علم البيان في الدراسات البلاغية ، د. علي البديري ، ص ٢٨٠.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ بقابلها ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ .

﴿قَدْ رَفَعُوا الْعَذَابَ﴾ بقابلها ﴿فَنِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

والتقابل بين الفريقين من شأنه " الكشف عن فنية الأسلوب وتجلي مستويات المعنى بأبعادها المختلفة " (١)، لأنه يجمع بين متضادين متناقضين، وبالتضاد والتناقض تدبين الأشياء، وتجد النفس في ذكرهما مجموعتين لذة، لأن اللذة في التقاء الضدين (٢)، وبذلك فإن التضاد هوة مرتكز بنياني يتكئ عليه هذا المشهد في مكوناته وعلاقاته، لأنه يشيع في مقاصد النص حركة بين عناصر متضادة تجلي المعنى المقصود أجلى بيان (٣).

المستوى القريب في المعنى تلحظه بالكناية اللونية الحسية في أسلوب خبري اعتمد (الاجمال): ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ ثم يتبعه التفصيل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ ...﴾ على سبيل الاطناب الفني تتجلى بلاغته في تطويل المشهد في كل لقطاته وهو يعرضه للمنطقي لترسيخ المعنى في الذهن والوجدان.

وابيضاض الوجوه كناية عن (المسرة) (٤) وحمل بعضهم الكناية على الحقيقة كما يفهم من قول الزمخشري: " واليباض من النور والسواد من الظلمة، فمن كان من أهل نور الحق وسم بيباض اللون وأسفاره، وأشراقه وأبيضت صحيفته وأشرفت وسعى النور بين يديه وبهميته، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكمدته وأسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب " (٥). والأرجح أن يفهم على الكناية كما ذهب إلى ذلك الراغب: " لأن ذلك حاصل لهم سوداً كانوا في الدنيا أو بيباضاً " (٦) فهو " مشهد حسي، ولكنه متبعث عن تآثر نفسي، ألقي ظله على الوجوه فأبيضت " (٧).

كما أن بين اللون الأبيض والحالة النفسية للمؤمنين (المسرة) التي هم فيها في موقفهم ذاك تلازماً وارتباطاً، فإن هذا اللون قد اكتسب عرفياً كثيراً من التعلق بأجواء

(١) في البنية والدلالة، د. سعد أبو الرضا، ص ٣٧.

(٢) ينظر: الروض المربع في صناعة البني، ابن القيم، ص ١١١.

(٣) ينظر: في البنية والدلالة، ص ٤٢. وينظر: البني والدلالات في لغة القصص القرآني، د. عماد عبد يحيى، ص ٢٨٤.

(٤) المفردات، ص ٣٥٩. وينظر: بصائر ذوي التمييز، للفيروز آبادي: ٢ / ١٣٤.

(٥) الكشف: ١ / ٤٥٣.

(٦) المفردات، ص ٣٥٩.

(٧) مشاهد يوم القيامة في القرآن، سيد قطب، ص ٢٠٤.

الصفاء والإشراق والسعادة (١)، ولما كان البياض أفضل لون عند العرب، فقد عُدَّ عن الفضل والكرم بالبياض حتى قيل لمن لم يتكمن بمعاب هو أبيض الوجه (٢) كناية عن الطهر والنقاء، والعرب تقول: "لِمَنْ نَالَتْ بَغْيَتُهُ وَقَلَّ بِمَطْلُوبِهِ: أَبْيَضَ وَجْهُهُ، وَمَعْنَاهُ: الْإِسْتِبْشَارُ وَالتَّهْلِيلُ، وَعَدَّ التَّهْنِئَةَ بِالسُّرُورِ يَقُولُونَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَيَّضَ وَجْهَكَ، وَيُقَالُ لِمَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ مَكْرُوهٌ: أَرَبَّذَ وَجْهَهُ، وَغَيَّرَ لَوْنَهُ، وَتَبَدَّلَتْ صَوْرَتُهُ" (٣).

ونقل الرازي قول أبي مسلم الأصفهاني (ت ٣٢٢ هـ) في تفسير هذه الكناية: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ...﴾ "أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا قَدِمَتْ يَدَاهُ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنَ الْحَسَنَاتِ أَبْيَضَ وَجْهَهُ، بِمَعْنَى: اسْتَبْشَرَ نِعَمَ اللَّهِ وَفَضْلَهُ، وَعَلَى صَدِّ ذَلِكَ، إِذَا رَأَى الْكَافِرَ أَعْمَالَهُ الْقَبِيحَةَ مُحْصَاةً: اسْوَدَّ وَجْهَهُ، بِمَعْنَى شِدَّةِ الْحُزْنِ وَالْغَمِّ" (٤).

ويتصاعد المعنى الكنائي للون الأبيض في الآية بقوله - تعالى -: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أُبْغِضُوا وَوُجُوهُهُمْ كَفِيَ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ، وهو المستوى الثاني البعيد في التعبير عن حالتهم النفسية المشرفة بالنور، إذ تصور الرحمة على سبيل المجاز المرسل الأقلم على العلاقة الحالية، فالرحمة هي حال أهل الجنة، لذا استعملت في هذا الموضع بدلاً من المحل (الجنة)، وقوام بلاغة التعبير ﴿كَفِيَ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أن الرحمة تغمرهم وتحتويهم، و "في" تدل على الظرفية والانغماس في الشيء (٥)، فضلاً عن إيحائها بالاستقرار والاطمئنان. وهذه هي الذروة في تصوير حالهم وما هم عليه من سعادة ومسرة وإشراق.. وإزاء هذه الصورة الفانضة بالبشر والنور صورة الكافرين المشوهة وجوههم باللون الأسود، والمكروبة نفوسهم.

فاللون الأسود كناية عن (المساءة) (٦)، "فهو مشهد حسبي ألقى ظله على تلك الوجوه فاسودت للدلالة على ما يجيش في نفوسهم" (٧) وبين هذا اللون والمساءة والحزن تلازم

(١) ينظر: اللغة واللون، ص ٦٩. وينظر: اللون في الأدب العربي القديم وملاحظات أخرى، علي الشوك، ص ٢٦. وينظر: شاعرية الألوان عند امرئ القيس، محمد عبد المطلب، ص ٥٩.

(٢) المفردات، ص ٦٦. وينظر: بصائر ذوي التمييز: ٢ / ١٣٣.

(٣) التفسير الكبير: ٨ / ١٧٠.

(٤) نفسه: ٨ / ١٢٠.

(٥) القرآن والصورة البياتية، د. عبد القادر حسين، ص ١٤٨. وينظر: القرآن إعجازه وبلاغته، د. عبد القادر حسين، ص ١٩٦.

(٦) المفردات، ص ٣٥٩. وينظر: بصائر ذوي التمييز: ٢ / ١٣٤.

(٧) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص ٢٠٤.

وارتباطه، وقد ارتبط اللون الأسود عرقياً بأجواء الكآبة والحزن^(١)، ويتصاعد معنى الكناية بالاستفهام الإنكاري بالهمزة المتضمن معنى التوبيخ والتفريع مع التعجب من حالهم^(٢) ﴿ أَكْثَرْتُمْ بَعْدَ يَمِينِكُمْ فَذَوْقُوا الْعَذَابَ ﴾ فهو عذاب نفسي فوق عذابهم المادي، وهم يتحسسون هذين اللوتين من العذاب على نحو عميق كما أوحى الاستعارة المكنية ﴿ فَذَوْقُوا الْعَذَابَ ﴾، فالعذاب لا يُذاق وإنما يحس به، ولكن لما كان الذوق أعمق أثراً في الشعور بالعذاب استعاره، فسببه العذاب بشيء محسوس يُذاق، ثم حذفه وأبقى شيئاً من لوازمه وهو (الذوق) على سبيل الاستعارة المكنية^(٣) وبذلك فالآية تجمع بين التعذيف بالقول، وهو عذاب نفسي من جهة والعذاب المادي^(٤) الذي يعاينونه من جهة أخرى.

وهذا نلاحظه في مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة يُكنى فيه باللون الأسود عن العذاب قوله - تعالى -: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾^(٥).

فهذه وجوه المشركين الذين كذبوا على الله بذنوب الشريك له والولد^(٦) تتحول بالكناية ﴿ مُّسْوَدَّةٌ ﴾ إلى خلق مشوه يثير الامتعاض والسخرية على المعنى الحقيقي القريب للكنائية، أما المعنى البعيد المكنى عنه فهو تصوير للحالة النفسية التي هم فيها من حزن وكمد وكآبة، فالكنائية تجسد ذلك على وجوههم كمداً من الحزن واسوداداً من الكآبة. والكنائية التي صوّرت وجوههم مشوهة فيها إحياء على أنهم قد شوهوا فطرتهم الصافية التي فطرها الله على التوحيد ﴿ فِطَرَتُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾^(٧) شوهوها في حياتهم الدنيا باتخاذهم الشريك والولد، ويتصاعد عذابهم بتفريعهم بالاستفهام التقريري بالهمزة: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾، وتتكف دلالة السخرية بهم بلفظة ﴿ مَثْوًى ﴾ وهي من قبيل العكس في الكلام للسخرية منهم والتهكم بهم، لأن المَثْوَى في الحقيقة المنزل والمأوى، يُقال: " مَثْوَى

(١) ينظر: اللغة واللون، ص ١٨٦. وينظر: شاعرية الألوان عند امرئ القيس، ص ٥٨.

(٢) ينظر: الكشف: ١ / ٤٥٣.

(٣) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان، ص ٧٩.

(٤) ينظر: البحر المحيط: ٣ / ٢٦. وينظر: ألفاظ الثواب في القرآن الكريم، عماد عبد يحيى، ص ١٩٦.

(٥) سورة الزمر: الآية ٦٠.

(٦) ينظر: الكشف: ٤ / ١٠٧. وينظر: صفوة التفسير: ٣ / ٨٦.

(٧) سورة الروم، من الآية: ٣٠. والفطرة: الخلقة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره. ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٤١٦.

بالمكان: نزل فيه، وبه سمي المنزل مثنوى. والثوى: الموضع الذي يُقام به. ومثوى الرجل: منزله.. وأثواني الرجل: أضافني. يُقال: أنزلني الرجل فأثواني ثواء حسناً^(١)، فليس جهنم منزلاً للمتكبرين يجدون فيه الطمانينة والراحة، وإنما هو العكسي في الكلام تهكمًا بهم وسخرية^(٢) يصعد من عذاب المشركين الكاذبين بتثويهم السادي والنفسي فبنس المثنوى وبنس العذاب.

وبصور القرآن بكناية اللون الأسود في موضع آخر حال الذي يبشر بولادة بنت له، يصوره لا مجرد حزين أو مغتم، وإنما يصوره وقد تحول بالكناية إلى صورة غير صورته، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَإِنَّا بُشِّرُكُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ **يَنْزَوِي مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ^(٣)

﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وصورة الذي يبشر بولادة بنت بهذه المثابة مبنية على الكناية ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ وعلى الاستعارة التصريحية ﴿كَظِيمٌ﴾. فقد تواسجت الكناية والاستعارة في تصوير المعنى على نحو عميق. قال الطبري في ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾: "كنية عن الغم والحزن وليس يريد الاسوداد، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسود وجهه"^(٤)، فهو يغالب ثورة من الحزن والضيق ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: "ملوء غيظاً وغماً"^(٥) يكتمه ويداريه كما صورت الاستعارة ﴿كَظِيمٌ﴾ فقد مثَّبه امتلاء قلبه بالغم والحزن بامتلاء القربة بالماء، وشبه كتمانته وضيقه بما يصر به فم القربة المملوءة بالماء حتى لا يخرج منها شيء^(٦)، ثم يصوره وقد شعر بخزي وهوان يجعلانه لا يستطيع مواجهة الناس فينزوي عنهم ويخفي ﴿يَنْزَوِي مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾، فهو يعاني ذلك الصراع العنيف الذي يثور في نفسه، خوفاً من العار الذي يحلقه بسبب البنت، كأنها بلية وليست هبة إلهية^(٧).

(١) لسان العرب: ١٤ / ١٢٥ - ١٢٦ (ثوا).

(٢) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم، ص ٩٦.

(٣) سورة النحل، الآيتان: ٥٨، ٥٩. وينظر: سورة الزخرف، الآية ١٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١٠ / ١١٦.

(٥) صفوة البيان لمعاني القرآن، ص ٦٢١.

(٦) ينظر في توجيه هذه الاستعارة: التفسير الكبير: ١٨ / ١٩٦. والقرآن والصورة البيانية، ص ١٥٢.

(٧) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، د. عبد الحليم حنفي، ص ١٧١ - ١٧٢.

فالكناية باللون الأسود تكثيف للحالة النفسية الذي يبشّر بالأنثى. ولا شك في أن الكناية فيها سخرية لاذعة، وهي تصور هذا الشخص مسود الوجه، متوارياً عن الناس، مغالباً لصراع رهيب في نفسه من مجرد أن يبشّر بولادة بنت له، تجعل هذه الكناية كل من تولد له بنت في هذا المجتمع، قبل أن يذكر في نصبتها إليه، وقبل أن يشعر بأثر ذلك في نفسه، يتمثل هذه الصورة المنفرة، التي لا يرضاها انسان لنفسه، ولا يرضى أن ينظر إليه الناس فيروه فيها" (١).

ونرى أن مجيء الكناية باللون الأسود في سياق وأد البنات خوف العار أو خوف الفقر كما حكى القرآن ذلك (٢) فضلاً عن أنها تجلّي هوان المرأة وما تلاقيه من تعسف وظلم في المجتمع، دلالة قوية على تشييع هذه العادة الجاهلية وتقطيعها، إذ الملاحظ أن هذه الكناية اللونية لا ترد في القرآن إلا في وصف حال الكافرين والمشرّكين في مشاهد يوم القيامة، وهي مشاهد عصبية مروعة. ولا نشذ هذه الكناية إلا في مجيئها في سياق (وَأَد البنات) مكررة مرتين (٣)، فيعمل التكرار على تقطيع هذه الجريمة وتشييعها على نحو مؤكد. ويتصاعد هذا المعنى بذكر ﴿الْمَوَدَّة﴾ في سياق الانقلاب الكوني الذي سيحدث يوم القيامة، ويحسن بنا إيراده، وهو قوله - تعالى - ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ ﴿وَإِذَا الْمَوَدَّةُ سُئِلَتْ﴾ ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (٤).

فذكر ﴿الْمَوَدَّة﴾ في هذا السياق يكتسب معنى التهويل والتعظيم ل شأنها. وكلن السياق يعرضها حدثاً كونياً من هذه الأحداث العظام، وهي تسأل عن جريمة وأدها، فكيف يواندها (٥) وفي ضوء ما سبق يتبين أن الكناية باللون الأسود تأتي في سياق مشهدين من مشاهد يوم القيامة، وفي سياق جريمة وأد البنات مكررة فتضفي على المعنى التعظيم والتهويل. أما كناية اللون الأبيض فهي تأتي في سياق مشهد واحد من مشاهد يوم القيامة مقابلة للون الأسود وقد سبق ذكره.

(١) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١٧٢.

(٢) ينظر: سورة الاتعام، الآية: ١٥١. وسورة الاسراء، الآية: ٣١.

(٣) سورة النحل، الآية: ٥٨. وسورة الزخرف، الآية: ١٧.

(٤) سورة التكوير، الآيات: ١-٥.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٤٧٩ - ٤٨٠.

الكناية باللون الأزرق :

ورفت الكناية باللون الأزرق في القرآن الكريم مختصة بالتعبير عن حال المجرمين وما هم عليه من سوء حال في مشهد واحد من مشاهد يوم القيامة في قوله - تعالى - ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ^(١) **يَسْخَفُونَكُم بِئِنَّهُمْ إِنْ لَيْسَ لَهُمْ لَأَعْتَرَا** ^(٢) **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ** **إِذْ يَقُولُ أَفْلَأَنْتُمْ مَلِيْقَةً إِنْ لَيْسَ لَهُمْ لَأَيُّومًا** ^(٣)

الكناية ﴿زُرْقًا﴾ رمز ينقلنا إلى المعنى المكنى عنه مباشرة بما يرسمه من لون أزرق يميز المجرمين عند حشرهم، وهو يرسم حول حقائق عيونهم، فتكون صورتهم مغايرة لحقيقتها ترمز على نحو مكثف إلى المعنى المكنى عنه، وهو صفة سوء حالهم وما هم فيه من كمد وكربة، قال الزمخشري: " في عينه زُرْقٌ وزُرْقَةٌ وزُرْقَاتٌ عينه وأزرقَّت وأزرقَّت، وعين زرقاء وعيون زُرُق " ^(٤) وقال في تفسيره: " قيل في الزرق قولان، أحدهما: أن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب، لأن الروم أعداؤهم وهم زرق العيون، ولذلك قالوا في صفة العدو: أسود الكبد، أصهب السبال، أزرق العين. والثاني: أن المراد المعنى، لأن حذقة من يذهب نور بصره تزرُق " ^(٥) وجاء في لسان العرب في هذه الكناية: " إنما معناه أزرقَّت أعينهم من شدة العطش، وقيل: عمياً يخرجون من قبورهم بصراء كما خلقوا أول مرة ويعمون في المحشر، وإنما قيل ﴿زُرْقًا﴾ لأن السواد يزرُق إذا ذهب نواظرهم، ويقال: زرقاً طامعين فيها لا ينالونه " ^(٦)

فالكناية تشير إلى إحياءات متعددة تتجمع لوصف حال المجرمين عند حشرهم: إحياء العطش من شدة ما هم فيه في ذلك الموقف، وإحياء العسى لأنهم عطّلوا أبصارهم في حياتهم الدنيا عن النظر في آيات الله واتّباع الهدى كما أخبر القرآن عن ذلك في مواضع أخرى ^(٧)، وكروها ما أنزل الله وبغضوه، فهذا هم في صورتهم البغيضة كما تصورهم الكناية، فأبغض لون هو اللون الأزرق - ليس لذاته - وإنما يكون بغيضاً مستقيحاً عندما

(١) سورة طه، الآيات: ١٠٢-١٠٤.

(٢) أساس البلاغة، ص ١٩١ (زرق).

(٣) الكشف: ٦٨ / ٣. وينظر: المفردات: ٣١٤. وينظر: اللغة واللون، ص ٤٠.

(٤) لسان العرب: ١٠ / ١٣٩ (زرق).

(٥) ينظر: سورة طه، الآيتين ١٢٤-١٢٥ مثلاً.

يرتسم حول حدقات أعينهم فيشوه خلقهم فهي مذكرة تبعث السخرية من هؤلاء المجرمين في مشاهدتهم، وهم يعانون الخزي والهوان، والكمد والكربة.

ويمكن أن نتصور اللون الأزرق وهو يرتسم على وجوههم دون تخصيص حول حدقات عيونهم كما قال بعض المفسرين، أي يحشر المجرمون زرق الوجوه من الغم والكربة (١). وذلك لأن القرآن لم يخصص في رسم صورتهم، وبذلك يكون اللون الأزرق كناية فيها غرابة في التصوير تميز المجرمين في ساحة الحشر من غيرهم، لأنه لم يعهد عند البشر اللون الأزرق صفة لبشرتهم، وإنما هو معهود في ظواهر طبيعية كالسماء والماء.. وهو مصدر إثارة جمالية تتدسها النفس الإنسانية.. فعندما ينقله القرآن ويغرسه في هذا المغرس الجديد (وجوه المجرمين) في المحشر فإنه يحقق تلك الغرابة والجدة في التصوير إذ فيه إحياء السخرية منهم، فضلاً عما أشار إليه من كمد وغم وكربة من شدة الموقف، ومن شدة موقفهم وكربة يتضائل في حسهم الزمان، وتتطوي معه الحياة التي كانت مسرحاً لأجرامهم **يَتَخَفَتُونَ يَتَنَبَّهُونَ إِذْ يُتْلَى عَلَيْهِمْ الْأَنْبَاءُ فَيَكُونُونَ لَهَا كَإِذَا نُفِثَ مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءُ وَيَنْفَعُ السَّاءَ حَيْثُ نَزَلَ بِهِ الرِّيحُ الْأُخْرَىٰ فَأُولَٰئِكَ فِي كَيْدٍ مَبْرُورٍ** (٢).

ومن شأن هاتين الآيتين تصعيد معنى الكناية إذ تجلي عذابهم النفسي وحيرتهم فهم يتهايمسون بينهم ويسر بعضهم إلى بعض ولا يرفعون صوتاً من الرعب والهول، فيها هي الحقيقة تنكشف لهم، فليست تلك الحياة الدنيا التي أجروا فيها، مطمئنين إليها إلا عشر ليال بل هي يوم كما يقول أرشدهم وأصوبهم. قال الزمخشري: "تخافتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول، يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا. أما لما يعانون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر، لأن أيام السرور قصار، وأما لأنها ذهبت عنهم وتقصت، والذاهب وإن طال مدته قصير بالإنهاء.. وإما لاستطاعتهم الآخرة وأنها أبد سرمدي يستقر إليها عمر الدنيا، وينقل لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة، وقد استرحج الله قول من يكون أشد تفاؤلاً منهم في قوله - تعالى -: **إِذْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذْ أُنْزِلَ الْبُيُوتُ** (٣) وفي تخافتهم هذا وشعورهم بحس منهم الحسرة والندامة، فضلاً عن السخرية منهم جزاء بما كانوا يجرمون.

(١) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن الكريم، ص ١٠٥. وينظر: التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة، ابتسام مرهون الصفار، ص ١٥٢.

(٢) الكشاف: ٦٩ / ٣.

وعالياً ما يخرج القرآن تصوير عذاب المجرمين على نحو مخصوص، نحس فيه الشدة في عذابهم، والتعنيف بهم بالقول حتى وهم يلقون في نار جهنم، من ذلك هذه الصورة الكنائية المتصلة بالكناية السابقة صورة ومعنى في قوله - تعالى - : ﴿ يَعْرِفُ الْمَجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ قَبْلُ وَهُمْ بِالْأَقْدَامِ ﴾ وَيَأْتِي مَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ ﴿ هَلْ يَكْفِيهِمْ جَهَنَّمَ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرِمُونَ ﴾ يَعْرِفُونَ بَيْنَا وَبَيْنَ جَمِيرَةٍ أَوْ (١)

الصورة الكنائية: ﴿ يَعْرِفُ الْمَجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ ﴾ فللمجرمين علامة لونية تميزهم يعرفون بها، فقوله ﴿ بِسْمِهِمْ ﴾ فيه إشارة إلى الكناية بالألوان الأزرق، فضلاً عن الكناية باللون الأسود، فهما من علاماتهم، قال الزمخشري: " يعرفون بسماهم وهي سواد الوجوه وزرقة العيون " (٢) أي: يُعرف يوم القيامة أهل الاجرام بعلامات تظهر عليهم.. " قال الحسن: سواد الوجه وزرقة العين كقوله - تعالى - : ﴿ وَتَحْشُرُ الْمَجْرِمِينَ بَوْمِلِ زُرْقًا ﴾ " (٣)

واجتماع هذين اللونين فيه دلالة عميقة على الكناية والغم، فهما تحسيد لما يعتمل في نفوسهم من شدة الموقف وهوله وما يعانون من العذاب المهيّن الذي صورته الكناية الأخرى ﴿ قَبْلُ وَهُمْ بِالْأَقْدَامِ ﴾ والاهالة واضحة في صورة العذاب التي يؤخذ بها المجرم على اذفراد لتحويل صورتها وتشييعها وإبرازها للعيان ﴿ قَبْلُ وَهُمْ بِالْأَقْدَامِ ﴾ فهي كناية عن شدة العذاب وعذفه، أي: " يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره، وقيل تسحبهم الملائكة: تارة تأخذ بالنواصي، وتارة تأخذ بالأقدام " (٤) وقال ابن عباس: " يؤخذ بناصية المجرم وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب ثم يُلْقَى في النار " (٥).

وهم في هذه الحال من العذاب الشديد المروع المهيّن يسألون سؤال التوبيخ والتقريع زيادة في العذاب النفسي فوق عذابهم المادي ﴿ هَلْ يَكْفِيهِمْ جَهَنَّمَ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرِمُونَ ﴾ أي " يُقال لهم تقريباً وتوبيخاً هذه النار التي أخبرتم بها فكذبتم " (٦) قال ابن كثير: " هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها، ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً " (٧) وهم ﴿ يَعْرِفُونَ بَيْنَا وَبَيْنَ جَمِيرَةٍ أَوْ

(١) سورة الرحمن، الآيات: ٤١ - ٤٤.

(٢) الكشف: ٤ / ٣٥٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ١٧٥.

(٤) الكشف: ٤ / ٣٥٩.

(٥) صفة التفسير: ٣ / ٢٩٨.

(٦) المصدر نفسه: ٣ / ٢٩٨.

(٧) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٢٧٧.

﴿أي: "يترددون بين نار جهنم وبين ماء حار بلغ النهاية في الحرارة، قال قتادة: يطوفون مرة بين الحميم، ومرة بين الجحيم، والحميم الشراب الذي انتهى حره" (١)﴾ وهكذا فإن الكناية باللون الأزرق التي تواسجت معها الكناية ﴿يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسَمَكِهِمْ﴾ بالمعنى والصورة، فضلاً عن الكناية التي صوّرت عذابهم في نار جهنم ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَفْئَامِ﴾ تجلي على نحو مخصوص العذاب بنوعيه: المادي والنفسي، الذي يواجهه المجرمون يوم القيامة.

الكناية باللون الأخضر والأصفر:

يشير القرآن الكريم باللون الأخضر والأصفر في بعض آياته التي يمكن حملها على الكناية إلى دلالات متضادة، وذلك من خلال هذين اللونين في سياق عالم الذبابة ذي الخلق المعجز والمعني المتدفقة. إذ تتخصّص عنهما دلالات متضادة بين الموت والبقاء، والابتعاث والحياة (٢).

الكناية باللون الأخضر في معناها الحقيقي القريب تشير إلى الحياة المتنبئة من أعماق التربة الميتة. والكناية باللون الأصفر في معناها القريب تشير إلى الموت والتحطم بعد الحياة النامية الزاهية.

ولا تنف الدلالة في هذا المجال، بل هي توحى بالعبرة البالغة التي تؤذيها للانسان في رحلتها هذه بين الحياة والموت، عبرة تحمي الانسان من أن يذسى نفسه والمسافة التي يقطعها بين حياته وموته تؤدي به إلى الكفر والطغيان.

فعلى صعيد الكناية باللون الأخضر نقرأ هذه الآية الدالة على قدرة الله التي تحيي الأرض الميتة بالماء النازل من السماء، فتصبح الأرض سخضة بالذبات والزرع وهي قوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (٣).

يتخذ القرآن من هذا المشهد الطبيعي الخلّاب دليلاً حسيّاً مشاهداً على قدرة الله في بعث الحياة من الموت في مشهد مذكور تنمّله العين ويحسسه الوجدان، وهو مشهد

(١) صقوة التفسير: ٢٩٨ / ٣.

(٢) ينظر: مع القرآن في عالمه المرحب، د. عبد الدين خليل، ص ١٩٩.

(٣) سورة الحج، الآية: ٦٣.

عجيب كما دلّ الاستفهام بالهمزة الذي تصدر الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ...﴾ وهو استفهام يقيد (التعجيب) من هذه الظاهرة المتكررة، ظاهرة بعث الحياة من أعماق التربة الميتة، فلفت الانتباه إليها بهذا الاستفهام، فهي تثير نوازع التأمل والتفكير في المشاهد. وهذه الحياة المتنبئة من الموت تدل عليها الكناية باللون الأخضر التي تصبغ الأرض على امتداد البصر: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، والمعنى القريب الذي تشير إليه الكناية هو: " فأصبحت الأرض منتعشة خضراء بعد يبسها ومحوها، وجاء المعنى بصيغة المضارع ﴿فَتُصْبِحُ﴾ لاستحضار الصورة وإفادة بقائها كذلك مدة من الزمن " (١) فهي قدرة الله العظيمة تتجلى ليس في بعث الحياة في الأرض الميتة فحسب، وإنما الحياة الهادقة المرتبطة بحياة الإنسان ارتباطاً يثير فيه نوازع الخير وتحسس الجمال من خلال هذه الأرض المكسوة بالجمال المنظور.

أما المعنى الكنائي البعيد الذي تشير إليه، فهو إثبات البعث والنشور، أي بعث الموتى إلى الحياة لحسابهم وجزائهم، وقد لاحظ ابن عباس - رضي الله عنهما - هذا المعنى والغرض الذي تهدف إليه هذه الكناية بقوله: " إقامة الدليل على كمال قدرته وعلى البعث والنشور، فمن قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت " (٢) وهذا المعنى يتجلى من الكناية أولاً، ومن طبيعة القرآن ومنهج في إثبات فكرة البعث والنشور ثانياً، فالقرآن على الأغلب " يتخذ من صور الطبيعة الحية، وسيلة لإثبات البعث والنشور، ولما كانت أحوال النبات حية ماثلة للعيان، يشهداها الناس مراراً وتكراراً، فإن القرآن أهتم بها كثيراً. وبعض أحوال النبات والشجر، لها صورة مقاربية لعملية البعث والنشور نفسها، كما يدلنا عليها التعبير القرآني " (٣). وهذه المقاربة بين بعض أحوال النبات والشجر وعملية البعث والنشور تتضح من خلال مفهوم عملية البعث، فمفهومها هو: " أن الأجسام التي فقدت الحياة، لا تلبث أن تنبض بالحياة من جديد، وتخرج من باطن الأرض، فهذه هي صورة البعث، كما يستحضرها الخيال بدلالة القرآن، وخروج النبات من الأرض الهامدة الساكنة التي لا تبدو فيها حياة، شبيهة بهذا الإخراج " (٤). كما أن الماء هو أنسب ما تمثّل به الحياة، فقد اقترنت

(١) صفوة التفسير: ٢ / ٢٩٧، وينظر: الكشاف: ٣ / ١٢٢.

(٢) صفوة التفسير: ٢ / ٢٩٧.

(٣) الطبيعة في القرآن الكريم، د. كاسد ياسر الزبيدي، ص ٣٤٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٤٦ - ٣٤٧.

الحياة في كل أشكالها في القرآن بالماء، ويشير إلى ذلك كثير من آياته^(١)، فهو قوام الحياة، والعنصر الرئيس في بنيتها وتركيبها "فالحياة والماء كالثشي وظلّه، وما يطرأ على الشيء من تحول أو تبدل، يستتبع بالضرورة تغييراً مماثلاً في ظلّه، ومن هنا جاء بالماء، لأن المتحكم بالشيء متحكم بظلّه، فمن تعذر عليه فهم حقيقة الحياة وما هيئها، توسعه أن ينظر إلى مصدرها، وما جعله الله سبباً لها"^(٢).

والمعنى المكنى عنه اثبات البعث والنشور الذي أشارت إليه الكناية يتناسق فثباً مع جوهر سورة الحج التي وردت فيه الآية^(٣)، فهي تعالج فكرة البعث بعد الموت معالجة كبيرة في شتى الصور، منها الصورة التي نحن بصدها في مشهد من مشاهد الطبيعة.

ولا يخفى ما في الكناية باللون الأخضر من بعد جمالي محسوس لأن هذا اللون "أكثر سحراً وأبعد عمقاً في ثقيله وتأثيره"^(٤) في المتلقي من أي لون آخر وهو يصيغ الأرض الممتدة على طول البصر، وفيه إحياء كمال القدرة المطلقة التي تبعث الحياة في أزهي صورها تزين بها هذا الوجود ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ختام للآية يتناسق مع ما أشارت إليه الكناية في معناها القريب والبعيد، فديب الحياة في الأرض المينة، وهي حياة هادفة فيها الخير والجمال، أو ديب الحياة في الموتى لحسابهم وجزائهم يتجلى فيها لطف الله الخبير وقدرته.

والبعد الجمالي للون الأخضر يتجلى من خلال ارتباطه بالحقول والحدائق والأشجار، وهذا ارتباط يشير إلى الخصب والرزق^(٥) ومن ثم فهو لون النعيم في الجنة، وقد ورد في القرآن الكريم وصف ملابس أهل الجنة بالخضرة كما في قوله - تعالى - ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُتُورٍ وَاسْتَرَقُوا﴾^(٦) وقوله - تعالى - ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مُسْتَبِينَ خُضْرًا وَاسْتَرَقُوا﴾^(٧) لذلك يمكن عد اللون الأخضر في الجنة كناية تشير إلى معناها المكنى عنه البعيد

(١) ينظر: سورة النحل، الآية: ٦٥. وسورة الأنبياء، الآية: ٣٠، وسورة الحج، الآية: ٥. وسورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٢) الأمثال في القرآن الكريم، د. محمد جابر الفياض، ص ٣١٩.

(٣) ينظر: الأيتان: ٥، ٧، مثلاً.

(٤) عالم عناصر الفن، ص ١٣٦. وينظر: اللغة واللون، ص ٧٩. وينظر: التعبيرات القرآنية والبيئة العربية، ص ٢٧٩.

(٥) ينظر: اللغة واللون، ص ١٦٤.

(٦) سورة الكهف، من الآية: ٣١.

(٧) سورة الإسراء، من الآية: ٢١. وينظر: سورة الرحمن، الآية: ٧٦.

ويتمثل في الخلود، أي خلودهم في جنات النعيم لكرامتهم على الله ﷻ الذي أخلصوا له فنعيمهم وأكرمهم بالنعيم الدائم، فهو لون يشير إلى النعيم المادي والروحي سواء.

وترد الكناية باللون الأخضر في سياق مثل قرآني في صورة حسية مشاهدة، يستدل بها القرآن بإمكان البعث والنشور لأدجل الحساب والجزاء، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿١﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (١)

قوله - تعالى -: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴾ كناية جاءت في سياق انكار البعث بعد الموت والذي سوغ لنا عد هذا التركيب كناية، طبيعية الأسلوب الكنائي الذي يجوز حمله على جانبتي الحقيقة والمجاز، كما في هذا التعبير الذي جاء في هذا المثل القرآني، والمعنى القريب للكناية: " ابراز الشيء من ضده، وذلك أبداع شيء، وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر، ألا ترى الماء يطفئ النار ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء " (٢). وقد أشار الطبري في تفسيره إلى المعنى القريب، والمعنى البعيد المكنى عنه، فقال: " أي الذي جعل لكم بقدرته من الشجر الأخضر ناراً تحرق الشجر، لا يمتنع عليه فعل ما أراد، ولا يعجز أحياء العظام البالية واعادتها خلقاً جديداً " (٣). فالتعبير الكنائي: ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا ... ﴾ قائم على التضاد في المعنى، والتضاد من شأنه أن يجلي المعنى المكنى عنه في أعق صورة، فالشجر الأخضر بما فيه من رواء وماء هو نقيض (النار)، لأن الماء يطفئ النار، فتخرج مما هو مشتمل على النقيض، وهي حالة محسوسة مشاهدة في صورتها ومعناها تشير إلى المعنى المكنى عنه البعيد وهو اخراج الحياة من الموت " فالذي أخرج من الشجر ناراً، لم يكن يتوقع أن تخرج منه، قلار على أن يخرج الإنسان - الذي يظن المشركون أنه لن يخرج - من مرقده الذي ثوى فيه، بعد أن غيبه البلى بين ظهرانيه " (٤).

(١) سورة يس، الآيات: ٧٨ - ٨٠. وينظر: سورة الواقعة، الآيات: ٧١ - ٧٢.

(٢) البحر المحيط: ٣٤٨ / ٧. وينظر: الكشاف: ٢٤ / ٤.

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن: ٢٣ / ٢١ - ٢٢.

(٤) الطبيعة في القرآن الكريم، ص ٣٤٩.

فالقُرآن في هذه الصورة الكنائية يقرب إلى الأذهان حقيقة البعث والنشور، فهو يجعل من هذه المحسوسات في الطبيعة القريبة إلى الحس والوجدان دليلاً حسيماً شاخصاً للعيان يستدل بها على أن الناس سيبعثون وأنهم سيحاسبون على ما يقرءون (١).
أما على صعيد الكناية باللون الأصفر الذي تشير إلى الموت والفناء بعد الحياة، فإننا نلاحظها في سياق عالم النبات أيضاً في قلبه السريع بين الحياة والموت، ذقراً ذلك في قوله تعالى: ﴿الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَبْعٍ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَكُونُ مُضْغَكراً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطّاً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٢).
تستهل الآية بالاستفهام بالهمزة الذي أقاد التعجيب فلفت الانتباه إلى هذه الظاهرة الطبيعية المكرورة في كل زمان ومكان، وهي ظاهرة عجيبة دالة على قدرة الله ورحمته بالإنسان.

قال الزمخشري: "فسلكه: فأدخله ونظمه" ﴿يَنَبْعٍ فِي الْأَرْضِ﴾ عيوناً ومسالك ومجاري كالعروق في الأجساد ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك، وأصنافه من برّ وشعير ومسمم ﴿يَهِيجُ﴾ يتم جفافه، عن الأصمعي: لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن منابته ويذهب ﴿حُطّاً﴾ فثاقاً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ﴾ لتذكيراً وتنبيهاً، على أنه لا بد من صانع حكيم، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير، لا عن تعطيل واهمال (٣).

وقوله: ﴿ثُمَّ يَخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَكُونُ مُضْغَكراً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطّاً﴾ على وجه الاجمال يمثل حقيقتي: الحياة المتجددة ﴿ثُمَّ يَخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ في أزهي صورها وبريقها، وحقيقة الموت والفناء ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَكُونُ مُضْغَكراً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطّاً﴾ في صورة حسية مشهودة تتملأها العين ويحسها الفكر والوجدان، ذلك في عالم النبات الذي يرتبط بالإنسان ارتباطاً مصيرياً.

والذي يهتما الكناية باللون الأصفر ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَكُونُ مُضْغَكراً...﴾ التي أشارت إلى معناها القريب وهو (الموت) المرتبط بالزرع في كل هيئاته وأشكاله وألوانه بعد تحوله من

(١) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٥٠.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢١. وينظر: سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٣) الكشف: ٩٤/٤.

ذروة الحياة في تشكيلها الجمالي في ألوانه وخضرته ونضرتة إلى الموت في تيبسه وجفافه وزواله.

أما المعنى البعيد الذي تنطوي عليه الكناية، فقد أشار إليه عدد من المفسرين. قال ابن كثير: "هكذا الدنيا تكون خضرة تضررة حسناء، ثم تعود عجوراً شوهاء، والشاب يعود شيخاً هرمًا، كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت" (١). وقال القرطبي: "إن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيمًا كأن لم يكن" (٢). وقال الصابوني: "تمثيل لحياة الإنسان بالحياة الدنيا، فمهما طال عمر الإنسان فلا بد من الانتهاء، إلى أن يصير مصفر اللون، متحطم الأعضاء، متكسراً كالزرع بعد نضرتة، ثم يكون عاقبته الموت" (٣).

فقصر الحياة الدنيا أو قصر حياة الإنسان من المعاني التي أشار إليها القرآن في مواضع كثيرة (٤) وقد دللت عليها الكناية باللون الأصفر وبخاصة قصر حياة الإنسان المرتبطة بحياة النبات وبلاغة الكناية أنها تمثل المعنى بالطريقة الحسية المألوفة للإنسان ليكون المعنى الذهني مؤثراً في الحس والنفس ولتحقق بذلك الاستجابة النفسية التي يهدف القرآن تحقيقها في المتلقي، فهذه الحياة الدنيا هي كالزرع في قلبه وتحوله من الحياة إلى الموت، والإنسان يشاهد هذا القلب ويتحسس هذا التحول في مشهده المكرور فلا يغتر بها ولا ينسى نفسه وهو يقطع رحلته بين الحياة والموت. وحياة الإنسان، أو الحياة البشرية في نهاية المطاف لا تعدو أن تكون المعادل الإنساني لعالم النبات، وذلك لأن الإنسان يخرج من رحم أمه، لكن ما يلبث بعد رحلة تطول أو تقصر، أن يذبل ويتيبس ويغيب ثأدية في قلب التراب (٥). فالموت هو النهاية التي ينتهي إليها كل حي بعد حياة زمنية قصيرة كما دللت الكناية باللون الأصفر، بل أن القرآن يختزل هذا الزمن اختزالاً، فلا يبقَى بين الحياة

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٥٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ٢٥٥.

(٣) صفوة التفسير: ٣ / ٧٦.

(٤) ينظر السور الآتية يونس، الآية: ٢٤، والكهف، الآية: ٤٥، والحديد، الآية: ٢٠ مثلاً.

(٥) مع القرآن في عالمه الرحيب، ص ٢٠٠.

(٦) هذه الكناية تشير إلى اللون الأسود أرجانها إلى هذا الموضع لأنها في سياق عالم النبات.

والموت أيما فاصل زمني. نقرأ ذلك في كناية لودية أخرى (١) في سياق الذبابة أيضاً، هي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ فَجَمَعَهُ غُثَاةٌ أَحْوَىٰ﴾ (١)

والمعنى القريب: "أذبت ما ترعاه الدواب، من الحشائش والأعشاب، ﴿فَجَمَعَهُ غُثَاةٌ أَحْوَىٰ﴾ أي فصّيره بعهد الخضرة أسود بالياً، بعد أن كان ناضراً زاهياً" (٢). والبادي أن المعنى أشمل من هذا، وذلك لأن المرعى كل ذبابة، وما من ذبابة إلا وهو صالح لخلق مما خلق الله. فهو هنا أشمل ممّا نعهده من مرعى أنعامنا، فالله خلق هذه الأرض وقدر فيها أوقاتها لكل حي يدب فوق ظهرها، أو يختبئ في جوفها، أو يطير في جوها (٣).

والكناية باللون تتجلى في قوله - تعالى - ﴿فَجَمَعَهُ غُثَاةٌ أَحْوَىٰ﴾ والأحوى هو اللون الأسود الذي ينتهي إليه المرعى عند ذبوله وسوته. جاء في أسلمس النلاغة: "وشعر أحوى: أسود، ورجل أحوى: شاب أسود الشعر" (٤)، والغناء: ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشائش والأوراق والنباتات (٥)، فهو الموت والبدلي بعد الخضرة والحياة في تلك السرعة التي لا نلمح فيها فاصلة زمنية بين الحياة والموت كما أفاد ذلك حرف العطف القاء الذي يفيد التعقيب، أي تعقيب الخروج بالذبول والموت، فلا يبقى في مدى الرؤية غير الموت الذي يكتسح الحياة.

أما المعنى الكنائي البعيد لهذه الصورة الموحية فهو سرعة زوال الحياة الدنيا التي يغير بها الإنسان ويؤثرها على الحياة الباقية. وهذا المعنى المكنى عنه يتسق مع جو السورة والحديث عن الحياة الدنيا والحياة الآخرة: ﴿يَلْ تَوْفِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (٦).

الكناية باللون غير المباشر:

في القرآن كنايات لودية، يترك اللون فيها في صورة غير مباشرة فيشير اللون المتداعي إلى دلالاته، وترد هذه الكنايات غير المباشرة في مشاهد يوم القيامة، نلاحظها نعلو

(١) سورة الأعلى، الآية: ٤، ٥.

(٢) صفوة التفسير: ٣ / ٥٤٨.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٥٤٩.

(٤) مادة (حوى). وينظر: كتاب الملعب، للتمري، ص ٦٩.

(٥) ينظر: لسان العرب: ١٥ / ١١٦ (غثا).

(٦) سورة الأعلى، الآية: ١٦، ١٧.

وجوه الفريقين: المؤمنين والكافرين على التقابل في تلك المشاهد، ألوان مشرقة تدل عليها هذه الكنايات ترسم في وجوه المؤمنين الفائزين، وألوان قاتمة ترسم على وجوه الكافرين الفاجرين على التقابل في الصورة والمعنى. وبذلك فإن القرآن الكريم قد استعمل ألواناً عديدة تدل عليها هذه الكنايات منها: للدلالة على ثواب المؤمنين وفوزهم بما توحى به من إحياءات الاشرار والتهلل والجمال والاستبشار، ومنها للدلالة على علق الكافرين وخسرانهم بما تحمل من إحياءات الخم والحزن والتحسر والاكتئاب^(١) من ذلك:

الكناية بالأسفار والغبرة والفترة:

ترد هذه الكنايات في مشهد من مشاهد يوم القيامة في وصف حال الفريقين في قوله تعالى :- ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ تُنْفِرُ ﴿١﴾ مُلَاجِمَةٌ مُتَمِيزَةٌ ﴿٢﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَيْرٌ ﴿٣﴾ رَغْمًا فَتْرَةٌ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٥﴾﴾^(٢)

التقابل القائم على التضاد بين حال الفريقين هو الإطار الفني الذي يبرز المشهد ويكشف عن عمق المعاني والإحياءات للكنايات المتضادة التي تجسد الحالة النفسية لكل من الفريقين بما يرسم على الوجوه في صورة حيوية مؤثرة.

كناية الأسفار تصور المؤمنين في هذه الصورة المشرقة: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ تُنْفِرُ﴾ إذ يتداعى لون مشرق من وجوههم، قال الزمخشري: "أسفر الصيح: أضاء. وخرجوا في السفر: في بياض الفجر، ورحب بنا يسفر: بياض قبل الليل.. ووجه مسفر: مشرق سروراً"^(٣) فالأسفار "يختص باللون"^(٤)، فهي وجوه مضيئة مشرقة من البهجة والسرور. وجاءت الكناية ﴿تُنْفِرُ﴾ بصيغة اسم الفاعل لتوحي يتمكن هذا الوصف منهم، ويعمق هذا المعنى ويصعده الآية ﴿مُلَاجِمَةٌ مُتَمِيزَةٌ﴾ بصيغة اسم الافاعل أيضاً لتدل على الثبات

(١) ينظر: الفاظ الثواب في القرآن الكريم، ص ١٦٨.

(٢) سورة ص، الآيات: ٣٨-٤٢.

(٣) أساس البلاغة، ص ٢١٢ (سفر). وينظر: الكشف: ٤ / ٥٦٤.

(٤) المفردات، ص ٣٤١.

(*) الأصل في (اسم الفاعل) أنه ادوم وأثبت من الفعل في دلالاته، ولكنه لا يرقى إلى ثبوت الصفة المشبهة. ينظر: معاني الأبدية في العربية، د. قاضل صالح السامرائي، ص ٤٧ وما بعدها. أما هنا في الآية فقد افاد اسم الفاعل المذكر (الثبات والادوم) بالنظر إلى السياق فهو كالصفة المشبهة في ثباته ودوامه.

والنوام (٤)، أي: "فرحة سرورة بما رآته من كرامة الله ورضوانه مستبشرة بذلك الدعيم الدائم" (١).

واللون المتداعي من اشراق وجوههم واضاءتها في ذلك الموقف يمكن وصفه باللون الأبيض، وهو من الألوان الناصعة الخالصة (٢) يعمل على تكثيف تلك الحالة النفسية المسرورة المبهجة التي هم فيها ويشير إليها على نحو لا يمكن وصفها بالكلمات، بل يتخيلها المتلقي ويملأها ليدرك معناها وتأثيرها في حسه ووجدانه في ذلك المشهد العصيب. ويقابل هذه الصورة في اشراقها وسعادة أهلها الصورة الكنائية القاسية التي ترسم على وجوه الكافرين ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَيْرٌ يُرْفَعُ قَرَّةٌ﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْعَمَلُ ﴿إِذْ تَوَاسَّجَتِ كُنُفَاتَانِ لُونَيْنِ﴾ و ﴿قَرَّةٌ﴾ في إخراج صورة الكافرين الأتجارين لتصعيد الدلالة في الصورة والمعنى. في الصورة يتشويه منظرهم بولتين منفرتين، فمن الكناية ﴿غَيْرٌ﴾ يتداعى لون الغبار وهو يزد إلى الألوان غير الناصعة الخالصة (٣) ومن الكناية ﴿قَرَّةٌ﴾ يتداعى اللون الأسود. قال الراغب: "ومن الغبار اشتق الغبرة وهو ما يعلق بالشئ من الغبار، وما كان على لونه. قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَيْرٌ﴾ كناية عن تغير الوجه للغم" (٤). والفترة أصلها "من القتل والقتل، وهو الدخان الصادر من الشواء والعود وتحولهما وقوله تعالى: ﴿تَرَفَعَهَا قَرَّةٌ﴾ نحو غبرة، وذلك شبه دخان يغشى الوجه من الكذب" (٥). وقال الزمخشري "غبرة: غبار يعلوها ﴿قَرَّةٌ﴾ سواد كاللدخان، ولا ترى أو حش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، كما ترى من وجوه الزنوج إذا غبرت، وكان الله ﷻ يجمع إلى سواد وجوههم الغبرة، كما جمعوا الفجور إلى الكفر" (٦).

فالكنائتان في لونهما القاتم تشيران على نحو مكثف إلى تلك الحالة النفسية لهؤلاء في ذلك الموقف الذي يواجهونه، حالة نفسية مكروبة ملؤها الغم والحزن ومصيرها الخيبة والخسران. وهي الصورة التي تقف على التصادم إزاء صورة المؤمنين، وبالتصاد يترسخ المعنى في ذهن المتلقي لحال الفريقين.

(١) صفوة التفسير: ٣ / ٥٢٢.

(٢) ينظر: كتاب الملمع، ص ٨.

(٣) ينظر: كتاب الملمع، ص ٨.

(٤) المفردات، ص ٥٣٥. وينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن، ص ٧٨٥.

(٥) المفردات، ص ٥٩٣. وينظر: أسس البلاغة، ص ٣٥٤ (قتر).

(٦) الكشف: ٤ / ٥٦٤. وينظر: التعبير القرآني والبيئة العربية، ص ١٤٠.

ويتداعى اللون الأسود في صورة كثيفة إزاء صورة مشرقة على التقابل في مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتًا وَّزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْتَغِيهَا وَكُرْهُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ حَافِظٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قُطْعًا مِنْ آتِلٍ مُّظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢) فالصورة المشرقة للذين أحسنوا تتداعى من خلال نفي القتر والذلة عن وجوههم ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: "أي لا يغشى وجوههم دخان ولا سواد كما يعتري وجوه أهل النار، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: هوان وصغار" (٣) ونفي القتر عنهم بلونه الأسود إثبات لإضاءة وجوههم وإشراقها كناية عن سعادتهم وحالتهم النفسية المسرورة المبتهجة. فهي كناية تشير إلى كناية (الأسفار) والإشراق السابقة، إلا أن الكناية هنا تبدو أكثر إشراقاً وإضاءةً، وذلك لأنها تقف على التضاد مع الذين كسبوا السيئات في صورتهم التشبيهية: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قُطْعًا مِنْ آتِلٍ مُّظْلِمًا...﴾ أي: "كأنما ليست وجوههم من قرط السواد والظلمة قطعاً من ظلام الليل" (٤) والليل بطبيعته مظلم، فلا يحتاج إلى وصفه بالسواد وهو اللون المتداعي من ﴿مُظْلِمًا﴾، لكن التقابل في سياق المشهد يعمل على إبراز عذصر التضاد حداً قوياً من خلال تكثيف اللون الأسود ليحلي الصورة المقلبة في صورة بارزة قوية في إضاءتها وإشراقها. قال الشريف الرضي في ﴿مُظْلِمًا﴾: "وفيه زيادة معنى. لأن الليل قد سمي ليلاً وإن كان مقمراً، فلما قال ﴿مُظْلِمًا﴾، على أن التشبيه إنما وقع به أسود ما يكون جلياً، وأبهم أثواباً" (٥) فالذهن يستخلص صورة بالغة في السواد والقبح (٥). وبذلك يشير اللون الأسود الكثيف الذي يعتري وجوههم إلى المعنى المكنى عنه بعمق وهو عظم الغم والحزن والاكتئاب الذي يصطرع في أنفسهم في ذلك الموقف الرهيب.

ناصرة وباسرة:

- (١) سورة يونس، الآية ٢٦-٢٧.
- (٢) صفة التفسير: ١ / ٥٨١، وينظر: الكشاف: ٢ / ٢٦٩.
- (٣) صفة التفسير: ١ / ٥٨١.
- (٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١٥٥.
- (٥) ينظر: المشاهد في القرآن الكريم، د. حامد صديق قنبي، ص ٣٥٠.

تصور هاتين الكنيتان اللوئيتان حال الفريقين: (المؤمنين والكافرين) في مشهد من مشاهد يوم القيامة نلاحظ فيه تصاعد اشراق وجوه المؤمنين إلى الفروقة حيث تتطلع إلى النظر إلى جلال ربها والاستغراق فيه. وبالمقابل نلاحظ وجوه الكافرين وهي كاللحة صفراء تتوقع ذاهية وعذاباً ينزل بهم فيزدادون عذاباً فوق عذابهم. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَأْكُرُونَ ﴿١﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ كَاظِمَةٌ ﴿٣﴾ تَلْظُنُّ أَنْ يُكَلِّمَهَا كَافِرَةٌ ﴿٤﴾﴾ (١).

المؤمنون وما هم فيه من سعادة وسرور تصوره الكناية: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ كَاظِمَةٌ﴾ جاء في لسان العرب: "النضرة: النعمة والعيش والغنى، وقيل: الحسن والرونق، وقد نضر الشجر والورق والوجه واللون، وكل شيء ينضر... فهو ناضر أي حسن" (٢) وكلا المعنيين تشير إليهما الكناية ﴿كَاظِمَةٌ﴾: النعمة والغنى، والحسن والرونق المرتسم على وجوههم، وأحدهما متصل بالآخر وبدل عليه. قال القراء: "أنها مشرقة بالنعيم" (٣) وقال الطبري: "حسنة جميلة من النعيم" (٤). ومثل هذا قول الزمخشري (٥): فوجوههم ناضرة مشرقة بنعيم الجنة، كما قال تعالى: - في مواضع أخرى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (٦) ﴿وَلَقَدْهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورٌ﴾ (٧) ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ (٨) أي: "إذا رأيتهم تعرف أنهم أصحاب نعمة لما ترى في وجوههم من النور والبياض والحدس، ومن بهجة السرور ورونقه" (٩) وقوله: ﴿وَلَقَدْهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورٌ﴾ أي: "وأعطاهم نضرة في الوجه، وسروراً في القلب، والتكثير في ﴿سُرُوراً﴾ للتعظيم والتفخيم" (١٠) و ﴿نَاعِمَةٌ﴾، أي: "ذات بهجة وحسن" (١١) فذخيم الجنة الذي هم فيه مغمورون يرتسم على وجوههم بريقه ونداء، لأن القرآن الكريم حينما يصف وجوه المؤمنين بالنضرة لا يعبر عن معنى الحدس فيها حسب، بل

(١) سورة القيامة، الآيات: ٢٢، ٢٣.

(٢) ٢١٢ / ٥ (نضر).

(٣) معاني القرآن: ٢١٢ / ٣.

(٤) جامع البيان في تفسير القرآن: ١١٩ / ٢٩.

(٥) الكشف: ٥٢٩ / ٤.

(٦) سورة المطففين، الآية: ٢٤.

(٧) سورة الانشراح، من الآية: ١١.

(٨) سورة الغاشية، الآية: ٨.

(٩) صقوة التفاسير: ٥٢٣ / ٣.

(١٠) المصدر نفسه: ٤٩٢ / ٣.

(١١) الكشف: ٥٩٤ / ٤.

يحمل اللفظ الدلالة على الاشرار والبريق والخلوص (١) وبذلك تعكس هذه الكناية اللونية "صورة حية في وصف وجوه المؤمنين، فقد اقترنت النضرة بأحب صورة إلى نفس العرب، ألا وهي صورة النبات الناضر، وذلك أن يكون شديد الخضرة مع اشرار ولمعان مثالب من طراوة الزرع ونمائه نمواً حسناً" (٢).

فهذا اللون المشرق من الأنور والبياض والخضرة المتداعي من الكناية ﴿تَافِرَةٌ﴾ يشير إلى تلك الحالة النفسية التي ملؤها البهجة والسرور والسعادة بما يليق معها أو تمكنها من النظر إلى وجه الله الكريم: ﴿إِنَّهَا تَافِرَةٌ﴾ أي: "تنظر إلى جلال ربها، وتهيم في جماله، أعظم نعيم لأهل الجنة رؤية المولى - جل وعلا - والنظر إلى وجهه الكريم بلا حجب" (٣)، وقال الطبري: قال الحسن البصري: تنظر إلى الخلق، وحق لها أن تنظر وهي تنظر إلى الخالق (٤). والجناس بين الكلمتين ﴿تَافِرَةٌ﴾ و ﴿تَافِرَةٌ﴾ سبغت تأمل عميق كما ذهب إلى ذلك أحد الدارسين (٥) في الصلة بين معنى النضرة، وما يترتب عليه، والنظر إلى الله وما يترتب عليه، من الأسطرواح في جلال الله ورضاه.

أما الكافرون فكما تصورهم الكناية ﴿كَايِرَةٌ﴾ "فوجوههم: شديدة الكلوحة والعبوس" (٦) فهي مقربة لما ينتظرها من العذاب، وفضلاً عن ذلك فهي وجوه صفراء كالحة كما أوجت الكناية، لأن اليسارة لثمره النخل قبل أن تصير رطباً "لأن أول الثمر طلع، ثم خلال، ثم بلع، ثم بُسّر، ثم رطب، ثم ثمر" (٧)، فهي صفراء كالحة (٨)، تشير إلى ما يصطرع في أنفسهم من المغم والحزن والاكتئاب، ويتصاعد هلعهم وعذابهم النفسي، بما يتوقعونه من العذاب الشديد القاصم الذي صورته ﴿كَافِرَةٌ﴾: ﴿تَكُنْ أَنْ يَمَلَكَهَا كَافِرَةٌ﴾ أي: "تتوقع أن يفعل بها فعل هو في شدته وقضاوته ﴿كَافِرَةٌ﴾ داهية تقصم قفار الظاهر" (٩) فهي صفة الموصوف المحنوف داهية التي تفي بعذاب عظيم يحل بهم، فهو الخوف والرعب

(١) ألفاظ الثواب في القرآن الكريم، ص ١٩٠.

(٢) التعبير القرآني والبيئة العربية، ص ١٦١.

(٣) صفوة التفسير: ٣ / ٤٨٦.

(٤) جامع البيان في تفسير القرآن: ٢٩ / ١٢٠.

(٥) فتحي احمد عامر، المعاني الثاني في الأسلوب القرآني، ص ٤٥٨.

(٦) صفوة التفسير: ٣ / ٤٨٣.

(٧) لسان العرب: ٤ / ٥٨ (بسر).

(٨) ألفاظ الثواب في القرآن الكريم، ص ١٩٧.

(٩) الكشاف: ٤ / ٥٣٠.

والهلع في مشهدهم العصيب، فهم يتوجسون أن تنزل بهم داهية تقصم الفقار. والتوجس شر من وقوع العذاب (١). مشهد أرهقهم فغشى وجوههم ما غشيتها من صفرة وكلاحة وعبوس وقطوب، من قبل أن تلقى هول العذاب الأكبر في نار جهنم (٢).

وتتكرر الكناية ﴿بأسرة﴾ في القرآن بصيغة الفعل الماضي "بسر" في سياق يصور الوليد بن المغيرة المخزومي (٣) في صورة شديدة الانكار تثير السخرية من حاله وهو يتهم القرآن بالسحر، وشدة الانكار مكتسبة من كون هذه الكناية قد وردت في سياق مشهد من مشاهد القيامة فتلقى ظلالها على هذا السياق الجديد وموحية بمصيرها المحتوم، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّهُ نَكَرَ وَنَدَرَ ﴿فَتِيلَ كَيْفَ نَدَرَ ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ نَدَرَ ﴿ثُمَّ قَطَرَ ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿ثُمَّ أَوْبَرَ ﴿وَأَشْكَبَرَ ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿ (٤)

الكناية ﴿وبسّر﴾ تمثل لقطة تصويرية ضمن مجموعة لقطات يرسمها التعبير القرآني الموحى "لقطة" وهو يفكر ويدبر ومعها دعوة هي قضاء ﴿ثُمَّ قِيلَ!﴾ واستنكار كله استهزاء ﴿كَيْفَ نَدَرَ﴾ ثم تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الإيحاء بالتكرار. ولقطة وهو ينظر هكذا وهكذا في جد مصطنع ستكلف يوحى بالسخرية منه والاستهزاء. ولقطة وهو يقطب حاجبيه عابساً، ويقبض ملامح وجهه باسراً، ليستجمع فكره في هيئة مضحكة! وبعد هذا المخاض كله، وهذا الحرق كله لا يفتح عليه شيء.. إنما يدبر عن الذنور ويسكتير عن الحق " (٥) ويقول: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿

فالكناية رسمت تقطيب وجهه الكالج، فضلاً عما أوحى به من السحنة الصفراء التي تغلو وجهه وهو يتعجل بوصفه القرآن بالسحر، قال الراغب: "البسر: الاستعجال بالشيء قبل أوانه.. وقوله ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ أي أظهر العبوس قبل أوانه، وفي غير وقته " (٦). فهو التقطيب المتكلف المصطنع ليخفي به الحقيقة التي يستشعرها بعدما ضاقت به الجيول ولم يدرك ما يقول في حقيقة مصدر هذا القرآن.. ولكنه التكبر يصده عن قول الحقيقة، فيواجهه

(١) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص ٦٦.

(٢) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأرق، ص ٤٦١.

(٣) قد وردت روايات المتعددة بأن المعنى هذا الوليد بن المغيرة المخزومي. ينظر: لباب الدقول في أسباب النزول، ص ٧٧٣.

(٤) سورة المدثر، الآيات: ١٨ - ٢٥.

(٥) في ظلال القرآن: ٥ / ٣٦٢ - ٣٦٣.

(٦) المفردات، ص ٦٠. وينظر: لسان العرب: ٤ / ٥٧ (بسر).

القرآن بالتهديد الحاسم، والسخرية اللاذعة كمال تصورهما الكناية: ﴿ثُمَّ أَكْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾، أي: "أدبر عن الحق واستكبر عنه فقال ما قال" (١)، والسخرية تتجلى بالكناية ﴿أَكْبَرَ﴾ إذ فيها إشارة إلى (استناه) وهو يتولى عن الحق للسخرية منه والاستهزاء، وقد قَدَّم السياق أدبارَه على استكباره ليُوحى أن أدبارَه عن الحق ونفوره منه كامن في طبيعته التي لا تتطلع إلى سماع الحق أصلاً، فكانه لم يسمعه فترتب عليه الاستكبار، فضلاً عن أن (الإدبار) حركة حسية مرئية تمهد لصفة عقلية (الاستكبار) تقريراً في نفس المتلقي، ثم لا يغفل إيقاع السياق الموسيقي الذي اعتمد الفاصلة حرف الزاء يتطلب هذا التقديم لإغناء المعنى (٢).

ويبين لنا من عرض أمثلة الكناية باللون المباشر وغير المباشر أنها كانت غنية بإيحاءاتها، فهي قيمة فنية في تصويرها للمعاني والمشاهد فيما ترسمه من ظلال حول السعنى فتوحي بأكثر من دلالتها الظاهرة.. وهي أكثر ما ترد في مشاهد يوم القيامة بوصفها أسلوباً ذا قوة تعبيرية في تجسيد المعاني العقلية والنفسية في حيوية وقوة تأثير وإمتاع.

(١) الكشف: ٥١٩/٤.

(٢) إن اللغة في القرآن الكريم تؤدي دوراً كبيراً في العطاء الموسيقي ذلك أن الموسيقى فيه لا تدب من وزن

شعري كالذي عرفناه في تفعيلات الشعر العربي، ولكنها تتبع من اللغة نفسها، من اختلاف الأصوات في اللفظة الواحدة وفي سياق الألفاظ وتناغمها وتناقضها ودلالاته عليه، وقد بلغت هذه الخصيصية في القرآن النروة في التكامل والوضوح. "الجرس والإيقاع في تعبير القرآن"، د. كاسد ياسر حسين، ص ٣٤٢-٣٤٣. وينظر: فقه اللغة العربية، د. كاسد ياسر الزبيدي، ص ١٣٦. وينظر: جرس الألفاظ ودلالاتها في: البلاغي والنقدي عند العرب، د. ماهر هلال، ص ٢٨٨ وما بعدها.

الفصل الثالث

الكناية النفسية

الفصل الثالث

الكناية النفسية

تتحدد الغاية الأساسية من دراسة الكناية النفسية في الوقوف على الإشارات الوجدانية والمشاعر النفسية التي تجسدها الكناية بالتصوير الفني المؤثر. والتصوير هو الأداة الشائعة في أسلوب القرآن، فهو يعبر: "بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المدحوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يردّي بالصورة التي يرسمها فيمتدحها الحياة الشاذة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية مجسمة مرئية. أما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيوردها شاذة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار، فقد استوت لها كل عناصر التخيل" (١).

والكناية القرآنية لا تقف في معانيها ودلالاتها عند التصوير الحسي، وإنما يوحى التصوير فيها بتضاعف دلالي معنوي ونفسي مؤثر يقرب الأفكار والمعاني إلى الحس والوجدان فتتفاعل فيه النفس انفعالاً من شأنه أن يحدث استجابة نفسية معينة في السمتلي. فالكناية القرآنية تخرج فيها المعنويات والمجردات والانفعالات النفسية باللباس الحسي الذي يكون تأثيره في النفس والذهن أعمق من المجردات، وفي ذلك يقول الرازي: "إف النفس مع الحسيات أتم من إلفها مع العقليات فإذا ذكرت المعنى العقلي الجلي ثم عقبته بالتشثيل الحسي فكانه قد نقلت النفس من الغريب إلى القريب" (٢).

فقل المعاني في صورة حسية يزيد بها قوة وتأثيراً، وهذا ما نلاحظه مع الكناية النفسية في القرآن الكريم إذ تظهر بالتصوير الحسي داخل النفوس، والمشاعر الباطنة، والانفعالات النفسية والخلجات الشعورية في حركات حسية نابضة بالحياة ترمم نموذجاً جاء بشرياً بكل

(١) التصوير الفني في القرآن، ص ٣٢.

(٢) نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز، ص ١٠٨، وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٩ / ٢٦٨ - الكتاب الثاني ج: ١٠ / ٢٥.

435

خلا بعضهم البعض، وهو المعنى الظاهر الذي تدل عليه هذه الحركة الكنائية^(١)، إلا أن هذا المعنى ليس هو المقصود لذاته، وإنما المقصود ما يرتبط بهذه الحركة ويلزمها من مشاعر وانفعالات هؤلاء المنافقين تجاه المؤمنين وهو المعنى المكنى عنه بهذه الحركة. قال أبو حيان: "يوصف المغناط والندم بعض الأنامل"^(٢)، وسياق الكناية في الآية يدل على الحق والغبط: ﴿عَسَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ فالكناية تعبير عن ذلك الانفعال النفسي وهو شدة الغيظ، فضلاً عن التأسف والندم عسا يفوتهم من إيذاء المؤمنين. وشدة الغيظ التي تلتابهم حنقاً وحسداً وعمقه التعدير ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ لأن فعل الأمر ﴿مُوتُوا﴾ هو مجاز في دلالة يراد منه الدعاء وهو موتهم بغيظهم. قال الزمخشري: "دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوة الاسلام وعز أهلها وما لهم في ذلك من النذل والخزي والتبار"^(٣). وهذا إيحاء بشدة الغيظ الذي يعدل في نفوسهم فيسلمهم إلى الهلاك والموت، وفي هذا تطييب لنفوس المؤمنين وبعث الرجاء فيها والاستيثار بوعد الله أن يهلك المنافقون غيظاً بإعزاز الاسلام وإدلائهم به^(٤).

وإذا كان الله ﷻ يكشف غيظهم وحقدهم وحسدكم بذلك الكناية الحركية فهي ظاهرة لعين المؤمنين، فإن الكناية التي انتهت بها الآية: ﴿يَذَرُ الشُّدُورَ﴾ هي مكشوفة لله ﷻ كذلك. وذات الصدور كناية عن الأسرار الخفية المصاحبة للصدور اللازمة لها لا تبارحها. وهي كناية تتكرر في مواضع أخرى من القرآن^(٥) وهي هنا تشير إلى معانٍ تتناسب مع السياق فتكشفها في النور يطلع عليها المؤمنون. جاء في تفسيرها: "فهو يعلم ما تصم صدوركم من شعور الغيظ والبغضاء وموجدة الحقد والحسد فكيف يخفي عليه ما تقولون في خلواتكم وما يبيده بعضكم لبعض من ذلك. ويعلم كذلك كما تنطوي عليه صدورنا معشر المؤمنين من حب الخير والنصح لكم"^(٦).

(١) البحر المحیط: ٣ / ٤١. وينظر: الكشف: ١ / ٤٥٩.

(٢) الكشف: ١ / ٤٥٩.

(٣) ينظر: الكشف: ١ / ٤٥٩.

(٤) ينظر: سور آل عمران، الآية: ١٥٤، والمائدة، الآية: ٧، والأنفال، الآية: ٤٣، وهود، الآية: ٥٥، ولقمان، الآية: ٢٣، وقاطر، الآية: ٣٨، والزمر، الآية: ٧٧، والشورى، الآية: ٢٤، والحديد، الآية: ٦، والتغين، الآية: ٤، والملك، الآية: ١٣.

(٥) تفسير المفار: ٤ / ٩١.

وبذلك تصور هذه الكناية، فضلاً عن كناية (عض الأنامل) مشاعرهم الباطنة، وانفعالاتهم الظاهرة بتلك الحركة المنفصلة فتزيدهم ألماً وغيظاً، وهي تتكشف في النور يطلع عليها عباد الله المؤمنون فيزدادوا استبشاراً بوعده الله بأعزازهم واهلاك أعدائهم غيظاً وذللاً.

عض اليدين:

ترد هذه الكناية في مشهد من مشاهد يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿الْمَلَأْنَا يَوْمَئِذٍ الْعَيْنَ رَمَقًا وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَوْمَ نَبْعَثُ الظَّالِمَ كُلَّ يَدِيهِ يَقُولُ يَدَيَّ أَخَذَتْ مَعَ الرُّسُولِ سَيِّئًا ۖ يَتَوَلَّى يَتِي ۖ لَرَأَيْتُمْ أَفْعَاكًا عِلِيلًا ۖ﴾^(١)

الصورة الكنائية: ﴿نَبْعَثُ الظَّالِمَ كُلَّ يَدِيهِ﴾ تكشف عن الحالة النفسية المنفصلة للكافر الظالم في يوم القيامة حتى يعاين عذابه ومصيره. وبين معنى هذه الكناية الذي تدل عليه ظاهرياً في حركتها المنفصلة (عض اليدين)، وبين المعنى المكنى عنه المراد وهو تدم الظالم وتدهسه علاقة تلازم وارتباط. قال الزمخشري: "عض اليدين والأنامل، والسقوط في اليدكنيات عن الغيظ والحسرة، لأنها من روافدها، فيذكر الرافدة ويدل بها على المردوف، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه" (٢).

والكناية في سياقها الذي وردت فيه أنسب وأدق في تصوير الحالة النفسية التي فيها الظالم في موقفه العسير من أي كناية أخرى مما ذكره الزمخشري كعض الأنامل مثلاً التي تشترك في إيحائها عن الندم في حركتها وصورتها مع كناية (عض اليدين)، وذلك لأن موقف الظالم هنا في مشهد من مشاهد يوم القيامة، وهو موقف مروّع عاصيب يعاين فيه الظالم عقابه ويستيقن بما كذب من قبل. فالتعبير عن حالته النفسية وتحسينها بكناية عض اليدين توحى بذلك الانفعال الشديد المضطرب وهذا يناسبه الحركة الغليظة المصورة للمعنى النفسي المقصود، فهو لا تكفيه يد واحدة يعض عليها، إنما هو يداول بين هذه وذلك، أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من الندم المتمثل في عضه على اليدين فتكون رمزاً مناسباً لحالته النفسية فتجسمها تجسماً (٣) وهو معنى يتعمق بأسلوب التمني الذي يصاحبه: ﴿

(١) سورة الفرقان، الآيات: ٢٦-٢٨.

(٢) الكشف: ٢/ ٢١٨.

(٣) يفتقر: في ظلال القرآن: ٦/ ١٥٦.

يَكَلِّمُنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سِيكًا ﴿١﴾ إذ نحس اللهفة المكروبة في هذا التمني وكيف تتعلّق نفس الظالم بما فات، وكيف هنا لهذه الصرخة الملتهية بهذا الصوت المنبه بقوله (يا) وهي دعوة البعيد الذي لا يتحقّق فيصبح حلماً يتمناه. ثم تتصاعد هذه الصرخة في حديثها والسها بقوله: ﴿يَوَيْلٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن يَأْتِيَهُمُ الْخَسْفُ فَذَلِكَ أَتَى الَّذِينَ لَمْ يَأْمَنُوا بِالْحَبْلِ الْغَرِيبِ﴾ وذلك لأن الندم هناك على أنه لم يتخذ سبيل الذين آمنوا مساراً له، والندم هنا على أنه اتخذ سبيل المضلّين، وهو ليس رفضاً لسبيل الذين آمنوا فحسب وإنما هو فوق ذلك معاندة له وذهاب في الوجه المقابل (١)، وقوله ﴿يَوَيْلٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ينادي فيه ويلته يعني هلكنه كما قال الرمخشري يقول لها تعالى فهذا أوانك (٢)، وفلان كناية عن "كل من أطيع بمعصية وأرضي بإسقاط الله" (٣)، وقال الرمخشري: "فكل من اتخذ من المضلّين خليلاً كان لخليله اسم علم لا محالة، فجعله كناية عنه" (٤)، فهي تشمل كل صاحب سوء يصد عن سبيل الرسول ويضل عن ذكر الله.

وبذلك يتجلى من خلال هذا المشهد القرآني فضلاً عن الكناية "عض الأيديين" صورة نفسية بالغة التأثير تجسدها الانفعالات الظاهرة بحركاتها المضطربة الصاندة من الظالم في ذلك الموقف العصيب.

ويلاحظ على هذا المشهد، مشهد الظالم يعص على يديه من الندم التطويل في عرضه حتّى يخيّل للسامع أنه لن ينتهي، وذلك زيادة في عذاب الظالم تنمّا وتحسراً من جهة، ولزيادة تأثير المشهد في المتلقّي (٥) من جهة أخرى.

تقليب الكفين:

وردت هذه الكناية في سياق قصة الرجلين، جعل الله لأحدهما جذتين فتكبر على الآخر واغتر بما عنده من الخير والتعيم ولم يؤمن بربه الذي وهبه هذه النعمة، فدمر الله جنّيته، وعصف بزروعها وثمارها، فأصبحت أثراً بعد عين، وذلك في قوله - تعالى -:

(١) ينظر: دلالات التراكيب، د. محمد أبو موسى، ص ٢٠٩.

(٢) ينظر: الكشف: ٢١٨ / ٣.

(٣) تأويل مشكل القرآن، ص ٢٦٢.

(٤) الكشف: ٢١٨ / ٣.

(٥) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص ٩٩.

﴿وَلُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَفْتَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا صَاحِبُهُ﴾ (١)

الصورة الكنائية: ﴿فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفِّهِ﴾ مبنية في معناها عن الاستعارة المكذبة ﴿وَلُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ ومتصلة بها، لأنها تجسيد بالحركة للحالة النفسية المتأثرة بتدمير الجنين الذي صورته الاستعارة بقوتها التعبيرية، فقد استعار الاحاطة " وأصله من أحاط به العدو، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه " (٢) ثم حذف المستعار منه (العدو) وأبقى شيئاً من لوازمه وهي الاحاطة على سبيل الاستعارة وفي ذلك تعميق لمعنى تدمير الجنين لأنها احاطة أتت على شرها وهو أنقص ما يكون في الجنين. ثم يتصاعد مشهد الموت في تأثيره بالكناية ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ (٣)، أي: " مهشمة محطمة قد سقطت السقوف على الجدران فأصبحت خراباً بيباً " (٤) فهي صورة كنائية توحى بالتحطيم والموت. وصاحبها يقلب كفيه ظهراً لبطن إشارة لذلك الاحساس النفسي الذي انتابه بعد البطر والاستكبار وهو الندم والتحسر على ضياع ما أفتقه فيها من مال وجهده، فعبر باللازم وهو تقليب الكفين وأراد الملزوم وهو الندم والحسرة (٥). فتقليب الكفين أصبح عنواناً ورماً لهذا المعنى النفسي، وفي الكناية إحياء لطيف يناسب السياق والحالة النفسية يتمثل في حركتها التي توحى بفراغ الكفين بعد قبضهما على شيء، أي غلب الشيء بعد حضوره، وكأن تقليبهما إعلان عن هذا، فضلاً عن الندم والتحسر عليه. كما تكشف هذه الصورة الكنائية من الجانب النفسي الضعيف في شخصية هذا النمط من البشر المشحونة بالقيم السادية باعتماده على غير الله، وترسم التحول الداخلي في هذه الشخصية من غرور النجاح الى الشقاء والافلاس والصعة (٦)

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٢.

(٢) الكشف: ٢ / ٥٦٥. وينظر: الاستعارة في القرآن الكريم، ص ١٢٥.

(٣) تتكرر هذه الكناية في موضعين آخرين في القرآن، ينظر: سورة البقرة، الآية: ٢٥٩. وسورة الحج، الآية: ٣٤٥.

(٤) صفوة التفاسير: ٢ / ١٩٣.

(٥) ينظر: القرآن والصورة البلاغية، ص ١٦٩. وينظر: القرآن أعجازه وبلاغته، ص ٢٢٠.

(٦) ينظر: التصوير الفني في القرآن، ص ٤٧. وينظر: الينى والدلالات في القصص القرآني، ص ٣٢٥.

السقوط في اليد:

وردت هذه الكناية في سياق عبادة بني اسرائيل للعجل، قال تعالى :- ﴿وَاعْبُدُوا قَوْمَ
مُوسَى مِنْ بَعْدِهِمْ عِبَادَ الْجَحُورِ ۚ قَدْ صَلَوَا ثَعْلَبَاتُكُمْ فَكَانُوا بِآيَاتِنَا عُجِلًا ۚ وَكَانُوا عَلَيْنَا يَحِيدُونَ ﴿١٠﴾ وَلَمَّا سَوَّيْتُ فِى أَيْدِيهِمْ وَآفَا أَنَّهُمْ قَدْ صَلَوُوا ثَعْلَبَاتُكُمْ لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبَّنَا وَتُغْفِرْ
لَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١١﴾﴾ (١)

(سُقُوطُ آيَاتِهِمْ) صورة كناية حركية تشير إلى شدة الندم والحسرة على عبادتهم العجل. قال الزمخشري: (وَكَا سُقُوطُ آيَاتِهِمْ) ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل، لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرتة أن يعرض يده غمّاً، فخصير يده مسقوفاً فيها لأن فاه قد وقع فيها. و (سُقُوطُ) مسند إلى (قُوت آيَاتِهِمْ) وهو باب من الكناية (١) أي ندموا أشد الندم فسقوط الأيدي لازم له، فعبر باللازم وأراد الملزوم.

فالكناية تصوير لتلك الحالة النفسية التالفة المتحسرة، يخرجها في صورة تشملاًها العين ويتأثر بها الحس، وكان الندم يسقط في أيديهم انعكاساً للنفس الممتلئة منه، وهذه الكناية وإن كانت تشترك مع غيرها من الكنايات التصويرية التي تشير إلى الندم والتحسر، إلا أن فيها إحياء لطيفاً يناسب سياقها، لا تعبر عنه كناية أخرى. فالسياق سياق عبادة العجل والاشراك به، ومادة الكناية **(سَقَطَ)** توحي بمعناها الأصلي، وهو السقوط من أعلى إلى أسفل، جاء في أساس البلاغة: "سقط من الجبل، وسقط الشيء من يده. وهذا مسقط السوط. وهذه مساقط الغيث ومواقعه" (٣). فالكناية وإن كانت تعني في دلالتها الرئيسية السقوط النفسي المتمثل في الندم والتحسر والذي يتجسد في صورة حسية إلا أن فيها إحياء المسقط لآلهم المزعوم (العجل) من أعلى إلى أسفل في نفوسهم وفي واقعهم، وفي ذلك تتجلى السخرية منهم ومن الإله الذي لا يملك حياة ولا هداية.

وبذلك فإن الكتابة تؤدي المعنى المراد خير أداء في موضعها الذي تشكل فيه وتوحي بمعنى إضافية مع السياق والهدف الذي يقصد إليه القرآن.

(١) سورة الأعراف، الأيتان: ١٤٨-١٤٩.

(٢) الكشاف: ١٢٦ / ٢. ويتظر: القرن اعجازه وبلاغته، ص ٢١٠- ٢٢١، ويتظر: المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، ص ٢٤١.

(٦) ص ٢١٣ (مؤلف).

ردة الأيدي في الأقواء:

ورئت هذه الكناية في قوله - تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْنُونَ الدِّينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمَ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَمْلِكُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَاهُمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝^(١)﴾

الكناية المصورة للمعنى في حركتها المادية الغليظة ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَاهُمْ﴾ فيها سعان وإيحاءات متعددة. ومن هذه المعاني ما يورده الزمخشري في تفسير: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَاهُمْ﴾ فعضوها غوطاً وضجراً ممّا جاءت به الرسل، كقوله: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ۝^(٢)﴾ أو ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه، أو أشاروا بأيديهم إلى المستهينين من قولهم: جفّة من ج أي هذا جواننا لكم ليس عندنا غيره، اقتطاعاً لهم من التصديق أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون، وقيل: الأيدي، جمع يد وهي النعمة بمعنى الأيدي، أي: رتوا نعم الأنبياء التي هي أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم وما أوحى إليهم من الأشران والآيات في أفواههم، لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها، فكانهم رتوها في أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل " (٣) وقد يجوز أيضاً أن يكون المراد بهذه الكناية كما يقول الشريف الرضي: " أن الكفار كانوا إذا بدأ عليهم الرسل بالكلام سدّوا بأيديهم أسماعهم دفعةً، وأفواههم دفعةً، إظهاراً منهم لقلّة الرغبة في سماع كلامهم وجواب مقالهم، ليدلّوهم بهذا الفعل على أنهم لا يصغون لهم إلى مقال، ولا يجيبونهم عن سؤال، إذ قد أيّهموا طريق السماع والجواب، وهما الأذان والأقواء " (٤) وقال بعض المحقّقين " رتوا أيديهم في أفواههم كما يفعل من يريد تمويه الصوت ليسمع عن بعده، بتحريك كفه أمام فمه وهو يرفع صوته ذهاباً وإياباً فيتموج الصوت ويسمع. يرسم السياق هذه الحركة التي تدل على جهرهم بالتكذيب والشك وإفحاشهم في هذا الجهر، وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أنب فيها ولا نوق، إمعاناً منهم في الجهر بالكفر " (٥)

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٩.

(٢) سورة آل عمران، من الآية: ١١٩.

(٣) الكشف: ٢ / ٤٢٢. وينظر: المفردات، ص ٢٨٠.

(٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١٨٢.

(٥) في ظلال القرآن: ٥ / ١٤٢.

وكل هذه المعاني تُوحى بها الكناية وتجتمع فيها لتشير إلى إمعان هؤلاء بالكذب والكفر وإصرارهم وتصميمهم على مجابهة رسل الله - صلوات الله وسلامه عليهم - بالإيداء والسخرية منهم، وهذا الإصرار منهم على الكفر والتكذيب يُوحى به الكناية فتصوره على أنه سلوك متهم دائم متكرر لأنه حركة كنائية مكررة، فالفعل (رَدَدَ) الذي بُنيت عليه يُوحى بهذا التكرار، جاء في أساس البلاغة: "رَدَدَ القول: كَرَّرَهُ، وَلَا خَيْرَ فِي الْقَوْلِ الْمُرَدِّ. وَرَادَهُ الْقَوْلُ رَاجِعَهُ إِلَيْهِ" (١)، وقال الراغب في هذه الكناية: "وَاسْتَعْمَالَ الْمُرَدِّ فِي ذَلِكَ تَنْبِيْهُاً أَنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ سِرَّةً بَعْدَ أُخْرَى" (٢) فيتعمق بتكرار هذا الفعل الكنائي ويتأكد المعنى المُكنى عنه الذي يصممهم بالكذب والجهر بالكفر وإصرارهم عليه، فتفوسم غليظة كافرة بناسيها التصوير بتلك الحركة الكنائية الغليظة.

جعل الأصابع في الأذان واستغشاء الثياب:

ورثت هاتين الكنيتين في آية واحدة وصفاً لقوم نوح عليه السلام وهي قوله تعالى :- ﴿وَأَنِّي كُنَّا بِدُعَاؤِهِمْ لِنَقِرَ لَهُمْ جَمْعًا أَصِيعَةً فِي مَكَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ (٣) ثمة نلاحظ تواسج الكنيتين بحركتيهما: ﴿جَمَعًا أَصِيعَةً فِي مَكَانِهِمْ﴾ ، ﴿وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ في تأدية المعنى النفسي المقصود على نحو فني مؤثر.

الكناية الأولى: ﴿جَمَعًا أَصِيعَةً فِي مَكَانِهِمْ﴾ تعبير موحٍ يجمد حالة نفسية لقوم نوح عليه السلام بهذه الحركة المادية وهي سد أذانهم بأصابعهم كيلا يسمعوا رسولهم وما يدعوهم إليه من الهدى والنور والمغفرة. وهذا هو المعنى الظاهر الذي تدل عليه هذه الحركة الكنائية البغيضة التي تشي بسوء أدبهم وتصرفهم مع نبي الله واستهزائهم به. إلا أن هذا المعنى ليس هو المراد فحسب، وإنما المراد المعنى المُكنى عنه الذي يرتبط بهذه الحركة ويلزمها وهو الحالة النفسية لقومه تجاه الداعي والدعوة ؛ وهذه الحالة النفسية تتمثل في تصميمهم على الإعراض وعدم الاستماع إلى ما يدعوهم إليه البتة. وهذا التصميم في الإعراض عن الاستماع والشدة في مكابرتهم، يُوحى به بنية الكناية، فهو لم يقل: (يجعلون أناملهم في أذانهم) كما يقتضي التعبير في الظاهر، لأن الأنامل (أطراف الأصابع) هي التي تُجعل في

(١) ص ١٥٩. (رد).

(٢) المفردات ، ص ٢٨٠.

(٣) سورة نوح ، الآية: ٧. وينظر: سورة البقرة ، الآية: ١٤. حيث تتكرر كناية (جعل الأصابع في الأذان). وينظر: سورة هود ، الآية: ٥. حيث تتكرر كناية (استغشاء الثياب).

الأذان وليس الأصابع كلها، قال الزمخشري: "فهيلاً قيل أناملهم. قلت: هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها وأيضاً ففي ذكر الأصابع من ذكر المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل" (١)، وهذه المبالغة تتمثل في الضغط الشديد بالأصابع على الأذان فتُوجي بذلك الإعراض الشديد وصدودهم وبغضهم للدعوة وكرهتهم لها. وهم إذ قد عطّلوا سمعهم، فإنهم يعملون إلى تغطية أنفسهم بشياهم حتى لا يروا الداعي، فضلاً عن عدم سماعه إمعاناً في الإعراض والاستكبار، كما تصور ذلك الكناية التالية ﴿وَأَسْتَفْشَوْا بِيَابِهِمْ﴾ قال الزمخشري: ﴿وَأَسْتَفْشَوْا بِيَابِهِمْ﴾ وغطّوا بها، كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تغشيهم لئلا يبصروه كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله" (٢)، فهم كارهون للداعي والدعوة سواء، وهم لم يكتفوا بتعطيل أسمعهم، فإنهم قد عطّلوا أبصارهم كما أوحى الكناية، ليس إحصارهم النبي نوح ﷺ ورؤيتهم في أثناء دعوتهم لهم فحسب، وإنما الكناية رامزة ودالة على تعطيل أبصارهم في المعنى الشامل للداعي والدعوة والتفكير فيما يدعوهم إليه، فهم بمنزلة من منع بصره بوصفه وسيلة للاندراك والمعرفة. وبذلك تتضافر الكنايتان في التعبير فتصورهم متسلوبي وسائل الإدراك (السمع والبصر) الهادية إلى التفكير والإيمان، قال أبو حيان: "ذلك كناية عن المبالغة في إعراضهم عما دعاهم إليه، فهم بمنزلة من منع سمعه، ومنع بصره" (٣) ﴿وَأَمَرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ أي واستمروا على الكفر والطغيان، واستكبروا عن الإيمان استكباراً عظيماً، وفيه إشارة إلى فرط عنادهم، وغلوهم في الضلال (٤).

وإعراض قوم نوح ﷺ وصدودهم الذي صورته الكنايتان بقوتها التعبيرية في التصوير الموحى يتعمق بالاستهارة: ﴿وَأَمَرُوا﴾ إذ إن الإصرار على الذنب من إصرار الحمار على العانة كما قال الزمخشري (٥)، فقال في تفسير قوله ﷺ ﴿وَأَمَرُوا﴾: "الإصرار: من أصرّ الحمار على العانة إذا صرّ أنذيه وأقبل عليها يكدّمها ويطردها، استعير للإقبال على المعاصي والاكباب عليها" (٦)، والاستعارة موحية بأن قوم نوح ﷺ كالحمير لأنهم

(١) الكشف: ١ / ٢١٧.

(٢) نفسه: ٤ / ٤٩٣.

(٣) البحر المحيط: ٨ / ٣٣٨.

(٤) ينظر: الكشف: ٤ / ٤٩٣.

(٥) أساس البلاغة، ص ٢٥٢ (صرر).

(٦) الكشف: ٤ / ٤٩٣.

عطّلوا وسائل المعرفة، ويقوى هذا أنّ الله ﷻ شبه أهل النار من الجن والإنس الذين عطّلوا وسائل المعرفة، القلب والعين والأذن، فاضلّوا وظلموا بالأدعاء، فقال: ﴿...أُولَئِكَ كَالْأَشْجِرِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْمَقْتُولُونَ﴾ (١).

فدلالة الاستعارة تُوحي بأن قوم نوح أشبه بالحميمير الذين يركضون وراء الأذى لطرفها، فاكباهم على المعاصي كأكباب الحمار على العانة (٢). وإزاء حال قوم نوح بوصفهم الذي صوّره التصوير الكنايوي والاستعاري، فإن الكناييتين فيهما إحياء يلمح من طرف خفي، هو تصميم النبي نوح ﷺ ومجاهدته في تبليغه الدعوة لقومه في كل فرصة سانحة ووقت، ليوصلها إلى أسماعهم ويواجههم مواجهة تدع عليه أنظارهم رغم إصرارهم الدائم واستكبارهم الثابت.

النبيذ وراء الظهور؛

وردت هذه الكناية في موطنين من القرآن مختصة بشأن اليهود مصوّرة لحقيقتهم في إهمالهم البلاغ المبين وطرحه وراء ظهورهم، كما نقرأ من قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُونُ لَهُمْ مَبْغُذَةً وَأَشْرَقُوا بِهِمْ مَنًى وَغِيلاً﴾ (٣).

التعدير ﴿تَبَيَّنُوهُ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ﴾ يصورهم بحال من يطرح الشيء وراء ظهره، وهذا التعبير في حقيقته قائم في بنيته على الاستعارة (النبيذ) وعلى الكناية ﴿وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ﴾ فقد تواسجت الاستعارة والكناية في أداء الدلالة التي يهدف إليها القرآن في حركة مصوّرة. قال الشريف الرضي: " والمراد: أنهم غفلوا عن ذكره، وتشاغلوا عن فهمه، يعني الكتاب المنزل عليهم، فكان كالشيء الملقى خلف ظهر الإنسان، لا يراه فيذكره، ولا يلتفت إليه فينظره " (٤). والطرح والترك للشيء ليس فيه معنى (النبيذ)، لأنه لا ينبذ إلا الشيء الحقيقي التافه الذي لا يُبالي به (٥). فالنبيذ يدل على احتقارهم ومخزيتهم وغفلتهم المتعمدة التي فيها استغناء وكرهية لكتاب الله.

(١) سورة الأعراف، من الآية: ١٧٩.

(٢) التبيّن والدلالات في لغة القصص القرآني، ص ٢٦٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧. وينظر: سورة البقرة، الآية: ١٠١.

(٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١٢٦.

(٥) ينظر: الفروق اللغوية، ص ٢٤٥. وينظر: أساس البلاغة، ص ٤٤٣ (تبد).

فلا استعارة (الذيذ) التي عدل إليها القرآن بدلاً من (الترك أو الطرح) مثلاً، هي استعارة نصريحية فيها تشبيه من يترك أو يطرح كتاب الله وراء ظهره احتقاراً له واستهانةً بمن معه شيء فنبذته وراء ظهره، فاستعير المشبه به (المستعار منه) وحذف المشبه (المستعار له) على سبيل الاستعارة التصريحية.

فلا استعارة التي أخرجت المعنى في حركة تصويرية، موحية للنفس أشد الإيحاء ببغض اليهود وكرههم لكتاب الله، ويتصاعد هذا الإيحاء ويتعمق بالكناية ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ ، قال الزمخشري: "وراء ظهورهم مثل لتركهم وإعراضهم عنه مثل ما يرمي به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه" (١)، وتقول العرب: "جعل هذا الأمر وراء ظهره أي تولى عنه معرضاً لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه، فهو كناية عن الإعراض عن التوراة بالكلية" (٢).

فالكناية تمثيل حسي للإعراض لأن من أعرض عن شيء تحلوزه فخلفه وراء ظهره، وفي أضفة وراء إلى الظهر تأكيد لبعده المترك بحيث لا يلقاه بعد ذلك، فالظهر تأكيد لمعنى وراء كقول القائل: من وراء وراء (٣) وهذا التصوير الكناني يدع الخيال يملأ هذه الحالة الزرية السوحية بحماقتهم وغلظتهم وبشاعة تصرفهم، فضلاً عن جحودهم لكتاب الله وحجبه عن الناس.

والكناية فضلاً عن الاستعارة تنمي إحساساً نفسياً في المتلقي وانفعالاً بغضباً يذتاب شعوره ووجدانه تجاه اليهود، لأن الدلالة الإيحائية النفسية فيهما ترتبط بكتاب الله وهو يذنب وراء الظهور، ويعمق هذا الاحساس الاستعارة التصريحية ﴿وَأَشْرَقُوا بِمُتَنَاقِلًا﴾ التي انتهت بها الآية. بالاستعارة ﴿وَأَشْرَقُوا﴾ بدلاً من (استبدلوا) نوحى بأن هؤلاء اليهود لا يكتفون بنبذ كتاب الله وراء ظهورهم سخرية واحتقاراً، وإنما لا يتورعون كذلك على عقد الصفقات التجارية بآيات الله عن عمد وقصد وتبجح على الله والناس لينالوا (الثمن القليل) طغياناً منهم وكفراً وزيادة في السخرية وإسعاداً في الاعتداء، فضلاً عن أن التعبير القرآني يُوحى بأن هؤلاء اليهود يرون في كتابهم شيئاً لا قيمة له في حياتهم فيستغنون عنه بالبيع ويأقل ثمن، ولا ريب أن هذه الأفعال تثير أحاسيس وانفعالات في النفس المؤمنة، فهم

(١) الكشف: ١ / ٣٠٠، ٤٨٦.

(٢) صفوة التفاسير: ١ / ٨٤.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ١ / ٦٢٦ - الكتاب الثاني -.

يَبْذُوثُ الْيَهُودَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ، وَيَبْذُوثُ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَيَبْسُ مَا يَفْعَلُونَ وَيَبْسُ مَا يَشْتَرُونَ.

الانقلاب على الأعقاب :

وردت هذه الكناية في سياق يُوحى بالتعليق على المؤمنين فيما كان منهم من الإفراار والانصراف عن رسول الله ﷺ من أرض المعركة في أحده، وذلك في قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١).

الكناية التصويرية: ﴿ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ تصور المعنى النفسي في صورة حسية مؤثرة في النفس، وهي تتملى هذا المشهد الحسي المنظور المتمثل في هذه الحركة العنيفة السريعة في أرض المعركة. والمعنى القريب للكناية هو: الانصراف عن رسول ﷺ والانكشاف عنه في المعركة (٢). قال الراغب: " قلب الشيء: تصريفه وصرفه عن وجه إلى وجه. كقلب الثوب، وقلب الإنسان، أي صرفه عن طريقته. والاندقلاب: الانصراف " (٣). إلا أن الكناية تدعنا نتخيل حركة عنيفة تتمثل في الانقلاب على الأعقاب في حركة نصف دائرية يميناً وشمالاً فتشير إلى المعنى المكنى عنه بحيوية وقوة تأثير: وهو الحركة النفسية العنيفة في أرض المعركة التي انتابت نفوس المؤمنين وقلوبهم فزلزلتها خوفاً وهلعاً فانقلبوا منهزمين. ويتبدى جمال الكناية فنياً في اتساقها بحركتها العنيفة الغليظة المصورة للهزيمة النفسية مع جو معركة أحد الذي جاءت فيه والتي كان وقعها عنيفاً شديداً على قلوب المؤمنين ونفوسهم.

والكناية ذات بعد شامل في معناها يتجاوز الهزيمة في أرض المعركة إلى معنى الارتداد عن الدين. جاء في التفسير: ﴿ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ من قبيل المثل تضرب لمن رجع عن الشيء بعد الإقبال عليه والأحسن أن تكون عامة تشمل الارتداد عن الدين الذي جاهر بالدعوة إليه بعض المنافقين، والارتداد عن العمل كالجهاد ومكافحة الأعداء وتأييد الحق (٤). ويتأكد هذا البعد الشامل للكناية حين أحسن عدد من المسلمين في معركة أحد أن

(١) سورة آل عمران ، الآية: ١٤٤. وينظر: سورة البقرة ، الآية: ١٤٣.

(٢) ينظر: الكشاف: ١ / ٤٦٨. والمفردات ، ص ٦٢٠.

(٣) المفردات ، ص ٦٢٠.

(٤) المنار: ٤ / ١٦١.

لا جدوى من قتال المشركين، حين هتف الهاتف: أَنْ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، وظنوا أن بموته نهاية أمر هذا الدين، ونهاية أمر الجهاد للمشركين. وهذا الهاتف، وما أطلق من أراجيف في أرض المعركة كانت من قول المنافقين.. وارتياب المؤمنين وحركتهم النفسية تجسمها الكناية، فتصورها حركة ارتداد على الأعقاب، كارتدادهم في المعركة على الأعقاب (١).

تنكير الرؤوس:

تأتي هذه الكناية في موضعين، أحدهما في مشهد من مشاهد يوم القيامة وصفاً لحال المجرمين وهم ناكسو رؤوسهم عند ربهم في قوله - تعالى - ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْزِعْنَا عَنْكَ صُلْبًا إِنَّكَ مَوْفِقُونَ﴾ (٢). الصورة الكنائية الحركة ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ ينطوي تحتها معانٍ وإحاءات فهي تشير إلى خزي المجرمين واعترافهم بالخطيئة والإقرار بالحق الذي حصلوه في حياتهم الدنيا (٣). هي تجسيد للحالة النفسية العصبية في موقفهم هذا، وهي دالة على الذل والانكسار، والندم والخجل مما أجرموا، فيطلبون العودة إلى الأرض لإصلاح ما فات في الحياة الأولى وقد فات الأوان، وهذا الموقف النفسي للمجرمين يعظمه المشهد ويعمقه بحذف جواب (لو)، وذلك ليترك لخيال المتلقي أن يتصوره، ولتذهب فيه نفسه كل مذهب في تقديره، قال الزمخشري: "لو الامتناعية قد حذفت جوابها، وهو: لرايت أمراً قظيماً. أو: لرايت أسوأ حال ترى" (٤)، فحذفه أبلغ من ذكره في وصف حال المجرمين في هذا الموقف العظيم عند ربهم، لأن في ذكر الجواب تضيقاً له وتحديدًا، فهو موقف مروّع عصيب على المجرمين الذين كانت رؤوسهم شامخة في الدنيا لا تسمع قول الحق ولا تيسر طريق الهدى، فهاهم منكسة رؤوسهم ذلاً وانكساراً، وهم الآن فقط يسمعون ويبدعون في موقف العذاب والخزي والهوان، والآن يدعون ويستغيثون - حين لا ينفع الدعاء ولا تلجى

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٩٤ / ٢. وينظر: الكشف: ٦ / ٤٦٨.

(٢) سورة الأسجدة، الآية ١٢. وينظر الموضوع الآخر: سورة النساء، الآية ٦٥ في سياق قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٥١٦ / ٦.

(٤) الكشف: ٤٠٣ / ٣.

الاستغاثة ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا...﴾ أي: "أبصرنا صدق وعذك ووعيدك وسمعنا منك تصديق رسلك أو كنّا عمياً وصمّاً فأبصرنا وسمعنا ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا" (١) فهم كانوا عمياً وصمّاً في الحياة الدنيا كما يشهدون على أنفسهم، فيشتمخون برؤوسهم وينكبون، لأنهم عطّلوا وسائل المعرفة الذّالة إلى الحق والنور والهدى، فمالوا برؤوسهم عن الحق تكبراً وخيلاء، فجاءت الصورة الكنائية لتصور ذلك الرؤوس مطاطة خاضعة مطرقة ولتدل على جزائهم من جنس عملهم.

ويقدم لنا القرآن نمطاً من هولاء بالمادة الكنائية نفسها، تصور موقفهم في الحياة الدنيا من الإيمان والهدى بعد لزوم الحجة والبيان في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه بعد تكسيره الأصنام، فجادلوه بالباطل لينحسروا به الحق، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿قَالُوا مَا أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُنَّا عَنِ آلِهَتِنَا بِتَارِكِينَ﴾ ﴿قَالَ بَلْ عَمَلَكُمْ كَبِيرٌ ثُمَّ هَذَا فَتَنَّاوُكُمْ إِن كَانُوا يَنْظُرُونَ﴾ ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا تَعْبَأُ بِظُنُوْرِكُمْ﴾ (٢)

فالكنائية ﴿نَكَّسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ صورة حركية عنيفة، إذ الانقلاب على الرؤوس، قال الزمخشري: "نكسته: قلبته فجعلت أسفله أعلاه. وانكس: انقلب" (٣) فهم قد قلبوا على رؤوسهم حقيقة ممّا بهتهم به إبراهيم عليه السلام، فما أثاروا جواباً إلا ما هو حجة عليهم (٤)، فتشير هذه الحركة إلى ما أدّلب نفوسهم من خجل وانكسار عند لزوم الحجة، فالحركة الكنائية تصوير لانكسارهم النفسي بعد أن ادّعنوا، "استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصالحة، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم عليه السلام مجادلين عنه، حين نفوا عن أصنامهم القدرة على النطق" (٥)، واستقامتهم حين رجعوا إلى أنفسهم تصوره الآية: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فهم يشهدون على أنفسهم بالظلم بعبادة هذه الأصنام، وهي رجعة إلى الفطرة والاستقاسة فيلحقهم من الخضوع والاستكافة والاطراق للحق

(١) نفسه: ٤٠٣ / ٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ٦٢-٦٥.

(٣) الكشف: ٩٨ / ٣. وينظر: أساس البلاغة، ص ٤٧٢-٤٧٣ (نكس).

(٤) الكشف: ٩٨ / ٣. وينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ٢٣١.

(٥) الكشف: ٩٨ / ٣.

والمنطق الذي مع نبيهم إبراهيم عليه السلام ولكنها رجعة لا تنوم، فانقلبوا منكسرين يجادلون ويكابرون بتلك القوة والشدة التي أوحى بها الكناية في صورتها الحركية القوية العنيفة.

تسوية الأرض بالكافرين :

تجلى هذه الكناية حالة نفسية للكافرين في مشهد من مشاهد يوم القيامة وهو في قوله تعالى :- ﴿يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (١) ﴿لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ كناية جاءت بأسلوب التثني بـ ﴿لَوْ﴾ التي يزداد بها التثني بُعداً فتبرز شعور اللهفة اليأس (٢) للكافرين في موقفهم العصيب الذين يتمنون فيه لما يرون من أهواله أن تسوى بهم الأرض فيخففوا عن الأنظار قال الزمخشري: "﴿لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ لو يذفنون فتسوى بهم الأرض كما تسوى بالموتى، وقيل يودون أنهم لم يبعثوا وأنهم كانوا والأرض سواء، وقول تصير البهائم تراباً فيودون حالها" (٣).

هذا هو المعنى القريب الذي تدل عليه الكناية، أما المعنى المكنى عنه الذي أشارت إليه فضلاً عن شدة الأمر عليهم وهوله فإنه تصوير لحالتهم النفسية المستنفة خجلاً وندامة، وخزياً ومهانة في ساحة العرض بمشهدها العظيم الذي تشهده الرسل والأمم، كما أخبر قيل الكناية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٤) فهم مكشوفون في ساحة العرض لا تخفى منهم خافية، والشهيد حاضر يشهد عليهم بما فعلوا وهو نبيهم (٥) فما يصنع هؤلاء الكافرون في هذا الموقف الذي كانوا به لا يؤمنون ؟ إن جمال التعبير الكنائي هنا يتمثل في عمق الظلال النفسية والشعورية التي يجلبها، والمجال الذي يفتحها لتأمل بواطن النفس، وخلجات الحس، في هذا الموقف الذي يقفه الكافرون، والهول النفسي الذي يعانون من خجل وخزي وندامة (٦).

(١) سورة النساء ، الآية: ٤٢.

(٢) ينظر: دلالات التراكيب ، ص ٢١١.

(٣) الكشف: ٥٢٨/١، وينظر: صفوة التفسير: ٢٧٦/١، وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٥٩/٥.

(٤) سورة النساء ، من الآية: ٤١.

(٥) ينظر: الكشف: ٥٢٧ / ١.

(٦) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

خضوع الأعناق:

وردت هذه الكناية في قوله - تعالى - خطاباً للمسلمين ﴿لَمَّا بَلَغَ مَقَامَ الْإِسْلَامِ﴾ (١)

جاء في التفسير: "لعل: للاشفاق، يعني أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من اسلام قومك ﴿الْأَيْكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لئلا يؤمنوا، أو لا متنباع إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا، (آية) أراد: أية سلجنة إلى الإيمان قاصرة عليه.." (٢).

والكنائية ﴿فَطَلَّتْ أَعْتَقَهُمْ لَكَ خَلِيعِينَ﴾ ذات تشكيل قني في التعبير عن المعنى المقصود. وقد لاحظ الزمخشري ذلك فقال: "فان قلت: كيف صح مجيء خاضعين خيراً عن الأعناق قلت: أصل الكلام: فظكوا لها خاضعين، ففحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع" (٣)، وهذا الاحكام للأعناق في الصورة ومجيء ﴿خَلِيعِينَ﴾ خيراً عنها، أعطى الصورة الكنائية حيويتها وقوة تأثيرها صورة ومعنى لتأكيد دلالة القسر والقهْر في خضوع أعناقهم كرهاً بآية تقسرهم على الإيمان قسراً فيجلى منها المعنى المكنى عنه المتمثل في ذلكم وهوانهم، لأن أعناقهم خاضعة لا تستطيع حركة في هيئتها التي رسمتها الكنائية، فهم عليها مقيمون ثابتون.

ولا يحق ما في هذه الصورة الكناية من تسليّة للرسول ﷺ وتسرية عنه ممّا كان يعاتبه من تكذيب قومه، وهو يحرص على إيمانهم وهداهم.

بلوغ القلوب الحناجر:

وركت هذه الكناية في موضعين من القرآن، الأول في سياق معركة (الأحزاب) في قوله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٠٠﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَوُفِّيَتْ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝﴾ (٤)

(١) سورة الشعراء ، الآية: ٣-٤

(٢) الكشاف: ٣ / ٢٣٥.

220 / ۲۴۰ (۲)

(٤) سورة الأحزاب ، الأيتان: ٩-١٠

والموضع الثاني في مشهد من مشاهد يوم القيامة في قوله - تعالى -: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ
الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظُوبٍ مَّا لِلْقَائِلِينَ مِنْ حَيْسٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ (١).

في الآية الأولى مهدت كنایتان متلازمتان في معنهما لمعنى الكناية ﴿ وَلَقَدْ ﴾ و﴿ وَتَلَقَّى ﴾ في الآية الثانية في حركة عيونهم وميلانها حيرةً ودهشةً مما ﴿ وَلَقَدْ زَاغَتِ ﴾ و﴿ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ قال الزمخشري: " مالت عن سبتها وسمتوى نظرها حيرةً وشخصاً. وقيل: عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع " (٢). فالتمثيل الكنائي يندرج في وصف الحالة النفسية للمسلمين قزيغ الأيصار يمثل أول أحوال الشدة، فالمكروب المفاجأ يرسل بصره، ويقلب سحاجره، يلتفت هتاً وهناك ذهشاً حائراً، والكناية ﴿ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ معبرة عن هذه المعاني، لأن الحيرة والدهش لازمة من لوازمها (٣). ثم تتصاعد معاني الخوف والاضطراب والفرع التي انتابت نفوسهم بالكناية ﴿ وَلَقَدْ زَاغَتِ الْقُلُوبُ ﴾ و﴿ الْحَنَاجِرِ ﴾ فهي كناية عن شدة الخوف والفرع، حتى لكان الخوف يتصاعد بالقلب فيعلو به إلى حيث يقذف كما تصوره الكناية، قال الزمخشري: " قالوا: إذا انتفخت الرنة من شدة الفرع أو الغضب أو الغم الشديد ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة " (٤)، فالكناية من لوازم هذه الأحوال النفسية.

وبذلك يجسد التعبير الكنائي المصور الحالة النفسية الفزع المكونة للمسلمين في مشهد من مشاهد المواجهة مع أعداء الله والمسلمين.

(١) سورة غافر، الآية: ١٨.

(٢) ينظر: من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب - د. محمد أبو موسى، ص ٤٧.

(٣) الكشف: ٣ / ٤١٦.

(٤) ينظر: من أسرار التعبير القرآني، ص ٤٨.

(٥) الكشف: ٣ / ٤١٧. وينظر: الألفاظ النفسية في القرآن الكريم دراسة دلالية، ص ٧٣.

ومما يصور شدة الخوف والفرع التي انتابت المسلمين في هذه المعركة ويعظمها أن الكناية ترد في مشهد مشاهد القيامة، وهي مشاهد عصبية مروعة: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذْ أَقْلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَسَبٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

ثم نلاحظ القلوب كأنما تفارق مواضعها وتبلغ الحناجر حقاً من شدة الضيق^(١) والكرب بالتصوير الكنائي ﴿إِذْ أَقْلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ الذي يشير إلى الحالة النفسية للظالمين وما ينتابها من هلع وخوف من شدة الموقف وهوله. إلا أننا نلاحظ تبايناً في التعبير عن المشاهد النفسية وتصويرها على الرغم من استعمال الكناية نفسها مع اختلاف في تركيبها، حيث قال هناك: ﴿وَلَمَّا أَقْلُوبُ الْعَكْلِمِ﴾ وقال هنا: ﴿إِذْ أَقْلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾، وكل من التركيبين يناسب المشهد الذي جاء فيه في إيحانه رغم اشتراكهما من حيث الدلالة العامة المكتنى عنها والمتمثلة في شدة الخوف والفرع.

فشدة الموقف وهوله في مشهد القيامة أعظم على النفوس والقلوب، إذ نلاحظ الظالمين في أول أهوال الأرزاق قلوبهم لدى الحناجر، ثم هم ﴿كَظِيمٍ﴾ أي كاطمين على قلوبهم لدى الحناجر، أو قلوبهم كاطمة على عم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر، كلا المعنيين يحتمله حالهم ﴿كَظِيمٍ﴾^(٢) فالقلوب المكروبة تضغط على الحناجر، وهم كاطمون عاجزون عن

الكلام ليتروحوأ، لأن الكظم هو الإمساك والحبس^(٣)، وفي ذلك تصعيد للعذاب والغم والضيق، فليس لهم صديق يثبثون له، وينفسون عن صدورهم بالثب ما تضيق به، وليس لهم من شفيع ذي كلمة مسموعة. يسعى لهم في تفريح الكرب، ورفع الحرج، وهم هنالك بين الضيق والانفراد والاهمال^(٤).

(١) المشاهد في القرآن الكريم، ص ٣٨٣.

(٢) ينظر: الكشف: ٤ / ١٢٢.

(٣) ينظر: لسان العرب: ١٢ / ٥١٩-٥٢٠ (كظم).

(٤) مشاهد القيامة في القرآن، ص ١٤١.

شخص الأَبْصَارِ والاهْطَاعِ واقْتِنَاعِ الرُّؤُوسِ:

كانت الرؤوس منسجمة إلى أسفل في الكناية السابقة، أما هنا فإن رؤوس الظالمين مرفوعة إلى أعلى قصراً كما تُصورها الكنايات الثلاث المتتالية في هذا المشهد من مشهد يوم القيامة في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ^(١) **مُهْطِعِينَ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ** ^(٢) تضافرت ثلاث كنايات في تصوير الحالة النفسية للظالمين في هذا الموقف العصيب، ويمكن تتبع حالهم مشهداً مشهداً حتى تكتمل الصورة الكلية في أداء المعنى المقصود.

الظالمون مؤخرون إلى اليوم الذي هم فيه موعدون: ﴿إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ فهو يوم رهيب تكون فيه أبصار الظالمين شاخصة، أي: "نظلم مفتوحة مبهوثة لا تطرف ولا تتحرك" ^(٣)، وذلك كناية عن شدة الخوف والهلع الذي يأخذ أنفسهم فهم ذاهلون، ويتعمق هذا الداهل من الخوف بكنائتي (الاهطاع واقناع الرؤوس): **﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ﴾** أي ملقنين سريعاً سادي أعناقهم، وهي مشية المذعور غير ملتفتين إلى شيء ^(٤) وقال الراغب: "هطع الرجل يهطعه إذا صوبه. وبغير هطع: إذا صوب عنقه" ^(٥) فهم قد أمّوا أعناقهم إلى الداعي مسرعين يقاتلون كما يُقاتل الدواب من أعناقها، ورؤوسهم مرفوعة إلى أعلى كما دلت الكناية **﴿مُقْنِي رُءُوسِهِمْ﴾** أي: "رافعيها" ^(٦) في معناها الظاهر، ومن وراء الكنايتين (الاهطاع واقناع الرؤوس) نلمح المعنى المكنى عنه في مشهد الخوف والهلع هو السخرية من هؤلاء الظالمين، فهم كالدواب يُقاتلون لا كرامة لهم، وهم مرفوعة رؤوسهم على أعلى قسراً ومهانة، فهم كانوا في حياتهم الدنيا لا يقاتلون للحق ولا يستجيبون، وعطلوا احساسهم ووعيهم بالنور والهدى، وهم في مشهدهم هذا كما تعمقه الآية وتؤكد: **﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾** أي: "لا يرجع إليهم أن يظرفوا

(١) سورة إبراهيم، الأيقان: ٤٧ - ٤٣، وينتظر: سورة الأنبياء، الآية ٩٧، في كناية (شخص

الأبصار)، وسورة القمر: ٨، وسورة المعارج، الآية: ٣٦، في كناية **﴿مُهْطِعِينَ﴾**

(٢) صفوة التفاسير: ١٠١ / ٢.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ١٧٧ / ٧، وينظر: الكشاف: ٤٣٨ / ٢.

(٤) المفردات، ص ٧٩١.

(٥) الكشاف: ٤٣٨ / ٢.

يعيونهم، أي: لا يظرقون، ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجنان أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم " (١) فهم لا حسن لهم ولا وعي (وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءٌ) بهذه الصورة التشبيهية البالغة حيث شبه قلوبهم بالهواء لفراغها، قال الشريف الرضي: " أفندتهم لا نعي شيئاً، للرعب الذي دخلها، والهول الذي استولى عليها " (٢) قلوبهم خالية من العقل لشدّة الفزع (٣) فهي هواء خواء.

والآية بمجملها بما فيها من ظواهر بلاغية كناية وتشبيه توصل إلى الحسن مشهد الفزع والخوف والهلع الذي يأخذ الظالمين، فهم خالون من كل وعي وإدراك، فضلاً عن السخرية بهم والذل الذي يصيبهم، فهم مرفوعو الرؤوس قسراً، يُقَادُونَ كالدواب المشدودة لا تلتفت أعينهم إلى شيء ولا تنظر من هول ما يرون فهم ذاهلون.

خشوع الأبصار:

تورد هذه الكناية في مشاهد يوم القيامة وصفاً لحال الكافرين من ذلك قوله - تعالى -: ﴿ خُشِعَا أَبْصَارُهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى الْأَعْدَاءِ فَهُمْ مِنْهَا شَرَّاءٌ يُؤْخَذُونَ إِلَى الْبَاغِ يُغْلَبُونَ أَلَمْ يَكْفُرُوا بِالْآيَاتِ عَجَبٌ (٤) ﴾ الكناية: ﴿ خُشِعَا أَبْصَارُهُمْ ﴾ تصور حال الكافرين عند بعثهم من قبورهم. جاء في أساس البلاغة: " وخشعت بؤنه الأبصار، وخشع بصره: غطته " (٥) فهم يغضون أبصارهم عند خروجهم من الأحداث لا يرفعونها إلى شيء، وذلك كناية عن ذلهم وهوانهم، قال الزمخشري: " وخشوع الأبصار: كناية عن الذلة والاذخزال، لأن ذلة الدليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما " (٦) فالحالة النفسية لهم تتجسد في عيونهم فهي خاشعة ذليلة، ثم تأتي الصورة التشبيهية لتضيف ملمحاً جديداً وتريد الصورة توضيحاً وتقريباً إلى الأذهان، فقد شبه خروجهم من القبور بالجراد المنتشر، وفي هذا إحياء الكثرة، فهم يخرجون جموعاً منتشرة هنا وهناك، قال الزمخشري: " الجراد مثل في الكثرة والتموج. يُقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاعوا كالجراد منتشر في كل مكان لكثرتة " (٧)

(١) الكشف: ٤٣٨ / ٢. وينظر: التعبير القرآني والبيئة العربية، ص ١٣٣.

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١٨٥.

(٣) صفوة التفاسير: ١٠٢ / ٢.

(٤) سورة القمر، الآية: ٧. وينظر: سورة القلم، الآية: ٣. وسورة المعارج، الآية: ١٤.

وسورة الفارغات، الآية: ٩.

(٥) ص، ١١١، مادة (خشع).

(٦) الكشف: ٣٤٤ / ٤. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ١٧٧.

(١) وهم على كثرتهم وتمام وجههم وانتشارهم في كل مكان حيارى فرعين (٢)، يستتر بعضهم ببعض من شدة الخوف، مسرعين ساذي أعناقهم إلى الداعي ﴿مُهَيِّمِينَ إِلَى النَّارِ﴾ في صورتهم الذليلة الخائشة، يدعوهم لأمر غريب شديد ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ حَيْرٍ﴾ ولا يوصف اليوم بالعسر، وإنما هم أنفسهم في عسر وضيق وكرب، فهو قول من أثر ما في نفوسهم من خوف وشدة، فهو مجاز عقلي باعتبار كونه يوماً لأمر عسرة شديدة من شدة الحساب وانتظار العذاب (٣).

الزلق بالابصار:

نقرأ هذه الكناية في قوله - تعالى -: ﴿وَلَيْنِ يَكَاذِبِينَ كَفَرُوا لَيَرْفُؤَنَّكَ بِأَسْرِهِمْ لَنَنْصُرَهُمُ الْبُكْرَ وَيَقُولُوا إِنَّهُ لَمَنْجُونٌ﴾ وما هو إلا ذكر للمؤمنين (٤).

الكناية: ﴿لَيَرْفُؤَنَّكَ بِأَسْرِهِمْ﴾ تعبير عن الحالة النفسية للكافرين تجاه الرسول ﷺ وتبعث من خلال حركة العين المخدقة في نظرها شراً عداوة وبغضاء، وهي نظرات في شدتها وقوة تأثيرها تكاد قدم الرسول ﷺ تزل منها كما نصوره الكناية، قال الزمخشري: "يعني: أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شراً يعيون العداوة والبغضاء، يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك، من قولهم: نظر إلي نظراً يكاد يصرعني، ويكاد ياكلني، أي: لو أمكنه بدطره الصرع أو الأكل لفعله" (٥)، وذلك لا يكون إلا نظر السمك والايغاض، وعند النزاع والخصام (٦).

فالكناية تجسد الحالة النفسية للكافرين من خلال حركة عيونهم بتحديق النظر يشدة، وهي حركة قبيحة تشير إلى تلك النفوس الممثلة عداوة وبغضاء وحقدًا وحسدًا. ولا تكفيهم تلك النظرات المسمومة في التعجير عن مشاعرهم وانفعالاتهم، بل يرافقها السب والشتم

(١) نفسه: ٤ / ٣٤٤.

(٢) ينظر: التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، واجدة مجيد الأطرقجي، ص ٢٠٢. وينظر: التعليل القرآنية والبيئة العربية، ص ١١١.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ١٧٧-١٧٨.

(٤) سورة القلم، الآية: ٥١-٥٢.

(٥) الكشاف: ٤ / ٤٧٨. وينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ٣٤٣.

(٦) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ٣٤٣.

البنزيء للنيل من الرسول ﷺ ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّمَا لَمْجُونٌ﴾ يقولون ذلك " حيرة في أمره وتنفيراً، والأفقد علموا أنه أعتلهم " (١) لأن الذكر الحكيم لا يقوله مجنون، ولا يحمله مجنون (٢).
فهي نفوس معاندة وقلوب منكبرة، فضلاً عن العداوة والبغضاء والحد والحدس.

الازدراء بالعين:

تنوع الدلالات النفسية التي تجسدها الكناية المبنية على حركة العين، فإذا كانت الكناية السابقة جسدت بحركتها مشاعر العداوة والبغضاء والحد والحدس.. فإن هذه الكناية (الازدراء بالعين) تجسد مشاعر نفسية جديدة تنبعث من قلوب الكافرين ونفوسهم تجاه الذين آمنوا بالله ورسوله نوح ﷺ وذلك في قوله - تعالى - على لسان نوح مخاطباً قومه: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِزِّي خَيْرٌ مِنْ عِزِّ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ كُنْ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْ اللَّهِ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَّ إِذَا لَمِنَ الْفَاطِلِينَ﴾ (٣).

الكناية: ﴿تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ والازدراء: الفعل من زرى عليه إذا غابه، وأزرى به: قصر به، يقال: أزدرته عينه، وأفتحصته عينه " (٤)، وقال الشريف الرضي في هذه الكناية: " كما يقول القائل: أفتحمت فلاناً عيني، واحتقره طرفي. إذا قبح في منظر عينه خلقه، وصغر دماحه " (٥).

فالكناية حركة عين ذميمة تجسد الحالة النفسية للكافرين تجاه المؤمنين تتمثل في احتقارهم واستصغارهم والاستهانة بهم، في حالة نفسية تسترذل المؤمنين على نحو قبيح فهي نفوس تزن الأمور بمقاييس الكفر والضلال.

قرة العين:

تكشف هذه الكناية الحالة النفسية الراضية المطمئنة خلاف ما أدته الكنائتان السابقتان من مشاعر وانفعالات تجاه المؤمنين.. وبذلك تكون الكناية بحركة العين وسيلة تعبيرية مهمة في التعبير عن الحالات النفسية المتبلغة.. وقد وردت هذه الكناية في عدة مواضع،

- (١) الكشف: ٤ / ٤٧٨.
- (٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٢٤٣.
- (٣) سورة هود، الآية: ٣١.
- (٤) الكشف: ٢ / ٣١٥. وينظر: أساس البلاغة، ص ١٦٠ (زري).
- (٥) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١٦٠.

منها قوله - تعالى - ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا مَبْعَدًا ﴾ (١)

الكناية: ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ في سياق دعاء عباد الرحمن ربهم أن يكون أزواجهم وذرياتهم طالعين لله تفرّ بهم أعينهم، كما صوّرت الكناية بحركتها الجميلة الواحدة ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ أي " اجعل لنا في الأزواج والبنين مسرة وفرحاً بالتمسك بطاعتك والعمل بمَرْضَاتِكَ " (٢) فالكناية تعبير عن حالتهم الشعورية المُمثّلة في الفرحة والمسرة (٣) وفي الكناية إحياء القرار النفسي، قال الراغب في هذه الكناية: " وقيل هو من القرار والمعنى اعطاء الله ما تسكن به عينه فلا يطمح إلى غيره " (٤) فنقوسهم مطمئنة مستقرة وهم يرون القدوة الطيبة من أصلابهم يتقون الله ويخفونه فهي الأمية التي يطمح إليها عباد الرحمن، فالكناية تعبير عن هذا الشعور القطري الإيماني العميق الذي يستقر في نفوس المتقين وقلوبهم، شعور الرغبة أن تعقبهم ذرية تسير على نهجهم، وأن تكون لهم أزواج من نوعهم، فتفرّ بهم النفوس، وتطمئن بهم القلوب.. والرغبة في أن يحس المؤمن أنه قدوة للخير، وأنتم به الراغبون في الله المتقون ﴿ وَاجْعَلْ لَنَا مَبْعَدًا ﴾ وليس في هذا من اثره ولا استعلاء فالركب كله يحذوه الإيمان والتقوى (٥)

ومما سبق من كُنَايَات نفسية يتبين أنها تعتمد على حركات حسية متباينة في تجسيد الحالات النفسية، إذ تظهر بالتصوير الحسي الحركي دخائل الذقوس والمشاعر الباطنة والانفعالات النفسية المتباينة، سواء كانت الحركة الكنائية باليد أم القدم أم العين أم الرأس أم غير ذلك من أعضاء جسم الانسان، وهذه الحركة الكنائية ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي وسيلة تعبيرية نابضة بالحياة تشير إلى دلالاتها النفسية المتباينة فتجسدها في صور حركية مرئية يتملأها الحس والوجدان، ومن ثم يكون تأثيرها في النفس والذهن أعمق مما لو جاءت في تعبيرات ذهنية مجردة.

(١) سورة الفرقان، الآية ٧٤. وينظر: السور الآتية: مريم، الآية: ٢٦، طه، الآية: ٤٠، القصص، الآيتين: ٩، ١٣، السجدة، الآية: ١٧، الأحزاب، الآية: ٥١.
(٢) صفوة التفسير: ٣٧٢ / ٢.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٣٧١ / ٢.
(٤) المفردات، ص ٦٠١.
(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ١٨٧ / ٦.

الفصل الرابع

الكناية^{٤٣} الخلقية

الفصل الرابع

الكناية الخلقية

نقصد بالكناية الخلقية: الكناية التي تتناول موضوعاً يتعلق بقيمة خلقية إيجابية كانت أم سلبية في حدود ما ورد من كنايات قرآنية احضنت تلك الموضوعات ومنها: الغيبة والنميمة، والبخل والتبذير، والشجاعة والحبس، والتكبر والتواضع، والعفة والصبر على مغريات الحياة الدنيا... وما إلى ذلك من موضوعات تتعلق بأخلاق الإنسان وسلوكه وهو يتحرك ضمن المجتمع الذي يعيش فيه.

والقرآن حين يعرض هذه الموضوعات المهمة، فإنه غالباً لا يعرضها بتعابير ذهنية مجردة وبقريرية مباشرة، وإنما يعرضها بالأسلوب الكنائي المصوّر للمعنى فيكون أكثر حيوية وتأثيراً، من شأنه أن يحدث الاستجابة الشعورية والوجدانية في القارئ أو السامع وهو يتلقى هذه الموضوعات التي يهدف القرآن تثبيتها في ذهنه ونفسه أو تنقيحها منها. وقد حاولنا توزيع الكنايات الخلقية إلى موضوعاتها التي عالجت بها، فاستقلت كل كناية أو أكثر بموضوع خلقي واحد يصل إلى المتلقي عبر فن الكناية الذي يقوم بنصيبه الفني الكامل في أداء المعاني وتصويرها خير أداء فينقل المعنى الكبير في اللفظ القليل في طريقة يعجز التعبير الحقيقي المباشر أن يؤديه كما تؤديه الكناية في المواضع التي وردت فيها، وهذا من خصائص الكناية القرآنية^(١).

وهذه الخصائص الفنية للكناية القرآنية ستجلى عند عرض الكنايات التي يتكون منها هذا الفصل بالطريقة التي عرضنا فيها الكنايات في الفصول السابقة.

أكل لحم الأخ الميت:

يعرض القرآن بالتصوير الكنائي (الغيبة) يوصفها مرضاً اجتماعياً فتاكاً يعمل على هدم الأواصر والروابط داخل المجتمع، تلك الأواصر التي يحرص القرآن على قوتها وتماسكها، ويدل على بشاعة (الغيبة) وخطورتها التصوير الكنائي الذي عرضها، فهو

(١) ينظر: من بلاغة القرآن، ص ٢٢٦. وينظر: التعبير الفني في القرآن، د. بكري شيخ أمين، ص ٢٠١.

يعرضها في صورة غاية في البشاعة والتنفير، ليحدث الاستجابة الشعورية المقصودة، وهي (الامتناع) عن الغيبة، وقد جاء المنع بصيغة النهي الحقيقي (لا يغتب) ثم تلتها في المعنى ذاته صورة كنائية تظل عالقة مؤثرة في ذهن المتلقي وحسبه وهو يتملى صورتها البشعة المنفرة، وذلك في قوله - تعالى - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُم بِبَعْضِ الظَّنِّ إِنَّتُمْ وَلَا تَحْسَبُوا وَلَا يَغْتَب بَئِذٍ لَّكُم بَعْضٌ أَمَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (١).

الكناية في قوله - تعالى - ﴿يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ عرض للغيبة في صورة تأثير الأشمزاز والخوف في النفس (٢)، فلما بصور القرآن موضوعاً آخر كهذا التصوير.

وبناء الكناية قائم على التشبيه التمثيلي الضمني ومن ورائه بفهم المعنى المكنى عنه (الغيبة)، حيث شبه العقاب أخاه بشخص يعمد إلى أكل لحم آدمي، وليس الأدمي سوى أخيه الميت، ولم يكن الأكل عن ضرورة أو إكراه، وإنما هو أكل عن اختيار ورغبة وشهية، ووجه الشبه بين المشبه (العقاب أخاه) وبين المشبه به (صورة الذي يأكل لحم أخيه ميتاً) واضح بَيِّن وهو جملة صفات أولاهها الكراهية في الاثنين (الغيبة وأكل الأخ الميت)، ومن الطبيعي أن تكون الكراهية أشد في المشبه به (الأكل) لتكرر صفة المشبه بها وتأكيد، وثلاثية صفات وجه الشبه عدم الحضور في الاثنين (الشخص الذي وقعت عليه الغيبة، والميت)، وثلاثة الصفات (النهش والتمزيق) في الاثنين، ولكن النهش في الغيبة لمعنى ذهني هو (سيرة الناس وأعراضهم) أما النهش في الأكل فهو لمادة محسوسة، ولا بد أن يكون المشبه به حسياً في هذه الحالة ليخلع على المشبه العقلي ثوبه المدسوس فيحقق حضوره وقاعليته في ذهن المتلقي ونفسه.

فالتشابه واضح قريب بين الصورتين. إلا أن التصوير بالتشبيه له وقعه المؤثر في النفس، فمن يستطيع أن يقبل على أكل لحم إنسان، أخ، ميت، متفسخ للبدن منه نصيب (٣) فهو التبشيع والتنفير، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : " الغيبة آدم كلاب الناس " (٤).

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) ينظر: البلاغة العربية - المعاني والبيان والبيوع - د. أحمد مطلوب، ص ٢٢٩.

(٣) ينظر: التعبير الفني في القرآن، ص ٢٠١.

(٤) الكشف: ٢٩٦ / ٤.

(٥) والبادي أن الاستفهام في الآية هو للفي والإنكار وليس للتقرير.

ويقول الزمخشري في هذا التصوير القرآني: "تمثيل وتصوير لما يناله المختاب من عرض الغائب على أقطع وجه وأفحشه، وفيه مبالغات شتى: منها الاستفهام الذي معناه التقرير^(١)، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة. ومنها اسناد الفعل إلى أحدكم والأشعار بأن أحداً من الأحنين لا يحب ذلك. ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاعتياب يأكل لحم الإنسان، حتى جعل الإنسان أخاً. ومنها أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل سبياً، وعن قتادة: كما تكره أن وجدت جيفة متروكة أن تأكل منها كذلك فأكره لحم أخيك وهو حي"^(٢).

هذه الصورة التشبيهية تداخلت مع الصورة الكنائية في تسيح فني بنوع من التعبير القرآني الكريم لتجسيد المعنى وتحصيل الاستجابة المطلوبة إذ جعلت صورة المشبه به كناية عن صفة الغيبة من نوع الاشارة المباشرة إلى الصفة المنهي عنها فيما سبق الكناية. وبهذا التصوير القرآني للغيبة يتجلى البعد الاجتماعي، وهو يعد يحرص عليه القرآن كل الحرص، ليس في هذه الصورة الكنائية فحسب، وإنما في السورة التي انتظمت فيها، وقراءة الآية التالية للكناية تروى فيها الرابطة بين الغيبة والبعد الاجتماعي العام، وهي قوله - تعالى - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٣).

فالآية تحصر الغرض من اختلاف النوع البشري من الذكر والأنثى، واختلاف الأماكن والشعوب والقبايل في غاية واحدة هي (التعارف) وربط الصلات الاجتماعية - التي تعمل الغيبة على تمزيقها - على كل طبقاتها ومراحلها بين الأفراد والجماعات والأمم، والجزء الأخير من الآية يشير إلى الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه هذه الروابط والصلوات، وهو (التقوى) بكل ما تعنيه كلمة التقوى من معاني روحية ومعاني اجتماعية، إذ الميزان الوحيد للتفاضل بين الناس هو (التقوى) فالله ﷻ لا ينظر إلى الناس ولا يعاملهم إلا بهذا الميزان، وهي دعوة صريحة إلى التقوى لتكون خاتماً لكل فرد، وحيث يكون الأفراد

(١) الكشف: ٤ / ٢٩٧. وينظر: المسأل السابق: ٣ / ٦٢. ومن بلاغة القرآن، ص ٢٢٦.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣. يلاحظ أن الموضوع الرئيس للسورة هو تنقية المجتمع وتنظيفه من الأمراض الاجتماعية وفي مقدمتها الغيبة.

انتقاء، فستكون صلاتهم بالضرورة قائمة على التقوى، وهو الهدف الأخير في هذا المقام (١)

ومن ثم يوضح بجلاء لماذا يشدد القرآن في الذبي عن (الغيبة) بذلك الأسلوب الكناي المصوّر لمعناها في أبشع صورة وأفحشها لينفّر النفوس منها والقلوب ولتظلّ حاضرة في الذهن والحس بتقريبها الإنسان المؤمن ويذفرّ عنها، فإدما (أدام كلاب الناس) كما قال ابن عباس . رضي الله عنهما - وقد قدّم القرآن الكريم نموذجاً من هؤلاء في صورة كناية أخرى بالغة التأثير، نلاحظ فيها (الغيبة) وهي أدام للمجرمين يقتاتون عليها أو يتلذذون بها، فتكشف عن طبيعة المجرمين الأثمين الذين اعتادوا أدام الغيبة للذيل من المؤمنين، وذلك في قوله

تعالى :- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آجَرُوا كَاوُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣﴾﴾ (٢)

فقد تواسجت كنياتان في تصوير غيبة المجرمين للمؤمنين، الكناية الأولى ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ وأصل الغمز: " الإشارة بالجنف أو اليد طلياً إلى ما فيه مغاب (٣) ومطعن، وغالباً ما تكون بالعين والحاجب (٤) " وهي حركة كنادية لنيمة تتم عمّا وراءها من معنى مكنى عنه يتمثل في (السخرية والاستهزاء) من المؤمنين لايقاع الأذى في قلوبهم، وهي في الوقت نفسه تكشف عن سوء أدب المجرمين وتجردهم من التهذيب.

ويتصاعد سوء أدبهم بالكناية الثانية ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي ستمتعين متبهجين، وأصل الكناية ﴿فَكِهِينَ﴾ من: " تفكّه القوم: أكلوا الفاكهة، وقكيتهم أنا. ومن المجاز: تفكّه بكذا إذا تلذذ به، وتركبهم يتفكهون بعرض فلان أي يتلذذون باغتيابه، وقلان فكّه بأعراض الناس " (٥) وهذا هو المعنى المكنى عنه: اغتياب المؤمنين والاستخفاف بهم.

(١) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم . ص ١٧٨.

(٢) سورة المطففين ، الآيات: ٢٩ - ٣١.

(٣) المفردات ، ص ٥٤٨.

(٤) ينظر: أساس البلاغة ، ص ٣٢٨ (غمز). وينظر: لسان العرب: ٥ / ٣٨٨ (غمز).

(٥) أساس البلاغة ، ص ٣٤٦ (فكه).

ونلاحظ عمق الكناية في دلالتها التي تكشف عن نفوس المجرمين ومشاعرهم تجاه المؤمنين وذلك من خلال بنية الكناية على مهاد حسي هو النهم في أكل الفاكهة والتلذذ به والسعي إلى معلودته. وفي ذلك إحياء بان نفوس المجرمين قد أصبح شغلها الشاغل هو غيبة المؤمنين، فهي الهدف الذي يحرص عليه المجرمون فيتلذذون به، ولا تنفكه النفس ولا تلذذ إلا بشيء قد اعتادته ولازمته. وصورة انقلاب المجرمين على أهلهم بهذا الهدف الحقير الذي اعتادوه بصور منتهى ما تصل إليه النفس من ضعف واسفاف في السلوك والأخلاق.

ومن وراء الكنيتين ﴿يَتَقَاتِرُونَ﴾ و ﴿تَكِيدُونَ﴾ نحس إحياء يتمثل في قوة الشذضية المؤمنة المترفة و هي تلقي الأذى (الغيبة) والسخرية والاستهزاء بصير يغبط قلوب المجرمين ونفوسهم.

حمالة الخطب:

يرد هذا التعبير الذي يمكن حمله على الكناية، فيفهم أولاً على المعنى الحقيقي القريب، ومن ثم فهمه على المعنى الكناني البعيد، وذلك استناداً إلى طبيعة الفن الكناني الذي يجوز فيه إرادة المعنى الحقيقي، فضلاً عن إرادة لازم معناه مجازاً. والبادي في هذا التعبير القرآني من سورة الهمز الذي يسخر من أم جميل زوج أبي لهب سخرية لاذعة، وهو قوله - تعالى -: ﴿وَأَمَّا أُمَّكَ حَمَلَةَ الْخَطْبِ﴾ في جديها حبلاً من نسك^(١).

البادي إرادة المعنيين الحقيقي القريب والمجازي البعيد لاتصال أحدهما بالآخر اتصالاً يكمل الصورة بمعانيها وإحياءاتها التي يهدف القرآن تأديتها في إخراج وصف أم جميل التي كانت شديدة العداوة والإيذاء للرسول ﷺ كما أخبر القرآن.

والمعنى القريب لقوله - تعالى -: ﴿وَأَمَّا أُمَّكَ حَمَلَةَ الْخَطْبِ﴾ كما أشار المفسرون أن زوج أبي لهب "كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك فتتثرها بالليل في طريق النبي ﷺ" (٢) لإيذانه. ولكن صورة (حمل الخطب) تشير إلى سعى مكنى عنه آخر هو

(١) سورة المسد، الآية: ٤.

(٢) تفسير أبي السعود: ٢١١ / ٩. وينظر: الكشاف: ٦٥١ / ٤. وينظر: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٥٧٦ / ٧.

(٣) التميمية: مرض اجتماعي يعمل على إثارة الفتنة والعداوة والبغضاء بين أفراد. والتميمة: هي تزيين الكلام بالكتب، ونقله من قوم إلى قوم على جهة الإفساد والشر. (ينظر: لسان العرب، مادة "نم")

(النميمة) ^(١) وورد ابن قتيبة هذا المعنى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - يقول: "قال ابن عباس: الحطب: النميمة وكانت تَنُمُ وتُورِش بين الناس. ومن هذا قيل: (فلان يحطب علي) إذا أغرى به، شَبَّهوا النميمة بالحطب، والعداوة والشحناء بالنار، لأنهما يقعان بالنميمة، كما تُلْتهب النار بالحطب" ^(٢) وقال الزمخشري: "وقيل: كانت تَمْشِي بالنميمة ويُقال للمُشَاء بالنمائم المفسد بين الناس يحمل الحطب بينهم، أي: يوقد بينهم الذائرة ويورث الشر" ^(٣)

وفي كلا المعنيين القريب والمُكنى عنه البعيد الذي تُوحي به الصورة الكنائية **حَمَالَةُ الْحَطَبِ** تتجلى سخرية القرآن من أم جميل بجلاء، لأن صورة حمل الحطب على الحقيقة فيها مهانة وسخرية، فالذي يجمع الحطب ويحمله عند العرب - عادة - أما البعيد الأرقاء أو الفقراء المعدومون، فجامعو الحطب ليسو من السادة، بل ليسو من أوساط الناس، وإنما هم في درجة من صغر الشأن قد يُضرب بها المثل في هذا الشأن الهين الصغير "وسخرية القرآن تختار هذه الصورة من الهوان الاجتماعي في نظرهم، لا لتشويه بها رجلاً، فالعمل الحلال أياً كان نوعه في الاسلام شرف ونوع من الجهاد، وإنما اختارت سخرية القرآن هذه الصورة لتكسر بها من شموخ آنف امرأة متعالية طاعية، تحمى بمجد الآباء والأجداد، وتتدرع بثراء الزوج والأولاد، فتبغى على المسلمين، وتصد عن سبيل الله ودينه الحنيف، ومن الواضح أن امرأة بهذه المنزلة في قومها، وبهذه العزة في أنفها، يدلع منها أياً مبلغ أن تصور في صورة جامع الحطب" ^(٤)

فصورتها مجرد حاملة حطب صورة مضحكة، فضلاً عما تشير إليه من خلق (النميمة) التي كانت تسعى فيها بين الناس لتأليبهم على عداوة رسول الله ﷺ وإيذانه.

وتتعمق دلالة السخرية منها بالكناية التالية: **﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ نَّسِيمٍ﴾** أي: "في عنقها حبل من ليف قد قتل قتلاً شديداً، تُعَذَّب به يوم القيامة، قال مجاهد: هو طوق من حديد، وقال ابن المسيب: كانت لها قلادة فاحرة من جوهر، فقالت: واللات والعزى لأنفقها

وقد حارب القرآن هذا المرض الاجتماعي وأشار إلى خطورته، وسخر من كل همار مشبه ذميم. ينظر: سورة القلم، الآية: ١١.

(١) تأويل مشكل القرآن، ص ١٥٩-١٦٠. وينظر: روح المعاني: ٩ / ٤٨٠.

(٢) الكشف: ٤ / ٦٥١. وينظر: المنتخب من كنزيات الأدياء وإشارات البلغاء، ص ٨.

(٣) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١٥٤.

في عداوة محمد، فأعقبها الله منها حبلاً في جيدها من مسد النار" (١)، وهذا هو المعنى القريب الذي أشار إليه المفسرون، ولكن الآية تُسِير إلى معنى مُكنى عنه بعيد هو صفة الانتفاذ الأعشى إلى الأذى والانتقام من الرسول ﷺ والمسلمين وهذا المعنى قد وصف القرآن به المشركين في مواضع أخرى (٢) والكناية جسدت هذه الصفة بالتعبير عنها بحبل من مسد المرثي والملموس فعلة ليترسخ المعنى في نفس المتلقي ويتجسب المسلم هذه الصفة.

وبالنظر إلى سورة المسد أو اللهب يتجلى ملحظ فني وجمالي للكتابتين فيها، وبحسن بنا إيرادها ليتضح ذلك: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسْكٍ ۚ ﴾ إذ أن الكتابتين تتناسقان مع الأداء التعديري للأسورة في موضوعها وإيحائها، فالأسورة تجترح لعبد الغزى زوج أم جميل اسماً جديداً على سبيل الكنية (أبو لهب)، وهي كنية يكسوها لهب ونار، وهو ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾، والحطب وقود النار، وهي متصلاها وفي عنقها حبل من مسد، وبذلك يتجلى "تناسق في اللفظ، وتناسق في الصورة. فجهم هنا نار ذات لهب. يصلها أبو لهب | وامراته تحمل الحطب وتلقيه في طريق محمد لإيذائه (بمعناه الحقيقي أو المجازي) .. والحطب مما يوقد به اللهب. وهي تحرم الحطب. فعذابها في النار ذات اللهب أن تجعل بحبل من مسد. لينم الجزء من جنس العمل، وتتم الصورة بمحتوياتها: الحطب والحبل. والنار واللهب. يصلى به أبو لهب وامراته حمالة الحطب" (٣) وترسم في ذهن القارئ أو السامع صورة هذه المرأة وهي في حركة آلية داذبة تحمل الحطب وتضرع النار وتغذيها بالوقود ليستعر أوارها من دون أن تدري بأن زوجها هو الذي سيصلاها وأنها ستلحق به.

غل اليد إلى العنق وبسطها كل البسط:

من الكنايات المصورة الموحية قوله - تعالى -: ﴿ وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۚ ﴾ (٤)

(١) صفوة التفسير: ٦١٩ / ٣. وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠ / ٢٤٢.

(٢) ينظر: سورة الأعراف، الآية: ١٧٩. وسورة الفرقان، الآية: ٤٤.

(٣) في ظلال القرآن: ٨ / ٦٦٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٩. وترد صورة (غل اليد) في موضع آخر من القرآن في سورة المائدة، الآية: ٦٤، كناية عن بخل اليهود.

حيث ينهي القرآن عن (البخل والتبذير)، ويحث على التوازن في الانفاق، والتوازن هو القاعدة الكبيرة في القرآن الكريم. قال - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾ (١)، لذلك فكل غلو أو تقريط يخل بهذا التوازن مذهبي عنه، فالدخل هو تقريط، والتبذير إفراط وإسراف، وكلاهما ليس من الفضائل التي يحث عليها القرآن.

ويدعرف الفلاسفة الفضيحة بأنها وسط بين رذيلتين (٢) - فالجود يعد فضيلة، ولكن الجموح فيه يعد رذيلة، كما أن الاقتصاد والتبذير محمود ولكن المغالاة فيه مذمومة. وحين يذهي القرآن عن (الدخل والتبذير)، فإنه لا يسلك في ذلك التعبير الذهني المجرد، وإنما ينهي عنهما قويا مؤثرا، وهذه سمة من سمات الكناية عامة، فهي وسيلة تعبيرية محسوسة تعلق بالنفس وتثيرها لأنها تيدي المعنى في صورة حسية، والصورة الحسية أكثر تأثيراً من المجردة لأنها أقرب إلى الصور وأدعى إلى التمثل في الخيال، وبذلك تكون أسرع إلى الفهم وأكد في أحداث رة الفعل، قال عبد القاهر الجرجاني: "إن أثبات الصفة بأثبات دليلها، وإيجادها بما هو شاهد في وجودها، أكد وأبلغ في الدعوى من أن تحيء إليها فتثبتها ساذجاً غفلاً" (٣).

فالكناية ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ هي صورة تمثيلية حركية، مركبة من صورتين على سبيل التضاد والطباق ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ إزاء إزاء ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ على سبيل (اللف والنشر) (٤) المرتب، أي عاد لفظ ﴿مَكْمُومًا﴾ إلى صورة غل اليد إلى العنق، وعاد لفظ ﴿تَحْمُسُورًا﴾ إلى صورة بسط اليد كل البسط على الترتيب، وذلك لبيان عاقبة كل صورة تباعاً.

ولكون اليد آلة العطاء يوظفها القرآن في التعبير عن صفتي التقدير والتبذير في صورة قرينة إلى الذهن والحس. فلنلاحظ اليد مغلولة إلى العنق ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ كناية عن (الدخل) (٥) إلا أن هذا المعنى المكنى عنه يصل إلى المتلقي في صورة

(١) سورة البقرة، من الآية: ١٤٣.

(٢) ينظر: الفلسفة الأخلاقية لشكها وتطورها، د. توفيق الطويل، ص ٥٨. وينظر: تهذيب الأخلاق، يحيى بن عدي، ص ٢٤. وينظر: المذاهب الأخلاقية الكبرى، فرانسوا غريغوا، ص ٤٢.

(٣) دلائل الإعجاز، ص ١١٠ - ١١١.

(٤) اللف والنشر: أن يذكر متعدد، ثم يذكر ما لكل منهما شيئاً من غير تعيين اعتماداً على تصرف السامع في تمييز ما لكل واحد منهما، وردّه إلى ما هو له. وهو نوعان: النشر فيه على ترتيب اللف، والنشر على خلاف ترتيب اللف. ينظر: خزنة الأدب، ص ٦٦. وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والتدريج، ص ٣٧٦ - ٣٧٧.

طريقة. فالخيّل في هذه الصورة الكنائية ليس هو مجرد يخيّل يمنع عطاءه عن الناس في كل حين، ويكتنز ما عنده، شحيحاً على نفسه.. وإنما هو إنسان مغلول اليدين في صورة عربية، لأن يديه ليست مغلولتين إلى أمام كما هو مألوف، وإنما يذاه مغلولتان إلى عنقه فلا يستطيع حركة. إنها صورة تناسب موضوع البخل بما فيها من قوة تصوير وغرابة، وذلك لأن البخل - فيما يبدو - هو أشد ضرراً من صدّه (التبذير)، وأكثر كرهاً إلى النفس، لذلك نجد القرآن في عدة مواضع يصف الذين يقولون أنفسهم الشح بالفلاح^(١)، وذلك لتجذّره في النفس والتمكّن منها، والبخل أقرب إلى الشر من (التبذير) الذي كُتّي عنه بهذه الصورة ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُ كُلُّ السَّيِّئِ﴾ وهي صورة تخفّ قوتها في التصوير إزاء كناية (البخل)، وذلك لأن التبذير - وإن كان مذموماً - هو قريب في طبيعته من الخير والمنفعة.

وصورة غل اليد إلى العنق توحى بالقيّد السانع من الحركة، وفي هذا إسداك عن العطاء، كما أنّ بسط اليد يوحى بالخلو التام، وفي هذا دلالة على العطاء الكثير الذي لم يَبْقَ شيئاً ويمكن أن نعد ذلك تلويحاً.

ثم تصور الآية ما تنتهي إليه الصورتان الكنائيتان بذلك التعقيب الموحى: ﴿مَلُومًا تَحْسَرًا﴾. واللافت للنظر في هذا التعقيب قوله ﴿تَحْسَرًا﴾ فضلاً عن ﴿مَلُومًا﴾. فمن معاني الحسرة: الدابة تعجز عن السير فتقف من الإعياء والتعب، قال ابن منظور: "حسرت الدابة والناقة حسراً واستحسرت: أعيت وكَلَّتْ.. والعرب تقول: حسرت الدابة إذا سبّرتها حتى ينقطع منيرها"^(٢)، وهكذا (البخل والمُسرف) كلّ منهما يحسر نفسه فيوقف عاجزاً متعباً، فضلاً عن أن في التعبير القرآني دلالة ساخرة من البخل والمُسرف، فكلاهما بالتصوير (قاعد) "فالخيّل قاعد وكأنه ملازم للأرض كشخص مقعد، ولكنه يتلقى اللوم الذي ينهال عليه من كل جانب، والمبذر أيضاً قعيد الأرض بعد أن نفذ ماله، ويمكن أن نمثله جالساً مطرقاً إلى الأرض، شارد الذهن، يفيض أسى وحسرة والماء، فلم يجد من ماله شيئاً، ولم يجد من الذين أحسن إليهم حتى المواساة، ولم يجد ممّا كان يهدف إليه من

(٤) ينظر: من بلاغة القرآن، ص ٢٢٦. وينظر: التعبير الفني في القرآن، ص ٢٠١. وينظر: البلاغة العربية - المعاني والبيان والبيوع - ص ٢٢٢.

(١) ينظر: سورة الحشر، الآية: ٩. وسورة التغلّب، الآية: ١٦. وكلا الموضعين في سياق الحث على الإذفاق. أما الموضع الآخر الذي ورد فيه لفظ (الشح) فهو في سورة النساء، الآية: ١٢٨. يشمل معنى البخل في الاتفاق ومعنى آخر في سياقه (سياق الصلح بين الزوجين).

(٢) لسان العرب: ٤ / ١٨٨ (حسر).

إبراز ذاته بين الناس شيئاً، بل وجدها أمعنت في الانزواء من حيث أراد لها الظهور " (١). وهكذا تظل صورة البخل وصورة التنبير عالقة في الحس والوجدان تفعل فعلها، وما كان أي تعبير آخر أن يبلغ إلى الحس ما يبلغه هذا الأسلوب الكناي.

قبض اليد:

ويصور القرآن (البخل) بكناية (قبض اليد) في سياق وصف المنافقين والمنافقات، مما يوحي بأن (البخل) من مقومات الشخصية المناققة، وذلك في قوله - تعالى - ﴿الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ مَصْهُمْ مِنْ بَعْضِ يَأْمُرُونَ وَالْمُنْكَرِ وَيَتَّهِنُونَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٢). الكناية: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ تضيف صفة جديدة للمنافقين تتمثل في (البخل). قال ابن قتيبة: "يمسكون عن العطية، وأصل هذا: أن المعطي بيده يمدّها ويسطّها بالعطاء، فقبّل لكل من بخل ومنع: قد قبض يده " (٣).

والتصوير الكناي يوحي بقوة هذه الصفة في شخصية المنافقين وتمكّنها في أنفسهم، وذلك لأن " القبض تناول الشيء بجميع الكف، نحو قبض السيف وغيره. وقبضها عن الشيء جمعها قبل تناوله، وذلك إمساك عنه، ومنه قيل لإمساك اليد عن البذل: قبض " (٤). فهي حركة تشير إلى الإمساك النفسي للمنافقين (البخل) عن الإذفاق، والقبض على الشيء فيه إحياء القوة في الإمساك، وهو إحياء يناسب دلالة البخل المقترنة بالمناققة، لأن النفوس المناققة هدفها المنفعة الذاتية، لا تعرف البذل والتضحية، بل البخل من المقومات الأساس فيها، ويؤكد هذا الإحياء ويقويه صيغة الكناية بالفعل المضارع الذي يدل على التجدد والحدوث (٥)، فهي صفة متجددة للمنافقين في كل وقت.

فالكناية تجسد الحالة النفسية للمنافقين المطبوعة على الشح والبخل في صورة حية تتمثل بحركة اليد في وضع يشي بالحرص على الشيء والامتناع عن إعطائه فضلاً عما قرره الآية من صفاتهم الأخرى.

(١) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١٨٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

(٣) تأويل مشكل القرآن، ص ١٦٧.

(٤) المفردات، ص ٥٩٠.

(٥) ينظر: معاني الأبنية في العربية، ص ٩.

النقيير:

وبصوّر القرآن بخل اليهود بكنية (النقيير) في قوله - تعالى -: ﴿ أَمْ لَكُمْ تَعْتَبَ مِنْ السَّائِلِ فَأَمَّا لَإِ يُلَاقُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾^(١).

الكناية: ﴿ نَقِيرًا ﴾ تجلي جانباً من شخصية اليهود التي عرضها القرآن في مواضع شتى، وهنا تجلي صفة الأثرة البغوضة، والبخل الشديد بوصفه طبيعة أصيلة دائمة، كما توحى الكناية، فالنقيير أصله: " النُّكْثَةُ في ظهر النواة " ^(٢)، والنقيير يضرب به المثل في الشيء الطفيف ^(٣)، فهو رمز عن الشيء التافه الحقير الذي تضنّ به نفسية اليهودي. فالكناية تجسد بخلهم على نحو مخصوص ^(٤)، فهل هناك أحقر من نكثة أو نقرة في ظهر نواة تشجّ بها النفس وتأتي أن تعطىها للأناس، فالكناية على بساطتها التعبيرية تجسد المبالغة في السعى إلى أقصى ما تكون عليه النفس من اثره وبخل، فكيف الحال لو كان لهم نصيب من الملك ؟ إذن لهلك الناس جميعاً من دون أن يعطوهم الشيء الحقير التافه ﴿ نَقِيرًا ﴾.

والكناية وإن كانت تقرر حقيقة الشخصية اليهودية في جانب من جوانبها، إلا أنها تجلي مخربة القرآن منهم في أعلى صورة وهي تدمعهم بصفة البخل، وتكشف عن حرصهم على حياة في أحقر صورة، وأن نفوسهم قد نضبت من أي باعث إنساني يحركها لإيتاء الناس شيئاً ولو كان ﴿ نَقِيرًا ﴾.

بل هم لا يتحرجون حتى مع الله ﷻ من قولهم الاثم في أبشع صورته كما يحكي عنهم القرآن في موضع آخر يتصل بمعنى الكناية ويقويها، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَعْلُومَةٌ عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا يَمًا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُوقِفُ كَيْفَ يَشَاءُ ... ﴾^(٥).

﴿ عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ دعاء عليهم بالبخل وإثبات هذه الصفة لديهم، لذلك فهم أبخل خلق الله لأن الدعاء من الله قضاء نافذ. قال الزمخشري: " معناه الدعاء عليهم بالبخل والنكد، ومن ثم كانوا أبخل خلق الله وأنكدهم فإن قلت: كيف جزأ أن يدعو الله عليهم بما هو قبيح وهو البخل والنكد ؟ قلت: المراد به الدعاء بالخذلان الذي تقسو به قلوبهم فيزبدون بخلًا إلى بخلهم

(١) سورة النساء، الآية: ٥٣.

(٢) أساس البلاغة، ص ٤٧٠ (نقر).

(٣) المفردات، ص ٦٧٧.

(٤) الملاحظ على كنية ج ث ج أنها لم تلت في القرآن كناية عن البخل إلا في هذا الموضع وصفا لليهود فهي تختص بهم.

(٥) سورة المائدة، من الآية: ٦٤.

ونكداً إلى نكدهم " (١) فهي طبيعة ثابتة فيهم، إلا أن الكناية في تصويرها القوي بغل أيديهم دالة على بخلهم الشديد المتأصل في أنفسهم، فهي لا تتحرك إلى عطاء ولو كان ﴿تَوْبًا﴾ . وبذلك تتواشج الكنيتان في التصوير والتعبير.

منع الماعون:

ويعرض القرآن كناية أخرى عن (البخل) الذي يثشا بسبب السهو عن الصلاة وسراة الناس، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ ﴿وَيَسْتَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (٢).

﴿وَيَسْتَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ كناية نوحى بمعان كثيرة، ومن معاني هذه الكناية ما ذكره بعض المفسرين: " الماعون: الزكاة، وعن ابن مسعود: ما يتعلون في العادة من القابس والقدر والدلو والمقدحة. وعن عائشة: الماء والنار والملح " (٣) والكناية شاملة لهذه المعاني ودالة أيضاً على كل ير يمتعه الإنسان في كل صوره وأشكاله بدافع (البخل) الذي تشير إليه عبر الوساطة (منع الماعون) التي تمثل حركة حمية مجسمة يسببها البخل. وهذا البخل ناشيء كما يقرر التعبير القرآني من السهو عن الصلاة ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فهم لم يقيموا الصلاة على وجهها، ولو أنهم أقاموها حقاً لظهرت آثارها في السلوك والواقع، ومن هذه الآثار مد يد العون للناس.. وبذلك فإن إقامة الصلاة على وجهها الصحيح تدشء آثارها العملية الخلقية الإيجابية من خلال تنميتها بغرائز الخير وتهذيبها لغرائز الشر، التي تمثلت هنا في الكناية بصفة (البخل) بوصفه قيمة خلقية سلبية يحذر القرآن مذهب المؤمنين، ويشدد التحذير من هذه الصفة عندما يكتن القرآن عنها بالفحشاء، وذلك في قوله - تعالى - في سياق حث المؤمنين على الإنفاق من طيبات ما يكسبون: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَعُوا مِنْ مَكْنَتِ مَا كَسَبُوا وَمِمَّا أَرْجَمْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيْمَمُوا الْحَيْثُ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِينَ إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿الشَّيْطَانُ يُوَدِّعُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ﴾ (٤).

(١) الكشف: ١ / ٦٢٧ - ٦٢٨.

(٢) سورة الماعون، الآيات: ١، ٢، ٣، ٤.

(٣) الكشف: ٤ / ٦٤٣، وينظر: صفوة التفسير: ٣ / ٦١٩.

(٤) سورة البقرة، الآيات: ٢٦٧ - ٢٦٨.

الآية نداء عام للمؤمنين تحثهم على الإنفاق من جميع أنواع المال الحلال الطيب في كل صوره وأشكاله.. ويكنى عن (البخل) بالفحشاء ﴿الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾. جاء في أساس البلاغة: "فلان فاحش أي بخيل، ومنه: ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾" (١) وجاء في لسان العرب: "الفحش والفحشاء والفاحشة الفحيح من القول والفعل، وجمعها الفواحش.. وهو كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي.. وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا ويسمى الزنا فاحشة.. ولما قول الله ﷻ: ﴿الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ قال المفسرون: معناه يأمركم بأن لا تتصدقوا، قيل: الفحشاء ههنا البخل، والعرب تسمى البخل فاحشاً" (٢) وجاء في التفسير: "﴿الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمُ الْفَقْرَ﴾: أن السر في بخلكم بصرف الطيب وأقدامكم على صرف الردي هو مخافة الفقر الذي أنذركم الشيطان به حيث وسوس في صدوركم أنكم إذا صرفتم الجيد يتي لكم الردي.. ويأمركم بالخصلة الفحشاء، أي البخل واللؤم ومحبة الأمور العاجلة التي تكون سبباً لمباشرة المعاصي الفاحشة، ولذلك تصرفون ما لا خير فيه" (٣).

فالفحشاء كناية عن (البخل) ولكنها تخرجه بظلال بشعة موحية مكتسبة من إحياءات الكناية الدالة على ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي، فيتجلى التهذيب الخلقي الذي تبعثه في نفوس المؤمنين فتقرهم أشد ما يكون التنفير من البخل والشح بوصفه معصية فحش فنتجاوز الحد، لأنها تمتعهم من الإنفاق في سبيل الله، وتبعث في نفوسهم الخوف من الفقر، أو انفاق الردي الخبيث بدلاً من الحلال الطيب، الخبيث الذي تعافه النفس فلا تقبله إلا على نحو من التغافل والتساهل والامتصاص كما تصور الكناية هذا المعنى النفسي من خلال حركة اغماض العين (٤) التي تشير إليه: ﴿وَلَسْتُمْ بِبَاغِدِينَ إِلَّا أَنْ تُنِيمُوا فِيهِ﴾.

ثم يكشف السياق القرآني عن الباعث الحقيقي الأمر بكل هذه المعاني: بخل النفس وامساکها عن الإنفاق، أو انفاق الردي الخبيث، والخوف من الفقر، يكشف عن باعثه وهو الشيطان: ﴿الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمُ الْفَقْرَ...﴾. فهو الأمر بكل فحشاء.. ويتصاعد التنفير في النفوس والقلوب مما يأمر به الشيطان ويعد.

(١) ص ٢٢٥ (فحش).. وينظر: الكشف: ١ / ٣٩٦.

(٢) ٢٢٥ / ٦ ٢٢٦ (فحش).

(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٢ / ٢١٦، ٢١٧.

(٤) ينظر: المفردات، ص ٥٤٨، وينظر: الكشف: ١ / ٣٩٦.

فتحقق الكناية (الفحشاء) في سياقها الاستجابية النفسية التي يهدف القرآن إلى بعثها في قلوب المؤمنين والتي تمثلت في تجنب (البخل) بوصفه قيمة خلقية سلبية لا تليق بحياة المؤمنين.

تصغير الخلد:

ينهى القرآن الكريم عن التكبر بوصفه سلوكاً خلقياً مذموماً، قال عنه علماء النفس بأنه "شعور ذاتي بالحاجة إلى أن تتفوق الشخصية على الآخرين، أو أن تسيطر نفوذها عليهم، أو تصبح متميزة منهم بشكل أو بآخر ويأتي شعور المرء بالتكبر أو العلو نتيجة إحساسه الداخلي أو الذل فيقوم بتعويض ذلك بتكلف التعالي على الآخرين" (١). ويعلل أحد المفسرين سبب ذم التكبر قائلًا: لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر، وذلك نقص في حق الخلق، لأنه ليس له كبر ولا علو، بل ليس له إلا الذلة والمسكنة، فإذا أظهر العلو كان كاذباً فكان مذموماً في حق الناس" (٢).

وحين ينهى القرآن عن هذه الصفة النفسية المذمومة، فإنه يوظف الأسلوب الكناي المصوّر للمعنى فيبرز تلك المشاعر النفسية المريضة ويجسدها في وضع ظاهر للعيان من خلال تلك الحركات المادية التي يصطنعها المتكبرون.

منها كناية (تصغير الخلد) الواردة في قوله - تعالى - على لسان لقمان الحكيم يعظ ابنه بالتواضع للناس ولين الجانب لهم، وينهاه عن التكبر: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٣).

قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ﴾ كناية عن صفة التكبر، وهي تصور المتكبر في صورة قذية بالغة التفتير، إذ يرسم فيها المتكبر شخصاً مريضاً، وذلك لأن (الصغر): "داء يأخذ البعير فيلوي منه عذقه ويميله" (٤). فهو مريض يصيب الإبل فيلوي أعناقها فتمشي معوجة العنق متقلبة الوجه إلى أحد الشقين، فهو منظر يثير العطف في المشاهد.

(١) دراسات في علم النفس الإسلامي، د. محمود البستاني: ١ / ٢٣٤. وينظر: الألفاظ النفسية في القرآن الكريم، ص ١٥٢.

(٢) التفسير الكبير: ٢٩ / ٢٩٤.

(٣) سورة لقمان، الآية: ١٨.

(٤) لسان العرب: ٤ / ٤٥٦ (صغر).

يعتمد القرآن بهذا التصوير الكنائي إلى هذا المرض فيصم به المكثير المتعالي المعرض بوجهه عن الناس، وهو يحسب بذلك الباعث النفسي المريض أن له هبةً ومكانةً، وأن ذلك يزيد ترفعاً وجاهاً. وهو في حقيقة كما تخرجه الكناية شخص مريض، وبدلاً من أن يثير الرهبة والخوف في نفوس الآخرين يثير السخرية والإزدراء لأنه اصطنع في مظهره صورة منكرة شديد النكر.

وبذلك تكثف الكناية دلالة التنفير من هذا السلوك الاجتماعي (التكبر)، فإن النفس السوية لا ترضى أن ترسم في هذه الصورة الزرية وهي تمشي بين الناس، كما تجلي الكناية سمة فنية للقرآن في رسم صورته، وهي توظيفه لعناصر بيئية، وذلك ليكون المشهد أقرب إلى انفسهم، وأكثر تأثيراً في حسهم^(١)، كما في هذه الكناية التي يعرقها العرب في بيئتهم.

في الرؤوس:

ويصور القرآن بهذه الكناية أعراض المنافقين واستكبارهم على نحو مخصوص، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَا لَوْ آتَيْنَاكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوَّارَهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۝﴾^(٢).

الكناية: ﴿لَوَّارَهُمْ﴾ حركة مادية تجسد حالة نفسية خاصة بالمنافقين، يُقال: "لوى الرجل برأسه ولوى رأسه وأعرض. ولوى رأسه ولوى برأسه: أسأله من جانب إلى جانب" (٣) وقال الرمخسري: "عطفوها وأمالوها إعراضاً عن ذلك واستكباراً والتشديد للتكثير" (٤) والمبالغة. فهي كناية عن استكبارهم وإعراضهم عن دعوة الرسول ﷺ للاستغفار لهم، والكناية تدل بالتشديد على أنهم قد اعتادوا هذه الحركة بكثرة، لأن تضعيف العين في الفعل يدل على تضعيف الفعل، أي أنهم قد كرروا هز رؤوسهم وتحريكها مما

(١) ينظر: التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، ص ١٧٣.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٥.

(٣) لسان العرب، مادة (لوى): ١٥٠ / ٢٦٤.

(٤) الكشاف: ٤، ٤٣٣.

يؤكد دلالة استنكار المنافقين وإعراضهم فضلاً عن استهزائهم، وقد يكون المراد تكثير محال الهز - وهي الرؤوس - أي لوى جمع كثير منهم رؤوسهم استهزاء واستنكاراً (١)

التمطى:

وردت هذه الكناية في موضع واحد من القرآن في قوله - تعالى - : ﴿ وَلَٰكِنْ كَذَّبَ وَقَتَلَ ۚ ثُمَّ دَمَعَبَ إِنَّ أَعْيُنَهُمْ تَتَمَطَّى ۚ إِنَّكَ لَأَنزَارُكَ ۙ ﴾ (٢)

تصوّر الكناية مشية الإنسان الكافر الموصوف في هذا النص القرآني (٣) لأن المَطَّ: المَدَّ، يقال: مَطَّوْتُ بِالْقَوْمِ مَطَّوًّا إِذَا مَدَدْتَ بِهِمْ فِي السَّيْرِ، وَتَمَطَّى الذَّهَابُ: امْتَدَّ وَطَالَ، وَتَمَطَّى بِهِم السَّفَرُ: امْتَدَّ وَطَالَ، وَكُلُّ شَيْءٍ مَدَّدْتَهُ فَقَدْ مَطَّوْتُهُ، وَالمَطْيَةُ من الدَّوَابِّ: الَّتِي تَمَطَّى فِي سَيْرِهَا، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ المَطْوِ أَيْ المَدِّ (وَمِنْ دَلَالَةِ المَطِّ عَلَى المَدِّ جَاءَ " التَّمَطَّى " لِيَدُلَّ عَلَى التَّبَخُّثِ وَمَدِّ اليَدَيْنِ فِي المَشْيِ) (٤) وَأَصْلُ ﴿ تَمَطَّى ﴾: يَتَمَطَّى: يَتَمَطَّطُ فَقَابِلَتِ الطَّاءُ فِيهِ حَرْفَ عِلَّةٍ كَرَاهَةَ اجْتِمَاعِ الْأَمْثَالِ. وَمَعْنَى يَتَمَطَّطُ: يَتَمَدَّدُ لِأَنَّ المَتَبَخِّثَ يَمُدُّ خَطَاهُ، وَهِيَ مَشْيَةٌ المَعْجَبُ بِنَفْسِهِ، وَقِيلَ المَعْنَى: يَمُدُّ مَطَاهُ أَيْ ظَهْرَهُ وَيُلَوِّيه مِنَ التَّبَخُّثِ (٥). وَالتَّكْلُفُ وَالتَّصْنَعُ وَاضِحٌ فِي مَشْيَةِ هَذَا الْإِنْسَانِ الْكَافِرِ المَغْرُورِ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ صِيغَةُ (تَفَعَّلَ) الَّتِي تُفِيدُ هَذَا المَعْنَى (٦)

فالكناية تصوّر التكبير المنيع من الاعجاب بالنفس من خلال حركة الجسد كله وليس من خلال الرأس وهزه أو تصغير الخد كسا في الكنايتين السابقتين، وبذلك تتعاضد دلالة كراهية هذه المشية والسخرية اللاذعة بهذا الذي يتمطى، فضلاً عن أن هذا المشهد يأتي مباشرة بعد مشهد الاحتضار المتصل بمشهد من مشاهد يوم القيامة: ﴿ كَلَّالٍ يُجُودُ المَالِ ۚ وَكَذَّابٍ الْآخِرَةِ ۚ وَجُورٌ يَوْمَذِ النِّعَةِ ۚ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۚ وَجُورٌ يَوْمَهُم بِآيَةِ ۚ تَعْلَمُ أَنَّ قَمَلًا قَائِرَةً ۚ كَلَّا ۚ إِذَا

(١) ينظر: لغة المنافقين في القرآن، د. عبد الفتاح لا شين: ٢ / ٢٣٤. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٨ / ٢٤٤.

(٢) سورة القيامة: ٣٧ - ٣٨.

(٣) قيل أنها قرئت في أبي جهل. ينظر: صفوة التفاسير: ٣ / ٤٨٨. ولباب القول في أسباب النزول، ص ٧٧٦.

(٤) ينظر: لسان العرب: ١٥ / ٢٨٤ - ٢٨٥ (مط).

(٥) ينظر: الكشاف: ٤ / ٥٣١. والتفسير الكبير: ٣٠ / ٢٣٣.

(٦) ينظر: الألفاظ النفسية في القرآن الكريم، ص ١٦٦.

بَلَعْتَ أَلْرَاقَ ﴿١﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢﴾ وَكُنْ أَنْتَ الرَّاقِ ﴿٣﴾ وَالْقَدَبُ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ بِوَسْمِ السَّاقِ ﴿٥﴾ فَلَا صَلاَحَ وَلَا سُلَىٰ ﴿٦﴾ وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَعْلَىٰ يَسْمُطٍ ﴿٨﴾ (١)

وهذا تصوير على نسق خاص كان ليس بينهما فاصل زمني، ذلك أنه "عرض مشهد الاحضرار المقبل، كأنه حاضر الآن! ثم جعل الحياة الحاضرة، كلها من ذكريات الماضي! ليرى هذا الذي التفت منه الساق بالساق من الهول والرعب، أو من الداء والألم، وبلغت روحه التراقي، وتساءل من تساءل: ألا من راق يرقيه ويرفع عنه هذه الحال، وتوقع هو أنه مفارق هذه الدنيا وما فيها.. ليرى صورته هذه، ويستحضر في خياله صورته الأخرى. وهو يكذب ويتولى، ويذهب إلى أهله يتمطى، توباً وكبراً" (٢)، فسن شأن هذا النسق الخاص لاسباق الآاء الضوء على هذه الشخصية المغرورة الغافلة في تبخترها واعجلها بنفسها فتكبر وينتظرها هذا المصير الذي سيفاجئها بسرعة فهو التبه والضللال والغفلة.

ثاني العطف:

ولون آخر من ألوان التكبير في الحركة والشعور تجسده الكناية (ثاني العطف) في قوله - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَلْتَمِسْ مِنْ يُجْنِدُكَ فِي أَوْ يَغْتَرِ عَلَيْكَ وَلَا هُنَّ وَلَا كُنَّ مُنِيرٌ ﴿١﴾ ثَانِي عَطْفِهِ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيرٌ ﴿٢﴾ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٣﴾﴾ (٣)

الكناية التصويرية قوله - تعالى -: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ تجسد حالة نفسية متعجرفة وذلك من خلال حركة ثاني العطف. والعطف: المنكوب وعطفا الرجل: جذباه عن يمين وشمال وثيقاه من لدن رأسه إلى وركه" (٤) وهي حركة تشير إلى معنى "الكبر والخيلاء، كتصغير الخد ولي الجيد. وقيل: الإعراض عن الذكر" (٥). وقال الراغب: "ثاني عطفه: عبارة عن التكر والإعراض، نحو: لوى شذقه، ونأى بجاذبه" (٦) فهو (التكبر) المنبعث عن الإعراض عن آيات الله، وهذا المعنى المكنى عنه هو أقرب إلى السياق.. وهو صورة

(١) سورة القيامة، الآيات: ٢٠ - ٣٣.

(٢) مشاهد القيامة في القرآن، ص ٦٩.

(٣) سورة الحج، الآية: ٢٨.

(٤) لسان العرب، مادة (عطف): ٢٥٠ / ٩. وينظر: المفردات، ص ٥٠٦.

(٥) الكشف: ١٥ / ٣.

(٦) المفردات، ص ١٢١.

من التكبر شديدة الكراهية لكونها تتعلق بآيات الله والجدال فيها بغير علم بهذا الباعث النفسي الممقوت، ولكون الثاني عطفه يجادل ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي لا يستند إلى حقيقة يركن إليها ولا حق يجادل عنه، فإنه يعوّض عن فراغه النفسي والعقلي بتلك الحركة الدالة على تكبره وإعراضه، فضلاً عن أنه مضلّ لغيره عن الهدى والكتاب المبين.

انقراض الرؤوس:

يقدم القرآن بهذه الكناية لونا آخر من ألوان التكبر عن الإيمان بآعته التعجب والاستهزاء من فكرة إعادة الحياة بعد الموت وذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا عِظَامًا وَرَفْنَا لَوْ كُنَّا لَمَبْعُوثِينَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يَأْتِيهِمْ أَقْلٌ أَلَمْ يَخْلُقْهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْفِثُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِينًا﴾ (١).

في النص الكريم كنايةان، الأولى: قوله: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ والثانية: ﴿فَسَيَقُولُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ قال الزمخشري: "لما قالوا: أنذا كنا عظاماً قيل لهم ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ فردّ قوله: كونوا، على قولهم: كنا، كأنه قيل: كونوا حجارة أو حديداً ولا تكونوا عظاماً، فإنه بقدر على إحيائكم والمعنى: انكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم، ويرده إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحس وعضاضته بعدما كنتم عظاماً يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحي، بل هو عمود خلقه الذي يبنى عليه سائرته، فليس ببديع أن يردها الله بقدرته إلى حالها الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحي ومن جنس ما ركب منه البشر، - وهو أن تكونوا حجارة يابسة أو حديداً مع أن طباعها الجسارة والصلابة - لكان قادراً على أن يردكم إلى حال الحياة ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني أو خلقاً مما يكبر عنكم عن قبول الحياة ويعظم في رءسكم على الخلق إحياءه فإنه يحييه" (٢). وهؤلاء الكافرون لا يملكون أن يكونوا حجارة أو حديداً، ولكنها كناية تشير إلى معنى التحدي والتعجيز لهم، فضلاً عن توبيخهم ونقريتهم، لأن الكناية بالحجارة والحديد وهما من الجماد الذي لا يحس ولا يشعر فيهما إحياء إلى ما في انكارهم للحياة بعد الموت كما أفاد الاستفهام الإنكاري

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٤٩-٥٢.

(٢) الكشف: ٥٢٤/٢، وينظر: صفوة التفسير: ١٦٣/٢، ١٦٤.

بالبهزة: ﴿لَوْ دَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفَعْنَا ...﴾ من جمود أو تحجر، أو أكبر من هذا الإحياء وأعمق كما أفاد التعبير بعد الكناية ﴿أَوْ خَلَقْنَا مِمَّا يَكْبُرُ فِي مُدُورِكُمْ﴾ والذي يُوحى بتطاولهم واستهزائهم وتكبرهم كما تجسده الكناية ﴿فَسَيَقُولُونَ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ﴾ وهي كناية حركية بتلك الرؤوس المتعجبة المستهزئة والتي تحمل ذلك التصور المتحجر الجامد، قال الأفراء: "يُقال أنخفض فلان رأسه إذا حركه إلى فوق وإلى أسفل" (١) كالمتعجب من الشيء، وقال الزمخشري: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ فسيحركونها نحوك تعجباً واستهزاءً (٢) فالمكنى عنه هو: التعجب والاستهزاء المبيح عن تلك الحالة النفسية المتكبيرة عن الإيمان المستنكرة، وتتصاعد دلالة الانكار وتعمق بالاستفهام بالأداة متى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ الذي أفاد الانكار والاستبعاد لليوم الذي يُبعث فيه الموتى للحياة والحساب والجزاء.

الإعراض والذئب بالجانِب:

تصوّر هذه الكناية تكبر الإنسان حين النعمة والرخاء، ويأسه وقتوطه حين الشدة، نقرأ ذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا أَمْسَأَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَمْرٌ مِّنْ شَأْنٍ مِّنْهُ الشَّرْكَانَ يَتُوسَّ﴾ (٣). الكناية في - تعالى -: ﴿أَمْرٌ مِّنْ شَأْنٍ مِّنْهُ الشَّرْكَانَ يَتُوسَّ﴾ والإعراض والذئب بالجانِب حركة يُراد منها ما تشير إليه من معنى الاستكبار وباعته الطغيان. وفي الكناية تأكيد لهذا المعنى المكنى عنه، لأن ﴿وَتَكَايَبَانِيَّةً﴾ تأكيد للإعراض، قال الزمخشري: "الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه، والذئب بالجانِب: أن يلوي عنه عطفه ويوليه، وأراد الاستكبار، لأن ذلك من عادة المستكبرين" (٤)، فالكناية تكشف عن صفة من صفات النفس المستكبرة في حين النعمة من صحة وسعة في الرزق.. فتتصور هذه النفس أنها مستغنية عن الله مستبدة بنفسها، فهي نفس معرضة لا تذكر ولا تشكر، بل هي تطغى وتبطر وتستكبر.. والجزاء الأخير من الآية يكشف عن الجانب الآخر المضاد لهذه الحالة النفسية: ﴿وَإِنَّمَا مِّنْهُ الشَّرْكَانَ يَتُوسَّ﴾ حين الشدة من فقر أو مرض أو تازلة من النوازل ﴿كَانَ يَتُوسَّ﴾ شديد اليأس من روح الله (٥).

(١) التفسير الكبير: ٢٠ / ٢٢٦.

(٢) الكشف: ٢ / ٥٢٤. وينظر: صفوة التفسير: ٢ / ١٦٤.

(٣) سورة الاسراء، الآية: ٨٣.

(٤) الكشف: ٣ / ٥٣٨.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٢ / ٥٣٨.

ونلمح في حالة يادسة حين الشدة والبلاء حركة خفية تقابل حركته عند تكبره وبطره، حركة نلمحه فيها مطأطأ الرأس مخفوض الجانب من شدة اليأس والقنوط. فهذا الإنسان في الحالتين: حالة الاستكبار، وحالة اليأس والقنوط مجانب لطريق الله، طريق الهدى.

وبذلك تلمح الآية بمجملها إلى قيمة الإيمان بالله والاتصال به في الحالتين، فهو رحمة في السراء والضراء على حد سواء.

ونلاحظ في الحالتين النفسيين المتقابلتين على التضاد في هذا النمط من البشر، أن التأكيد والقوة في التعبير تجلّ في التعبير الكنائي عن حالة الاستكبار المنبعثة عن طغيان الإنسان حين النعمة والرخاء أكثر من الحالة الثانية في التعبير عن اليأس والقنوط حين الشدة والابتلاء، فالقوة التعبيرية في الكناية تمثلت في:

١ - تصوير المعنى المكنى عنه بحركة مادية حسية، والتصوير الحسي للمعنى أكثر تأثيراً

من التعبير الذهني المجرد، شأنه شأن من يأتي بيّنة على ما ادعى.

٢ - تأكيد حركة الاعراض بقوله: ﴿وَنَافِثَاتٍ﴾ مما دل على تغلغل هذه الحالة الشعورية وتمكنها من النفس. وهذا لا نجده في الحالة المقابلة لها.

وبذلك تنجلي دقة التعبير القرآني في الكشف عن أسرار النفس الإنسانية في تأثيراتها وتقلباتها وإظهارها بشكل محسوس، فالله الذي خلق النفس الإنسانية هو أعلم بها من حاملها، ويعلم أي الأشياء ترغيبها وتغذب إليها، وأيهما مدعاة للذفور والرهبة.. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَرْتَوْسٌ ثُمَّ قَسَمَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١)

المشي على الأرض هوناً:

يقدم القرآن بهذه الكناية صورة وضيفة في معانيها وإحياءاتها تقف على التضاد من الصور الكنائية السابقة التي أشارت إلى ألوان من التكبر على الناس والاستكبار والإعراض عن آيات الله.

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

هذه الكناية تصوّر خطاً إيجابياً من أخلاق المؤمنين و هم يمشون بين الناس كما يصفهم بقوله - تعالى - : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (١)

والكناية ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ تنكّث الدلالة فيها بالصفة ﴿هَوْنًا﴾ فهي تشير إلى معنى الرفق الذي يتحلّى به هؤلاء الموصوفون بأنهم ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ بهذه الإضافة التي ترفعهم وتخصّصهم. قال الزمخشري: "﴿هَوْنًا﴾ حال، أو صفة للمشي، بمعنى: هينين. أو: مشياً هيناً، إلا أن وضع المصدر موضع الصفة مبالغه. واليهون: الرفق واللين" (٢) والمعنى المكنى عنه: السكينة والوقار والتواضع (٣) فهم لا يضربون الأرض بأقدامهم ولا يشنون أعطاقهم ويلوون رؤوسهم. وإنما هو اللين والتواضع يتجسد في مشيتهم على الأرض برفق، فهم عباد الرحمن واليه ينتسبون، تفيض من نفوسهم الرحمة بالناس والمغفرة لهم ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أي: "قالوا سداداً من القول يسلمون فيه من الإيذاء والاثم. والمراد بالجهل: السفه وقلة الأدب" (٤) فهو الحلم والأدب والصفح الجميل الذي يتصف به عباد الرحمن.

تثبيت الأقدام:

يصور القرآن بهذه الكناية الصمود والنصر الذي يمدحه الله لعباده المؤمنين الذين ينصرون الله ﷻ وذلك في قوله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَلَّوْا فَانصُرُوا اللَّهَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ وَبِكَيْفٍ أَقَامَكُمْ﴾ (٥)

الكناية التصويرية ﴿وَبِكَيْفٍ أَقَامَكُمْ﴾ أي: "أن تناصروا دينه تنصركم على أعدائكم ﴿وَبِكَيْفٍ أَقَامَكُمْ﴾ أي ويشبّكم في مواطن الحرب" (٦) وحسّنت الكناية المعنى بالأقدام لأنها آلة الوقوف والمشي و "الثبات والتزلزل يظهران فيها" (٧) فهي التي يركز عليها الجسد

(١) سورة الفرقان ، الآية: ٦٣.

(٢) الكشاف: ٢ / ٢٢٩.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٣ / ٢٠٣.

(٤) الكشاف: ٣ / ٢٣٠.

(٥) سورة محمد ، الآية ٧. وينظر: سورة البقرة ، الآية: ٢٥. وسورة آل عمران ، الآية: ١٤٧.

وسورة النحل ، الآية: ٩٤.

(٦) صفوة التفسير: ٣ / ٢٠٧.

(٧) صفوة التفسير: ٣ / ٢١٥.

فاذا زلت انهار، وإذا ثبت استقام وثبت فهو التصوير الحسي الذي يشير إلى المعنى المُكنى عنه الذي يتمثل في الصمود في أرض المعركة والثبات عند مواجهة الكافرين الذي يجلب النصر عليهم.

والبادي أن المعنى المُكنى عنه لا يقتيد بالصمود والنصر في مواطن الحرب حسب، وإنما هو النصر في كل مجالات الحياة، ومنه الصمود والثبات في مجاهدة العدو والانتصار عليهم، ولا يتم ذلك إلا حينما يكون الثبات على الدين^(١)، والاستقامة عليه والعمل على رفعته، ومجاهدة العدو، ودفعه بكل قوة وقدر قوي من صور نصرة المؤمنين ربهم الله ﷻ. وقال الزمخشري في الكناية نفسها الواردة في موضع آخر في قوله - تعالى -:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرُلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَقْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣) قال: "﴿فَتَرُلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ فتزل أقدامكم عن حجة الإسلام بعد ثبوتها عليها: ﴿وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ﴾ في الدنيا بصلودكم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وخروجكم من الدين، أو بصدكم غيركم، لأنهم لو نقضوا إيمان البيعة وأرتكوا، لآخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها" (٤).

فالكناية تصوير حسي لحقيقة النصر في مواطن الحرب بوصفها نتيجة من الثبات على محجة الإسلام أو دين الله الذي يلج المؤمنون ربهم عليه، فثباتهم عليه وإخلاصهم فيه يترتب عليه النصر ليس فقط في مواطن الحرب وإنما في كل جوانب الحياة.

القتال في قرى محصنة أو من وراء جُدُر:

يكثف القرآن من خلال هذه الصورة الكنائية الموحية دلالة خلقية لليهود واخوانهم المنافقين تتمثل في جبنهم وخوفهم من مواجهة المؤمنين في ميدان القتال، بل توحى الكناية بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء بأن (الجبن) صفة ملازمة ثابتة في شخصيتهم،

(١) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن: ٢ / ٣٩٦. وينظر: "ألفاظ النصر والتمكين في القرآن الكريم دراسة دلالية"، د. عبد الوهاب محمد علي العدواني وعبد عبيد يحيى، ص ١٤١. (مجلة آداب الرفافين، العدد: ٢٣، ١٩٩٢).

(٢) ينظر: "مقومات النصر في القرآن الكريم"، د. كاسد ياسر الزبيدي، ص ١٨. (مجلة آداب الرفافين، العدد: ٢٣، ١٩٩٢).

(٣) سورة النحل، الآية: ٣٤.

(٤) الكشاف: ٢ / ٤٩٢.

وذلك في قوله - تعالى - : ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَتْلَةٍ جُدَّتْ بِأَسْهُمٍ يَنْتَهِمُ عَنْهَا شَرِيدٌ ثَمَّسَهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَقَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١)

قال الزمخشري في هذه الآية: ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ كائنين ﴿ فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ ﴾ بالخدائق والدروب ﴿ أَوْ مِنْ وَتْلَةٍ جُدَّتْ ﴾ دون أن يصحروا لكم ويبارزوكم ﴿ بِأَسْهُمٍ يَنْتَهِمُ عَنْهَا شَرِيدٌ ﴾ يعني: أن البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا؛ ولو قتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة. لأن الشجاع يجبن والعزيز يذل عنه عند محاربة الله ورسوله ﴿ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين ذوي الألفة والاتحاد ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَقَّى ﴾ متفرقة لا ألفة بينها، يعني أن بينهم إحنًا وعداوت، فلا يتعاضدون حق التعاضد، ولا يرمون عن قوس واحدة (٢) وقوله ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَتْلَةٍ جُدَّتْ ﴾ الذي أعدناه كناية، وإن كان يشير في ظاهره إلى اتخاذ اليهود والمثقفين أسباب القوة والحيلة والحذر عند مواجهة جنود الله المؤمنين في ساحة القتال، إلا أن بناءه جاء في أسلوب القصر الذي أفاد قصر قتالهم على صورة التدحصن بالقرى أو التدحصن بالجُدُر لا يذصرف إلى صورة غيرها، والمراد به الجبن الذي يوصف به اليهود وحذاقوهم من المنافقين حيثما التقى المؤمنون بهم، فالكناية تقرر حالة قائمة في نفوسهم، وحيثما انكشف اليهود والمنافقون في أرض المعركة فإنهم يولون الأدبار جنبًا وخوفًا من المؤمنين.

وتوحي الكناية من طرف خفي بعث المؤمنين وتشجيعهم على مقاتلتهم لكسر شوكتهم. وذلك لأن المؤمنين خلاف هؤلاء بعلامتهم النفسية التي جلتها الآية الكريمة ﴿ بِأَسْهُمٍ يَنْتَهِمُ عَنْهَا شَرِيدٌ ﴾ و ﴿ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَقَّى ﴾ فالمؤمنون متضامنون متعاونون يجمعهم ويقويهم الإيمان بالله، فهم قلب واحد، وقوة واحدة في الفئتهم وتعاضدهم، فهم يرمون عن قوس واحدة.

الإصعاد واللي:

ورنت هذه الكناية في مشهد من مشاهد معركة أحد تجسد حالة الضعف والهزيمة النفسية للأقارب من جيش المسلمين المرتكبين عن أرض المعركة إما أصابهم من دهش

(١) سورة الحشر، الآية: ١٤.

(٢) الكشف: ٤ / ٤٠٥، ٤٠٦.

وذعر، ترد هذه الكناية إزاء صورة كنائية أخرى على التقابل تجلّي ثبات الرسول ﷺ وشجاعته في أعلى صورها، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَضِعُّونَ عَلَى الْكَوْكَبِ﴾ (١) ﴿وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتْبِعِكُمْ عَمَّا فِطْرَ لِكَيْلًا تَحَرُّوا عَلَى مَا قَاتَلَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٢)

فالاية تقابل فيها كنيستان على التضاد تجلّي حالتين خلقيتين في صورة حسنة حركية، الأولى: ﴿إِذْ تَضِعُّونَ عَلَى الْكَوْكَبِ﴾ في وصف المسلمين السقّاتين الذين ارتدوا على أذيالهم من أرض المعركة. والثانية: ﴿وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ﴾ الثابت يدعو إليه المؤمنين الفارين فيمن تأخر سعه في أرض المعركة. والحركة الحسية في الكناية الأولى تمثلت في الارتفاع والالتواء: الذهاب في الأرض والابتعاد فيه، يُقال: صعد في الجبل وأصعد في الأرض (٣) ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ ولا تقيمون ولا تعطفون ولا تميلون ﴿عَلَى الْكَوْكَبِ﴾ لأن من مال إلى شيء يلوي عنقه إليه (٤) والكناية الثانية: ﴿وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ﴾ كان يقول: ((التي عباد الله التي عباد الله أنا رسول الله من يكره فله الحقة)) ﴿فِي أَخْرَجِكُمْ﴾ في سفتكم وجماعتكم الأخرى وهي المتأخرة (٥).

فالكناية الأولى في حركتها الحسية، القوية تصور ذلك الانفعال الحسي القوي المتمثل في الخوف والذعر، فلا يظفرون إلى ورائهم لشدة الدهشة ولا يعطفون على أحد ولا مدافعة.. وإزاء هذه الصورة الكنائية التي جسدت حالتهم النفسية المكروبة، تجلّي الكناية المقابلة ﴿وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ﴾ معناها المكنى عنه المتمثل في ثبات الرسول ﷺ وشجاعته في ذلك الموقف العصيب، فهو الثبات في الصورة والمعنى في أحلك المواقف كما تعمل هذه الكناية على تعميق معنى الهزيمة وتضعيدها في حس الفارين من أرض المعركة وذلك من خلال التضاد في المعنى، فكان يجب عليهم أن يكون لهم أسوة حسنة في الرسول ﷺ في ثباته وصبره وشجاعته، فما يكون لهم أن يفروا ويتركوا رسول الله راغبين بأنفسهم عن نفسه.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٢) الكشاف: ١ / ٤٧١.

(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٢ / ٢٧٤.

(٤) الكشاف: ١ / ٤٧١.

غَضُّ الْأَبْصَارِ وَالضَّرْبُ بِالْأَرْجْلِ :

ومن ذلك الكتابان الوارثان في قوله - تعالى - خطايا للمؤمنين والمؤمنات: ﴿قُلْ

$$\frac{1}{2} \sqrt{1 + \frac{4}{3} \frac{m^2}{\mu^2}} \quad (1)$$

(٢) سورة النور، الآيتان: ٣٠، ٣١.

المُكنى عنه عن طريق حركة في العين هي غضها. والغض "التقصان من الطرف" (١)، وهي حركة يُراد منها ملزومها وهو (العفة) عن النظر في المحارم. ففي الكناية أدب أخلاقي ومحولة للاستعلاء على الرغبة في الاطلاع على المحاسن والمفاتن في الوجوه والأجسام، كما أن فيها إغلاقاً للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية (٢). لذلك تقدمت الكناية (غض البصر) على حفظ الفروج لأن "النظر يريد الزنا ورائد الفجور، وهو مقدمة في الوقوع في الخطر" (٣). وأن حفظ الفروج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر (العفة)، ومن ثم يجمع بينهما في سياق واحد، بوصفهما سبباً ونتيجة، أو باعتبارهما خطوتين متواليتين في عالم الضمير وعالم الواقع (٤).

ثم تكرر خطاباً للمؤمنات بأمرهن بغض أبصارهن كما أمر الرجال فلا يرسلن بنظراتهن الهاتفة المثيرة، تستثير كوامن الفتنة في صدور الرجال (٥)، وبذلك يتحقق التوازن في الاستجابة والطاعة من المؤمنين المخاطبين جميعاً فتشيع العفة والطهارة في المجتمع التي تعمل على عدم تلوّثه بالانفعالات الشهوية وعدم ارتكاسه إلى الترك الحيواني الهابط. ثم تأتي الكناية الحركية الثانية تنهي المؤمنات عن الحركات التي تعلن عن الزينة المستورة، ويهيج الشهوات الكامنة زيادة في الوقاية والحذر مما يكون سبباً في الوقوع في الفاحشة ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ فالْمُكنى عنه هو رغبة النساء في اظهار زينتهن جاء في تفسيرها: "أي لا يضربن بأرجلهن الأرض لئلا يسمع الرجال صوت الخخال فيقطع مع الذي في قلبه مرض، قال ابن عباس: كانت المرأة تمر بالاناس وتضرب برجلها ليعلم صوت خلخالها، فنهى الله تعالى عن ذلك لأنه من عمل الشيطان" (٦).

وبذلك تتجلى عناية القرآن الكريم بالمجتمع وحفظه، وذلك من خلال تضيق فرص الغواية والفتنة، وسد الطريق أمام الأسباب التي تؤدي إلى الفاحشة من نظرة أو حركة مقصودة تثير في النفس الشهوة وتزرع في القلب الفتنة. وبذلك تُصان الأعراض

(١) المفردات، ص ٥٤٢.

(٢) في ظلال القرآن: ٦ / ٩٤.

(٣) صفوة التفسير: ٢ / ٣٣٩.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٦ / ٩٤.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ٦ / ٩٤.

(٦) صفوة التفسير: ٢ / ٣٣٦-٣٣٧.

والمجتمعات من الجرائم والفواحش، ويشيع الأمن والطمأنينة في المجتمع وفي القلوب والنفوس.

مد العين:

يدعو القرآن بالأسلوب الكناي إلى الاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية، وإلى الصلة بالله والرضى به، كي تحسن النفس بالاستعلاء على زخارف الدنيا الفانية وهي تبهير الأنظار وتجذب النفوس إليها. نلاحظ ذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعَتْ بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَهَرَّةَ الْغَيَوتِ لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝﴾ (١).

الكناية التصويرية ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ فالعين لا تمتد، إنما يمتد النظر، ولكن الكناية تصور المعنى فتجعل العين ذاتها ممتدة إلى المنظور إليه بهذا الاسناد المجازي التصويري، أي إسناد الفعل ﴿تَمُدَّنَّ﴾ إلى العينين فتشير الكناية إلى المعنى المكنى عنه وهو استحسان المنظور إليه والإعجاب به، وتثنيته في النفس يكاد النظر معه لا يرتد. قال الزمخشري: "﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي نظرك عينيكَ، ومد النظر: تطويله، وأن لا يكاد يردّه، استحساناً للمنظور إليه وإعجاباً به، وتمنياً أن يكون له.. ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركز في الطباع وأن من أبصر منها شيئاً أحب أن يمد إليه نظره ويملا منه عينيه: قيل ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تفعل ما أنت معتاد له وضار به.. ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ اصنافاً من الكفرة" (٢).

ثم تأتي الاستعارة التصريحية لتجسد ذلك الشيء الذي تمتد إليه العين تجسده غاية في الزينة والبهجة ﴿زَهْرَةَ الْغَيَوتِ الْأُنْثَى﴾ فاستعار الزهرة وهي جذابة بالوانها وتناسقها لزخرف الدنيا وزينتها، وذلك ليكون المعنى مصوراً غاية في الفطنة والتأثير.

ورغم جمال الصورة التي أخرجتها الاستعارة والذي تمتد إليه العين - كما أشارت الكناية استحساناً وإعجاباً - فإنه جمال متاع زائل سريع، كما لمحت الاستعارة إلى ذلك لأن الزهرة رغم جمالها وتأثيرها في النفس سرعان ما تذبل وتزول.. وفوق ذلك فهو للفتنة ﴿لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ﴾ على خلاف ﴿وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ فهو رزق للنعمة لا للفتنة، وهو طيب لأنه باق لا يخذل ولا يزول..

(١) سورة طه، الآية: ١٣١. وينظر: سورة الحجر، الآية: ٨٨.

(٢) الكشف: ٧٧ / ٣.

والكناية - وإن كانت خطايا للرمول - فإذها تخاطب المؤمنين فلا تمتد أنظارهم ولا تنهاوى نفوسهم أمام زينة الحياة الدنيا وزخرفها، ولا تنخدع بما يتقلب فيه الكافرون من نعم الدنيا وزينتها كما تصور ذلك كناية (التقلب) في موضع آخر في قوله - تعالى - : ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾^(١) أي: " لا يخدعك تقلب الذين كفروا في البلاد طلباً لكسب الأموال والجاه والرتب " (٢).

فالكناية ﴿تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيها تصوير حركة على نحو من الكثرة والمبالغة كما أفاد التشديد فيها فتشير إلى المعنى المكثف عنه وهو فيض الذم والمكاسب التي فيها يتقلبون، فهم يتقلبون من لون من النعيم إلى آخر، وكان هذا طابعهم ودينتهم على الحد الذي يغري المؤمن ويخدعه، فينهى القرآن عن عدم التأثير مما هم فيه لأنها نعم زائلة لا تستند إلى القاعدة الأصلية (الإيمان)، فلا تلبث أن تزول - وإن أغرت وخذعت - قال الزمخشري: " لما كانوا مشهوداً عليهم من قبل الله بالكفر، والكافر لا أحد أسقى منه عند الله، وجب على من تحقق ذلك أن لا ترجح أحوالهم في عينه، ولا يغره أقبالهم في دنياهم وتقلبهم في البلاد بالتجارات النافعة والمكاسب المريحة، وكنت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن، ولهم الأموال يتجرون فيها ويتربحون، فإن مصير ذلك وعاقبته إلى الزوال، ووراءه شقوة الأبد " (٣).

ومن وراء الكناية نلمح القيم الأصلية التي يحتكم إليها القرآن، القيم الباقية المصحلة بالله ﷻ لا تغتر بمظاهر الحياة الدنيا وزخارفها الزائلة والتي لا تعني شيئاً إذا ما كانت وسيلة للفساد والإفساد.

(١) سورة آل عمران ، الآية: ١٩٦ - وينظر: سورة غافر ، الآية: ٤٠.

(٢) صفوة التفسير: ١ / ٢٥٣.

(٣) الكشاف: ٤ / ١١٧.

التجافي عن المضاجع :

القومة الأصيلة هي الاتصال بالله والخوف منه والرجاء فيه، فهي القومة الباقية، والأمل الذي لا يتقطع، وهي الصورة الوضيئة التي يقدمها القرآن الكريم بالأسلوب الكناي وصفاً لنماذج من المؤمنين في قوله - تعالى - : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (١) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) .

الكناية: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ ﴾ أي: " تتدحى وتتباعد أطرافهم عن الفراش ومواضع النوم، والغرض أن نومهم بالليل قليل لانقطاعهم للعبادة. قال مجاهد: يعني بذلك قيام الليل " (٢) فهي تشير إلى كثرة العبادة والتبدل إلى الله ﷻ في ظاهرها، ولكنها تجسد تلك الحالة الخفية التي يستشعرها هؤلاء المؤمنون المذوقون في معناها البعيد والتي تتمثل في شدة خوفهم من الله وعذابه، وشدة طمعهم ورجائهم في ثواب الله ومغفرته. وهم في خوفهم ورجائهم مخلصون لله بعيدون عن الرياء يدعون ربهم في الأوقات التي يعز فيها الله

لا يراهم فيها أحد من الناس، لذلك فالسياق يبرز جزاءهم الذي أخفاه الله لهم عن جميع خلانقه، ولا يعلمه إلا هو مما دقر به عيونهم التي لم تنم إلا قليلاً، فيتناسق الأجزاء مع العمل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ أي: " لا تعلم النفوس أي نوع عظيم من الثواب أنخر الله لأولئك وأخفاه عن جميع خلانقه، لا يعلمه إلا هو مما دقر به عيونهم، ولا مزيد على هذه العدة ولا مطمح وراءها، وعن النبي ﷺ يقول الله - تعالى - : ((اعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا أُنْزِلُ إِلَّا لِرِئَاسَةٍ عَلَيْهِمْ)) (٣) .

والكناية ﴿ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ تجسد حالتهم النفسية المطمئنة الراضية غاية الرضا (٤) والسرور بالجزاء فلا تطمح إلى غيره. وهي حالة نفسية تقابل حالتهم النفسية الخالقة من الله الراجية رحمته التي صورتها كناية التجافي عن المضاجع في حياتهم الدنيا.

(١) سورة السجدة، الآيةان: ١٦- ١٧.

(٢) صفة التفسير: ٥٠٤ / ٢.

(٣) الكشف: ٤١٥ / ٣.

(٤) ينظر هذه الكناية في فصل: (الكناية النفسية) من: ص ٤٠٠.

ومن خلال عرض الكُنَايَاتِ الخَلْقِيَّةِ يَتَبَيَّنُ وظيفة الكناية التعبيرية والتصويرية في أداء الأفكار والمعاني التي يهدف القرآن تَنْبِيئُهَا في ذهن المَثْقَلِ ونَفْسِهِ، فالقرآن لا يعرض تِلْكَ المعاني والأفكار بتعبير ذهنية مجردة، وإنما يوظف الكناية بوصفها أسلوباً حيوياً مؤثراً إذ يقوم بتصويب الفني الكامل في أداء المعاني وتصويرها بطريقة من شأنها أن تحدث الاستجابة الوجدانية المناسبة في القارئ أو السامع وهو يتلقى هذه الموضوعات التي يهدف القرآن إلى تَنْبِيئُهَا في نفسه وقلبه أو تَغْيِيرِهِ مِنْهَا.

الفصل الخامس

الكناية الساخرة

الفصل الخامس

الكناية الساخرة

السخرية في مدلولها العرفي واضحة محددة لا تلتبس بمعنى آخر، ويدور في معناها، بل يؤدي معناها عدة ألفاظ أوضحها: التهكم والاستهزاء، ولا شك في أن السخرية أسلوب وسلاح عدائي، مهما كانت دوافعها، ومهما كان مقامها، ومهما صغرت درجتها في العداء أو كبرت، ويتميز هذا الأسلوب من غيره من أساليب العداء بأنه مصوغ بروح الفكاهة وأسلوبها^(١).

وعلماء النفس حينما يبحثون في طبيعة السخرية فإما يبحثونها كجزء من ظاهرة عامة في الطبيعة البشرية، فيقولون مثلاً: الاندسام والضحك والمرح والفكاهة والمزاح والدعابة والهزل والنكتة والملحة والنادرة والكوميديا أن هي إلا ظواهر نفسية من فصيلة واحدة، وكلها إنما تصدر عن تلك الطبيعة البشرية المتناقضة، التي سرعان ما تمل حياة الجد والصرامة والعبوس، فتلتبس في اللهو وترويحاً عن نفسها، وتبحث في الفكاهة عن منقذ للتفيس عن الآسها، وتسعى عن طريق النكتة نحو التهرب من الواقع الذي كثيراً ما يتقل كاهلها^(٢)، وبناءً على هذا يجمع علماء النفس هذه الأنواع وما يشابهها ويجعلونها ظاهرة واحدة، ويجعلون الضحك عنواناً لها، لأن الضحك هو النتيجة المباشرة لكل هذه الأنواع، وهو جزء أساسي من هدف كل هذه الأنواع، وقد حظرت هذه الظاهرة اهتمام الفلاسفة والباحثين، فعنوا ببحثها ودراستها منذ أفلاطون وأرسطو حتى الباحثين المعاصرين^(٣). فهم يرون أن الضحك - الذي جعلوه عنواناً للظاهرة من حيث هي - ناشئ في الأصل عن الشعور بالانتصار في معركة جسمية بدائية^(٤)، وحينما يقسم علماء النفس هذه الظاهرة إلى أكثر من نوع، فإن الشعور بالانتصار أو التفوق يلايس كل نوع، فيقولون: "الضحك نوعان: إيجابي وهو الضحك المنعش ينبعث عن شعور المرء بتفوقه على خصمه، عن

(١) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١٣.

(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك، د. زكريا إبراهيم، ص ٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨. وينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١٣-١٤.

(٤) سيكولوجية الفكاهة والضحك، ص ١٢٣.

شعور المرء بتفوقه على خصمهموملبي وهو ضحك حزين متجههم، وهو المتولد عن الشعور بنقص الآخر أو ضعفه أو ضعفه. أعني أنه ضحك الاحتقار والأزدراء^(١)، وواضح أن النوع الثاني مقصود به (السخرية) لأن "ضحك الاحتقار والأزدراء" هو معنى السخرية. وكذلك يفعل الباحثون الذين يسمون هذه الظاهرة باعتدبار مصدرها الانفعالي، فيرون أن نوع الفكاهة يخضع لنوع الانفعال الذي أثارها، ومن ذلك أن "انفعال الغضب يولد الفكاهات العدوانية والسخرية"^(٢). فالسخرية إذن نابعة من انفعال عدواني بين خصمين ولكن الخصم الأقوى والأقرب منهما هو الذي يستطيع أن يسخر من الآخر، وهذا أيضاً تليد لأن الضحك - عنوان السخرية - مظهر من مظاهر الانتصار والتفوق^(٣). فالسخرية في ضوء ذلك أسلوب عدائي مصوغ بروح الفكاهة، إلا أن هذا الأسلوب لا يتاح نفسياً ولا واقعياً إلا لمن كان بيده زمام الموقف والذي يشعر بأنه القوي القادر على الانتصار^(٤).

أما السخرية في القرآن الكريم فقد ينظر إليها بعضهم على أنها لا تدفق وجلالة القرآن من حيث إنه كلام الله، لذلك لا يسوغون نسبة السخرية بمعناها المفهوم إلى الله ﷻ، لكن يجب القول: إن القرآن بصفته ناطقاً بلسان المسلمين يجعل الصور الساخرة التي ساقها، ومنها (الكنائيات الساخرة) يجعلها كأنها صادرة من المسلمين أو ممثلة لموقفهم، وذلك لأن القرآن في كل اتجاهاته يحشد كل أسلحته وطاقاته ليعزز مركز المسلمين ويدفعهم إلى النصر، وفي الوقت نفسه يحطم مركز أعداء الاسلام ويدفع بهم إلى الهزيمة أو الشعور بها أو توقعها^(٥). وبذلك يقدم القرآن بصور السخرية من أعداء المسلمين حوافز معنوية وروحية للمسلمين وهم يدافعون عن الاسلام متحمسين ضرورياً شتى من المشقة والبلاء والإيذاء، فضلاً عن ذلك اتخذ أعداء المسلمين من السخرية سلاحاً نفسياً مؤثراً يريدون به تحطيم عزم المسلمين والنيل من ثقتهم في أنفسهم بنينهم.. إلا أن القرآن يتصدى لهم

(١) م. ن. ص ١٢٣.

(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك، ص ١٩١.

(٣) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١٥.

(٤) ينظر: المصدر نفسه، ص ١٥.

(٥) ينظر: المصدر نفسه، ص ١١-١٢.

بسخرية أبلغ وقعا، وأشد تحطيماً، وأنفذ سهماً^(١)، كما سنلاحظ في صور الكنايات الساخرة التي تمثل جانباً ملحوظاً من أسلوب السخرية في القرآن.

على أنه ليس هناك ما يمنع من نسبة السخرية إلى الله سبحانه، يقول الزمخشري: " فإن قلت لا يجوز الاستهزاء على الله لأنه متعال عن القبيح والسخرية من باب العيب. فما معنى استهزائه بهم؟ قلت معناه إنزال الهوان والحقارة بهم، لأن المستهزئ عرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية بمن يهزأ به وإدخال الهوان والحقارة... وقد كثرت التهكم في كلام الله تعالى بالكفرة، والمراد به تحقير شأنهم وإزدراء أمرهم، والدلالة على أن مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساحرون ويضحك الصاحكون^(٢)، ثم يقول عقب ذلك: " وفيه أن الله ﷻ هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ، الذي ليس استهزاء وهم إليه باستهزاء ولا يؤيده في مقابلته، لما ينزل بهم من النكال ويحل بهم من الهوان والذل، وفيه أن الله هو الذي يتولى الاستهزاء بهم، انتقاماً للمؤمنين ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله " (٣).

والسخرية في القرآن الكريم ليست مجرد تهجم أو هجاء أو تهوين شأن، وهي ليست مجرد أسلوب فكه يثير النفوس أو يبعث على الضحك، وإنما هي وسيلة لتحقيق أهداف على جانب كبير من الأهمية سواء من الناحية النفسية، أو من الناحية الاجتماعية، ومن ثم فإن القرآن الكريم لم يختار أسلوب السخرية من أعدائه ليكون مجرد تهكم أو استهزاء أو تحقير، وإنما اختاره لأهداف أبعد، وأغراض أعمق... كما أن القرآن نقل اتباعه فيما يشبه الطفرة من السخرية البدائية أو القردية من البداوة التي يحدسها علماء النفس في التهكم من العيوب الجسمية أو النقص الشكلي والمادية إلى السخرية الحضارية المتطورة التي تخفي وراء مظهرها البسيط أغراضاً هادفة إلى ترواح معينة تنحصر في الإصلاح ومحاربة الرذيلة، والدعوة إلى المنن العليا والمبادئ القومية والسلوك الصحيح، وبهذا يكون القرآن قد سما باتباعه من اتخذ السخرية مجرد سلاح للتحطيم والهدم كما كانوا يالفون في الهجاء^(٤) إلى جعلها وسيلة إصلاح وتهذيب.

(١) ينظر: المصدر نفسه، ص ١٢.

(٢) الكشف: ١ / ١٨٦ - ١٨٧.

(٣) الكشف: ١ / ١٨٧ - ١٨٨.

(٤) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ٢٥ - ٢٦.

وكذلك حينما ننظر إلى الكنايات الساخرة في القرآن الكريم نجد أنها في طبيعتها سلاحاً يستخدمه القرآن ضد أعداء المسلمين المتنوعي الألوان والوجوه.. وهي - في الأعم الأغلب - تستهدف أئمة الكفر والشرك الذين يسدون العداء للإسلام والمسلمين بكل ما أوتوا من قوة وتفكير وتدبير، لذلك ميزهم القرآن بتعبير كنائية ساخرة ذنال منهم نيلاً عظيماً بوصفهم خطراً يهدد المسلمين. وقد عرض القرآن الكريم طرفاً من خطرهم وسخريتهم، من ذلك - مثلاً - سخريتهم بالرسول ﷺ بكل ما تحمل هذه السخرية من تهكم لاذع واستهانة بشخصه ﷺ، كما يقول الزمخشري في تفسير قوله - تعالى -: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَتَشَبَّهُ فِي الْإِنْسَانِ لَوْلَا أُتِرَ لِرَبِّهِمْ كَذِبٌ كَذِبٌ﴾ (١) وفي هذا استهانة وتصغير، وتسييته بالرسول سخرية منه ووطنر (٢) كأنهم قالوا: ما لهذا الزاعم أنه رسول.. أي إن صح أنه رسول الله فما باله مثل حالنا يأكل الطعام كما نأكل، ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد (٣).

وسنحاول في هذا الفصل عرض فكرة السخرية في حدود ما وردت في إطار الفن الكنائي بوصفه وسيلة حيوية في التعبير والتصوير تحقق أهدافها ومقاصدها التي يتغنيها القرآن.

الوسم على الخرطوم :

وردت هذه الكناية التصويرية الساخرة وصفاً للوليد بن المغيرة المخزومي وهو من ألد أعداء الإسلام وأكثرهم خطورة، وقد بلغ من السيادة والمجد في قومه مرتبة لم يبلغها شخص آخر، وكان له عشرة بنين، فكان يقول لهم ولحمته: من أسلم منكم منعته رقتي (٤) وقد شهد القرآن نفسه للوليد بعمق التفكير، وبعد التدبير، وشهد له بأهم مقومات القوة والسيادة في المجتمع حينذاك منها: كثرة الأموال، ووفرة البنين، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ذَرَفَ وَمَنْ خَلَقَتْ وَحِيدًا * وَجَعَلَتْ لَهُ مَالًا مَمْلُوكًا * وَبَيْنَ شُهُوكَا * وَمَهَّدَتْ لَهُ تَهِيْدًا * ثُمَّ بَطَعُ أَنْ أَرِيْدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِبْنَيْنَا عِيْدًا * سَأُوقِئُهُ سَعُوْدًا * إِنَّهُ فَكَرَ وَفَدَّرَ * نَقِيلُ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧. وينظر: (الإيئين: ٨ - ٩. من السورة نفسها، مثلاً.

(٢) الطنر: السخرية. ينظر: لسان العرب: ٣٦٩ / ٥ (طنر).

(٣) الكشف: ٤٠٩ / ٣.

(٤) ينظر: الكشف: ٤ / ٤٧٠. وتفسير الجلالين، ص ٧٥٢. وينظر: لباب القول في أسباب القول، ص ٧٥٣.

﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ ﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَى ﴾ ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ ﴿ سَأُخْبِرُهُمْ سَعَرًا ﴾ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَعَرٌ ﴾ ﴿ لَا يَبْقَى وَلَا تَذَرُ ﴾ ﴿ وَانْمَ الْبَشَرِ ﴾ (١)

وقد استخدم الوليد بن المغيرة سيادته ومجده وقوته وسلطانه في حربته للإسلام والمسلمين، لذلك فالقرآن يهاجمه مهاجمة عنيفة شديدة، تشوه كل مقومات مجده وسيادته، ثم تدصب السخرية اللاذعة على شخصه، فهذا الشخص القوي المتسلط صاحب المال والبنين والفكر والتقدير، الذي يملأ قلوب أتباعه إعجاباً وإكباراً بمظهره وجلاله، ثم سخ الكناية الساخرة هذا المظهر، لتصوير مكانه صورة ساخرة، تشوه مظهره، وتثير الضحك والسخرية منه بما يشبه الرسم الكاريكاتيري (٢)، وذلك في قوله - تعالى - ﴿ وَلَا تَطِغْ كُلُّ جَلَلٍ فِي سَعِينِ ﴾ ﴿ هَمَزَ مَشَامَ نَسِيمِ ﴾ ﴿ مَنَعَ الْخَيْرَ مُعْتَدِ أَسِيرِ ﴾ ﴿ عَتَلَ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمِ ﴾ ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ ﴿ إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ مَا يَتَنَلَّى الْكَلَامُ الْأَوَّلِ ﴾ ﴿ سَيَسْأَلُ عَلَى الْخُرُومِ ﴾ (٣)

الكناية التصويرية ﴿ سَيَسْأَلُ عَلَى الْخُرُومِ ﴾ (٤) تُخرج لنا الوليد وقد تشوه منه أبرز موضع في أكرم عضو من الإنسان يشير إلى العز والحمية، قال الزمخشري: " الوجه: أكرم موضع والأنف أكرم موضع من الوجه لتقدمه له، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية، واشتقوا منه الأنفة، وقالوا: الأنف في الأنف، وحسب أنفه، وفلان شامخ العرين، وقالوا في الذليل: جدد أنفه، ورغم أنفه، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة، لأن السمة على الوجه شين وإذالة، فكيف بها على أكرم موضع منه " (٥).

فالكناية تكثف دلالة السخرية، فضلاً عن الإذلال والإهانة، بعد أن نال من مقومات اختياله وفخره بالمال والبنين، ومكانته ونسبه، فقد تحول بالكناية إلى صورة أشبه بحيوان ذي خرطوم قد وسم بعلامة بشعة منقرة تثير الضحك والسخرية منه.

والكناية توحى بنوعين من الإذلال والإهانة، أولها: الوسم فهو يوهم كما يوهم الحيوان والعبد، فهو عار لا يتمحي عنه، فهو ملازم له، والثاني: جعل أنفه خرطوماً

(١) سورة المئثر، الآيات: ١١-٢٩.

(٢) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١٣١.

(٣) سورة القلم، الآيات: ١٠-١٦. حلاف: كثير الحلف بالباطل. هَمَزَ: عَابَ، أي مَغْتَاب. مَشَامَ: يَمِيم: سَاعَ بِالْكَلامِ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى وَجْهِ الْإِقْسَادِ بَيْنَهُمْ. عَتَلَ: غَلِظَ جَافَ. رَنِيم: دَعَى فِي قَرِيشَ. ينظر: تفسير الجلالين، ص ٧٥٢.

(*) الخرطوم: الأنف. تفسير الجلالين، ص ٧٥٣.

(٤) الكشاف: ٤ / ٤٧١. وينظر: التفسير الكبير: ٣٠ / ٨٦.

كخرطوم الذئب في ضخامته وذلك لتشويه ضخامته المهيبة في نفوس أتباعه. وتكون صورة مذبذبة للتفكير العميق " حين نرى شخصية عظيمة في عين أتباعها، يرن ذكرها وجلالها في نفوس الأتباع وقلوبهم، فقد سلت هذه الشخصية من مجدها وهالتها، لتوضع في هذا المنظر المضحك المزري، وليتمثل أتباع الوليد حين تتحول صورته الضخمة المهيبة في نفوسهم إلى ضخامة فيل مثلاً مشوه الخرطوم، ولتختل الفارق بين نظرة الإكبر والإجلال التي ينظرون بها إليه، ويتمثلونه بها في نفوسهم، وبين نظرة المضحك والسخرية التي ينظرون بها إلى صورته هذه التي رسمتها سخرية القرآن " (١)

وبذلك نال الكناية في تصويرها الأساخر من عدو الاسلام والمسلمين على نحو تجعله سخرية الساخرين أيد الدهر تنملي صورته الزرية المضحكة العقول والنفس.

السَّعْجُ بِالنَّاصِيَةِ:

وردت هذه الكناية الساخرة والتي تحمل في طياتها غاية الإهانة والتحقير والسخرية، في شخص لا يقل عداوةً وطغياناً عن الوليد بن المغيرة هو عمرو بن هشام (أبو جهل) (٢) ومن عداوته للمسلمين أنه كان يتعرض بالسخرية لمن يصلي من المسلمين ومثهم الرسول ﷺ فيسخر منهم وينهاهم عن الصلاة. ولكن القرآن الكريم يسخر من مصدر قوته ويحكم به ويهدده ويتوعد به. ثم تصوره الكناية مقبوضاً من ناصية رأسه الكاذبة الخاطئة طالباً منه أن يدعو ناديه بما فيه من أئمة الكفر والشرك من ملته الذين يركن إليهم ويعتز بهم ويكابر لينفذوه مما هو فيه من هوان: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿١﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّهِ الرُّجُوعَ ﴿٢﴾ أَوَيْتَ آلِهَةٍ يَحْتَسِبُ ﴿٣﴾ عَمَّا إِذَا سَأَلَ ﴿٤﴾ أَوَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْمُنَىٰ ﴿٥﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿٦﴾ أَوَيْتَ إِنْ كَذَّبَ ﴿٧﴾ وَيَوَلَّىٰ ﴿٨﴾ أَوَيْتَ بِأَنَّهُ بُرَىٰ ﴿٩﴾ كَلَّا لَوْ رَهَّبُوهُ لَخَسَفَ بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٠﴾ نَاصِيَةٍ كَلِيمَةٍ غَائِبَةٍ ﴿١١﴾ فَلْيَعْزُزْ نَادِيَهُ ﴿١٢﴾ مَسَدِّعُ الرَّايَةِ ﴿١٣﴾ كَلَّا لَا تُطْمَئِدُوا وَاسْجُدُوا وَاقْرَأُوا ﴿١٤﴾﴾ (٣)

قال الزمخشري: " ﴿كَلَّا﴾ ردع لأبي جهل وخسوء له عن نهيه عن عبادة الله تعالى وأمر بعبادة الآلات، ثم قال ﴿لَوْ رَهَّبُوهُ﴾ عما هو فيه ﴿لَخَسَفَ بِالنَّاصِيَةِ﴾ لتأخذن بناصيته

(١) أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، ص ١٣١.
(٢) ينظر: لياب النقول في أنساب الفزول ، ص ٨١٧.
(٣) سورة العلق ، الآيات: ١٤-٦.

ولتسحيته بها إلى النار " (١) والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدة. ﴿تَأْسِيَةً كَثِيرَةً خَائِطَةً﴾ وصفها بالكذب والخطأ على سبيل المجاز المرسل لعلاقة الجزئية، إذ ذكر الجزء (الناصية) وأريد الكل. فالكذب والخطأ في الحقيقة لصاحب الناصية وفيه من الحسن والجزالة والحيوية ما ليس في قولك: ناصية كاذب خاطيء. ﴿فَلْيَعْنُ تَأْوِيَهُ﴾ والنادي: المجلس الذي ينتدي فيه الأ قوم، والمراد: أهل النادي (٢).

وفي الكناية: ﴿لَتَنفَعَنَّ بِالْأَيَّاتِ﴾ تبليغ السخرية من أبي جهل سبلها في الصورة والمعنى، في الصورة نرى أبا جهل وقد قبض على ناصيته بقوة وشدة جذب، ثم يُجر ويُجذب بقوة وعنف، وهذه الصورة التي عليها أبو جهل تمثل صورة من العذاب لها وقعها وتأثيرها البالغ في مجتمع كالسجن العربي، إذ إن أي صورة من صور العذاب أو الهوان أخف وأيسر في وقعها من هذه الصورة التي رسمتها الكناية قدصويره مكتلاً بالأغلال، أو معذباً في جهنم، أو أي شيء من ذلك، لا يبلغ منه ولا يحيط من منزلته في المجتمع ما يبلغه التصوير الكنتي هذا، وهو يتناول شخصاً يملأه الغرور، ويسيطر عليه الشعور بالعزة التي لا تُمس، والقوة التي لا تُقهر كأي جهل (٣).

أما المعنى المكتنى عنه الذي تشير إليه هذه الصورة الزرية فإنه يتمثل في غاية الإهانة والتحقير والسخرية من قوته وجبروته، فضلاً عن ذلك واستكانته واستسلامه. ولا يخفى ما في استخدام أسلوب المجاز المرسل المتصل بالكناية في موضعين من السياق: ﴿تَأْسِيَةً كَثِيرَةً خَائِطَةً﴾ و ﴿فَلْيَعْنُ تَأْوِيَهُ﴾ من زيادة المعنى قوة وتأكيذاً، إذ إن إسناد الكذب والخطأ للناصية دون صاحبها يوحي على نحو من التوكيد يتكبره واختياله وعيّه وضلاله، كما يوحي بقوة التهديد والوعيد وشدة العذاب الذي ينتظره، ولا يعصمه من هذا العذاب قوته التي يُفاخر بها ويكابر كما دلّ المجاز المرسل الآخر ﴿فَلْيَعْنُ تَأْوِيَهُ﴾ إذ ذكر المحل وأراد الذي يحلّ فيه، وهي القوة التي يركن إليها من أئمة الكفر والشرك من ملأه، وفي هذا المجاز إحياء بشدة القوة التي يركن إليها ويفاخر بها، ولكن فيه من جانب آخر إحياء بشدة عذابه وسوء مصيره، وقد صورت الكناية الساحرة جذباً منه.

(١) الكشف: ٤ / ٢٢٠.

(٢) ينظر: الكشف: ٤ / ٢٢٠.

(٣) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ٢٠٨.

ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ :

إذا كانت الكناية السليقة مسخرت من أبي جهل غلبة السخرية وتوعنته بأشد العذاب وأفظعه، فلماذا في هذه الكناية التي قيل أنها نزلت في أبي جهل أيضاً^(*)، تطلعتنا على العذاب المادي والمعنوي الذي ينتظره هناك في نار جهنم، العذاب المادي الشديد كما يصوره السيق، والعذاب المعنوي من تذيب وسخرية وتزئيل كما تصوره الكناية التي تشكلت في هذا السيق الشديد الإحياء والتركيز في تصوير عذاب أبي جهل بنوعيه. نقرأ ذلك في قوله - تعالى - : ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاكِهِ الْجَحِيمِ ۖ ثُمَّ مَسَبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِزَاجَ الْحَمِيمِ ۖ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۖ ﴾^(١)

فالشدة والعنف تتجلى من إحياء الالفاظ التي تكون صورة العذاب، من ذلك لفظ ﴿ خُذُوهُ ﴾ فإنه يوحي فوق أخذ الكافر إلى جهنم، فإن فيه تهويلاً من شأنه وذلك بسلب كل ارادة أو كيان معنوي منه، الكافر - كما يوحي اللفظ - مجرد شيء ينقل من مكان إلى مكان، ثم كلمة ﴿ سَوَاكِهِ ﴾ بما تبرزه في النفس من تصور لوسط الجحيم أو قعره أو تظليه، ثم كلمة ﴿ مَسَبُوا ﴾ وما فيها من سخرية وشدة بتصوير الصب فوق رأسه من العذاب كما يصب الماء، ف ﴿ مَسَبُوا ﴾ استعارة مكنية تصور شدة العذاب الأليم الذي هو فيه، حيث شبه العذاب بالحميم الأليم الشديد الحرارة، ثم حذف المستعار منه ودل عليه رادفه الفعل ﴿ مَسَبُوا ﴾ ، فالاستعارة تُوحي بلذع العذاب الشديد الأليم^(٢).

وفي ذلك مفارقة في تصور المقابلة بين صب الماء وصب العذاب، والحرف ﴿ مِنْ ﴾ الذي يوحي بالتجرع البطيء للعذاب^(٣)، ويتركز إحياء شديد بالعذاب والإهانة باللفظ ﴿ فَاَعْتِلُوهُ ﴾ يقال: " عدله جره جراً عنيفاً وجذبه.. وقيل: العتل: أتم تأخذ بتلابيب الرجل فتعدله أي تجره إليك ونذهب به إلى حبس أو بليّة.. ويقال: لا أعتل سلك شبرا أي لا أبرح مكاني، والعنلة: المترة الكبيرة تنقلع من الأرض، والعصا الضخمة من حديد لها رأس مقلطح تكون مع البناء يهدم بها الحيطان، والهراوة الغليظة "^(٤)، فمادة اللفظ تدور حول الشدة والعنف، وتُوحي بصورة من العذاب مخيفة مفرعة يؤخذ بها الكافر.

(*) ينظر: لباب النقول في أسباب النزول ، ص ٦٥٩.

(١) سورة النخان ، الآية: ٤٧- ٤٩.

(٢) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم ، ص ١١٦.

(٣) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، ص ٤١٠.

(٤) لسان العرب: ١١ / ٤٢٣- ٤٢٤ (عتل).

وفوق هذا العذاب المقرع المخيف تأتي الكناية: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ وفيها سخرية بالغة وتهوين من شأنه وتغليب وترذيل، قال الزمخشري: "على سبيل الهزء والتهمك بمن كان يتعزَّر ويتكرم على قومه. وروي أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: ما بين جليلها أعز ولا أكرم مني، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلوا بي شيئاً" (١).
والسخرية البالغة بأبي جهل تنكشف من بذية الكناية القادمة على عكس ما يؤلف استعمال الألفاظ فيها، وذلك بأن يستعمل اللفظ الدال على معنى على ضده ونقيضه، وقد ورد مثال هذا الاستعمال الكناني كثيراً في القرآن كما في قوله - تعالى -: ﴿يَبْشِرُ الْمُنَافِقِينَ أَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢)، وقوله: ﴿وَيَبْشِرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آلِيمٍ﴾ (٣)، وقوله: ﴿فَيَبْشِرُهُم بِعَذَابِ آلِيمٍ﴾ (٤)، ومنه قوله - تعالى - على لسان الذين كفروا من قوم شعيب ﷺ: ﴿... إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٥). ومن شأن هذا الأسلوب القرآني تحقيق دلالاته البلاغية المونرة في المتلقي، إذ إن التضاد الحاصل عن طريق العكس في الكلام يحقق إيصال معنى الآية على نحو أشد وقعاً، وأكثر إيغالاً في النفس المتلقية لما فيه من الإبدال التهمكي والسخرية اللادعة، لأن "البشارة يصح التعبير بها في مواطن الخير والكرامة، لا في مظاهر الشدة والعناء، وليس العذاب من مواطن الخير، حتى يبشر به العاصي، ولكنه تعالى أطلقه عليه تجوزاً من باب إطلاق اسم الضدين على الآخر للكناية والتشفي، أو السخرية والتهمك" (٦).

ودلالة السخرية في الكناية ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ تتصاعد أيضاً بالاستعارة السكنية ﴿ذُقْ﴾، فالذوق هو فعل الحاسة المعروفة، وتستعمل عادة فيما يؤكل من المطاعم والمشارب، ولكن القرآن يستعيره لغرض تقريب المعنى باللباسه ثوباً حسيماً في تذوق نار شديدة التوهج والانتقاد، وربما وظف القرآن هذه الحاسة (الذوق) من دون الحواس

(١) الكشف: ٢٢٣/٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٨.

(٣) سورة التوبة، من الآية: ٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٤. وينظر: سورة التوبة، الآية: ٣٤. وسورة لقمان، الآية: ٧.

وسورة الجاثية، الآية: ٨. وسورة الانشقاق، الآية: ٢٤.

(٥) سورة هود، من الآية: ٨٧.

(٦) مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية، د. محمد علي الصغير، ص ١٤٧.

الأخرى لأن حس الذائق لإدراك ما يذوقه قوي^(١) فهي أشد الحواس وأقواها إدراكاً في تذوق الأشياء عند الإنسان والله أعلم.

ولما كانت نار جهنم ليس لها طعم ليتذوقه الكافر حينئذ تتجلى السخرية منه على نحو جلي، فالاستعارة فيها قائمة على تشبيه العذاب بشيء يُذاق ثم حذفه وأبقى شيئاً من لوازمه وهو الفعل ﴿ذُقْ﴾ على سبيل الاستعارة المكذبة وذلك ليعمق درجة الاحساس بالعذاب وألمه ومن ثم تأثيره في النفس.

ومن وراء هذا التركيب الكنائي الذي أشار إلى السخرية اللاذعة، فضلاً عن شدة العذاب وعنفه الذي يلاقيه عدو الإسلام والمسلمين أبو جهل، فإن التركيب الكنائي أبعد مدى من فرد نزلت فيه الآية، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول المفسرون وأهل الأصول^(٢) فالصورة تدعم دلالاتها فتشمل كل من يعادي الله ورسوله والمسلمين على مدار الزمان.

الضرب على وجوه الكافرين وأدبارهم:

تصوّر هذه الكناية ما ينتظر الكافرين من عذاب عند موتهم، وهو نوع من العذاب تنكف فيه السخرية والإهانة والإذلال، نقرأ ذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ قَرَّبْتَ إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَتَنَبَّهُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٣) الكناية الساخرة هي: ﴿يَتَنَبَّهُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾، قال الزمخشري: "وعن مجاهد: وأدبارهم: أستاههم، ولكن الله كريم يكني، وإنما خصوهما بالضرب لأن الخزي والنكال في ضربيهما أشده" ^(٤).

ومشهد ضرب الكافرين على وجوههم وأدبارهم من قبل الملائكة الذين يتوفونهم كما تصوّره الكناية مشهد يصوّر نوعاً من العذاب المهين، لذلك فالآية ثلاث انتباه المتلقي إلى أن تصوّره ويتأمله ويدل على ذلك استهلال الآية بالأسلوب الخبري اللافت للنظر: ﴿

(١) ينظر: كتاب الصناعتين، ص ٢٧٥.

(٢) ينظر: التبيان في تفسير القرآن، للطوسي: ٩٣ / ٣. وينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣٢ / ١. والاتقان في علوم القرآن: ١١٠ / ١. انظر: منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم، ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٣) سورة الأَنْفَال، الآية: ٥٠. ينظر: سورة محمد، الآية: ٢٧.

(٤) الكشف: ١٧٩ / ٢.

وَلَوْ تَرَىٰٓ ۖ ۞ فهو توجيه خطاب لكل من يرى هذا المشهد البارز وكأنه حالة دائمة كلما توقفت الملائكة الكافرين، وهو مشهد مروع يدل على ذلك حذف جواب (لو) وتقديره: "لرأيت أمراً فظيماً منكراً" (١)، حيث يترك لخيال المتلقي أن يتخيله فتذهب نفسه كل مذهب في تصويره، ثم يتحول الأسلوب في الآية على سبيل (الالتفات) من الغيبة في الإخبار عن الكافرين إلى خطابهم في أسلوب إنشائي في خطابها: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ليرد المشهد حاضراً مؤثراً في النفوس، فضلاً عن تصعيد دلالة السخرية في الكناية بالاستعارة المكنية ﴿وَذُوقُوا﴾ أي "ذوقوا عذاب الحريق أي مقدمة عذاب النار، أو ذوقوا عذاب الآخرة بشاراً لهم به" (٢)، فالاستعارة الحسية تعمق تمثيلهم للعذاب، فضلاً عن إردافها هذا النوع من العذاب بالسخرية والتهكم بهم.

ودلالة الكناية فيما هو ظاهر لا تهدف إلى بيان شدة العذاب الأبدي الذي يلاقيه الكافرون عند الموت فحسب، وإنما تهدف أيضاً إلى التمهيد لعذاب أشد في الآخرة مجتهد في تصوير حسّي حي يشي بالسخرية ذلك أنه اختير مكانان للعذاب عليهما، وهما الوجه الذي يعد الضرب عليه من أقصى وسائل الإهانة والإذلال، والذبر الذي لا يلجأ إلى الضرب عليه إلا في الحالات النادرة وفي أقصى حالات الهوان والاحتقار، فهذا المعنى المتمثل في تحقير الكافرين والسخرية منهم هو الهدف البارز الذي تؤديه الكناية في الآية (٣) وهو السعنى الذي يتعمق باستعارة الذوق، وكان عذاب السخرية والإهانة بالضرب على الوجوه والأدبار هو تمهيد لعذابهم بالنار.

تولية الأدبار:

ويسخر القرآن بهذه الكناية في مواضع كثيرة من الكافرين كلما واجهوا المؤمنين في أرض المعركة. ففي كناية "تولية الأدبار" سخرية بالغة من الكافرين وتحقير لهم، فضلاً عن تصوير خوفهم وذعرهم وهزيمتهم النفسية بحركة تولية الأدبار المانية المشاهدة كلما التقوا

(١) نفسه: ٢ / ١٧٩.

(٢) نفسه: ٢ / ١٧٩.

(٣) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ٣٧٠.

بالمؤمنين. وهذه سنة الله لا تتغير ولا تتبدل كما يُخبرنا القرآن بذلك: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا لَكُمُ الدِّينَ كَفَرًا وَلَوْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يَخْدُوعُوا رَبَّنَا وَلَا لَنَفْسٍ إِلَّا مِثْلُ شُرُوكِهِمْ لَفَاحَشٌ عَلَيْنَا لَأُنْفِذَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَكِنْ حَسْبُكُمُ اللَّهُ بَدِيلًا﴾ (١) الكناية: ﴿لَوْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ﴾ والدُّبُر: "نقيض القُبُل، ودُبُر كل شيء: عقيله ومؤخره" (٢)، فالأدبار كناية عن (الاستاء) (٣) فهي تشير إلى معنيين هما:

١ - الهزيمة والفرار من مواجهة المؤمنين.

٢ - السخرية اللادعة منهم بالكشاف أدبارهم للمؤمنين.

وقضلاً عن ذلك فإن الكناية تقرر هذه الحقيقة الكبيرة، حقيقة نصر المؤمنين المخلصين على أعدائهم الكافرين حيثما التقوا، وإن أبدى الكافرون شدة وضراوة في بعض المعارك، إلا أن مصيرهم التخاذل والهزيمة والانتكاس بالمعنى الذي يلزم الصفات المذكورة، قضلاً عن أنه يفضحهم ويسخر منهم كما صورته الكناية.

وما ذلك إلا لأن الكافرين محجوبون لا يفقهون ولا يعلمون، قلوبهم خلوية لا تستمد القوة من مصدر القوة الحقيقية التي يعتمد عليها المؤمنون ويتطلعون، وقد صورت الكناية نفسها حقيقة الكافرين هذه في موضع آخر في قوله - تعالى - : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَكَتُمْ فِي الْأُذُنِ وَإِنِ امْلَأْنَا آدْبَارَهُمْ ثَقُورًا﴾ (٤)

﴿وَلَوْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يَخْدُوعُوا رَبَّنَا وَلَا لَنَفْسٍ إِلَّا مِثْلُ شُرُوكِهِمْ لَفَاحَشٌ عَلَيْنَا لَأُنْفِذَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَكِنْ حَسْبُكُمُ اللَّهُ بَدِيلًا﴾ كناية عن فرارهم وهزيمتهم، وهم لا يفرون من عدو يطاردهم في أرض المعركة، وإنما هي الهزيمة الروحية والنفسية من استماع آيات القرآن التي تدعوهم إلى التوحيد والهدى والحقيقة التي هم عنها غافلون، لذلك يسخر منهم بهذه الكناية من حُبهم واعتزازهم بالتهنئة المزعومة التي بها يشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا على أدبارهم نفوراً (٥) كاشفين عن أدبارهم التي تفضحهم وتثير السخرية منهم.

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٢- ٢٣. وينظر: السور الآتية: آل عمران، الآية: ١١١، المائدة، الآية: ٢١ والأحزاب، الآية: ١٥، والقمر، الآية: ٤٥، والحشر، الآية: ١٣.

(٢) لسان العرب: ٤ / ٢٦٨ (دبر).

(٣) ينظر: الكشاف: ٢ / ١٧٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤٦. وينظر في هذه الكناية: الأدبار عن آيات القرآن السور الآتية: الدمل، الآية: ٨٠، والروم، الآية: ٥٢، ومحمد، الآية: ٢٥، والمعارج، الآية: ١٧، والمنثر، الآية: ٢٣، والنازعات، الآية: ٢٢.

(٥) ينظر: الكشاف: ٢ / ٥٢٣.

حَرْقُ الْأَرْضِ وَبُلُوغُ الْجِبَالِ طُولًا:

ترد هذه الكناية الساخرة لتصوير تلك المشية الخاصة التي يصطنعها بعض الناس والتي تعد مظهرًا من مظاهر الانفصال النفسي في المجتمع، والكناية تطبع هذه المشية بطابع التكلف والتصنع وتنبئ عن ترفع صاحبها عن عامة الناس زهوًا وخيلاء، نقرأ ذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (١).

فالسخرية والتهكم يمس اعتاد هذه المشية تتجلى من هذا التعبير الكنائي، والمرح: شدة فرح ونشاط (٢) ﴿لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ لَن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها وشدة وطانك ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ بتطاولك، وهو تهكم بالمختال " (٣).

والسخرية والتهكم توضح في هذه الصورة الكنائية الساخرة من خلال ضعف هذا الإنسان الموصوف بهذه المشية التي ترسمها له كأنه يخرق الأرض بدكه إياها، وكأنه يطاول الجبال بشموخ أنفه ورفع هامته إلى السماء، وليس أحد يظن أن هذا المتعالي المترفع أنه سيخرق الأرض بمشيته، ولا أن يبلغ الجبال بطوله، ولكنها الكناية التصويرية التي تفرق هذه المشية بهذه الصورة الشديدة السخرية، سواء في نفس من يريد أن يمشيها، أو في نفس من ينظر إليه (٤). وبهذا التصوير الساخر المؤثر يحقق القرآن هدفه في النهي عن هذه المشية التي تخالف مبادئ الإسلام بقدر لا يحققة النهي المجرد الأضعف الأثر في الحس والوجدان، فالنهي بالكناية يظل عالقاً في الذهن والنفس بما يتلوه من مظاهر مادية في صورته المتهكمة المثيرة للضحك والتحقير من كل من تراوده نفسه أن يصطنع هذه المشية ويتكلفها.

ولا يخفى ما في الكناية من إحياء يدعو إليه القرآن بها يتمثل هذا الإحياء بالتعاطف النفسي بين أفراد المجتمع جميعاً، حيث يجعلهم يقفون على قدم متساوية، وصف متكفي، لا يترفع بعضهم على بعض وذلك من خلال سخرية القرآن سخرية شديدة من كل وضع يخالف مبادئ الإسلام كهذه المشية التي حاربها بالكناية الساخرة.

(١) سورة الإسراء ، الآية: ٣٧.

(٢) أساليب البلاغة ، ص ٢٤ (مرح).

(٣) الكشف: ٢ / ٥٢٢.

(٤) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، ص ١٨١.

الصدف عن آيات الله :

ويومخر القرآن بالتصوير الكنائي من المكذبين بآيات الله المتكبرين عنها سخرية بالغة، وذلك في قوله - تعالى - : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَّقَ عَنْهَا سَتَجِرَى الَّذِينَ يَصْدِقُونَ عَنْ آيَاتِنَا سَوَاءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِقُونَ ﴾ (١)

الكناية الساخرة ﴿ يَصْدِقُونَ ﴾ قائمة في بنيتها على الاستعارة المكنية حيث شبه المتكبر عن آيات الله المعرض عنها ببعير مصاب بداء الصدف، ثم حذف المشبه به (المستعار منه) وأبقى شيئاً من لوازمه وهو الصدف، وفي هذا التصوير الاستعاري يرتسم الذي يصدق عن آيات الله بصورة البعير الذي يعزل في مشيته، جاء في أساس البلاغة: " صدف عن الشيء صدوقاً: أعرض عنه من الكناية: رجل صدوف: أبخر لأنه كلما حدث صدف بوجهه لنلا يوجد بخره " (٢)، وقال الراغب: " صدف عنه: كصدف الجبل أي جانبه " (٣). والإعراض الشديد ملحوظ في الصدف، لأن المكذب بآيات الله المعرض عنها قد عرف صحة الآيات وصدقها ثم صدف عنها، قال الزمخشري: " ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ بعدما عرف صحتها وصدقها، أو تمكن من معرفة ذلك ﴿ وَصَدَّقَ عَنْهَا ﴾ الناس فضلاً وأصل ﴿ سَتَجِرَى الَّذِينَ يَصْدِقُونَ عَنْ آيَاتِنَا سَوَاءَ الْعَذَابِ ﴾ كقولهم: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّقُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زَنَتْهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ (٤)

ومن وراء هذه الصورة القائمة على الاستعارة يتوارى خلف سجعها معنى مكنى عنه يثير السخرية من هذا المكبر عن آيات الله المعرض عنها يتمثل في حيوانية هذا النمط من البشر في تلك الصورة التي أخرجتها الاستعارة وهي ميل البعير في مشيته المثيرة للضحك.

شر الدواب :

(١) سورة الأنعام ، من الآية: ١٥٧.

(٢) مادة (صدف) ، ص ٢٥١.

(٣) المقدرات ، ص ٤٠٨.

(٤) سورة النحل ، من الآية: ٨٨.

(٤) الكشف: ٦ / ٦٤.

يتصل هذا التعبير الكنائي بالكناية السابقة من حيث المعنى المتمثل في حيوانية ذمط من البشر يعمل على إثارة سخرية المتلقي وإزدرائه، نلاحظ ذلك في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١) فهؤلاء الكافرين المصرون على الكفر وقد لجأوا فيه فلا يرجى منهم إيمان، هؤلاء شر من يدب على وجه الأرض.

إذن ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ كناية ساخرة عن حيوانية الكافرين على الرغم من أن لفظ ﴿الدَّوَابِّ﴾ يشمل كل ما دب على وجه الأرض^(٢)، لكنه قد غلب على ما يركب من الدواب^(٣) في عرف العامة، فإطلاقه في هذا السياق يلقي ظل البهيمية على الذين كفروا، فهم قد حرموا أنفسهم من الإيمان لأنهم عطّلوا أجهزتهم التي وهبهم الله إياها، وهي وسائل الإدراك والتعلّل كما وصفهم القرآني موضع آخر: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَقُولُونَ﴾^(٤) قال الزمخشري: "﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي أن شر من يدب على وجه الأرض. أو أن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه جعلهم من جنس البهائم، ثم جعلهم شرها"^(٥). فالتعبير كناية عن بهيميتهم، بل هم شر من البهائم^(٦) لأنهم مسلوبو العقل والوعي كما جسد التصوير الاستعاري ﴿الْمُكْمُ الْبُكْمُ﴾ حالهم وحقيقتهم وهم ليسوا صمّاً وبكماً في الحقيقة، ولكنه التصوير المطابق لواقعهم وحالهم عند انتفاء كل تفكير أو وعي عندهم، فهم لا يسمعون سماع هدى وإيمان ولا ينطقون بالحق، كما يشير هذا التصوير إلى إصرارهم على الكفر وتصميمهم عليه فلا يرجى منهم إيمان ولا يتوقع.

ولا يخفى ما وراء الكناية ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ التي أخرجتهم في صورة الحيوان من اثره للسخرية والضحك منهم وهم يدبّون على الأرض.

لو يجدون ملجأ أو مغارات أو متحلاً لولوا إليه وهم يخمضون:

ويرسم القرآن صورة كاريكاتيرية كنانية تدّ ضمن دلالة ساخرة من المنافقين تصور بحركنهم المادية المضطربة حالتهم النفسية المذعورة الخائفة، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿

(١) سورة الأنفل، الآية: ٥٥. وينظر: الآية: ٢٢ من السورة نفسها.

(٢) ينظر: لسان العرب: ١ / ٣٦٩ (دب).

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٣٧٠ (المادة نفسها).

(٤) سورة الأنفل، الآية: ٢٢.

(٥) الكشف: ٢ / ١٦٣.

(٦) ينظر: السور الآتية: الأعراف، الآية: ١٧٩. والفرقان، الآية: ٤٤.

وَيَحْيِيُونَهُ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِشَيْءٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿١﴾ لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَضًا أَوْ لَوْلَا إِلَهُوهُمْ يَجْمَعُونَ ﴿٢﴾

الآية: ﴿لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَضًا أَوْ لَوْلَا إِلَهُوهُمْ يَجْمَعُونَ﴾ تعبير كناني يشير إلى الخوف الشديد الذي يميز المنافقين من غيرهم، فهمز يَطلعون دائماً إلى مكان يلتجئون إليه وذلك لشعورهم الدائم بالمطاردة لأنهم يخفون جريمة كُبرى أجرموها وهي (النفاق) فيدور في نفوسهم دائماً: عن ملجأ أو مغارة أو نفق، أو أي مكان يحتمون به ويستترون فيه (١). قال الزمخشري: ﴿مَلْجَأًا﴾ مكاناً يلتجئون إليه متحصنين به من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة ﴿أَوْ مَعْرَضًا﴾ أو غيراناً أو ﴿مَعْرَضًا﴾ أو نفقاً يندسون فيه وينجحرون (٢). فالخوف الشديد من طبيعتهم يسيطر عليهم سيطرة تفقد لهم الأتزان، ويصور شدة خوفهم الخاص بهم، ويعمقه الاستعارة المكنية ﴿يَجْمَعُونَ﴾ حيث شبيهم في خوفهم الذي يدفعهم إلى الهروب بالفرس الجموح ثم حذف المشبه به (المستعار منه) وأبقى شيئاً من لوازمه عليه وهو (الجموح) على سبيل الاستعارة المكنية، قال الزمخشري: ﴿يَجْمَعُونَ﴾ يسرعون إسراعاً لا يردُّهم شيء، من الفرس الجموح، وهو الذي إذا حمل لم يردُّه اللجام (٣). ففي الاستعارة تصوير لتلك الاحالة النفسية المزعورة الخائفة التي تحص بالمطاردة تملك عليهم كل حواسهم فيسرعون إسراعاً إلى مخبأ يحتمون به من حصن أو مغارة أو نفق.. فهم يتسابقون لا إلى خير أو طاعة، وإنما يتسابقون من فزعهم الداخلي ورعبهم لالتماس المهرب والاختفاء.

ولا يخفي ما في هذا التصوير في الآية من سخرية بالغة وهي ترصد حركاتهم المادية (الجموح) تجسيدا لما يعتري المنافقين من الخوف الشديد بوصفه طبيعة تابعة من دخيلة نفوسهم فهي ملازمة لهم.

دوران العين:

تختص هذه الكناية الأسخريّة بتصوير الحالة النفسية للمنافقين، كما اختصت بهم الكناية السابقة، إلا أننا نلاحظ في هذه الكناية أثر الخوف والرعب أكثر بروزاً ووضوحاً وهو

(١) سورة التوبة ، الآيات: ٥٦ - ٥٧.

(٢) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، ص ٣٢٠.

(٣) الكشف: ٢ / ٢٢٠.

(٤) نفسه: ٢ / ٢٢٠.

يرتسم بحركة دوران أعينهم، وذلك حينما يتعرّض المنافقون لموقف مخيف تضطرب له نفوسهم وقلوبهم خوفاً ورعباً. نقرأ هذه الكناية في قوله - تعالى: ﴿ قَدِمْكَ اللَّهُ الْمَعْرِفِينَ مِنْكَ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ أَوَلَمْ نَكُنْ بِكُمْ وَلِيًّا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذُكِبَ الْخَوْفُ سَأَلُوكُمْ بِالنِّسَةِ جَدَاوٍ أَوْسَعَهُ كُلُّ لَحِيظٍ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُتْلِئِي اللَّهِ أَعْمَلْتُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۖ ﴾ (١)

﴿ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ هذا التعبير القرآني يجسد حالة نفسية واضحة السعالم، تلك الحالة التي تعتري المنافقين عند الشعور بالخطر، حالة الخوف والرعب وهو يواجهون (القتال) ولكن القرآن يسميه (الخوف): ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ ﴾ وذلك لتصوير القتال في صورة الخوف الذي تكون منه حركة ومجيء، وفي ذلك يتجلى وقع القتال في النفوس المناققة الفرعة الخاوية (٢) وتأثيره الذي يرتسم في أعينهم في صورة بارزة كما تصوّره الكناية ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ المتواشجة مع التشبيه ﴿ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ في إخراج المعنى.

والكناية ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ متواشجة مع المجاز العقلي تصوّر أعينهم كلها تدور، والحقيقة: تدور أحداقهم في أعينهم بإسناد الفعل ﴿ تَدُورُ ﴾ إلى المكان ﴿ أَعْيُنُهُمْ ﴾ ولكن شدة الدوران وسرعة تقلّبها خيل أن العيون كلها تدور، فليس الدوران دوران المحاجر والأحداق، ولكنه دوران العيون حتى الحفون والأهداب، وفي كل ذلك تصوير لقوة أعينهم الدائبة (٣) وبذلك تشير هذه الصورة الكنائية بقوتها التعبيرية المحسوسة إلى مقدار صفة خوفهم ورعبهم، فضلاً عن ضعفهم وتخاذلهم وقنوطهم، وهي السعالي التي تصوّرها المشبه به ﴿ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ فهي سظهر الموت والاستسلام. فالصورة التشبيهية ترسم عيني المنافق حيث يشعر بالخطر على حياته، بأنهما أشبه بعيني شخص يغشاه الموت فتشل منه كل حركة، ويسكن منه كل عضو، إلا عينيه فجئها بدوران، دوران الضعف والاستكانة والرعب والفرع، ومشاعر وانفعالات كثيرة تُوحى بها الصورة التشبيهية، حين تصوّر حالة شخص يعاني سكرات الموت، ولكن البارز في نظرة المنافقين هو تعلقها بشخص الرسول

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٨-١٩. وينظر: سورة محمد، الآية: ٢٠.

(٢) ينظر: من أسرار التعبير القرآني، د. محمد أبو موسى، ص ٧٨.

(٣) ينظر: من أسرار التعبير القرآني، ص ٧٩.

كانهم يشبثون به مستعجلين مستعجلين من شدة ما يراودهم من قرع^(١) فهو الصراع النفسي الرهيب في نفس المنفق بين حرصه على اظهار غير حقيقته، وحرصه على حياته يكشفها القرآن ويجليها من خلال عيني المنافق التي منها يطل كل ما يدور في نفسه من انفعالات ومشاعر.

ولا شك في أن الصورة الكنازية فضلاً عن الصورة التشبيهية اللاتين جسدت ذلك المشاعر النفسية والانفعالات تثير السخرية من المنافقين بوصفها هدفاً من أهداف هذا التعبير التصويري الهادف إلى ردع النفوس عن هذا التصرف بهذه الصيغة المحسوسة التي يمكن أن يتابعها الخيال يتملاً ها، وتتصاعد دلالة السخرية منهم عندما ينقلب خوفهم إلى خلافه حينما يحسبون بالأمن ﴿فَإِذَا ذَهَبَ لَئِقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ وهو تعبير يقف على التضاد في الصورة والمعنى مع ﴿فَإِذَا جَاءَ لَقُوكُمْ﴾ فيكشف التعبيران عن حالتين متباينتين أشد التباين. فبعد ذلك الخوف والقرع والسوت والاستسلام إذا هم حين مجيء الأمن يتسلطون على المؤمنين إيذاءاً بالسنتهم سناً وشنماً بالصورة التي تعبر عنها الاستعارة ﴿سَلْطُوكُمْ﴾، والمثلق: "الضرب. وثلقه بالسوط وثلقه أي نزع جلده.. وثلق الشيء بالماء الحار يثلقه ثلثاً: ضربه. وثلق البيض والبقل وغيره بالنار: أغلاه.. ويقال: ثلقت اللحم عن العظم إذا انتجيت عظمه" (٢) فاستعير الثلق في الآية للإيذاء والعيب والإهانة بالقول، فشبه الإيذاء والعيب بالثلق. يجمع قوة التأثير والإيذاء، وفي ضوء ذلك يكون وصف الألسنة بالحداد من قبيل الترشيح لاستعارة الثلق (٣) فتجلي الاستعارة شدة إيذائهم للمؤمنين بعد ذهاب الخوف، وارتفاع أصواتهم بعد الارتعاش، وانتفاخ أوداجهم بالعظمية، وانتفاشهم بعد انزوانهم، وادعائهم في غير حياء ما شاء لهم الادعاء، من البلاء في القتال والفضل في الأعمال، والشجاعة، والاستبسال (٤) بعد ذلك الخوف والسوت والاستسلام المثير للسخرية منهم حين تصور هذه المفارقة الضاحكة.

الخوالب:

(١) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١١١ + ٣٢٢ + ٣٩١. وينظر: الكشف: ٣ / ٤١٩.
(٢) لسان العرب: ١٠ / ١٦٠ وما بعدها (مثلق).
(٣) ينظر: من أسرار التعبير القرآني، ص ٨٠.
(٤) في ظلال القرآن: ٦ / ٥٥٧.

تستهدف هذه الكناية الساخرة المنافقين أيضاً فتثير الضحك والسخرية منهم، وتجسد حالتهم النفسية المستكينة الخائفة من القتال والتي تجعلهم يخلطون المعاذير ليتخفوا عن مشاركة الرسول ﷺ والمسلمين في الجهاد، فتكشف دخيلتهم في ضوء النهار في صورة بالغة السخرية، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَقْبِلُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَمُوزًا يَأْنِ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

قال الزمخشري: " فإن قلت: ﴿رَمُوزًا﴾ ما موقعه؟ قلت: هو استئناف كأنه قيل: ما بالهم امتدأوا وهم أغنياء؟ قيل: رموزاً بالدناءة والاضعة والانتظام في جملة الخوالف ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يعني أن السبب في استئذانهم رضاهم بالدناءة وخذلان الله تعالى إياهم (٢) "

والكناية الساخرة تتمثل في قوله - تعالى -: ﴿رَمُوزًا يَأْنِ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ وهي قائمة في بنيتها على الاستعارة التصريحية حيث عني بالخوالف وهي - الأعمدة التي تكون في أواخر بيوت الحي - النساء، فشبههن لكثرة لزوم البيوت بالخوالف التي تكون في البيوت (٣) وفي ذلك توبيخ للمنافقين وتقرع، فقد اخذوا بأن يكونوا مع النساء ومع المرضى والعجزة المتخلفين عن الجهاد بعذر، فمن ضعفهم واستكانتهم يحتمون بالنساء الخوالف مؤثرين الراحة والدعة على المشقة والجهاد، والاستعارة ليست غاية بذاتها وإنما هي وسيلة فاعلة في تقريب صورة الكناية وإبراز دلالتها الساخرة في الكشف عن جبنهم وخوفهم من القتال الذي يدفعهم إلى الاحتماء والاستئثار خلف النساء والمرضى والعجزة، وبذلك تتجلى السخرية منهم، لأن تصور المنافقين وهم يحتمون بهؤلاء هو تصور طريف يثير السخرية منهم.

أكل الطعام:

يسخر القرآن من الذين يعتقدون الوهية المسيح عليه السلام بكناية ساخرة مهذبة سامية تتجافى عما تنفر منه النفوس، والتسامي في التعبير هو أحد خصائص الكناية القرآنية حيث تتجنب دائماً ذب الألفاظ، وقبح المعنى فتسمو باللفظ والمعنى وتحقق هدفها في صورة

(١) سورة التوبة، الآية: ٩٣، وينظر: الآية ٨٧ من السورة نفسها.

(٢) الكشف: ٢ / ٢٣٦.

(٣) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١٤٨، وينظر: صفوة التفسير: ١ / ٥٥٦.

مؤثرة، لاحظ ذلك في قوله - تعالى -: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ
الرُّسُلُ وَأَتَتْهُ صَدِيقَةٌ كُنَّا يَأْكُلَنِ الطَّعَامَ أَنْظَرُ كَيْفَ بُيِّنَتْ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرُ
أَنْ يَوْفَكُونَ﴾^(١)

الكناية الساخرة ﴿كُنَّا يَأْكُلَنِ الطَّعَامَ﴾ وهي كناية سامية تترفع عن التصريح
(٢) عن المعنى المقصود، فترسم بظاهاها المسيح وأمه - عليهما السلام - وهما يأكلان
الطعام بوصفه حاجة ضرورية للبشر، فالمسيح وأمه لا علاقة لهما بالالوهية قط، وأتتهما من
البشر، يجري عليهما، ويصدر منهما سائر ما يجري وما يصدر من البشر، وبخاصة في
أشد الأمور التي لا يمكن تصورهما مع الألوهية - كما أوحى الكناية في لازم معناها
المقصود وهو ((قضاء الحاجة))^(٣) كالبول والغائط وسائر السلوك والغرائز البشرية التي
كنى عنها بـ ﴿يَأْكُلَنِ الطَّعَامَ﴾ ترفعاً وتسامياً بسخرية القرآن بأن تنزل إلى مستوى
سخرية البشر، فالقرآن يرمز لذلك بشيء واحد ﴿كُنَّا يَأْكُلَنِ الطَّعَامَ﴾ لأن أكل
الطعام تنبئه أشياء كثيرة، يتسامى القرآن عن ذكرها، ويكتفي بالإشارة إليها^(٤)، فالقرآن
يسمو في لفظه ومعناه عما تجفوه النفوس، ولو جاءت الآية الكريمة مصراحة بالتعبير عن
قضاء الحاجة لتولد في نفس المتلقي انفعال متفرد ومفرد، للانطباعات المرددة في ذهنه
عنها، إذ سيقف على تلك الصورة التي اختزنها في مخيلته عنها^(٥)، في حين إن الكناية في
دلالاتها الإيحائية، فضلاً عما ولدته من انفعال إيجابي حبيب في المتلقي وملائم لتقبل
الصورة^(٦) فإنها ركزت على "المضمون وعلى الهدف، والتركيز على المضمون هنا
واضح رغم بساطة التعبير في ظاهره، لأن القضية هي ادعاء بعض الناس نسبة المسيح
إلى الألوهية، وغاية السخرية ممن يدعون ذلك ويعتقدونه، أن يقال لهم تصوّروا أن الهأ يأكل
الطعام، ثم يأتي الغائط، وسائر ما يأتيه الناس، ومجرد رسم هذه الصورة في مقام ادعاء
الألوهية بالغ الردّ والتهكم يقايلي هذا القول والهدف واضح، وهو ردهم إلى المنطق السليم

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٥.

(٢) ينظر: الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، ص ٢٣٣.

(٣) ينظر: المنتخب من كليات الأدباء وإشارات البلغاء، ص ٦. والعمدة: ١ / ٢٦٨. وينظر: الإحسان
في علوم القرآن: ٣ / ١٤٤.

(٤) ينظر: الكشف: ١ / ٥١٧-٥١٨. ومن بلاغة القرآن، ص ٢١٧.

(٥) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، ص ٢٣٣-٢٣٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٣٣. وينظر: التعبير الفني في القرآن، ص ٢٠٢.

والتفكير القويم " (١) ويتجلى الهدف في التعليق على الصورة: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُنِيَ لَهُمُ
الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّ يُزْكَوَّتَ﴾.

ففي الكناية تحشد تلك المعاني والإيحاءات على بساطتها وإيجازها في تنفيذ اعتقادهم
الفاقد في صورة تثيير السخرية منهم والضحك.

الأخذ بالنواصي:

وفي سياق قصة عاد قوم هود عليه السلام يقدم القرآن كناية تصويرية تسخر من عاد
الجبارين الظالمين، وذلك في قوله - تعالى - على لسان نبيهم مخاطباً لهم: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ
رَبِّي وَرَبِّكُمْ تَأْمِينٌ دَائِبٌ إِلَّا هُوَ أَخِذْ يُنَاصِيهِمَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢)

جاء في تفسير هذه الآية: "ولما ذكر توكُّله على الله وتوقُّفه بحفظه، وكلاءته من
كيدهم، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتغال ربيوبته عليه وعليهم، من كون كل دابة
في قبضته وملكته وتحت قهره وسلطانها، والأخذ بنواصيها، ثمَّ ذلَّ لذلك ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ﴾ يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه، لا يقوته ظالم، ولا يضيع عنده
معتصم به" (٣)

الكناية قوله تعالى: ﴿تَأْمِينٌ دَائِبٌ إِلَّا هُوَ أَخِذْ يُنَاصِيهِمَا﴾ وهي صورة حسية توحي
بمعناها المكنى عنه الممثل في قدرة الله العظيمة التي تقهر كل شيء، فهو في قبضتها
سقهوراً، وسلطانها الشامل في ملكه لا يند عنه شيء، كما توحي الكناية بعدالة الله المطلقة
في ملكه القائم على الحق.

وايحاء العدالة والحق في الكناية، فضلاً عن القدرة القاهرة التي تأخذ بناصية كل
دابة - بما فيهم قوم عاد - تتجلى في صورة واضحة وعلى نحو حسي غليظ وهو ما يناسب
السياق مع قوم عاد في غلظتهم وشدهم، وتناسب غلظ حسهم ومشاعرهم كما أخبر عنهم
القرآن: ﴿فَأَنَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ فَغَوَّيْنَاهُمْ فَأَرْسَلْنَا رِجْلَنَا فَوَقَّعَ اللَّهُ الْوَيْلَ
لَهُمْ هَوَاشِدٌ مِنْهُمْ قُوَّةٌ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٤)

(١) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١٢٧.

(٢) سورة هود، الآية: ٥٦.

(٣) الكشف: ٣١٦ / ٢.

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٥.

كما أن لفظ دابة في الكناية - وإن كان يشكل كل ما يدب على وجه الأرض - إلا أنها في هذا السياق تلقي ظلها، ظل اليهيمة على قوم عاد، فهم كاليهائم بل أضل سبيلاً، فهم قد عطّلوا ما وهبهم الله من وسائل للهداية والإيمان من سمع وأبصار وأفئدة، كما أخبر عنهم القرآن في موضع آخر ﴿... وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْوَوْا فَعَتَمَ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَوْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾^(١) ومن وراء هذه الصورة الكنائية التي تصوّر - من ضمن ما تصوّر - قوم عاد الغلاظ الشداد ثواب من تلك الدواب المأخوذ كل منها بناصيتها فهي مقبورة مغلوبة، نلاحظ إحياء السخرية والتهكم بهم، تسخر منهم ومن قوتهم.. والكناية تسخر كذلك من كل متجذّر عابّ غليظ وهو مأخوذ بهذه الصورة القاهرة الساخرة. وهذه هي سنة الله في الكافرين الظالمين ﴿إِذْ رَفَعَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢)

وبذلك يتجلى من خلال الكنايات الساخرة التي عرضها الفصل أن الكناية الساخرة هي ليست مجرد أسلوب تعبيرى وتصويرى يبعث على الضحك أو مجرد تهجم أو هجاء أو تهوين شأن من الخصم فحسب، وإنما هي - أيضاً - وسيلة حيوية لتحقيق أهداف على جانب كبير من الأهمية، سواء من الناحية النفسية أو من الناحية الاجتماعية.. وهي (الكناية الساخرة) في طبيعتها سلاح يستخدمه القرآن ضد أعداء المسلمين.. وهي - في الأعم الأغلب - تستهدف أئمة الكفر والشرك الذين يسدون العداء للإسلام والمسلمين بكل ما أوتوا من قوة.. لذلك مَرَّهم القرآن بتعابير كنائية ساخرة تنال منهم دياراً مؤلماً، إذ قامت الكناية بوصفها أسلوباً تعبيرياً وتصويرياً حيوياً بذصبيها الفني في أداء المعاني والأفكار التي قصد القرآن إليها، ولو أن تعابير حقيقية أخرى غير الكناية لما استطاعت أن تنهض بما نهضت به الكناية تعبيراً وتصويراً في مواضعها التي اختارها القرآن.

(١) سورة الأحقاف، من الآية: ٢٦.

(٢) سورة هود، من الآية: ٥٦.

الفصل السادس

الكنائيات المعرفية^٣

الفصل السادس

الكنائيات المعرفية

نقصد بالكناية المعرفية ذلك التراكيب الكنازية المتعلقة بالحواس من سمع وبصر وفؤاد، والتي بها يتم تحصيل العلم والمعرفة بوصفها أداة هادية إلى الإيمان بالله ﷻ، فينماز الإنسان بها من المخلوقات الأخرى.

وقد حث القرآن الكريم حثاً كبيراً على استخدام هذه الحواس بوصفها وسائل لتحصيل المعرفة في كثير من آياته الكريمة، وأعطى لهذه الحواس مسؤوليتها الكبرى عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم في مجال: والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب^(١)، فقال:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٢) بل القرآن يخطو خطوة أعمق في حث الناس على استخدام بصائرهم وهي مستقبل في كل لحظة مدرّكات حسية، سمعية، وبصرية، ولمسية، لا حصر لها، وذلك من أجل الوصول إلى الحق الذي تقوم عليه وحدة تواميس الكون والخلقة^(٣).

وتطالعا في القرآن آيات كثيرة تحث على تحريك العقل الذي منحه الله لبني آدم^(٤)، وآيات تدعو الإنسان إلى التفكير العميق بكل ما يحيط به من موجودات^(٥)، وما يُقال عن التفكير يمكن أن يُقال عن (التفقه)^(٦)، والتفقه: "خطوة (عقلية) أبعد مدى من التفكير، إذ هي الحصيلة التي تنتج عملية التفكير، وتجعل الإنسان أكثر وعياً لما يحيط به وأعمق إدراكاً

(١) ينظر: مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، ص ٧١. وينظر: نصوص قرآنية في النفس الانسانية، د. عز الدين اسماعيل، ص ١٥٦ وما بعدها. وينظر: المعرفة الصوفية دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة، تاجي حسين جوة، ص ٦٢.

(٢) سورة الاسراء، الآية: ٣٦.

(٣) ينظر: مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص ٧٦. وينظر: السور الأدبية: الإبداع، الآية: ١٩٤، والقصاص، الآية: ٧٢، والتاريك، الآية: ٢١.

(٤) ينظر: السور الاحية: البقرة، الآية: ١٧١ و ٢٤٢، والتكويث، الآية: ٤٣.

(٥) ينظر: السور الاحية: البقرة، الآية: ٢٦٦، والاععام، الآية: ٥٠، والروم، الآية: ٨٧.

(٦) ينظر: السور الاحية: النساء، الآية: ٧٨، وهود، الآية: ٩١، وظه، الآية: ٢٨.

لأبعاد وجوده وعلاقته في الكون، كما تجعله متفتح البصيرة دوماً، مستعداً للتحاور المسؤول عن كل ما يعرض عليه من أسئلة وعلامات " (١).

والحواس بوصفها منافذ للتعقل والتفكر والتفقه ومن ثم المعرفة هي التي تعطي الانسان قيمته وتفرده، وتبوّنه مركزه المسؤول سيداً على العالمين وخليفة لله في الأرض (٢). وبالمقابل نعى القرآن على الذين لا يستخدمون حواسهم وعقولهم وبصائرهم، الذين ينساقون الانسياق الأعمى وراء أي شيء، لذلك كان القرآن المعجزة العقلية الكبرى، يقول السيوطي: "وأكثر معجزات بني اسرائيل كانت حسبة.. وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية.. لأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر الى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية (القرآن) ليراهم ذوو البصائر " (٣).

ومن ثم كانت للمعرفة مكانة عظيمة في الاسلام الذي يدعو الى التفكير لتحصيلها ومعانيها، ونعى على الذين لا يحاولون التفكير والتأمل ولا يستخدمون حواسهم وطاقتهم لما خلقت له فهي معطلة لا تؤدي وظيفتها المرجوة التي يهدف إليها القرآن بوصفها وسائل هادية الى الإيمان، فإذا ما تعطلت تؤدي بالانسان الى الضلال والكفر، فهم على هذه الحال بمنزلة البهائم والأنعام بل أضل ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ثُمَّ قَلَّبْنَا يَدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ بِهَا وَمِنْهُمْ أَقْوَامٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤) ﴿فَأَن لَّا يَسْمَعُوا بَهَا أَتْلُوكَ كَالْأَنعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِكُونَ﴾ (٥).

وقد صور القرآن بالأسلوب الكنافي الموحى حال الذين عطّلوا حواسهم وعقولهم وبصائرهم من الكافرين والمنافقين والمشرّكين فهم يزرعون في ضلال وعمى وكائهم قد سلّوا هذه الوسائل، ووسائل الإدراك والمعرفة، فيتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام (٦) وبذلك تجلي هذه الكنايات التصويرية عالم الكفر والاضلال اجلى بيان، وبالمقابل تجلي كنايات تصويرية أخرى عالم الإيمان والهدى، فيتقابل أمام الفكر والنفس عالمان

(١) منخل الى موقف القرآن الكريم من العلم، ص ٨٤.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٣) الاذقان في علوم القرآن: ٤ / ٣. وينظر: المعرفة الصوفية دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة - ص ٢٤ وما بعدها.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩. وينظر: سورة الفرقان، الآية: ٤٤. وسورة الزخرف، الآية: ٤٠. وسورة هود، الآية: ٢٠. وسورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٥) ينظر: سورة محمد، الآية: ٢٢. وسورة المرسلات، الآية: ٤٦.

متناقضان في دلالاتهما في صورة بيانية كاشفة تفصل كل عالم من هذين العالمين بصفات حسية تشخص رموزاً لا ينقطع إحلوها.

ومنحاول توزيع هذه الكنايات كل على انفراد ثم نحاول بيان دلالاتها وإيحائها التي تهدف إليها.

الأكثة والوفر والحجاب:

ترد هذه الكنايات الثلاث في سياق إعراض الكافرين وعلى لسانهم خطاباً منهم للرسول ﷺ وذلك في قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَثٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَإِنْ آدَانَا وَقُرْ وَإِنْ بَيْنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمِلْ إِنَّكُمُ غَيْرُ مُدْرِكِينَ ﴾ (١).

نلاحظ في الآية الكريمة ثلاث كنايات وصفية متواشجة في إخراج المعنى المكنى عنه الذي يحكي العالم الداخلي والنفسي وللكافرين، ويكشف عن موقفهم وسفاهتهم إزاء ما يدعوههم إليه الرسول ﷺ، فهم يصمون أنفسهم بقولهم: ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكْثَثٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴾ و﴿ وَإِنْ آدَانَا وَقُرْ ﴾ و﴿ بَيْنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ ﴾، بهذا الترتيب الذي يدل على تصميمهم على الكفر وإصرارهم عليه، إذ جعلوا قلوبهم في أكثة ابتداءً فغطلوها عن الإدراك، وإذا ما تعطلت القلوب فمن البدهي، أن تكون الأذان معطلة عن السمع، فضلاً عن حاسة البصر التي دلت عليها الكناية ﴿ وَمِنْ بَيْنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ ﴾ وبذلك يتجلى إصرارهم على الكفر وتصميمهم عليه.

والأكثة: الأغطية جمع كنان (٢) وهي كناية تصور المعنى المراد بأسلوب مجازي، فليس ثمة أغطية محسوسة على قلوبهم أو عقولهم، وكذلك الكناية ﴿ وَإِنْ آدَانَا وَقُرْ ﴾ فليس ثمة في أذانهم على الحقيقة، والوفر: الثقل في السمع، يُقال: " ياذنه وقر: ثقل، وأذن وقر: وموقورة، وقد وقرت أذني، ووقرت عن استماع كلامه " (٣) فهو التصوير الذي يشع بدلالاته إذ يجعلنا نخيل قلوبهم وهي مغلقة بأغطية محكمة لا يذف إليها شيء مما يقوله الرسول ﷺ ويدعوهم إليه، فيكون التصوير كناية عن ثبو قلوبهم وإعراضهم عن تقبل الحق

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠. وينظر: سورة الأنعام، الآية: ٢٥. وسور الإسراء، الآية: ٤٦. وسورة الكهف، الآية: ٥٧، في كناية الأكثة. وينظر: كناية (الوفر) سورة لقمان، الآية: ٧. وسورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٢) ينظر: لسان العرب: ١٣ / ٣٦١. (كنن)، وينظر: المفردات، ص ٦٦٤.

(٣) أساس البلاغة، ص ٥٠٦ (وفر).

الذي يدعوهم إليه، وإصرارهم على الكفر إصراراً كبيراً لا سبيل للإيمان إليه كما تُوحي الكناية به.

وفوق الأكنة التي غطت قلوبهم تغطية سائرة لها، في أذانهم صمم فهي لا تسمع ﴿وَقَدْ أَذَانُهَا وَقَرٌ﴾ لا تسمع سماعاً يؤدي بهم إلى تفكير وتلقه ينتهي بهم إلى الهدى والإيمان، فضلاً عن ذلك فإن في هذه الكناية إحياء السخرية منهم، وهو إحياء يأتي من استعمالات الم

﴿وَقَرٌ﴾، فالأصل في استعمالها في النواوب - يكسر الواو - ﴿وَقَرٌ﴾، ثم استعملت في ثقل السمع - بفتح الواو ﴿وَقَرٌ﴾ - والوقر: هو الحمل الذي يحمل على الذابة، ويقال: أوقر البغل أو الحمار.. واستوقرت الأبل شحماً: أثقلها السمن.. ووقرت الذابة، ووقرت فهي موقورة ووقرة في حاقرها هزيمة ^(١) فهو إحياء مقصود يجري على ألسنتهم صفة لهم، فضلاً عن أنه يملأ نفس المتلقي سخرية منهم وإزدراء.

تكتمل الصورة التي تبين حالهم بالكناية الثلاثة التي يدمغون بها أنفسهم بالعمى فأعينهم لا ترى، فبينهم وبين الداعي محمد ﷺ حجاب كثيف منع من الرؤية ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ قال الزمخشري: "كان بينهم وما هم عليه، وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه: حجاباً سائراً وحاجزاً منيعاً من جبل أو نحوه، فلا تلاقي ولا ترائي" ^(٢)، وهو حجاب كثيف كما أفاد الحرف (من): "فإن قلت: هل لزيادة (من) في قوله: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فائدة؟ قلت: نعم، لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب، لكان المعنى: أن حجاباً حاصل وسط الجهتين، وأما بزيادة (من) فالمعنى: أن حجاباً ابتدأ منّا وابتدأ منك، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها" ^(٣) فهم يسخرون من أنفسهم، إذ الكناية تجعلنا نتخيل فيها الكافرين وقد أقاموا بينهم وبين الرسول ﷺ الذي يدعوهم إلى سماع الخير ورؤيته حجاباً كثيفاً مانعاً خوفاً من أن يصل كلامه إلى أذانهم وقلوبهم.

وبذلك تتعطل لديهم وسائل المعرفة والعلم بهذه الحجب الثلاثة التي صورتها الكنايات: حجاب الأعطية التي تلف قلوبهم وتغطيها بإحكام، وحجاب الصمم في أسماعهم، وحجاب العمى في أبصارهم. وباجتماعها تتعمق دلالة المعنى المكنى عنه: عنادهم وتصميمهم

(١) أساليب البلاغة، ص ٥٠٦ (وقر). وينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ٤٤٢-٤٤٣.

(٢) الكشف: ١/ ١٤٤.

(٣) ج. ن. ز. ٤/ ١٤٤-١٤٥.

على الكفر وإصرارهم عليه، ويتصاعد هذا المعنى تمكناً من قلوبهم بما انتهت به الآية الكريمة.

﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾ فهو الإصرار على ما هم عليه من كفر وعناد أي: "اعمل أنت على طريقةك، ونحن على طريقتنا، واستمر على دينك فإنا مستمرون على ديننا" (١). فهو الإمعان في العناد يراد منه تثبيت الرسول ﷺ من استجابتهم له ولما يدعوهم إليه. ولا يخفى ما في الآية من إحياء قوي دال على صبر الرسول ﷺ على ما كان يلقاه من معاناة والام وهو يدعو هذه النفوس الكافرة الكارهة للخير والهدى والإيمان. ولا يخفى أيضاً أثر هذه الصور الكنائية المتتابعة في نفس المتلقي من حيث ترسيخ السعائي والصفات بإكسابها ثوب الماديات المحسوسة، وكنائه وقف على القضية مشفوعة بدليلها، وعلى الدعوى في طي برهانها.

غُلف:

تختص هذه الكناية التصويرية بوصف حال اليهود، وقد وردت في موطنين من القرآن - وعلى لسانيهما - منهما قوله - تعالى -: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَمَّسَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ قَلِيلًا مَّا يَؤْمِنُونَ﴾ (٢) ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ كناية تصويرية تجسد فعل اليهود إزاء دعوة الرسول ﷺ بهذا القول الغليظ الذي يتحججون به.

وهذه الكناية قائمة في بنيتها على الاستعارة وفيها تشبيه قلوبهم بشيء مغلف ثم حذف المشبه به وأبقى شيئاً من لوازمه (الغلاف) على سبيل الاستعارة المكذبة، وذلك لتعميق دلالة عدم استجابتهم، لأن قلوبهم لا تعي شيئاً فهي مغشاة بغلاف لا ينفذ إليها شيء فهي لا تعي الحق ولا تقبله. والاستعارة هنا ليست غاية في حد ذاتها وإنما هي وسيلة تعبير تقودنا إلى معنى مكثي عنه آخر يتوارى خلفها، ويتمثل هنا في عنادهم وإصرارهم على ما هم عليه من ضلال وكفر وتصميمهم عليه، فضلاً عن تثبيت الرسول ﷺ من إيمانهم بما يدعوهم إليه.

وقد أورد الرابع لهذا التعبير الكنالي القائم على الاستعارة سعائي أخرى، يتجلى فيها جانب من شخصية اليهود التي تمتاز بالتكبر والتجحجج والاستهزاء والتكذيب. قال

(١) صفوة التفسير: ٣ / ١١٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٨، وينظر: سورة النساء، الآية: ١٥٥.

الراغب: " قيل: هو جمع أغلف كقولهم سيف أغلف - أي هو في غلاف. وقيل معناه: قلوبنا أوعية للعلم. وقيل معناه: قلوبنا مغطاة. وقيل: قلوبنا غلف، هي جمع غلاف.. أي هي أوعية للعلم تنبيهاً أننا لا نحتاج أن نتعلم منك قلنا غنية بما عندنا " (١).

فقلوبهم أوعية للعلم - كما يزعمون - يوحى بتكبرهم وتكذيبهم، فهم لا يرضون أن يدعوهم إلى خير وهدى أحد، فهم شعب الله المختار وأخباؤه كما يزعمون (٢).

وقلوبهم أوعية للعلم فلا يحتاجون أن يتعلموا من الرسول ﷺ غنية بما عندهم يوحى أيضاً - بالنجاح والإدعاء، فضلاً عن الاستهزاء بمن يدعوهم وتبليسه من إسلامهم.

وكلها معان وإحعاءات تسمع من هذا التعبير التصويري تتجمع فتجلي صفات تميز اليهود من غيرهم كفراً وتكبراً وتكذيباً ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يقع الإيمان إلا لقلة قليلة منهم، ليس لتصور في إفهامهم كما زعموا يقولهم - قلوبنا غلف - ولكن لأنهم كفروا فلعنهم الله بكفرهم وحجبهم عن الإيمان وأسبابه.

الختم:

ورد الختم في القرآن في عدة مواضع من ذلك قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشوة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣).

ثمة نلاحظ كتابتين تصويريتين، الأولى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ وهي قائمة في بنيتها على الاستعارة، حيث شُبِّهَتْ قلوب الكافرين التي لا تستجيب للحق، وأسماعهم التي لا تسمع داعي الحق، شُبِّهَتْ بالوعاء المخنوم عليه فلا يصل إليه شيء (٤) فهي قلوب وأسماع معطلة كما حسنتها الاستعارة على حقيقتها فهي لا تنفع بالخير، نقول على حقيقتها - وإن كانت في واقعها غير ذلك - ولما كانت لا تنفع بهذه القلوب انتفاع الخير الذي يؤدي بها إلى الإيمان ولا تنفع بأسماعها سماع الهدى والحق، كانت في حقيقتها كما

(١) المفردات، ص ٥٤٦. وينظر: لسان العرب: ٩ / ٢٧٠ (غلف).

(٢) ينظر: سورة المائدة، الآية: ٦٨. وسورة الجمعة، الآية: ٦ مثلاً.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٦ - ٧. وينظر: سورة الأنعام، الآية: ٦٦. وسورة يس، الآية: ٦٥ وسورة الشورى، الآية: ٢٤. وسورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٤) ينظر: البحر المحيط: ١ / ٥١، وصفوة التفسير: ١ / ٣٣.

صورتها الاستعارية، فكأنهم بها مسلوبو وسائل الإدراك والمعرفة، ويزداد حالهم ظلاماً بالتعبير الاستعاري الآخر ﴿وَعَنْ أَعْيُنِهِمْ غَشْوَةٌ﴾ وفي الاستعارة تشبيه أبصارهم لعدم رؤيتها نور الهداية بشيء مغطى بغشاء يمنع الرؤية، فهي في ظلام لا ترى شيئاً ولا تبصر، وبذلك تتعطل وسائل المعرفة عند الكافرين بالختم على القلوب والأسماع، والتغشية على الأبصار.

وحالتهم هذه التي أخرجتها الاستعارتان تمثل صورة من صور العذاب المعنوي، إذ لا يمتنعون بقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم لما خلقت له، فهم في غمرة من جهل وضلال نتيجة الكفر، وفوق عذابهم هذا العذاب الذي أخبرت به الآية ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الذي يناسب طبيعتهم التي استوى عندها الإنذار وعدم الإنذار.

والآية بما فيها من تصوير استعاري ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَنْ سَمْعِهِمْ﴾ و﴿وَعَنْ أَعْيُنِهِمْ غَشْوَةٌ﴾ يخفي وراءه معنى مكنى عنه، فضلاً عما أوحى به من معانٍ تصويرية، أي يكون التعبير الاستعاري هنا وسيلة تعبيرية وتصورية تقودنا إلى المعنى المكنى عنه، وبذلك يكون التعبير الاستعاري بمجمله كناية عن صفة تتمثل في تصميم هؤلاء على الكفر والإصرار عليه^(١)، يتناسب في قوته مع قوة التصوير الاستعاري الذي صور قلوبهم التي استوى عندها الإنذار وعدم الإنذار.

الطبع:

ورد الطبع في القرآن الكريم في عدة مواطن، من ذلك قوله -تعالى- في وصف المنافقين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَحَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمُ لَدُنَّا بُعْدًا لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٢) ﴿فَطَحَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ كناية قائمة في بنيتها على الاستعارة كالختم، حيث شبه قلوب المنافقين التي آمنت بالوعاء المطبوع عليه فلا يدخل إليه شيء، فقلوبهم مغلقة عن الإيمان، فاقدة أي استعداد له.

وفي استعارة (الطبع) إحياءات تناسب طبيعة المنافقين. قال ابن منظور: "الطبع، بالسكون: الختم، وبالتحرير: النّس، وأصله من الوسخ والنّس يغشيان السيف، ثم استعير

(١) ينظر: التبيان في البيان، للطبي، ص ٢٢٧.
(٢) سورة المنافقين، الآية: ٣. وينظر: السور الأنبياء: النساء، الآية: ١٥٥ والأعراف، الآية: ١٠٠، والتوبة، الآية: ٨٧، ٦٣. ويونس، الآية: ٧٤. والقحل، الآية: ١٠٨. والبروم، الآية: ٥٩. وغافر، الآية: ٣٥. ومحمد، الآية: ١٦.

فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام وغيرهما من المقايح.. والطَّيْع مَلُوكُ السَّقَاءِ حَتَّى لَا مَزِيدَ فِيهِ مِنْ شِدَّةِ مَلَّتِهِ " (١). فالطَّيْع ذو إحياءات أوسع من الختم، لذلك قال الراغب: "الطَّيْع هو أَعَمُّ مِنَ الْخَتَمِ" (٢). فقلوب المنافقين تناسبها استعارة (الطَّيْع) دون الختم (٣). فهي قلوب قد ملئت بالأوزار والآثام وغيرهما من المقايح، وقد أشار إليها القرآن في تعبير استعاري آخر وهو (المرض) في مواضع شتى لبيان حال المنافقين كما في قوله - تعالى -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَلَئِنَّ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ مَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٤). فقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ استعارة تصريحية بدلاً من "في قلوبهم ذفاق" (٥) - وذلك لأن "المرض في الأجسام حقيقة وفي القلوب استعارة، لأنه فساد في القلوب، كما أنه فساد في الحقيقة، وإن اختلفت جهة الفساد في الموضوعين" (٦).

وذهب الزمخشري إلى جواز استعمال المرض في القلوب حقيقة ومجازاً، يقول في قوله - تعالى -: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ واستعمال المرض يجوز أن يكون حقيقة ومجازاً، فالحقيقة أن يراد الألم، كما تقول في جوفه مرض، والمجاز أن يستعار لبعض أعراض القلب كسوء الاعتقاد، والغل، والحسد، والميل إلى المعاصي، والعزم عليها، واستشعار الهوى، والجن، والضعف، وغير ذلك مما هو فساد وآفة مسببة بالمرض كما استعيرت الصحة والسلامة في نقاض ذلك (٧).

وتوجيه (المرض) على التصوير الاستعاري أولى لما في الإحياء بالمعني التي ذكرها الزمخشري، ولعلها المقصود من الاستعارة، فضلاً عن تواسجها مع استعارة (الطَّيْع)، كما أن تشبيه الحالة النفسية المريضة للمنافقين بالمرض الذي يعتري الأجسام فيه

(١) لسان العرب: ٨ / ٢٣٢ - ٢٣٣ (طبع).

(٢) المفردات، ص ٤٤٩.

(٣) لعل لذلك لم يستخدم القرآن (الختم) مع المنافقين.

(٤) سورة البقرة، الآيات: ٨ - ١٠. وينظر السور الآتية: المائدة، الآية ٥٥. والأنفال، الآية: ٥٠. والتوبة، الآية: ١٢٦. والحج، الآية: ٥٣. والنور، الآية: ٥٠. والأحزاب، الآيات: ١٦، ٣٢، ٦٠. والمنشر، الآية: ٣١.

(٥) وقد ثلثي استعارة (المرض) تعبيراً عن الكفر أو الشرك كما في قوله - تعالى - من سورة الأنفال:

﴿لَا يَسْقُوتُ السَّقَاطُ وَاللَّيْمُ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ عَنْ مَّوَلَاكُمُ وَيُفْتَرُ﴾ من الآية ٤٩. وكذلك في سورة

الأحزاب، الآيات: ١٢، ٦٠.

(٦) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١١٣.

(٧) الكشف: ١ / ١٧٥ - ١٧٦.

تصوير حسي يجسد حقيقة قلوبهم المعطلة وظيقتها المطبوع عليها أمام العين والفكر لئتملى المعاني. فالمرض الجسدي يعني التلف والفساد وتعطيل القوي، فضلاً عما ينطوي عليه من بعد نفسي يلم بالمتلى بهذا المرض الجسدي، فإن المرض القلبي الاستعاري كذلك يحقق لنا هذه الدلالة ولكن على نحو أعمق وأشمل وذلك لاقتتران المرض بالقلب دون سائر الأعضاء الجسدية، إذ إن القلب هو العضو الرئيس في البدن، ومرضه وفساده يعني مرض الجسد كله وفساده، ونستأنس في هذه الدلالة الشاملة بما روي عن الرسول ﷺ: ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ألا وهي القلب))^(١). وفساد الجسد بفساد القلب الاستعاري يعني تعطيل حواسه السمعية والبصرية فهي لا تؤدي وظيقتها الحقيقية، فهي معطلة موتة^(٢)، ولعل في هذا تفسيراً لاستعارة الطبع على قلوبهم، فهي قلوب مريضة لا ترجى منها إيمان.

واستعارة (الطبع) التي صورت قلوب المنافقين المريضة التي ملؤها الأثام والأوزار وغيرهما من المقابح فهي مريضة فاسدة يتوارى خلف سحفتها معنى مكنى عنه فتكون الاستعارة كناية عنه ويتمثل في فقدان نفوس المنافقين وقلوبهم الاستعداد للإيمان والهدى، وهذا المعنى راجع أساساً إلى طبيعة النفس المنافقة التي تتردد بين الإيمان والكفر، لا اعتقاداً فيهما، ولا اعتقاداً لهما، وإنما تحقياً بهما عن أعين الناس وعقولهم، وكل منا يظهره المنفقون ويتمثلون فيه من الإيمان والكفر إنما هو دأبهم يكذبونه ليلبغوا بيه أهدافهم كما يقول ﷺ عنهم: ﴿مُذَبِّينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا مَبْلَغُ سَبِيلِهِ﴾^(٣). ويقول الزمخشري في تفسيره: "ومعنى مذبتين تذبذبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر فهم مترددون بينهما متحيرون، وحقيقة التذبذب الذي يذب عن كلا الجانبين: أي يذاد وينفع فلا يقر في جانب واحد، إلا أن التذبذب فيها تكرير ليس في الذب، كان المعنى: كلما مال إلى جانب ذب عنه (ذلك) إشارة إلى الكفر والإيمان ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ لا مذسوبين إلى هؤلاء فيكونون مؤمنين ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ ولا مذسوبين إلى هؤلاء فيسمون مشركين"^(٤)، وفي هذا تصريح بمعنى فقدان المنافقين لمبدأ الاعتقاد سواء أكان اعتقاداً

(١) صحيح البخاري: ٢١ / ١.

(٢) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم، ص ٨٧-٨٨.

(٣) سورة النساء، من الآية: ١٤٣.

(٤) الكشف: ٥٧٤ / ١.

صحيحاً وهو الإيمان، أم خاطئاً وهو الشرك، فالنفاق شذوذٌ على الطبع السوي، ولذلك اختار القرآن لفظ ﴿مُذَبِّذِينَ﴾ المشتق من الذب بمعنى الذود والدفع، وحيث كان المنافقون في صيغة اسم المفعول ﴿مُذَبِّذِينَ﴾ فهم الذين وقع عليهم الذود من جانب المؤمنين والمشركون كليهما (١). فقلوبهم مطبوع عليها لأنها خارجة على الطبع السوي، فلن يصل إليها إيمان ﴿فَهُمْ لَا يَتَّقُهُمْ﴾ (٢) بهذا الإطلاق كما أفاد حذف المفعول به، أي لا يفقهون أي شيء قط نتيجة الطبع على قلوبهم.

الاقفال:

وردت (الأقفال) في موطن واحد من القرآن الكريم، وهو قوله - تعالى -: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَ قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ (٣)
﴿أَمْ عَلَ قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ كناية قاسمة في بنيتها على الاستعارة المكيدة، حيث شُبِّهَتْ قلوب الكافرين بالأبواب المقفلة فلا يدخل إليها شيء من معاني القرآن، وأكد معنى الاستعارة الاستفهام بالهمزة الذي أفاد تقرير النفي والانكار وفيه بيان حال قلوبهم وتصويرها بالصورة التي أخرجتها الاستعارة وتسجيلها عليهم، قال الزمخشري: "﴿أَمْ عَلَ قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾" وأم بمعنى بل وهمزة التقرير، للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر (٤) "وقال في تكبير القلوب وإضافة الأقفال إليها في الصورة: "أما التذكير: أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك أو إضافة الأقفال، فلأنه يريد الأقفال المختصة بها، وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تفتح" (٥)، والاستعارة تجعل المتلقي يتخيل هذه الصورة الغريبة المختصة بتصوير قلوب الكافرين التي ضللت عليها الأقفال فهي مغلقة. فالكفر في الآية يتجسد في صورة الأقفال التي تغلق القلوب الكافرة فلا يدخل إليها شيء فهي معطلة عن تدبر آيات القرآن، لذلك تبدأ الآية بالاستفهام الإتكاري التوبيخي ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ﴾ فهو انكار لوفوع التدبر من هذه القلوب، لذلك ينقل الحديث بأم التي تفيد

(١) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ٢٥٩.

(٢) سورة التوبة، من الآية ٨٧، وسورة المنافقون، من الآية ٣.

(٣) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٤) الكشف: ٢٥٨ / ٤.

(٥) المصدر نفسه: ٢٥٨ / ٤.

الاضراب يقرر حقيقتهم وحالهم، والاضراب هو: الانتقال من أمر إلى أمر هو أشد منه (١). أي: الانتقال من حالة إلى حالة أشد منها وأدعى للتوبيخ والتفريع، وهي الحالة التي رسمتها الصورة الاستعارية المتخيلة التي تشي بقسوة تلك القلوب التي لا تضيء المعرفة جوانبها ولا ينور الإيمان طريق وظائفها قال الرازي: "إن القلب خلق للمعرفة فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف، وهذا كما يقول القائل في الإنسان المؤذي: هذا ليس بإنسان هذا وحش، وهذا ليس بقلب هذا حجر" (٢).

ومن وراء سجع الاستعارة نلمح معنى مكني عنه ويتمثل في إصرار هؤلاء على الكفر وتصميمهم عليه وإعراضهم عن تدبر آيات القرآن المعجز السنين.

الأغلال:

ويقدم القرآن صورة حسيّة غليظة تخرج المشركين في صورة غريبة: أيديهم قد شئت إلى أعناقهم وموضوعة تحت أنقاعهم، فبقيت رؤوسهم مرفوعة إلى أعلى لا يخفضونها وضرب من أمامهم سداً ومن وراءهم سداً، فجعلت أعينهم مغطاة فهم لا يبصرون. نقرأ ذلك في قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْلًا فَبُهِتَ إِلَى الْآدَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ۚ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ۖ وَخَلْفَهُمْ سَدًّا ۖ فَأَعْيُنُهُمْ فُتِمَ لَا يَبْصُرُونَ ۚ ﴾ (٣)

ومعنى الآية كما قال ابن كثير: "إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء كسناً جعل في عنقه غل وجمعت يده مع عنقه تحت ذنقه (٤) فارتفع رأسه مقيماً (٥) وقال أهل اللغة: الإقماح: رفع الرأس وغطى البصر، يُقال: أقماح البعير إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب (٦)". يقال: قماح البعير فهو قماح، إذا روى فرقع رأسه، ومنه شهراً قماح، لأن الأيل ترفع رؤوسها عن الماء ليرده فيهما، وهما الكائونان (٧) وتكتمل صورة الكافرين بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ۖ وَخَلْفَهُمْ سَدًّا ۖ فَأَعْيُنُهُمْ فُتِمَ لَا يَبْصُرُونَ ۚ ﴾ قال أبو السعود: "وهذا تذكير للتمثيل وتكميل له، أي: وجعلنا من أمامهم سداً عظيماً، ومن

(١) ينظر: البلاغة فونها وأغناها علم المعاني - د. فضل حسن عباس، ص ١٢٧.

(٢) التفسير الكبير: ٢٨ / ٦٦.

(٣) سورة يس، الأيتان: ٩٠.

(٤) الذقن: مفرد الأنقان وهو مجمع اللحين، ينظر: لسان العرب: ١٣ / ١٧٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٥٤٢.

(٦) ينظر: لسان العرب: ٣ / ٥٦٦ - ٥٦٧ (قماح).

(٧) الكشف: ٤ / ٤.

ورائهم سدّاً كذلك ﴿فَأَعَشَيْنَهُمْ فَنَهُمْ لَا يَعْبُرُونَ﴾ أي فغطينا بهما أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يبصرون شيئاً أصلاً، لأنهم أصبحوا بين ستين هائلتين، وهذا بيان لكمال قضاة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغي والجهالات، محرومين عن النظر في الأدلة والآيات " (١)

وهذا التصوير الذي رسمته الآيتان صورة بالغة السخرية والتهكم بالمشركين، ويتجلى ذلك من خلال تصويرهم مغلولين في أعناقهم بأطواق من حديد، تجعلهم لا يستطيعون أن يلتفتوا يمنة ولا يسرة، ولا يستطيعون أن يؤمنوا إلى أسفل، وإنما تظل أعناقهم ووجوههم مرفوعة إلى أعلى، لا يتحرك منها إلا عيونهم التي لا تبصر شيئاً (٢). فضلاً عن تشبيههم بالآيل حين تُروى من الماء فترفع أعناقها ورؤوسها إلى أعلى فهم في تصويرهم هذا ممنوعون عن النظر والرؤية للاهتمام بالدلائل والآيات بسبب تلك الأغلال والحواجز والسدود التي غشيت أبصارهم وهذه العوائق الحسية تشير إلى الأغلال النفسية والفكرية والعقلية التي كبلوا بها أنفسهم فهم لا يهتدون.

والصوير بمجمله يتحول إلى كناية موحية بالمعنى المكنى عنه الذي يتوارى خلف سجنه، وقد أشار الزمخشري إليه بقوله: "تصميم على الكفر، وأنه لا سبيل إلى إرجعائهم في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم لـ... فـ... أن لا تأمل لهم ولا تبصر، وأنهم متعاسون عن النظر في آيات الله" (٣). فهو الإعراض والإمعان في الكفر عن إرادة وتصميم يوديان إلى إغلاق منافذ المعرفة ومن ثم قما لهداهم وإيمانهم من سبيل، وأي صورة يمكن لها أن تجلّي هذه الصفات وتجسّد هذه المعاني غير صورة الكناية القرآنية المعجزة بلفظها الوجيه ونظمها المحكم ورسمها الراسخ في أعماق النفس المثلّقة.

(١) تفسير أبي السعود: ١٦٠ / ٧.

(٢) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ٣٦٠.

(٣) الكشاف: ٤ / ٣٠٤.

وفي كناية الأغلال تسلية للنبي محمد ﷺ وتسرية عن نفسه فهو لم يقصر في إنذارهم، فهم المائعون أنفسهم من الإيمان، فقد جعلهم الله خطباً للأنار (١) بسبب إعراضهم وإصرارهم على الكفر.

الغطاء:

يرد الغطاء في موطنين من القرآن وفي سياق مشهدين من مشاهد يوم القيامة، والذي يهمننا قوله - تعالى -: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ۖ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۖ﴾ (٢)

نلاحظ التعبير الكنفي التصويري ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ يخرج الكافرين عمياً عن النظر في آيات الله الدالة على قدرته ووحدانيته، سواء المقصود بها النظر في آيات القرآن وتأمل معانيها وتبصرها - أو الآيات التي يقبته عليها القرآن والمبتوثة في السموات والأرض والكون التي إذا ما نظرت فيها دلت على قدرته ووحدانيته فيذكر بالتعظيم (٣) فأعينهم محجوبة عن النظر في آيات الله بهذا الغطاء المانع فهي معطلة، وفوق هذا العمى لا يستطيعون السمع ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ يعني: " وكانوا صماً عنه، إلا أنه أبلغ، لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صبح به، وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع " (٤) فهم عمي صم كما وصفهم في موضع بقوله - تعالى -: ﴿سَمِعْتُمْ نَجْمًا هُمْ﴾ (٥) وغيرها من الآيات الكريمة التي تلفت الانتباه إلى عطب حواس الكافرين وموتها من سمع ويصر وأفئدة (٦) وكلها تعابير استعارية تجسد حالهم، حيث يسلبون البصر والسمع، وهم في حقيقتهم يبدرون ويسمعون، لكنهم لا يبدرون بصر هداية بآيات الله، ولا يسمعون صوت الحق سماع رشدين، فكانهم معطلو حاسة

(١) ينظر: التصوير البياني، حقي محمد شرف، ص ٢٤٨.

(٢) سورة الكيف، الأيتان: ١٠٠ - ١٠١. وينظر: سورة ق، الآية: ٢٢.

(٣) ينظر: الكشاف: ٧ / ٥٨٥.

(٤) المصنوع نفسه: ٢ / ٥٨٥.

(٥) سورة البقرة، من الآية: ١٨.

(٦) ينظر: السور الأتية: البقرة، الآية: ١٧١. الأنعام، الأيتان: ٢٥ - ٣٩. الأنفال، الآية: ٢٢.

يونس، الأيتان: ٤٢ - ٤٣. هود، الآية: ٢٠. الرعد، الآية: ١٩. الإسراء، الآية: ٤٦.

الكيف، الآية: ٥٧. الأنبياء، الآية: ٤٥. فصلت، الأيتان: ٥ - ٤٤. المزخرف، الآية: ٤١.

السمع والبصر لأنهم حرموا أنفسهم من وظيفتهما الحقيقية التي خلقنا من أجلها بل إن القرآن يصور هؤلاء الكافرين في حالة موت كما في قوله - تعالى -: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتُ وَلَا تُسْمِعُ الْقُبْرَ الْعُلَمَاءَ إِنَّا وَلَوْ كُنَّا مُدْرِينَ ﴾ (١)، فالكافرون موتى بهذه الاستعارة التصريحية حيث استبدل لفظ الكافرين "بالموتى" لجامع عدم التبصر والوعي في الاثنين، فهم مسلوبو الحياة الحقيقية التي يعيها الإيمان بالله الذي يحيي القلوب والأبدان، لأن المقصود من الحياة " الإدراك والعقل فإذا غُدا فقد غُدمت الآثار المطلوبة من الحياة فتصير تلك الحياة مساوية للموت في عدم الفائدة المطلوبة والموت أولى بذلك فتنزل الحياة منزلته " (٢).

فالغطاء على أعين الكافرين ﴿ أَعْيَتْهُمْ فِي غِطَاوَعَنْ ذِكْرِي ﴾ وعدم استطاعتهم السمع ﴿ لَا يَسْمَعُونَ سَمْعًا ﴾ فضلاً عما أشار إليه بهذا التصوير الحسي المؤثر من معنى العمى عن آيات الله المشاهدة بالابصار إلى عمى بصائرهم، وعدم سماعهم صوت الحق سماع هداية وإيمان، فإنهما يوديان إلى معنى مكنى عنه يتوارى خلف ذلك الألفاظ يتمثل في إعراض قلوبهم عن ذكر الله في حياتهم الدنيا عن إرادة وتصميم، وهو معنى يتسق مع مشهد عرض جهنم لهؤلاء الكافرين ﴿ وَمَرَضَانَهُمْ يُؤْمِلُونَ الْكَافِرِينَ عَرَضًا ﴾ ، فالكافرون الذي اعرضوا عن ذكر الله حتى لكان على عيونهم غطاء، ولكان في آسماعهم صمماً، تُعرض عليهم جهنم فلا يعرضون عنها، كما كانوا يعرضون عن ذكر الله، فالיום لا يستطيعون إعراضاً، لقد نُزِع الغطاء عن عيونهم نزعاً فراعوا عاقبة الإعراض والعصى جزاءً وفاءً، فالتعبير القرآني يتسق بين الإعراض والعرض متقابلين في المشهد، متقابلين في الحركة على طريقة التناسق الفني في القرآن (٣).

وفي ضوء ما تقدم من الكنايات التي صوّرت موانع الإدراك عند الكافرين والمشركين والمنافقين التي حالت بينهم وبين المعرفة التي يدعوهم إليها القرآن الكريم يتجلى عالم الكفر والضلال وما فيه من جهل وتقليد أعمى، عالم تلغى فيه إنسانية الإنسان إذ تعطل وسائل الإدراك والمعرفة عنده فلا يفرق حينئذ عن البهيمة لأنه أصبح كمن لا عقل له فهو والبهائم سواء.

(١) سورة الروم ، الآية: ٥٢. وينظر: سورة الأنعام ، الآية: ٣٦. وسورة القمل ، الآية: ٨٠.

(٢) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١٢٩ - ١٣٠. والقوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، ص ٤٥ - ٤٦.

(٣) في ضلال القرآن: ٥ / ٤١٤.

وإزاء عالم الكفر والضلال الذي يبرز فيه الكافرون يجلي لنا القرآن بالتقابل عالم الإيمان والهدى وأصحابه المؤمنين أو لي الأبواب النزين تفتحت وسفل الإدراك والمعرفة لديهم واحتيت بالنور والهدى الإلهي فتيفطت حواسهم حق التيفظ وهي تستقبل دعوة الإيمان بأياته الكريمة بوعي وإدراك.

ويعصور القرآن بالأسلوب الكناني الموحى حال المؤمنين ومشاعرهم في بعض آياته التي تتخذ منها شواهد تجلي عالماً مضاداً لعالم الكافرين في السلوك والمشاعر والإحساس. لم يخروا عليها صنماً وغميماً:

تجلي هذه الكناية التعريضية سمة من سمات عبد الرحمن في قوله - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (١)
﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ كناية، وجاء في تفسيرها: " ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا ﴾ ليس بنفي للخرور، وإنما هو إثبات له، ونفي للصم والعمى، كما نقول: لا يلاقني زيد مسلماً هي نفس للسلام لا للقاء. والمعنى أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على المذكر بها، وهم في أكبابهم عليها، سامعون بأذان واعية، مبصرون بعيون واعية، لا كالذين يذكرون بها قترهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها، مظهرين الحرص الشديد على استماعهم، وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتصرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم " (٢). فالكناية تعريضية تنفي الصم والعمى عن عباد الرحمن (المؤمنين) وتثبته للكافرين والمنافقين وأشباههم.. وهي كناية قادمة في بنيتها على استعارتين تصريحيتين: ﴿ صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ حيث أنه شبه الكافر أو المنافق (المستعار له) بالصم (المستعار منه) ثم حذف المستعار له (المشبه) وأبقى المشبه به (المستعار منه) على سبيل الاستعارة التصريحية، وبذلك يبدو الكافر أو المنافق في هيئة شخص أصم لا يسمع شيئاً فهو معطل حاسة السمع، وهذه هي حقيقة الكافر كما تجسدها الاستعارة، وإن كان يسمع الأصوات في حقيقة ولكنه لا يترك معانيها ولا يعي، كما يصفهم الله في موضع آخر: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْيَرَّى يَتَّبِعُ مَا لَا يَشْعُرُ إِلَّا دَمْعًا وَذَلِكَ صُمٌّ بِكُمْ عُمْى فهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (٣). وهم لا يسمعون فحسب، وإنما

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٣.

(٢) الكشف: ٢٣٣ / ٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧١، وينظر: سورة يونس، الآية: ٤٢، وسورة هود، الآية: ٢٠.

هم عسيان كما تشير الاستعارة الثانية، حيث استعمل للكافر (الاعمى) فهو معطل حاسة البصر وإن كان في الظاهر يرى الأشياء، ولكنه لا يعتبر بما يرى من الآيات المبتوثة في الكون أو لا يعتبر بآيات القرآن التي تؤدي إلى الاستبصار والإيمان والهدى، هم كما يصفهم الله في موضع آخر على سبيل التعريض بهم: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ أَنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَقَدْ كُنَّ هَوَاسًا مُّغْتَابًا لِّأُولَئِكَ الْأَكْبَابُ﴾ (١)

هم كما أوحى الكناية معطلو وسائل الأحساس والمعرفة، وذلك بسبب إصرارهم على الكفر وتصميمهم عليه وهو المعنى المكنى عنه الذي يقودنا إليه التعبير الكنايني القام على بنية التشبيه.

ومن خلال اثبات هاتين الصفتين (الصم والعسى) للكافرين، فإنها تدني عن المؤمنين صراحة ﴿لَرَبِّهِمْ وَعَلَيْهَا صَبْرًا وَعَمَلًا﴾ فهم يسمعون سماع هدى وإيمان، وهم يرون آيات الله المبتوثة في كل مكان بأبصارهم فيعقلون معانيها ويدركون مراميها فتزدهم إيماناً مع إيمانهم.. ومن ثم فإن الكناية تنطوي على معنى مكنى عنه يخصهم ويتمثل في استجابتهم لآيات ربه حرصاً على استماعها بأذان صاغية وقلوب خاشعة. فهم قد أفادوا سمّاً وهبهم الله من حواس حية تؤدي وظيفتها التي خلقت من أجلها، تلك الوظيفة التي خلق الله الإنسان من أجلها ليحقق بها انسانيته فيسمو بها على المخلوقات الأخرى حيث معارج النور والهدى، لأن قلوبهم احتيت بالعلم والحق النازل من السماء، كما تصوره الكناية على سبيل التمثيل في قوله - تعالى -: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ جَلْوَةٍ أَوْ مَتَعٍ يُنْذِرُكَ ذَٰلِكَ بِمَثَرِ اللَّهِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فَاَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَمْثُرُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (٢)

ففي الآية الكريمة ثلاث كنايات تتمثل في قوله - تعالى -: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ قال ابن الأثير: " هذه الآية من باب الكنايات التي لفظها يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، فإنه يجوز حمل الماء على المطر النازل من السماء وعلى العلم، وكذلك حمل الأودية على مهابط الأرض وعلى القلوب، وحمل

(١) سورة الرعد، الآية: ١٥. وينظر: سورة يونس، الآية: ٤٣. وسورة الإسراء، الآية: ٧٢. وسورة القمل، الآية: ٨١. وسورة الروم، الآية: ٥٣. وسورة الزخرف، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٧.

الزبد على الغشاء الرابي الذي تَذَفُّهُ السيول، وعلى الضلال " (١) " ففي الآية كناية بالماء عن العلم، وبالأودية عن القلوب، وبالزبد عن الضلال، والذي جَوَّزَ هذه الكنايات وجود الوصف الجامع بين الماء وهو المعنى الظاهر القريب والمعنى المكنى عنه البعيد (العلم) فكلاهما يقوم بوظيفة الإحياء، فالماء يحيي الأرض بعد موتها، والعلم يحيي القلوب والعقول بعد موتها بالجهل، وكذلك بين الأودية وبين القلوب فكلاهما يجتمع عنده ويستقر ما يمتبب الحياة وكذلك بين الزبد الرابي وبين الضلال فكلاهما من الأضرار المضارة التي تضسحل بسرعة وتزول فلا حقيقة لها ولا ثبات.

بهذا العلم الذي أنزله الله احتبى قلوب المؤمنين فخلص الإيمان في نفوسهم، واستقر التوحيد في قلوبهم فأخرج نباته زاهياً بقدر وحكمة (٢) فامتازت حياتهم من حياة الكافرين التي غدت موتاً بما أصابهم من صمم عن سماع الحق، وعمى عن رؤية طريق الهدى.

البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً:

يقدم القرآني هذا التعبير الكناي الموحى على سبيل التمثيل حال المؤمن من جهة وحال الكافرين من جهة أخرى وذلك في قوله - تعالى - ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نَعْرِفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ (٣)

فالآية يمكن حملها على جانبي الحقيقة والمجاز، والمعنى الحقيقي القريب الذي يتبادر إلى الذهن أن الأرض الطيبة الكريمة التربة يخرج نباتها سريعاً حسناً وافياً، وأن الأرض السبخة الخبيثة لا يخرج نباتها إلا قليلاً لا خير فيه (٤). أما المعنى الكناي البعيد فيفهم من خلال فهم الآية على أنها مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، كما قال ابن عباس (٥) وعن قتادة: المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبتت، والكافر بخلاف ذلك (٦) والذي يرجح هذا التمثيل ويقويه السياق قبل الكناية لما ذكر من

(١) المثل السائر: ٦٣ / ٣.

(٢) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٢٨٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٨.

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢ / ٢١٣. والكشاف: ٢ / ٨٨. ومواهب الرحمن في تفسير القرآن:

٣٧٦ / ٣.

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢ / ٢١٣.

(٦) الكشاف: ٢ / ٨٨.

الماء النازل من السماء على البلد الميت وإخراج الذمات به ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ تُوَفِّرُ
بِهِتَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَفْلَتْ سَحَابًا نَّبَأَ لَا سُفْنَةٌ يَكْفُرُ مَيْتٌ فَأَوْفَتْنَاهُ الْمَاءَ فَأَخْرِجْنَا مِنْهُ كُلِّ الشَّجَرِ
كَذَٰلِكَ نُفِخُ الْنُفُوفَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١)

فالتعبير الكنايةي ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكَبًا﴾
يصور حقيقتين مختلفتين: حقيقة المؤمن الذي يؤمل منه الخير، ويؤثر عنه الهدى، ويُرجى
فيه الصلاح، وأن الكافر لا يؤمل خيره، ولا يُحتمل نفعه، ولا يؤتمن شره (٢) وخبثه،
فالمؤمن طيب كما دلّت الكناية وكما يصفه القرآن في مواضع شتى (٣)، لأنه استجاب لأيات
ربه التي أنزلها حياة للقلوب والنفوس، فهو مفتّح القلب والبصيرة، أفاد من آيات الله علماً
ومعرفة فتتجسد ثمراته بالأعمال الصالحة النافعة في بناء الحياة والمجتمع. فالكناية قادمة
في بنيتها على التشبيه الضمني الذي يعقد موازنة لطيفة بين الآيات النازلة من الله وبين
الأمطار الغزيرة التي تنزل من رحمة الله بعباده من جهة وبين الإنسان المؤمن الطيب القلب
وبين البلد الطيب القربة من جهة أخرى، فكلاهما يفيد مما أنزله الله، فالمؤمن يأخذ الآيات
ببصر وبصيرة فيستفيد منها سعادة الدارين (٤) والبلد الطيب يفيد من الماء النازل فيعطي
نباته المبارك بإذن ربه وأما الكافر فهو الخبيث كما تخرجه الكناية وكما يصفه القرآن في
مواطن أخرى (٥)، لأنه لم يستجب للآيات النازلة من الله ﷻ فهو معطل القلب والبصيرة، فلم
يسمع سماع هدى، ولم يبصر بصر إيمان، فهو ميت القلب والحواس، فهو يشبه كما دلّت
الكناية بالتشبيه الضمني الأرض السيخة الجدياء التي لم تتأثر بالماء النازل من السماء فهي
خبيثة نكدة لا يُرجى خيرها، ولا يُحتمل نفعها، كذلك الكافر لا يُرجى منه الخير، ولا يؤتمن
شره وخبثه، بل تتجسد أعماله الشريرة في الواقع والحياة خبيثاً ونكداً، لأنه لم يؤمن ولمن
يهتد بالهدى الذي يحركه ويوجهه إلى الأعمال الصالحة النافعة، فهو قد تدكّب عن طريق
الخير والصلاح إلى طريق الشر والفساد.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

(٢) الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٢٦٤.

(٣) ينظر: سورة آل عمران، الآية: ١٨٧٩، وسورة المائدة، الآية: ١٠٠، وسورة الأنفال، الآية:

٣٧، وسورة النور، الآية: ٢٦.

(٤) ينظر: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٣ / ٣٧٦.

(٥) ينظر: سورة آل عمران، الآية: ١٧٩، وسورة المائدة، الآية: ١٠٠، وسورة الأنفال، الآية: ٣٧،

وسورة النور، الآية: ٢٦.

وفي ضوء ذلك نلمح أثر الكناية في أداء المعاني بالصورة الحسية المؤثرة القريبة إلى الحس والوجدان والغنية بإحوائها.

الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظلّ والحرور، والأحياء والأموات:

ترد هذه الكنايات المتضادة في معانيها في قوله - تعالى - ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۚ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۚ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۚ ﴾ (١)

فهذه الآيات الكريمة يمكن حملها على جانبي الحقيقة والمجاز، والسعنى الحقيقي القريب الذي يتبادر إلى الذهن يتمثل في أن هذه الأشياء والمتبادنة المختلفة لا تستوي، كالأعمى والبصير لا يستويان فيبينهما فرق وبون كثير، وكذلك لا تستوي الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، ولا تستوي الأحياء ولا الأموات (٢) فهي عوالم متضادة مختلفة.

أما المعنى الكناي البعيد فيفهم من خلال فهم الآيات على أنها مثل للكافر والمؤمن كما قال بذلك المفسرون (٣) وبذلك تمتحنا الكنايات ﴿ الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ ﴾ و ﴿ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۚ ﴾ و ﴿ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۚ ﴾ و ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ ﴾ دلالاتها من خلال التصوير الحسي العميق بإحوائها.. فالمعنى الظاهر المباشر للأعمى هو تعطيل الحاسة البصرية لدى (الكافر)، فدلالة (الأعمى) هي انطفاء نور البصر في العين، وهي كذلك تشخص دلالة أيضاً على عطل الحواس الأخرى التي يتم عن طريقها الإدراك لدى الإنسان، والقرآن عن طريق العمى في الحاسة البصرية يعمق دلالة المعنى المكنى عنه المتمثل في انطفاء نور البصيرة في العالم الداخلي للكافر فتتجسد حقيقة بهذا التصوير ليثير مشاعر المتلقي وأحاسيسه حتى ينفذ إلى تأمل حقيقة الكافر الداخلية وإن بدا في الظاهر يبصر بعينه الأشياء ويرى. وعلى الضد من هذه الصورة المظلمة للكافر تقف صورة (البصير) التي تشير في معناها الظاهر إلى نور البصر في العين الذي يتم عن طريقه رؤية الأشياء وإدراكها وعن طريق هذا المعنى الظاهر تتعق دلالة المعنى المكنى عنه والمتمثل في تيقظ

(١) سورة قاطر، الآيات: ١٩-٢٢.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٥٣٠.

(٣) ينظر: الكشف: ٣ / ٤٨١، وتفسير القرآن العظيم: ٣ / ٥٣٠. ومواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٤١٣ / ٦.

البصيرة في العالم الداخلي للمؤمن الذي تتجسّد حقيقته المشرقة بنور الإيمان المحيي للأبصار في الرؤية وممن ثم الاستجابة والإدراك في البصائر.

والإيمان المحيي للأبصار والبصائر، والكفر والضلال المميت للأبصار والبصائر بالمعنى الكنائي المصوّر يتجسّدان في الكناية التالية (الظلمات والنور) في صورة حسية تشير إلى حقيقتيهما العميقة الموحية، إذ إن ﴿الظُّلُمَاتُ﴾ تشير إلى معناها المكنى عنه وهو الكفر أو الضلال، و﴿النُّورُ﴾ يشير إلى معناه المكنى عنه وهو الإيمان أو الهداية، وبذلك تضمّنت الكنيتان في صورتيهما الحسيتين إحياءات عميقة دالة على تباين نوعين من الحياة تقرّفان في طبيعتهما بهذا التصوير الكنائي في الحس والفكر، وهذا التباين أو التمايز بين الحيتين تنقله الكنيتان بدقة بيانية معجزة. ففكرة (الكفر) تتلبس في صورتها الكنائية الحسية (الظلمات) بصيغة الجمع دلالة على أضرار الحياة الكثيرة التي تحجب الأبصار والبصيرة، وكذلك " الكفر حاجب أبصار القلوب عن إدراك حقائق الإيمان " (١) على حين إنّ الإيمان (النور) جاء بصيغة المفرد، وفي هذا حكمة بالغة عيّر عنها صاحب تفسير المنار بقوله: " وقد أقرّد النور وجعلت الظلمة هنا، وفي كل آية قُوبِلَ فيها بين النور والظلام سواء كان ذلك في الحسي أو المعنوي، بل لم يذكر النور في القرآن إلا مفرداً، والظلمة إلا جمعاً، وحكمة ذلك: أن النور شيء واحد، وإن تعددت مصادره، ولكنه يكون قوياً ويكون ضعيفاً، وأما الظلمة فهي تحدث بما يحجب النور من الأجسام غير النيرة، وهي كثيرة جداً، وكذلك النور المعنوي شيء واحد، في كل نوع من أنواعه أو جزئي من جزئياته، ويقابل كل منهما ظلمات متعددة، فالحق واحد لا يتعدّد، والباطل الذي يقابله كثير " (٢) فالظلمات بوصفها تعبّر عن الكفر، فهي تصور طبيعة الكفر وفعله المدمر للحياة في أدق تصوير، فهو ليس (ظلمة) واحدة، وإنما (ظلمات) تسد منافذ الرؤية والبصيرة بكل جهاتها في الحياة فتحجب الإنسان عن ممارسة الحياة الطبيعية، لأن الحيرة والقلق هما الشعور، والتخبط هو الحركة المسيطرة على فعل الإنسان في تلك الظلمات المتبدّلة بعضها فوق بعض، فالكناية تنطوي على طاقة إحيائية وتصويرية في أداء المعنى.

(١) النكت في إعجاز القرآن، ص ٩٢.

(٢) تفسير المنار: ٧/ ٢٩٤.

ويقابل كناية (الظلمات) كناية (النور) التي تصور طبيعة الإيمان وفعله الأباني للحياة، لأنه يفتح منافذ الرؤية والبصيرة بكل جهتها في الحياة، ومن شأن التقابل بين الكنايتين أن يعمق معناهما في الحسن والوجدان.

ويحول الإيمان والكفر في التعبير الكناني (الظل والحرور) إلى صورة حسية جديدة موحدة تراها العين وتتدسسها النفس، وتفتح منافذ عدة للتفكير لتملي هاتين الصورتين إذ تبعث الكناية (الظل) في جنبات النفس الارتياح والترح، فالإيمان هو الباسم الذي ترتاح إليه النفس وتستقر في رحلة الحياة الدنيا وهي تواجه المتاعب والآلام والمشقات فيجد المؤمن في ظله الطمأنينة والسعادة والأمن، فضلاً عن الثواب في الحياة الأخرى، أما الكفر والضلال فهو (الحرور) بالتصوير الكناني، ومن المعاني الحسية للحرور (السموم)، إلا أن السموم يكون بالنهار، والحرور بالليل والنهار^(١)، فالكفر يتجسد بهذه الصورة الحسية من العذاب المستمر المتصل، وذلك لأن النفس الكافرة خالية من نعمة الإيمان، فهو العقاب في الحياة الدنيا، فضلاً عن العقاب في الحياة الأخرى، لذلك فالكافرون (أموات) ليس أمواتاً بالمعنى المألوف للموت وهو الهلاك والفتاء كما قد يتبادر، وإنما أموات بالمعنى الكناني الجديد إزاء المؤمنين (الأحياء): ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ الكافرون موتى لأنهم منطفئو الروح والبصيرة والإدراك، فهم والموتى سواء كما يقول القرآن، وكان غاية الحياة وجوهرها كما يفهم من التعبير الكناني يتمثل في الاستقامة والتبصر وتيقظ الروح، والتمييز بين الخير والشر، والحق والباطل، وأن الموت بمفهومه الكناني ربما كان "انغماس النفس في ظلمة الحيوانية، وبقاء الروح مكفوفة الإدراك تخبط في الأرض من غير غاية نبيلة تسعى إليها لتسعد بها سعادة أبدية"^(٢)، لأن الطاقة الروحية معطلة، فالكافرون يحيون في حياتهم وينقلبون مثل أي كائن حي دون تميز أو تفلوت إذ يفقدون معنى الحياة المقصود، لأن المقصود من الحياة الإدراك والعقل فإذا عُدِمَ تصوير الحياة مساوية للموت في عدم الفائدة المطلوبة فتتزل الحياة منزلته^(٣).

(١) الكشف: ٣ / ٢٨٠. وينظر: لسان العرب: ٤ / ١٧٧ (حرر).

(٢) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص ٢١٠.

(٣) ينظر: نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز، ص ١٢٩ - ١٣٠. وينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص ٤٥ - ٤٦.

فالكناية بثت الحياة في مفاصل الصورة وجذدت معاني الكلمات في دلالات جديدة موحية مؤثرة في الحس والوجدان.

وبذلك يتجلى بالكنائيات المعرفية عالمين متضادين: عالم الإيمان والهدى، وعالم الكفر والضلال على التقابل في دلالاتهما الفكرية والنفسية، إذ تحقق الكناية دلالات عميقة في الحس والشعور، وعلى بساطة التراكم الكنائية ووضوحها تمنح الفكر والنفس قوة العطاء وعمق الإحياء في المعاني والأفكار، إذ يتقابل أما الفكر والنفس عالمان متناقضان في دلالاتهما في صورة بنائية كاشفة تفصل كل عالم من هذين العالمين بصفات حسية تشخص رموزاً لا ينقطع إحاطها بما أخرجت المعاني والأفكار بخصوصية وحيوية ليس لتقريرها حسب، وإنما لتتوغل دلالاتها في كيان الإنسان ليتلمس معانيها وأفكارها، ولتترسخ معطياتها في الفكر والنفس.

الفصل السابع

الكناية التعريضية

الفصل السابع

الكناية التعريضية

الكناية التعريضية لون من ألوان الكناية " فالكناية تنقسم إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة، ومساق الحديث يحسر لك اللثام عن ذلك " (١). والتعريض هو " اللفظ الدال على الشيء من طريق مفهوم لا بالوضع الحقيقي، ولا المجازي، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلاته ومعروفه بغير طلب: والله إنني لمحتاج، وليس في يدي شيء. وأنا عريان والبرد قد أذاني، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعاً في مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازاً، إنما دل عليه من طريق المفهوم، بخلاف دلالة اللمس على الجماع " (٢). فالتعريض هو أن يطلق الكلام، ويشار به إلى معنى آخر يفهم من السياق (٣) وقرائن الأحوال، وما يشير إلى هذا قوله - تعالى -: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النَّسَاءِ أَوْ أَكْنَثْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ (٤). والتعريض في الخطبة هو: أن يقول راغب الزواج للمعتدة بعد انتهاء عدتها، مثلاً: عسى الله أن يهبني لي زوجة سالحة. أو: لعل الله أن يرزقك بعلًا صالحاً وإن النساء لمن حاجتي وأشباهه من الكلام (٥). فهو إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض (٦). وهو رغبته فيها، والزواج ليس مدلولاً لهذه الألفاظ حقيقة ولا مجازاً، لأن المتكلم ذكر شيئاً دل به على شيء لم يذكره، ومن هذه الناحية افترق التعريض عن الكناية، لأن الكناية ذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له كقولنا: طويل النجاد لطول القامة، وكثير الرماد للمضياف. والتعريض: " أن تذكر شيئاً ندل به على شيء لم تذكره كما

(١) مفتاح العلوم، ص ١٩٠. وينظر: الإيضاح: ٢ / ٤٦٦.

(٢) المثل السائر: ٣ / ٥٦. وينظر: الطراز: ١ / ٣٩٧. ٣٩٨. وينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣١١ / ٢.

(٣) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، أحمد الهاشمي، ص ٣٥٠.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ٢٣٥.

(٥) ينظر: الكناية والتعريض، للتحالي، ص ٥٧. وينظر: القوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص ١٣٤. وينظر: علم البيان في الدراسات البلاغية، ص ٢٧٦.

(٦) الكشف: ١ / ٣٧٣. والمنتخب من كنایات الأنباء وإشارات البلاغ، ص ٥٦، ٥٧.

يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتكَ لأسلم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم^(١) وهو يعرض بطلب الصدقة.

ورغم هذا الافتراق بين الكناية والتعريض فلهما بعدان من طرق الفن الكناني، لأنهما يدخلان في إطار عام وهو الإشارة إلى المعنى المراد من بعد عن طريق المعنى القريب الذي يدل عليه ظاهر اللفظ لعلاقة بينهما^(٢) هي علاقة اللزوم في الكناية، وعلاقة يستدل عليها العقل في قرائن الأحوال ومقتضيات السياق في التعريض.

وقد توافر القرآن الكريم على هذا النوع من الكناية التعريضية التي تمثل بالإيجاز في التعبير عن المعاني والأفكار التي تهدف إليها، فهي تحقق معناها أولاً ثم تصل إلى الغرض الذي ترمي إليه عن طريق المفهوم من السياق وقرائن الأحوال كما ذكرنا من غير أن تذكر الطرف المقابل المعرض به، وبالعَدول من التصريح إلى التعريض يكون وقع المعنى في النفس مؤثراً وأقنر على إحداث الاستجابة النفسية المناسبة، وذلك بسبب التلميح إلى المعنى المراد نقله والإشارة إليه من عرض الكلام وجانبه ونقل المتلقي إليه بعد معاناة وتفكير، ومن هنا فإن التعريض الذي لا يقع إلا في التركيب على خلاف أقسام الكناية الأخرى التي تقع في المفردة والتركيب^(٣) يفيد القول بلاغة تفوق بلاغة أنواع الكناية الأخرى وذلك لأنه يشير بخفاء ومن دون وسائط ولوازم إلى معنى بعيد، مع إقراره في نفس السامع من طريق سياق القول ومقتضياته.

وفيما يأتي نستعرض الآيات القرآنية التي احتوت كنايات تعريضية، ثم نحاول تحليلها وبيان خصائصها وأثرها في سياق الآية الكريمة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

إنما يتلذذ أولوا الألباب:

يستعمل القرآن هذا التعبير في موطنين على سبيل التعريض بالكافرين، أحدهما قوله تعالى:- ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ أَنَّكَ كُنَّ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ يُؤَلِّمُ الْأَعْمَى﴾^(٤)

قوله تعالى:- ﴿إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٥) تعريض بالكافرين، فليس الغرض من هذا القول - كما يقول عبد القاهر الجرجاني - أن يعلم السامعون ظاهر معناه، ولكن أن يدبّر الكفار

(١) ينظر: الكشف: ١ / ٣٧٢-٣٧٣.

(٢) ينظر: الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، ص ٢٢٩.

(٣) ينظر: المثل السائر: ٣ / ٥٧. وينظر: البلاغة العربية بالمعاني والبيان والبدیع، ص ٢٤٤.

(٤) سورة الرعد، الآية: ١٩. وينظر: سورة الزمر، الآية: ٩.

وان يقال: انهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم في حكم من ليس بذئ عقل وإنكم إن طمعتم منهم في أن ينظروا ويتذكروا كنتم كمن طمع في ذلك من غير أولي الأبواب " (١).
فالمعنى الظاهر للكناية التعريضية معلوم حكمه لا يجهله أحد، أي المؤمنون أصحاب القلوب

الواعية التي تنفع بما ترى، وتعلم أن الذي أنزله الله هو الحق فتتبعه. ومن هنا تأتي الموازنة بين الفريقين: المؤمنين والكافرين على التقابل ليتجلى المعنى ويتعمق في الحسن والـ

﴿ أَمَّنْ يَمْلِكُ أَنَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ لَمَّا كُنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ والاستفهام بالهمزة يفيد تكرار تشابه حال الفريقين، وهو تشبيه مستنكر، وهو عميق في دلالاته وحقيقته، فالمؤمنون هم أصحاب البصر والبصيرة على خلاف الكافرين. كما يخرجهم التعبير الاستعاري التصريحي القائم في بنيته على التشبيه ﴿ كُنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ فشبه الكافر بالأعمى وذلك يجمع عدم البصر على سبيل الاستعارة التصريحية. والكافر ليس أعمى في الحقيقة، وإنما هو أعمى بهذا التصوير الاستعاري بمعناه الجديد الذي يصوره القرآن، إذ العمى عمى القلب والبصيرة، كما قال - تعالى -: ﴿ فَأَنبَأَهَا لَمْ تَمْسِ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَمْسَى الْقُلُوبُ أَلَمْ يَكُنْ فِي السُّدُورِ ﴾ (٢). فالكفر عمى والكافر أعمى لأنه عطل وسائل إدراكه ومعرفته عن العمل في ما خلقت له فهو لا يرى العلم الذي أنزله الله وهو الحق الذي يعلمه أو لو الأبواب شأنه في ذلك شأن الأعمى الذي لا يميز الأشياء.

وهذه الاستعارة القائمة في بنيتها على التشبيه تصعد معنى التعريض المستفاد من ﴿ إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ الذي جاء بأسلوب القصر بإمضاء، حيث قصر صفة التذكر على الموصوفين بـ ﴿ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ وهم المؤمنون لا تتعدى إلى غيرهم وهم الكافرون المعرض بهم فهم لا يذكرون ولا يتذكرون الحق الذي أنزله الله، فالقصر " لبيان الواقع وحصر التفكير والتذكر المستقيم في أولي الأبواب والعقول الخالصة " (٣).

(١) دلائل الإعجاز، ص ٢٢٢ - ٢٢٤. وينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣١٤. وينظر: من بلاغة النظم العربي دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. عبد العزيز عرفة: ٢ / ٦١. وينظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، ص ٣٠٠.
(٢) سورة الحج، من الآية: ٤٦.
(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٦ / ٥٠٤.

وبذلك نثال هذه الكناية التعريضية ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ من الكافرين عن طريق مفهوم سياق الآية وتذمهم وتخرجهم في حكم من ليس له بصر وعقل من غير أن تصرح بتذكرهم.

ونتكرر هذه الكناية التعريضية في موطن آخر معرضة بالذين لا يعلمون (الكافرين)، بعد أن تثبت للمؤمنين الذي يعلمون ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ سلوكاً عملياً شاكرًا لله، فعلمهم يتخذ سجالة وصورته الشاكرة العاملة، وذلك في قوله - تعالى - ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ إِتَاءَ الْبَيْلِ سَاجِدًا وَفَإِنَّمَا يُجَدَّرُ لِأَخِيرَةٍ وَرَجُوا رَحْمَةً رَّبِّهِمْ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (١)

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ تعريض بالكافرين بعد أن قررت المعنى الظاهر المعلوم وهو إثبات صفة التذكر للمؤمنين أولي الأبواب دون غيرهم على وجه التخصيص. ويبرز سياق الآية هؤلاء المؤمنين الذين يعلمون ويعملون بمقتضى علمهم المستقر في النفوس والقلوب بهذا السلوك الخاشع: أثناء الليل، والسجود والقيام، والحذر من عذاب الآخرة، ورجاء الرحمة من ربهم بهذا الجهد العامل الشاكر الذي يبذله هؤلاء العالمون العاملون. والكافرون المعرض بهم يحيلون الحقيقة التي من أجلها خلُقوا، فهم لا يعلمون فلا يستوي حالهم مع هؤلاء المؤمنين في صورتهم الوضيفة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والاستفهام هنا إنكاري ينفي أن يستوي حال الفريقين ويقرر واقعاً ناصعاً في دلالة المجازية فهو لا يحتاج إلى جواب، لوضوح حال الفريقين، ولكنه استفهام يهدف إلى إقرار حقيقة وتوكيدها، ويرفع ويعرض بالكافرين الذين لا يعلمون إزاء أولئك العالمين العاملين، والتقابل على سبيل التضاد من شأنه تعميق حال الفريقين في الحس والذهن.

ويمكن أن يفهم التعريض في الآية من جانب آخر بالعالمين غير العاملين في دلالة العامة، قال الزمخشري: "وأراد بالذين يعلمون: العاملين من علماء الديانة، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم. وفيه ازدراء عظيم بالذين يقدفون العلوم، ثم لا يقتنون ويفتنون، ثم يقتنون بالدينا، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العلماء، ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه، أي: كما لا يستوي العالمون والجاهلون، كذلك لا يستوي القانتون والعاصون" (٢).

(١) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٢) الكشف: ٩٠ / ٤.

وبذلك يستوي في دلالة التعريض الشاملة الكافرون الذين لا يعلمون ولا يعملون، والعالمون غير العاملين بما يجب عليهم من الطاعة، فهم جهلة على صعيد واحد مع الكافرين.

وفي ضوء ذلك يتجلى الأوجاز في الكناية التعريضية ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ فليس المراد منها المعنى الظاهري المعلوم وهو قصر التذكير على المؤمنين القلتين فحسب، وإنما يتجاوز ذلك إلى معنى آخر يمثل الهدف الذي تلوح به على سبيل التعريض.

وفي ضوء ذلك يمكن أن يفهم التعبير القرآني: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ على أنه كناية تعريضية، والوارد في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِلْهَا لَا يَقْعِلْ مِنْهُ شَيْءٌ ۚ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۚ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمِنْ تَرَكٍ ۚ فَاِنَّمَا يَرْكَبُ لِنَفْسِهِ ۚ وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ ۚ﴾^(١)

فالتعبير القرآني ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ يتجاوز معناه الظاهر الذي يدل عليه إلى التعريض بالذين ليس لهم هذه الخشية، قال الزركشي: "المقصود التعريض بدم من ليست له هذه الخشية، وأن يعرف أن لفرط عناده كانه ليس به أنن تسمع، ولا قلب يعقل، وأن الانذار له كلاً انذار، وأنه قد انذر من له هذه الصفة، وليست له"^(٢).

فالكناية التعريضية تنال من الكافرين على نحو خفي لطيف وكاشفة عن حالهم الذي تساوي عندهم الانذار وعدم الانذار لفرط عنادهم وتصميمهم عليه جهلاً وضلالاً، فهم لم يفيدوا من الانذار لأنهم يمتازون من لا يسمع ولا يعقل فقد عطّلوا لديهم وسائل الحس والادراك، فلم يتأثروا بالإنذار، ولم يستجيبوا له، فهم لا يؤمنون ولا يخشون ربهم على خلاف المؤمنين الذين أفادوا مما أنعم الله عليهم من سمع وبصر وأفئدة فأفادوا بالانذار واستجابوا فكان يدينهم الخشية من الله ربهم.

(١) سورة قاطر، الآية: ١٨. وينظر: سورة الأنعام، الآية: ٣٦.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣٢٤.

فَسَلُّوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُوْنَ :

ترد هذه الكناية التعريضية على لسان سيدنا ابراهيم عليه السلام يعرض بها بقومه وبما كانوا يعبدون حين كثر أصنامهم وذلك في قوله - تعالى - ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَطَرْتَ هَذَا وَنَحْنُ أَكْبَرُ مِنْكَ بَرِئِينَ ﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَنَّاوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ثُمَّ لَكُوا عَلَى رَسُولِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿ (١)﴾

الكناية التعريضية قوله - تعالى - ﴿ قَالُوا بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَنَّاوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ ، والبادي من هذه الكناية التعريضية أن سيدنا ابراهيم عليه السلام لم يرد بها إثبات نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما أراد إثبات الفعل له بالأسلوب التعريضي كي يلزمهم الحجة والبرهان على نحو من الاستهزاء بهم والتبكيت. قال الزمخشري: " هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها أذهان الراضة من علماء المعاني والقول فيه أن قصد ابراهيم (صلوات الله عليه) لم يكن إلى أن يذهب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كذبت كتاباً بخط رقيق وأنت شهير بحسن الخط: أنت كتبت هذا وصاحبك أُمي لا يحسن الخط فقلت له: بل كتبه أنت، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك بهذا الاستهزاء به، لا نفيه عنك وإثباته للأُمي. لأن إثباته - والأمر دائر بينكما للعاجز منكما - استهزاء به وإثبات للقادر " (٢).

وأشار ابن الأثير إلى معنى آخر أبعد من الأول لهذه الكناية التعريضية بقوله: " وهو أن كبير الأصنام غضب أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها، وغرض ابراهيم من ذلك أنه لا يجوز أن يعبد مع الله - تعالى - من هو دونه، فإن من هو دونه مخلوق من مخلوقه، فجعل إحالة القول إلى كبير الأصنام مثلاً لما أراده " (٣) وما راه ابن الأثير يسلك في التمثيل، فيعمق الكناية.

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٦٢-٦٥.

(٢) الكشف: ٩٨/٣، وينظر: المثل السائر: ٧٢/٣، وينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣١١/٤.

(٣) المثل السائر: ٧٢/٣، ينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص ١٣٥، ومن بلاغة القرآن: ٢٢٨.

وفي كلا السعدين فإن إبراهيم عليه السلام يعرض بهم وبآلهتهم التي يعبدونها من دون الله عن جهل وظلم، وتقليد أعمى لأبائهم (١) وسيطر على أفكارهم ونفوسهم ويوجه سلوكهم فيصبحوا بلا عقل ولا تفكير، لأنهم يرون بعقول أبائهم حتى ولو علموا بأن آباءهم جاهلون. من هنا يأتي التعريض بهم وبآلهتهم أسلوباً بليغاً حياً يعمل على إيقاظ نفوس قومه وقلوبهم لإزالة غشاوة التقليد الأعمى الذي غطى على الحقيقة التي غفلوا عنها. فالتعريض يحطم تلك الأغلال النفسية التي راثت على قلوبهم لتتجلى لهم الحقيقة، وليرد القلوب إليها والنفوس، وقد صور السياق لحظة رجوعهم إلى نفوسهم متدبرين متفكرين حين ألزمهم الحجة ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لسا ألزمهم الحجة وأخذ بمخافتهم، رجعوا إلى أنفسهم متدبرين ومتفكرين فقالوا: أنتم الظالمون على الحقيقة لا من ظلمتموه حين قلتم: ﴿مَنْ قَعَلَ مِثْلَ مَا لِهَئِثَانَهُ لَنْ نَأْتِيَنَّكُمْ﴾ (٢) فهم يدينون أنفسهم وما هم فيه من سخف، وما في عبادتهم من ظلم - حين رجعت أنفسهم إلى الحقيقة الناصعة - إلا أنهم ارتدوا تلك الردة النفسية كما يصورها القرآن بالأسلوب الكنافي المجسد، ارتداد نفوسهم إلى عبادة الأصنام ﴿ثُمَّ لَكُمْ سَؤَالٌ وَّوَسِيَّتٌ لَقَدْ خَلَقْتَ مَا تُهْوَىٰ وَيَتَوَلَّوْنَ﴾. فالكناية ﴿ثُمَّ لَكُمْ سَؤَالٌ وَّوَسِيَّتٌ﴾ حركة مادية غليظة تشير إلى ذلك المعنى النفسي وهو انقلابهم من الحقيقة الناصعة وهي بطلان عبادتهم وشركهم، وقد استشعروها لحظة عندما ألزمهم سيدنا إبراهيم عليه السلام الحجة والبرهان، انقلبوا إلى الشرك والمجادلة عن أصنامهم بالباطل والمكابرة، قال الزمخشري: "نكسته: قلبته فجعلت أسفله أعلاه. وانتكس: انقلب، أي: استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجامعوا بالفكرة الصالحة، ثم انتكسوا وانقلبوا عن ذلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة، وأن هؤلاء - مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق - آلهة معبودة، مضارة منهم، أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم عليه السلام مجادلين عنه، حين ذفوا عنها القدرة على النطق" (٣). ويمكن أن نفهم الكناية ﴿ثُمَّ لَكُمْ سَؤَالٌ وَّوَسِيَّتٌ﴾ على الحقيقة، أي تكسوا رؤوسهم حقيقة، فتكون بذلك كناية عن خجلهم وانكسارهم أمام الحقيقة التي بهتهم بها إبراهيم عليه السلام. وقد أشار الزمخشري إلى هذا الفهم بقوله: "أو قلبوا على رؤوسهم حقيقة، لفرط اطرأقهم خجلاً وانكساراً وانخزالاً مما بهتهم به إبراهيم عليه السلام فقد

(١) ينظر: سورة الشعراء، الآية: ٧٤.

(٢) ينظر: الكشاف: ٣ / ٩٨، وقولهم هو الآية ٥٩ من السياق نفسه.

(٣) الكشاف: ٣ / ٩٨.

أحاروا جواباً إلا ما هو حجة عليهم" (١) فهي الحجة القوية التي يلزمهم إياها. وفي التوجيهين للكناية يتكشف معنيان تشير إليهما على نحو جلي:
أولهما: مجادلة هؤلاء القوم لنبيهم إبراهيم بالباطل والمكابرة على الرغم من استشعارهم الحقيقة في قرارة أنفسهم.
وثانيهما: عدم استنادهم إلى حجة يجادلون بها، فليس لهم إلا الإطراق، خجلاً وانكساراً أمام الحجة الواضحة والبرهان المبين.

نبا الخصم:

يأتي هذا التعبير ضمن سياق تعريضى بسيدنا داود عليه السلام وهو قوله - تعالى -: ﴿وَعَلَّ أَتُكَ نَبْؤُا الْحَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْيَحْرَابَ﴾ (٢) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَيْنَ بَعْضِنَا عَلَى بَعْضٍ فَانْكُرْ بَيْنَنَا وَالْحَقَّ وَلَا تُطِيطْ وَاهْتِنَا إِلَى سَوَاةِ الصِّرَاطِ (٣) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تَفَعُّعٌ وَتَسْعُونَهُ نَجْمَةً وَلَنْ يُفْعِلَهُ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٤) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْيمِكَ إِلَى نَجْمِهِ وَإِنَّ كِبِيرًا مِّنَ الْفُلُطُلِ لَيْنِي بِعَمَلِهِمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٥) فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَكُمْ عِندَنَا لُزْغَةً وَحُسْنَ مَّعَآدٍ (٦) يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَامْكُم مِّنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَغِيضُونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ إِنَّمَا كَسَبُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٧)

من خلال هذه القصة يبرز التعريض بالنبي داود عليه السلام والتعريض هنا وسيلة سبئية مؤثرة، فضلاً عن إيجازه، فهو "أبلغ في التوبيخ، من قبل أن التأمّل إذا أداه إلى الشعور بالمعروض به، كان أوقع في نفسه، وأشدّ تمكناً من قلبه، وأعظم أثراً فيه، وأجلب لاحتشامه وحيائه، وأدعى إلى التنبّه على الخطأ فيه من أن يبيّنه به صريحاً، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة" (٨).

وقد ذهبت بعض التفاسير في تفسير هذه الآيات إلى ما يجانب الصواب جرياً مع الأسرائيليات في التفسير بما لا يتلاءم مع طبيعة النبوة (٩).

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٩٨.

(٢) سورة ص، الآيات: ٢١ - ٢٦.

(٣) الكشاف: ٤ / ٦٣.

(٤) ينظر مثلاً: الكشاف: ٤ / ٦٢.

والنظر في هذه الآيات يلحظ:

- أن تسور الخصم المحراب والدخول على داود عليه السلام قد تم في صورة غير طبيعية.

ابن عباس: "إن داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء: يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للاشتغال بخواص أمورهِ، ويوماً يجمع بني إسرائيل فيعطيهم ويديكهم، فجأوه في غير يوم القضاء ففرع منهم، ولأنهم نزلوا عليه من فوق، وفي يوم الاحتجاب، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه" (١). فتسورهم المحراب ودخولهم عليه كان بطريقة عجيبة مما سبب فرحاً للذبي داود ﴿فَفَرِحَ بِهِمْ﴾ والذي يؤكد كونه من الأنبياء العجيبه الاستفهام بـ، (هل) في قوله: ﴿وَعَلَّ أَتَنَّاكَ نَبْرًا الْخَصْمِ﴾ فظاهره الاستفهام ومعناه الدلالة على أنه من الأنبياء العجيبه التي حقها أن تشيع ولا تخفى على أحد، والتشويق إلى استماعه " (٢). وتسور المحراب بهذه الطريقة يوحي بأن الخصم ليس من البشر بل هما من الملائكة، قال الزمخشري: "تصدوا سورة ونزلوا إليه، والسور: الحائط المرتفع.. روي أن الله - تعالى - بعث إليه ملاكين في صورة إنسانين، فطلباً أن يدخلوا عليه، فوجداه في يوم عبادته، فسنعهما الحرس فتسوروا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بيمن يديه جالسان" (٣) فضلاً عن أن طريقة حوارهما مع النبي داود يؤكد بأنهما من الملائكة ﴿فَلَمَّا كَرِهْتَ بِالْحَقِّ وَلَا تُطْلَقُ﴾ أي "ولا تجر. أي ولا تبعد عن الحق، وهي مجاوزة الحد وتخطي الحق" (٤).

- في سياق القصة رمز حيوي يشير إلى ظلم الإنسان لأخيه الإنسان إلا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِنَّ نَجْمَهُ وَإِنْ كَبِيرٌ مِّنَ لَّقَلَمَاءِ بَيْنِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

- يلاحظ من سياق القصة أن سيدنا داود عليه السلام قد حكم لأحد الخصمين وهو الذي أدلى

بقوله وحجته: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ دون أن يمنح الخصم الآخر فرصة للدلاء بقوله وحجته - وهو النبي الملك الذي ولّاه الله امر

(١) الكشف: ٦٣ / ٤

(٢) المصدر نفسه: ٦٣ / ٤

(٣) الكشف: ٦٣ / ٤

(٤) المصدر نفسه: ٦٣ / ٤

الناس ليقضي بينهم بالحق والعدل، ومن هنا يتجلى امتحان النبي داود وابنائه فيعرض به السياق تعريضاً مؤثراً، لأنه لم يبين الحق قبل إصدار الحكم، على الرغم من أن الخصم قد اختار أن يعرضاً عليه القضية في صورة صارخة مدبرة، ولكون القاضي عليه ألا يستأثر، وعليه ألا يتعجل. وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته، فقد يتغير وجه المسألة كله، أو بعضه، ويتكشف أن ذلك الظاهر كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً^(١). والتعقيب القرآني بعد ذلك يؤكد هذا المعنى التعريضي ويقويه، ويكشف عن طبيعة تلك الفطنة التي ابتلاه الله بها ﴿فَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَكُلٌّ وَحُسْنُ مَقَابٍ﴾ يندأود **إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ...** ﴿٢﴾ كما يحل من هذه القصة التي عرضت بمسألة

القضاء وأهميته في حياة الناس.

ما كان ينبغي أن يكون له أسرى حتى يُلْحَنَ في الأرض:

ترد هذه الكناية معرضة بالمسلمين على ما فعلوه في شأن أسرى معركة بدر، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْتَهِ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَسْرَى حَتَّى يُلْحَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الذُّلَّةِ وَأَلَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢)

والإثخان هو "كثرة القتل والمبالغة فيه، من قولهم: أثخنه الجراحات إذا أثبته حتى تنقل عليه الحركة. وأثخنه المرض إذا أثقله من التخلة التي هي الغلظ والكثافة، يعني حتى يذل الكفر ويضعفه بإشاعة القتل في أهله ويعز الإسلام ويقويه بالإستيلاء والقهر. ثم الأسر بعد ذلك، ومعنى ﴿مَا كَانَتْ﴾ ما صح له وما استقام، وكان هذا يوم بدر"^(٣).

فالإثخان بالمشركين في المعركة هو الذي كان يجلب على المسلمين أن يفعلوه وذلك لإضعاف قوة المشركين وكسر شوكتهم وبخاصة أن معركة بدر هي أول معركة مع المشركين، وأن المشركين كانوا كثرة والمسلمين قلة، فكان ينبغي على المسلمين أن يتقصوا عدد المحاربين المشركين بالقتل والمبالغة فيه لا أن يأسروهم ويستبقوهم ويطلقوهم بالقدية كما حدث، فعرض الله بالمسلمين على فعلتهم، وكشف عن دافع ذلك وسببه: ﴿

(١) في ظلال القرآن: ٧ / ٩٧.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.

(٣) الكشف: ٢ / ١٨٤، وينظر: أساس البلاغة، ص ٨٣ (ثخن).

يُرِيدُكَ عَرْضُ الدُّنْيَا ، أي: حطاسها، سمي بذلك لأنه حدث قليل الالبث، يريد الفداء ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ يعني ما هو سبب الجنة من اعزاز الاسلام بالإتحان في القتل " (١)

وفي ذلك تقابل بين ﴿عَرْضُ الدُّنْيَا﴾ وهو أخذ الأسرى واطلاقهم بالفداء وبين ثواب ﴿الْآخِرَةِ﴾ الذي يريده الله للمسلمين والذي يسميه الأخوان في قتل المشركين الذي فيه اعزاز للمسلمين ونصرهم، قال الزمخشري: "والله يريد عرض الآخرة على الثقات، يعني ثوابها ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يغلب أوليائه على أعدائه ويتمكنون منهم قتلاً وأسراً وبطلق لهم الفداء، ولكنه ﴿حَكِيمٌ﴾ يؤخر ذلك إلى أن يكثرُوا ويعزُوا وهم يعجلون" (٢) ومن شأن هذا التقابل أن يجلي ذلك المعنى الكبير الذي يجب أن يحرص عليه المؤمنون وهو أن يريدوا ما يريد الله لهم، وهو الباقي الذي لا ينفد وفيه عزهم في الدنيا والآخرة، وأن يتجردوا من عرض الدنيا القليل الذي ينفد وفيه ذلهم إذ يشدهم إلى الأرض ويؤخرهم عن الإنطلاق.

المثل بامرأة نوح وامرأة لوط:

يعرض القرآن من خلال هذين المثلين ببعض زوجات النبي محمد ﷺ في سورة التحريم وأولها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿قَدْ قَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحريمَكُمْ وَاللَّهُ مُؤْتِكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْكَرِيمُ﴾ وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما اتأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما اتأتها به قالت من أتاك هذا قال تبأني العيلة الخبيثة ﴿إِنْ تُلَاقُوا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (٣) وفي ختام السورة الكريمة يأتي المثلان على سبيل التعريض الذي يلوح بمعناه من بعيد محذراً مذكراً أمي المؤمنين (حفصة وعائشة) - رضي الله عنهما - والتعريض بأم المؤمنين حفصة أرحح (٤)، والمثل هو قوله - تعالى -: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِرْكُ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ لَهُمَا امْكُثَا فِي الْجَنَّةِ﴾

(١) الكشف: ٢ / ١٨٥.

(٢) المصنوع لنفسه: ٣ / ١٨٥.

(٣) الآية: ٦. وما روي في أسباب النزول: "دخل رسول الله ﷺ بمارية القبطية سريره، بيت حفصة فجاءت فوجنتها معه فقال يا رسول الله في بيتي دون بيوت نسائك، قل: فدعا علي حرام أن

أمسها يا حفصة واكتمى هذا علي فخرجت حتى أتت عذشة فأخبرتها فنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾

الآيات. ينظر: لباب التفريل في أسباب النزول، ص ٧٤٥-٧٤٦.

(٤) ينظر: الكشف: ٤ / ٤٥٨.

وَيَحْيَىٰ مِنْ قُرْعَوَاتٍ وَعَمَلِهِ وَيَحْيَىٰ مِنَ الْقَوْرِ الْفَالِجِيَّةِ ﴿١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتْ مِنْ رَبِّهَا مِائَةَ ثَلَاثِينَ نَفْسًا مِمَّنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ دُونِهَا وَأَصْدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ وَاتَّقِ اللَّهَ الَّذِي تَخْتَرِعُ عَنْ حَيْثُ شِئْتَ وَاسْمِعِي الْكَلِمَةَ أَلَمَّا أُتِيَ اللَّهُ بِهَا وَتُحْلَلِ الْحُلُمَ إِذَا نَذَرَ وَأَنَّ الْكَلِمَةَ كَالْحُلُمِ وَأَنَّهُ رَاقِيهَا ﴿٢﴾ وَنُوحًا إِذْ دَعَا إِلَىٰ رَبِّهِ وَكُنِيَ عَلَيْهِ رُوحُ رَبِّهِ فَخَبَّرَهُ أَنَّ رَبَّهُ يَخْتَارُ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ مِنْ دُونِ الظُّهُورِ وَأَنَّ الْكُلُومَ كَالْأَلْفِ إِلَّا بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنَ الْمِيزَانِ ﴿٣﴾ وَإِسْمَاعِيلَ إِذْ دَعَا إِلَىٰ رَبِّهِ وَكُنِيَ عَلَيْهِ رُوحُ رَبِّهِ فَخَبَّرَهُ أَنَّ رَبَّهُ يَخْتَارُ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ مِنْ دُونِ الظُّهُورِ وَأَنَّ الْكُلُومَ كَالْأَلْفِ إِلَّا بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنَ الْمِيزَانِ ﴿٤﴾ وَإِسْحَاقَ إِذْ دَعَا إِلَىٰ رَبِّهِ وَكُنِيَ عَلَيْهِ رُوحُ رَبِّهِ فَخَبَّرَهُ أَنَّ رَبَّهُ يَخْتَارُ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ مِنْ دُونِ الظُّهُورِ وَأَنَّ الْكُلُومَ كَالْأَلْفِ إِلَّا بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنَ الْمِيزَانِ ﴿٥﴾ وَيُوسُفَ إِذْ دَعَا إِلَىٰ رَبِّهِ وَكُنِيَ عَلَيْهِ رُوحُ رَبِّهِ فَخَبَّرَهُ أَنَّ رَبَّهُ يَخْتَارُ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ مِنْ دُونِ الظُّهُورِ وَأَنَّ الْكُلُومَ كَالْأَلْفِ إِلَّا بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنَ الْمِيزَانِ ﴿٦﴾ وَهَارُونَ إِذْ دَعَا إِلَىٰ رَبِّهِ وَكُنِيَ عَلَيْهِ رُوحُ رَبِّهِ فَخَبَّرَهُ أَنَّ رَبَّهُ يَخْتَارُ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ مِنْ دُونِ الظُّهُورِ وَأَنَّ الْكُلُومَ كَالْأَلْفِ إِلَّا بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنَ الْمِيزَانِ ﴿٧﴾ وَكَانَ هَؤُلَاءِ مِنْ قَبْلِهِ أَمْثَلًا ﴿٨﴾

(١) الآية: ١٠ / ١٢.

(٢) الكشاف: ٤ / ٤٥٧.

(٣) المصدر نفسه: ٤ / ٤٥٨.

(٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٨ / ٣٧٤.

رسول الله ﷺ، وامرأة نوح قالت لقومها: إنه مجنون، فكلاهما تظاهرتا على الرسولين الكريمين بنفاقهما وإبطانهما الكفر فكانت عقبتهما دخول النار مع الداخلين (١).

فالمثلان في ضوء ذلك يعدّان كناية تعريضية تلوح بمعناها التعريضية من بعيد والذي يفهم عن طريق الإشارة المهدّبة التي تصوّن النفس الانسانية المخاطبة من الأدنى وبخاصة - وهي تعرّض بأبي المؤمنين فتحفظ لهما مقامهما الكريم في بلوغ المراد. وهذا من خصائص التعريض في القرآن الكريم فهو من " الأساليب البيانية يحثّمه الأدب القرآني، وتدعو إليه لغته المهدّبة، تقويماً للخلق، وصيانة للنفس من العبث والغبط والآثرة المؤذية (٢)

يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً:

ترد هذه الآية الكريمة على سبيل التعريض بالسيدة الطاهرة مريم (عليها السلام) من قبل قومها وذلك في سياق سيدنا عيسى عليه السلام، قال - تعالى -: ﴿قَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَحْرِيغُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيحًا﴾ (٣) يتأخّط هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً (٤) والمعنى الظاهر القريب للآية: ﴿يَتَأَخَّطُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوهُ امْرَأً سَوْوً وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ (٥) ، كما جاء في التفسير: " اي يا أخت الأخ الصالح أو شبيهة الرجل الرجل الصالح المشهور.. والمراد بهارون أخ لها من أبيها، وكان صالحاً، وقيل: رجل صالح مشهور في بني اسرائيل. وقيل: المراد هارون أخو موسى عليه السلام، والمراد بالأخت المشابهة والمماثل في التقوى، ما كان أبوك امرأ صاحب سوء في الأعمال والأخلاق، وما كانت أمك بغياً اي زانية. والأصل إذا كان زكياً فالغالب أن الفرع يكون كذلك، فمن أين لك هذا الولد ؟ " (٦)

إلا أن الآية يمكن عدها كناية تعريضية تلوح بمعناها البعيد الذي يقصده قومها على سبيل التعريض بها، على الرغم مما تحمله الآية من معنى نبيل يقرّر طهارة السيدة مريم (عليها السلام) وصالح سيرتها يعترف به قومها، ولكن يسمّ في الآية التعريض (بالزنا)، فهم لم يواجهوها صراحة بالمعنى، وإنما عرّضوا بذلك تعريضاً قوي التأثير وبالغ، وذلك من خلال نفي السوء عن أبيها والبغي عن أمها، ودانها بأنها أخت هارون المشهور عندهم

(١) ينظر: الكشف: ٤ / ٤٥٨.

(٢) أصول البيان العربي، ص ١١٩.

(٣) سورة مريم، الآية ٢٧، ٢٨.

(٤) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٣٧١ / ٥. وينظر: الكشف: ٣ / ١١.

بالصلاح، فضلاً عن الاستفهام الضمني المفهوم من السياق بعد النفي (من أين لك هذا الولد الذي يفيد (التعجب) التعجب من هذا الشيء الذي جاءت به ولا يعرف مصدره، فمن خلال النفي والاستفهام يُمرّر المعنى التعريضي الذي أشاروا إليه وهو (الزنا) يتهمون به الفتاة الطاهرة النقية.

أفحسبكم أنما خلقناكم عبثاً:

ويلمح الأسلوب التعريضي البعيد إلى المكذبين بالآخرة، وهم المحجوبون عن التبصّر بحكمة النشأة الأخرى، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١).

والمعنى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ أي: "عابثين، أي: ما خلقناكم للعبث، ولم يدعنا إلى خلقكم إلا حكمة اقتضت ذلك، وهي: أن نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي، ثم ترجعكم من دار التكليف إلى دار الجزاء، فنثيب المحسن ونعاقب المسيء ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ معطوف على ﴿ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ ويجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ عَبَثًا ﴾ أي للعبث، ولترككم غير مرجوعين " (٢) هذا هو المعنى الذي توضّحه الآية وتقرّره، فحكمة البعث والنشور من حكمة الخلق، محسوب حسابها، ومقدر وقوعها، ومدبر غايتها، وما البعث والنشور إلا حلقة في سلسلة النشأة، تلج بها كمالها، ويتم فيها تمامها، ولا ينكر الحياة الأخرى ويغفل عنها إلا الكافرون المحجوبون عن حكمة الله الكبرى، المتجلية في صفحات الكون المبنوثة في أطواء الوجود (٣) ففي الآية تعريض بهؤلاء على أغلظ وجه وأشدّه لإدراكهم هذه الحقيقة التي غفلوا عنها وحسبوا أنهم لا يرجعون إلى الله ولا يحاسبون على أعمالهم.

ما هذا إلا بشرّ مما نلكم:

ترد هذا العبارة على سبيل التعريض بسيدنا نوح عليه السلام على لسان الكبراء من قومه، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ قَالُوا الْمَوْتُ الَّذِي ذُكِّرُوا مِنْ قَبْلِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَ عَلَيْكُمْ مِثْلَ مَا اللَّهُ لَأَنْزَلَ مِنْكُمْ فَكَيْفَ نَأْسِفُكُمْ بِهَذَا فِي آيَاتِنَا الْأُولَى ﴾ (٤).

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

(٢) الكشاف: ١٦٢ / ٣. وينظر: صفوة التفسير: ٢ / ٣٢٢.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٥٠ / ٦.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٢٤. وينظر: سورة هود، الآية: ٢٧.

وهذه قوله الكبراء من القوم يطلقونها من هذه الزاوية الضيقة ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾^(١) واسلوب القصر بالنفي والاستثناء يؤكد تلك النظرة الضيقة التي ينظرون منها، فهم ينظرون إلى شخص النبي بوصفه رجلاً لا يفترق عنهم بشيء بقصر (الموصوف: النبي الرسول) على (صفة: البشرية) فحسب، دونما نظر إلى ما يدعوهم إليه من دعوة كريمة عظيمة مجرّدة عن الأشخاص والذوات، فالرسول في نظرهم بشر مثلهم يريد أن يتفضل عليهم ﴿أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ ، أي: " يطلب الفضل عليكم ويرأسكم " (١)، وأنتم أنتم فلا تخلّوه وشأنه ولا تهملوا أمره حتى يستفحل خطبه ﴿وَكَلَّمَ شَاةَ اللَّهِ﴾ إرسال الرسول ﴿لَأَنْزِلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي رُسلاً منهم ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي بإرسال الرسول من البشر إلى البشر ﴿فِي مَآبِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ يدل على فرط جهلهم بأحوال الأمم الماضية، فإن إرسال الرسل من البشر كان مشهوراً معهوداً معلوماً، وعلى قوة عنادهم بحيث أعماهم وجعلهم يعارضون ما علموا بوجوده " (٢). فهو الكذب والعناد والمكابرة، وإلا فإن إرسال الرسل من البشر إلى البشر لا من الملائكة هو رحمة من الله ورعايته بالبشر، فضلاً عن ذكرهمهم، فالنبي البشر هو من جنسهم وطبيعتهم يحسن إحساسهم ويشعر شعورهم، يالفهم ويألفونه.. فهو أقدر على إبلاغهم الرسالة بكل تكاليفها من غيره، كالملائكة، كما يقترحون، فالملائكة جنس من غير جنسهم، وطبيعة من غير طبيعتهم، فلا يألفونهم ولا يذسجون معهم كالرسل من البشر، ولكنها المكابرة التي يتوارى معنى آخر يفهم عبرتهم ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ على سبيل التعريض " بأنهم أحق منه بالنبوة، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملائكة وموازٍ لهم في المنزلة، فما جعلك أحق منهم بها ؟ " (٣)، ويقوي هذا المعنى التعريضي قولهم: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ ، بالنبوة التي هم أحق بها منه كما يزعمون لأنهم يملكون الجاه والرياسة والمال والقوة.. وهو ذات المعنى الذي قصده الكافرون والمشركون على عهد الرسول ﷺ بقولهم الذي حكاه القرآن الكريم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٤)، فهؤلاء كلوك ذلك يحسبون بحساب المادة والتجارة والقوة، وينظرون بذواتهم الصغيرة تلك النظرة الضيقة التي تحجب عنهم جوهر الرسالة

(١) الكشف: ١٤٤ / ٣.

(٢) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٢٤ / ٦.

(٣) المثل السائر: ٧٢ / ٣. وينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص ١٣٤. وينظر: علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، ص ٢٢٠.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

وطبيعة الذبوة وأهدافها التي تتعدياً مصالحهم وإبراز انسانياتهم المطموسة " فما كانوا إذن ليدركوا طبيعتها ولا ليزروا حقيقتها، وذواتهم الصغيرة الضئيلة تحجب عنهم جوهرها، وتعمي عليهم عنصرها، وتقف حائلاً بين قلوبهم وبينها، وإذا القضية كلها في نظرهم قضية رجل منهم لا يفترق في شيء عنهم، يُريد أن يتفضل عليهم، وأن يجعل لنفسه منزلة فوق منزلتهم " (١).

أولوا الأيدي والأبصار:

تتواشج الكناية والتعريض في تركيب واحد، نلاحظ ذلك في وصف الله ﷻ لأنبيائه: إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام) بأنهم: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَأَذْكُرْ عَمَلًا إِزْهَمًا تَسْحَقَ وَيُسْئَرُ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (٢). قال الزمخشري في قوله - تعالى -: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾: " لما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غلبت، فقيل في كل عمل هذا مما عملت أيديهم، وإن كان عملاً لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدي، وعلى ذلك ورد قوله ﷻ: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ يريد: أولي الأعمال والفكر، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة، ولا يجاهدون في الله، ولا يفكرون أفكار ذوي الديقات ولا يستبصرون في حكم المرضى الذين لا يقدرّون على أعمال جوارحهم والمسلوبي العقول الذين لا استبصار بهم. وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله، ولا من المستبصرين في دين الله، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكّنين منهما " (٣). وبذلك يكون التعبير القرآني: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ كناية عن العمل الصالح بالأيدي الذي هو مصدر قوة لصاحبه، فضلاً عن العمل الصالح بالنظر الصائب والحكمة والفكر السديد بالأبصار، وكلا المعنيين متصل بالآخر ومنبثق عنه ويكمّله، فهو المعنى الشامل للعمل الصالح المستقر في النفس مشاعر وأفكاراً ومن ثم يتجسد في الواقع حركة وبناءً، وبذلك يكون مظهراً من مظاهر القوة والبناء، كما تلمح الكناية إلى ذلك بالأيدي والأبصار، لذلك يجعلها القرآن نعمة تستحق الذكر الحسن والثواب الكريم.

ومن جانب آخر يمكن عدّ التعبير ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ كناية تعريضية تلوح بمعناها التعريضي من بعيد، فضلاً عن معناها الظاهر المعلوم. المعنى البعيد تعريض

(١) في ظلال القرآن: ٦ / ٢٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٤٥.

(٣) الكشاف: ٧٦ / ٤.

بالذي لا يعمل صالحاً فهو كالذي لا يد له، وبالذي لا يفكر تفكيراً سليماً صانئاً فهو كالذي لا عقل له ولا نظر (١)، فهو أعمى القلب والبصيرة لا يفكر ولا يتدبر لأنه يفقد الإيمان بالله الذي يبعث قوى النفس على التبصر الذي يوجهه إلى العمل الصالح، وفي ذلك تقابل ضمنى بين الإيمان بوصفه معلماً من معالم القوة والبناء، وبين الكفر الذي هو ضعف وإحلال وفساد للإنسان والحياة.

والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً:

يُقدم القرآن نموذجاً من الذين لا يسمعون سماع الهدى والإيمان ولا يبصرون بصر الهداية على سبيل التعريض، بهذه الآية التي يسجل بها سمة من سمات عبد الرحمن الذي إذا ذكروا بآيات ربهم حرصوا على استماعها بإذن واعية وعيون راعية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (٢)

فهذه سمة من سمات عباد الرحمن التي ذكرها السياق (٣) فهم يتلقون آيات الله بالفهم والاعتبار، فيخرون لله من غير صمم وعمى، قال الرمضشري "﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا﴾ ليس بنفي للحرور، وإنما هو إثبات له، ونفي للصمم والعمى، والمعنى: أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على الذكر بها وهم في إكبابهم عليها، سامعون بإذن واعية، مبصرون بعيون راعية، لا كالذين ينكرون بها فتراهم مكين عليها مقبلين على من يذكر بها، مظهرين الحرص الشديد على استماعهم، وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتبصرون ما فيها كالمناقين وأشباههم" (٤).

وعدت الآية كناية تعريضية تتجاوز معناها الظاهر المعلوم إلى ما تلوح به من معنى تعريضي يستهدف المشركين الذين يتكبرون على آياتهم وباطيلهم دون إدراك أو تفكير، فهم صم وعميان لا يسمعون ولا يبصرون، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس (٥). وفي الكناية التعريضية تصوير لحركة الإنكباب على الوجه بلا سمع ولا بصر حركة تشير إلى معانها، ويمثل في الجهل والتعصب الأعمى لما يتكبرون عليه على خلاف عباد الرحمن الذين يدركون إدراكاً واعياً بصيراً ما في آيات الله من صدق فيؤمنون إيماناً واعياً

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ١٠٣ / ٢.

(٢) سورة الفرقان: ٧٣.

(٣) ينظر: الآيات: ٦٣ - ٧٤.

(٤) الكشف: ٢٣٣ / ٣.

(٥) ينظر: سورة النجم، الآية: ٢٣.

يصير أ، لا تعصياً أعسى ولا انكباباً على الوجوه، وإذا ما يؤمنون إيمان الأعراف المدرج البصير (١). ومن خلال الكناية التعريضية يتقابل الفريقان على سبيل التضاد ليتجلى حال الفريقين: المشركين والمؤمنين، فيتعمق المعنى في ذهن المتلقي وحده، بين حال المؤمنين في صورتهم الوضيئة: إيماناً وإدراكاً ومعرفة.. وبين حال المشركين المعرض بهم في صورتهم المظلمة: غمياً وصساً وجهلاً.. فهما صورتان متضادتان تجلّي عالمين مختلفين. وما هي من الظالمين ببعيد:

ترد هذه الكناية التعريضية في سياق تصوير العذاب الذي حلّ يقوم لوط في قوله - تعالى -: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أُمَّهُمَا جَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سِوَاهُمَا وَأَمَطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مُّنتَهَبٍ ﴿٢٠﴾ مُّسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (٢) وهي صورة مروعة من العذاب. والمروي في التفسير " أن جبريل عليه السلام قلع المذائن بيده بالقدرة المودعة له، في صورة بركان هزّ المذائن وقلعها من محلها وطيرها إلى ارتفاع بقدر ما شاء الله، فقلعها من فوق وحطها في محلها فكان ما كان " (٣) وفوق هذا العذاب المروع الأليم أمطر الله عليهم حجارة من سجيل منضود، وذلك زيادة في تفضيع حالهم (٤) وتحقير شأنهم.

﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ قيل: " الضمير للقرى، أي هي قريبة من ظالمي مكة يمرّون بها في مسائرهم حيث جيشيء بعيد " (٥) فهي قريبة في مشهدها الذي يحكي العذاب الأليم الذي حلّ يقوم لوط، وفي عذابهم آيات للمعتبرين الذين يخافون العذاب الأليم كما قال - تعالى - في موضع آخر تعقياً على مصرع قوم لوط: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّلِينَ ﴾ (٦) وإنما ليسبيل مُّغِيمٍ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) ولكن الظالمين لا يعتبرون بمصارع الغافرين.

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٦ / ١٨٦، ١٨٧.

(٢) سورة هود، الآيتان: ٨٢، ٨٣، سجّيل: حجارة من طين، ومسوّمة: معلّمة. ينظر: تفسير الجلالين، ص ٣٠٣.

(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٤ / ٣٢٤. وينظر: الكشف: ٢ / ٣٢٥.

(٤) ينظر: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٤ / ٣٢٤.

(٥) الكشف: ٢ / ٣٢٥.

(٦) سورة الحجر، الآيات: ٧٥، ٧٧. وينظر: سورة الذاريات، الآية: ٣٧.

ويفهم التعبير القرآني: ﴿وَمَا مِنْ مِنَ الْقَدِيلِ مِنْكُمْ يَبْعِدُ﴾ على أنه كناية تعريضية تلوح بمعناها التعريضي الذي يستهدف الظالمين ويؤددهم ويهددهم بعذاب أليم بنيس كعذاب قوم لوط، فكلاهما ظالم يستحق العذاب، وسنة الله لا تحابي أحداً، فهي سنة لا تتبدل ولا تتغير تعمل عملها في حركة التاريخ^(١)، وإن اختلف نوع العذاب وشكله الذي يحل بالظالمين.

وكأين من نبي قتل معه ربيون كثير لما وهنوا لما أصابهم...:

يعرض القرآن بالمسلمين المقاتلين في معركة أخذ بما أصابهم من الوهن والاندسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ ويضعفهم في مجاهدة المشركين، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَرُوا لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ آلَ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿فَقَالَتْ لَهُمْ أَللَّهُ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢).

والمعنى الظاهر للآية كما جاء في التفسير: "وكثير من نبي قاتل وجاهد وحارب الكفار معه ربيون أي أناس علماء زهاد أتقياء منسوبون إلى ربهم نسبة الاختصاص والإخلاص، أو قاتل معه جمع كثير من أتباعه، وأصيبوا في سبيل الله بجراحات ومصائب من قتل الآباء والأولاد والحواشي والتهاب الأموال" ﴿فَمَا وَهَرُوا لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وما حصل لهم الفتور في الجهاد ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ في الدين ولا في مقابلة العدو ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وما خضعوا لهم، والله أحبهم لأنهم كانوا صابرين على الأذى في سبيل الله ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣).

وما كان قولهم مع الجهاد في سبيل الله وقبول مصائبه وجراحاته ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ آلَ﴾ هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين هضماً لها واستقصاراً والدعاء بالاستغفار منها مقدماً على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو وليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاء وطهارة وخضوع أقرب إلى الاستجابة ﴿فَقَالَتْ لَهُمْ أَللَّهُ ثَوَابُ الدُّنْيَا﴾ من النصرة والغلبة والعز وطيب الذكر. وخص ثواب

(١) ينظر: التفسير الإسلامي للتاريخ، د. عماد الدين خليل، ص ٢٧٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٦-١٤٨.

(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٢ / ٢٧٠-٢٧١، وينظر: الكشف: ١ / ٤٦٩.

الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدمه وأنه هو المعتد به عنده " (١) يحزني به عباده المؤمنين الصابرين.

غير أن الآية الكريمة: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّحْنِي قَتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّعِيفِينَ ﴾ نفهم على أنها كناية تعريضية تدطوي على معنى يعرض بالمتهمين من أرض المعركة في أحد بسبب الضعف الذي أصابهم في مجاهدة المشركين وانكسارهم واستكانتهم للمنافقين المرتدّين يقتل رسول الله ﷺ، قال الزمخشري: " وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانتكسار عند الارجاف يقتل رسول الله ﷺ ويضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم " (٢) - والتعريض بالمسلمين المنهزمين الذي يبين ضعفهم واستكانتهم ذو بعد تربوي نفسي يهدف إلى بناء تلك النفوس الضعيفة الإيمان من خلال كشف ضعفها لتجاوزها ، فما ينبغي للنفوس المؤمنة المتصلة بالله أن تضعف وتستكين في مجاهدة الكافرين، والله مولاها وناصرها وهو خير الناصرين.

وَأَنَا أَوْ يَأْتِكُمْ لَعَلِّي هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ:

ترد هذه الكناية التعريضية في قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْلَىٰ بِكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣).

ثمّة نلاحظ الآية تأمر الرسول ﷺ بتوجيه سؤال إلى المشركين ﴿ مَنْ يَرْزُقُكُمْ ﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: يرزقكم الله. وفي توجيه السؤال من الرسول ﷺ ثم الإجابة عنه بدلاً من المشركين " أشعار بأنهم مقرون به بقلوبهم، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلّموا به، لأن الذي تمكّن في صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته، ولأنهم إن تفوّهوا بأن الله رازقهم: لزمهم أن يقال لهم: فما بالكُم لا تعبّدون من يرزقكم وتوثّرون عليه من لا يقدر على الرزق " (٤)، وفي ذلك تنبيه للمشركين والزام بالحجة الواضحة التي لا تحتاج إلى البيان.

ومن ثم تأتي الكناية التعريضية بعد الزامهم بالحجة والجامهم بها ﴿ وَإِنَّا أَوْلَىٰ بِكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ والمعنى: " وإن أحد الفريقين من الذين يوحدون المرازق من

(١) الكشف: ١ / ٤٦٩.

(٢) الكشف: ١ / ٤٦٩.

(٣) سورة سباء، الآية: ١٤.

(٤) الكشف: ٣ / ٤٥٨.

السموات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدره، لعل أحد الأمرين من الهدى والضلال" (١). وليس في العبارة القرآنية إيهام بعدما ألزمهم الحجة التي تقرّ بها قلوبهم، وبعدما قدّم من التّقرير التّليغ بما فيه من دلالة واضحة على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين، ولكنه "التّعريض أفضل بالمجادل إلى الغرض، واهجم به على الغاية، مع قلّة شغب الخصم وفلّ شوكته بالهويّة. وتدحّره قول الرجل لصاحبه: علم الله الصادق مني ومنك، وإن أحننا لكاذب" (٢). فالكناية التّعريضية تهدف إلى تبيّنتهم وتسفيه ما يعيدون بالأسلوب الهادي الذي يأخذ بخناقهم، وإلا فإن الهدى واضح بيّن، وصاحبه على الحقّ مستعلٍ والضلال واضح بيّن، وصاحبه كأنه منغمس في ظلام، كما صور ذلك الحرفان، "على وفي ﴿لَمَّا هَدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾" لأن صاحب الحقّ كأنه مستعلٍ على فرس جواد يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه" (٣). ففي الحرفين اخراج للمعنى في صورة تشخيصية حيوية مؤثرة تمنحنا دلالة مصوّرة، نرى فيها الرسول ﷺ والمؤمنين على الهداية، في حين إنّ المشركين المجادلين في الضلال، وفي ذلك تقرّيب معنى الحق وأصحابه، وتقرّيب معنى الكفر والشرك وأصحابه، فصاحب الحقّ لظهور حجّته وقوة إيمانه وتمكّنه من دينه كأنه مستعلٍ ظهر جواد يهديه كيف يشاء، و(على) دالة على الاستعلاء موحية بهذا المعنى، أما أصحاب الباطل المعرّض بهم، فهم لشركهم وكفرهم ومكابرتهم كأنهم منغمسون في ظلمة ليس فيها بصيص من نور، و(في) الدالة على الظرفيّة تدلّ على هذا الانغماس في ظلمات الضلال (٤).

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٤٥٨ - ٤٥٩.

(٢) الكشف: ٣ / ٤٥٩.

(٣) المصدر نفسه: ٣ / ٤٥٩. وينظر: الاستعارة في القرآن الكريم ١ ص ٩٨.

(٤) ينظر: الكشف: ٣ / ٤٥٩. والبرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣٠٣. وينظر: نظرية الحروف العاملة ومبناها وطبيعة استعمالها القرآني بلاغياً، هادي عطية مطر الهلالي، ص ١٦٨.

(*) هو حبيب بن إسرائيل التجار (صاحب يس)، ينظر: الكشف: ٤ / ٧. وتفسير الجلالين، ص ٥٨٣.

ومالي لا أعبدُ الذي فطرني وإليه ترجعون:

يعرض القرآن بالمشاركين على لسان الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى^(١) وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفَوْرُ الَّذِينَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ أَتَسْبَحُونَ مِنْ لَا يَسْتَلْكُزْ أَعْرَ وَهُمْ مُتَعَدُونَ ﴿٢﴾ وَمَالِي لَا أَعْبُدُ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً إِنْ يَرِدْني الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٤﴾ إِنْ إِذَا لِي ضَلَالٌ مُبِينٌ ﴿٥﴾ إِنْ أَمْسَتْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ ﴿٦﴾ ﴾^(٢)

والمعنى الظاهر لهذه الآيات هو: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ أي من أبعد مواضعها ﴿ رَجُلٌ ﴾ وهو حبيب ﴿ يَسْعَى ﴾ أي يسرع في مشيه حرصاً على نصح قومه ﴿ قَالَ يَنْفَوْرُ الَّذِينَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي ثابثون على الحق والهدى ﴿ وَمَالِي لَا أَعْبُدُ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ تَلَطَّفَ في إرشاد قومه بإيراد الكلام في معرض المناصحة ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ مبالغة في تهديدهم بتخويفهم من الله الذي يرجعون إليه وهو شديد العقاب ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً إِنْ يَرِدْني الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴾ أي إذا اتخذت من دونه إلهة ﴿ لِي ضَلَالٌ مُبِينٌ ﴾ أي واضح فان اشراك ما لا يحصل منه خير ولا دفع شر ضلال ﴿ إِنْ أَمْسَتْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ ﴾ أي فاسمعوا قولي فإني أعلن ذلك ولا أبالي بأي حدث هنالك " (٣)

وقوله - تعالى -: ﴿ وَمَالِي لَا أَعْبُدُ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ينطوي على معنى تعريض^(٤) فضلاً عما قرره من معنى قريب، فهو تعريض بقومه، والمراد: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم^(٥)، ولولا التعريض لكان المناسب أن يقال: الذي فطرني وإليه أرجع^(٦)، فهو يعرض بقومه وبما يعبدون من دون الله وما يقوي التعريض ويجليه قوله بعد ذلك، فقد ساقه ذلك المساق: ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً ﴾، والمراد: أنتخذون من دونه إلهة " (٦) إلى أن قال: ﴿ إِنْ أَمْسَتْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ ﴾ دون (ربي) و (فاسمعوه)^(٧)

(١) سورة يس، الآيات: ٢٠-٢٥.

(٢) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٦ / ٤٣٣-٤٣٤.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣١٣، والاتقان في علوم القرآن: ٣ / ١٦٨.

(٤) ينظر: الكشف: ٤ / ٨، والبرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣١٣.

(٥) ينظر: الكشف: ٤ / ٨، والبرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣١٣.

(٦) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣١٣.

(٧) ينظر: المصدر نفسه والمكان نفسه.

وبذلك يتجلى المعنى التعريضي بهم وبآلهتهم، ينال منهم بطريق خفي إذ يسفه ما هم فيه حال كونهم ضالين عن الصراط المستقيم لا معذّل عنه، فهم يعبدون من لا تصح له العبادة، لأنهم عطّلوا عقولهم وقلوبهم، فيعبدون ما لا يضرّ ولا ينفّع، ولا تدخّل شفاعتهم شيئاً، ولم يمتكنوا من أن يكونوا شفعاء عن الله، ولم يقدروا على انقاذهم، فهم في عبادتهم في ضلال بين لا يخفى على ذي عقل وتمييز^(١)، فالتعريض يكشف عن حالهم بعمق، ويتّال منهم بهذه الطريقة التعريضية اللطيفة، إذ سلك المتكلم كلامه في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطّف بهم ويداريهم، فهو يتضمّن اعلامهم على صورة لا تقضي مواجهتهم بالخطاب المتكرّر، وكفه لم يعنهم، وبذلك يكون المعنى أدعى للتأثير في أنفسهم والقبول له، فضلاً عن أن هذا التعريض يدل على محاسن أخلاق المتكلم وتواضعه حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه.. وفي ذلك تعليم في الخطاب للذين يعقلون^(٢).

لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا أَجْرَمْنَا:

ويقهم التعريض بالكافرين من هذه الآية كالأية السابقة^(٣) وهي قوله - تعالى -: ﴿ قُلْ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْتَلَىٰ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾^(٤)

فلولا القصد بالآية التعريض بحال الكافرين وما هم عليه من إجرام في أعمالهم من كفر ومعاصي، لكان حق الحال من حيث الظاهر أن يُقال: (لا تسألون عما عملنا ولا نسأل عما تجرمون)^(٥) ولمكنه أسند (الإجرام) إلى المتكلم، والعمل إلى المخاطبين، على سبيل التعريض بهم، فيكون التعريض "أنخل في الإنصاف وأبلغ"^(٦) لأنه يحقق المقصود على سبيل التلطّف^(٧) بهم، وهو التأثير في أنفسهم لقبول ما تهدف إليه الآية في استدراجهم إلى الإذعان والتسليم، فالتعريض يكشف عن حالهم وما هم فيه من إجرام وتكبّ عن الصراط المستقيم، وينال منهم في صورة خفية لطيفة، فضلاً عما يدل عليه من محاسن أخلاق المتكلم في الدعوة والخطاب وهو يواجه النفوس المجرمة للكفر والمعاصي والأثم فيتلطّف معها

(١) ينظر: الكشف: ٨ / ٤.

(٢) ينظر: الكشف: ٨ / ٤، والبرهان في علوم القرآن: ٣١٣ / ٢، والاتقان في علوم القرآن: ١٤٨ / ٣.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣١٣ / ٢.

(٤) سورة سبأ، الآية: ٢٥.

(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣١٣ / ٢.

(٦) الكشف: ٤٥٩ / ٣.

(٧) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣١٣ / ٢.

هذا التلطف لعلها تتأثر وتستجيب لما يدعوهم إليه من خير، فتقلع عما هي فيه من إجرام وأثام.

لَوْ أُنْزِلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ:

ورد هذا التعبير في المثل القرآني، وهو قوله - تعالى - ﴿لَوْ أُنْزِلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ

لَرَأَيْنَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُقْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١)

وبنية هذا المثل القرآني قاذمة على التصوير المجازي في نسبة الخشوع والتصدع والخشية إلى الجبل الأصم، "وليس من شأن الجبل أن يخشع ولا أن يخشى والخشوع والخشية، كلاهما من أفعال القلوب التي لا تصدر عن جماد، إلا أن يكون ذلك من صنع البيان إذ يبت الحياة في الصخر الأصم" (٢)، والمعنى "أن الجبل لو كان مما يعي القرآن، ويعرف البيان، لخشع في ساعه، ولتصدع من عظم شأنه على غلظ إجرامه، وخشونة أكنافه، فالإنسان أخف بذلك منه، إذ كان واعياً لقوارعه، وعالماً بصوادعه" (٣) وفي ذلك بيان منزلة القرآن وعظمته، وشدة تأثيره في النفوس (٤).

غير أن هذا التعبير القرآني يمكن هذه كناية تعريضية بالإنسان الذي لا يخشى ولا يخشع، وقد كشف الزمخشري عن معناها بقوله: "والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجه" (٥).

فإذا كان الجبل الأصم يخشع ويتصدع من خشية الله، فمن باب أولى أن يخشى هذا الإنسان ويخشع وهو المعني بالخطاب، وبذلك تتجلى الدلالة التفسيرية التي يهدف القرآن إلى إحداثها في الإنسان المؤمن بخاصة وهو يتلقى آيات القرآن بالتدبر والتفكير فيتأثر ويستجيب خاشعاً من الله خاشعاً له.

ضَرَبَ الْمَثَلَ بِالْقُرْيَةِ الْأَمْنَةِ الْمُظْمَنَةِ:

- (١) سورة الحشر، الآية: ٢١.
- (٢) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص ٢٠٩. وينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ١٦٠.
- (٣) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ٣٣٠. وينظر: مواهب الرحمن تفسير القرآن: ٣٠٥/٧.
- (٤) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٣٢٢، ٣٢٤.
- (٥) الكشاف: ٤/ ٤٠٦.

يمكن أن يعدّ هذا المثل القرآني كسابقه كناية تعريضية، وهو قول - تعالى -: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾^(١)

والمثل القرآني يجسد العذاب في صورة شبح مفزع مخيف مذاق، إذ تحول الجوع والخوف وهما معنويان إلى صورة حسية على شكل لباس يغشى أهل القرية بالاستعارة التصريحية ﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ وللشريف الرضي تحليل لهذه الاستعارة منه قوله: " وإنما قال - سبحانه -: ﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ ﴾ ولم يقل: طعام الجوع والخوف، لأن المراد بذلك - والله أعلم - وصف تلك الحال بالشمول لهم، والاشتمال عليهم، كاشتمال السلايس على الجلود، لأن ما يظهر منهم عن مضيق الجوع وأليم الخوف، من سوء الأحوال، وشحوب الألوان، وضوالة الأجسام، كاللباس الشامل لهم، والظاهر عليهم " (٢)

وقد أكد الزمخشري هذا بقوله: " " وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس: كما غشى الإنسان والتمس به من بعض الحوادث، وأما إيقاع الإذاعة على لباس الجوع والخوف، فإنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس، فكأنه قيل: فأذاقه ما غشيهما من الجوع والخوف " (٣) ففي المثل " تتداخل استجابات الحواس فتضاعف حس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلغل في النفوس " (٤) واستجابات الحواس تتمثل في استعارة (الذوق) إذ تعمق درجة الاحساس ووطأة العذاب الذي عانتها هذه القرية " لأنه كما يجد الذائق مرارة الشيء فهم في الاستمرار كذلك الشدة في المذاقة " (٥).

وهذا العذاب الأليم الذي يغشى أهل القرية ويلابسهم كما جسده التصوير الاستعاري في المثل القرآني يمكن أن يفهم على أنه كناية تعريضية تستهدف في معناها التعريضي البعيد أهل مكة وما يصيبهم من العذاب الأليم، إذا هي كفرت بالله وأنعمه شأنها شأن الأمم السابقة، فضرب الله مثلاً على سبيل التعريض بمكة إنذاراً من مثل عاقبتها (٦) بل يمكن أن

(١) سورة النحل، الآية: ١١٢.

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١٩٧.

(٣) الكشف: ٢ / ٤٩٨.

(٤) في ظلال القرآن: ٥ / ٢٨٨.

(٥) النكت في إعجاز القرآن، ص ٩٠.

(٦) ينظر: الكشف: ٢ / ٤٩٧. وينظر: تفسير الجلالين، ص ٣٦٧. وينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٢٦٣.

يفهم المثل القرآني على أنه كناية تعريضية شاملة في معناها تشمل مكة وأهلها، فضلاً عن كل قرية أنعم الله عليها فكفرت بالله وأبطرتها النعمة في كل زمان ومكان. وبذلك يبقى المثل القرآني يشع بمعناه التعريضي منبذراً بالنقمة والعذاب لكل قرية تكفر بالله وأنعمه. ومن خلال ما استعرضنا من الكنايات التعريضية يدبّر أن لها سمات قديمة فهي تمتاز بالإيجاز في التعبير عن المعاني التي تهدف إليها، فهي تحقق معناها أولاً، ثم تصل إلى الغرض أو المعنى البعيد الذي ترمي إليه عن طريق المفهوم من السياق وقرائن الأحوال من غير أن تذكر الطرف المقابل المعرض به، لذا دُعيت من الأساليب البيانية التي تفيض بالأدب القرآني بما تحتمه لغته المهدبة تقويماً للخلق، وصيانة للنفس الانسانية من العبث والغيظ والإثارة المؤذية، ولذلك - أيضاً - يكون وقع المعنى مؤثراً وأقدر على أحداث الاستجابة النفسية المناسبة التي يقصد القرآن إلى إحداثها في النفس الانسانية المتلقية.

الفصل الثامن

كنايات عن يوم القيامة

تتعدد الكنايات في القرآن الكريم عن يوم القيامة، ويوم القيامة - كما يصفه القرآن - هو ذلك اليوم الذي يحدث فيه الانقلاب الكوني العظيم^(١)، وما يجلي شدة أهوال ذلك اليوم وتأثيره في الناس قوله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَعْوًا رِيَّكُمْ إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَأْنٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرْوَنَهَا تَدْعُلُ كُلُّ مِرْصَمَةٍ مِمَّا ارْتَضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتٍ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^(٢)

ويستخدم القرآن في التعبير عن ذلك اليوم العظيم الفاظاً كنادية متعددة، كل لفظ يجلي صفة من صفاته وأهواله، وكلها تشير إلى: انفراط عقد هذا الكون المنظور، واختلال روابطه وضوابطه التي تمسك به في هذا النظام البديع الدقيق، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها من قيد الناموس^(٣) الذي يضبطها بقدره الله وإرادته. كما أن تعدد هذه الكنايات وتجمعها على صعيد واحد يقرّب إلى الأذهان والقلوب على نحو من التوكيد أهوال ذلك اليوم وشدته على الكون والحياة والإنسان فيحدث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن، إذ الملاحظ أن هذه الكنايات قد جاءت في سور مكية التي من أبرز أهدافها تأسيس أصول الدين الكبرى في القلوب والنفوس^(٤) وهي: توحيد الله ﷻ في الوحيّة وربوبيته للكون والخلق جميعاً، وفي مقدّماتها: الإنسان الذي كرمه الله أيّما تكريم وفضّلته على كلّ من خلق تفصيلاً^(٥). لذلك كان من صفات السور المكية وبخاصة السور القصيرة منها أنها ذات أسلوب وإيقاع قويين شديدين في وقعهما يعملان على قرع القلوب بحقائقها التي تؤدّبها^(٦).

(١) ينظر مثلاً: سورة التكوين، الآية: ١١، وسورة الانقطار، الآيات: ١-٤، وسورة الانشقاق، الآيات: ١-٥، وسورة المرسلات، الآيات: ١١-٨.

(٢) سورة الحج، الآيات: ٢٠-١.

(٣) في ظلال القرآن: ٨ / ٢٥٣.

(٤) ينظر: صفوة التفاسير: ٣ / ٤١٤، وينظر: التفسير البياني القرآن الكريم، د. عطاشة عبد الرحمن، ٧٩ / ١.

(٥) ينظر: سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٦) ينظر: التعبير الفني في القرآن، بكرى شيخ أمين، ص ٢٥٢، وينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم: ١ / ٧٩.

منها هذه الكنايات التي ترد - على الأعم الأغلب - في مطالع هذه السور فتلقت الانذياه لفتاً قوياً في تلقى المعاني والأصول الكبرى للدين الحنيف.

ومما يتصل بهذه الكنايات عن يوم القيامة كنايات أخرى تتعلق بمشاهد الأنجين والمعذبين في ذلك اليوم المشهود. مشهد الناجين وهم أصحاب اليمين الذين يؤثرون كتبهم باليمين، ومشهد المعذبين وهم أصحاب الشمال الذين يؤثرون كتبهم بالشمال أو من وراء الظهر. وإيتاء الكتاب باليمين للناجين الفائزين، وإيتاء الكتاب بالشمال أو من وراء الظهر للمعذبين الخاسرين هي كنايات تشير إلى المعنى المكنى عنه الذي يقصده القرآن الكريم، وسنحاول عرضها بعد عرض الكنايات عن يوم القيامة كل على حدة بالتحليل الذي يكشف عن المعنى الذي ينطوي وراءها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

الواقعة:

تلقي الواقعة كناية عن يوم القيامة في موطنين من القرآن الكريم في قوله - تعالى -:

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ لَيْسَ لَوَقْعِهَا كَذِبٌ ۖ خَاضِعَةٌ رَافِعَةٌ ۖ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۖ وَنَسَبَتِ الْوَسْطَىٰ ۖ بَسًا ۖ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۖ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۖ ﴾^(١) وجاءت في قوله - تعالى - أيضاً: ﴿ لَقَدْ أَشْجَىٰ فِي السُّورِ نَفْخَةً وَاجِدَةً ۖ وَجُلَّتِ الْأَرْضُ جُلًّا ذِكَاذَكَةً وَاجِدَةً ۖ فَيَوْمَ ذَٰلِكَ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ ﴾^(٢).

﴿ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ ﴾ المراد: القيامة، وصفت بالوقوع لأنها تقع لا محالة لأي: إذا وقعت التي لا بد من وقوعها، ووقوع الأمر نزوله^(٣).

وقد عدل عن التصريح بلفظ ﴿ الْفِتْنَةُ ﴾ إلى الكناية عنه بلفظ ﴿ الْوَاقِعَةُ ﴾ لا لاذيات معناها للقيامة حسب، وإنما لاذيات الشاهد والدليل، وهو أنها ستقع لا محالة، وحتمية وقوعها يشهد بها العقل الإنساني في دراساته العلمية والفلكية التي تؤكد سير العالم إلى نهاية محتومة. وسيركب على هذا الوقوع مشاهد محسوسة للفائزين بالجنة والخاسرين الذين يساقون إلى جهنم إن لتعبير عن القيامة بالكناية ﴿ الْوَاقِعَةُ ﴾ تدل فكرة البعث والنشور من

(١) سورة الواقعة، الآيات: ١-٤.

(٢) سورة الحاقة، الآيات: ١٣، ١٤.

(٣) ينظر: الكشاف: ٤ / ٣٦٢.

دائرة الجدل إلى المسلمات^(١) وفيه منقح وقعة صادقة ليس لها رجعة ولا ارتداد^(٢) في صورة كل ما تهويل وتفخيم لسانها، والتهويل يتجلى من المطمح، فهو يبدأ بإذا الشرطية المحذوف جوابها، وحذف جواب (إذا) يحقق دلالة التهويل والتفخيم لمعناها إذ يترك لخيال المثالي ونفسه أن يذهب في تخيله وتصوره كل مذهب وكله - جواب إذا المحذوف - لا تحيط بوصفه الألفاظ والعبارات أو ليس لها طلاقة تعبيرية عما سيحدث ويقع^(٣) فضلاً عن أن لفظ الكناية **﴿الواقعة﴾** في حد ذاته يفيد العموم والشمول والأشدة والمبالغة في إثبات المعنى وصورته، وذلك لأن لفظ الكناية من الأسماء التي خدمت بناء التأكيد فانتقلت من الوصفية إلى الأسمية، لذا كانت أغلب أسماء الدشر مؤنثة كالقارعة والحاقة والطامة والصاخة لما فيها من العموم والشمول والأشدة والقهر^(٤)، والتعريف في **﴿الواقعة﴾** تعريف الجنس لتمييزها من بين الأجناس لأن في استحضاره زيادة تهويل لأنه تحقيق بالتدبير^(٥) وتتصاعد دلالة تهويل **﴿الواقعة﴾** وتفخيمها بتكرار **﴿إذا﴾** الشرطية دون ذكر جوابها أيضاً: **﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا * وَسُمِّيَ الْجَبَالُ تُبًا * فَكَانَ مَبَاءً مُبْنًًا * وَكُنَّ الْأَوْدِيَا تُنًى *﴾**

وما ذكر من أحداث وأحوال من رج الأرض، وبن الجبال وجعلها هباء منبثاً هو بمثابة مقدمة مروعة سيكون فيها، فهو التهويل والتفخيم لسانها، فضلاً عن أن الجرس الموسيقي لآلف الكنائي **﴿الواقعة﴾** يتناسب مع سياق التهويل والتفخيم ويدل عليه، فـ **﴿الواقعة﴾** بمعناها وبجرس اللفظ ذاته، بما فيه من مد ثم سكون يتوسطهما حرف القاف من حروف الحلق المعروفة بضخامة صوتها وشدة وقعها في السمع وفي النفس تلقى في الحسن كما هي ثقل ضخمة ينقض من على ثم يستقر، لغير ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال^(٥)

(١) ينظر: سورة الواقعة ومنهجها في العقائد، محمود محمد غريب، ص ٢٧. ولمزيد من التفصيل في توضيح الأدلة العقلية والأخلاقية والاجتماعية التي تكمل على حتمية وقوع الواقعة. انظر الصفحات: ١٧ وما بعدها من المرجع نفسه.

(٢) ينظر: الكشاف: ٤ / ٣٦٣.

(٣) حذف جواب إذا في القرآن يشكل ظاهرة بلاغية ملحوظة في سياق يوم القيامة وهي تحقق إيجازاً وبلاغة في التعبير، ينظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن، ص ٣٤٨.

(٤) ينظر: معاني الأبدية في العربية: ١٢٢، ١٢٣، والمغرب يستعملون التأكيد دلالة على المبالغة في النوع. ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ١٥٩.

(٥) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ١٥٩.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ٧ / ٦٦٤.

على أن أجلى إحياء لكناية ﴿الْوَاقِعَةُ﴾ هو حتمية وقوعها، لذلك قال بعدها ﴿لَيْسَ يُوقَعُهَا كَاذِبَةٌ﴾ لتأكيد ذلك المعنى وترسيخه في الذهن والحس. فهي لا بد واقعة، كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تكون واقعة، فهي ذات إحياء مقصود في صدد الارتياح فيها والتكذيب^(١).

القارعة :

وردت الكناية ﴿الْقَارِعَةُ﴾ في قوله - تعالى - : ﴿الْقَارِعَةُ ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوثِ ﴾ (٢)

﴿الْقَارِعَةُ﴾ كناية عن ﴿الْفِتْنَةُ﴾ ، وقد عدل عن التصريح بلفظ ﴿الْفِتْنَةُ﴾ إلى الكناية بلفظ ﴿الْقَارِعَةُ﴾ لا لاثبات ذلك المعنى للقيامة، وإنما لاثبات شاهده ودليله، وهو أنها تفرع القلوب وترعجها بأهوالها، وذلك تفخيماً لشأن القيامة في القوم " (٣).

ولفظ الكناية ﴿الْقَارِعَةُ﴾ في حد ذاته يقيّد العموم والشمول والشدة والقهر في اثبات معناها، لأنها من الأسماء التي ختمت بئاء التانيث فانتقلت من الوصفية إلى الاسمية، والكناية ﴿الْقَارِعَةُ﴾ ليست وصفاً لكل ما يفرع وإنما هو اسم لهذا اليوم المخصص^(٤) كما أفاد التعريف تمييزاً لها من غيرها، فهو يوم القيامة الذي لا يحيط بوصف أهواله العقل والتصور، لذلك فإن السياق يفخم من شأن يوم القيامة ويؤكد ويَعْظِمُه بالاستفهام والتكرار: ﴿الْقَارِعَةُ ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿ ، فهو الأمر العظيم الذي يُذِيرُ الدَّسَائِلَ، ثم " أجاب بسؤال التجهيل ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿ ولم يُجِبْ عن ما هيّة ذلك اليوم وحقيقته، فهو فوق التصور والإدراك أجاب بما يكون فيه ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ ، وهذا الأسلوب الذي يفخم من شأن يوم القيامة ويَعْظِمُه هو الملحوظ في كنايات يوم القيامة المروّع المفرع.

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٨ / ٢٥٣.

(٢) سورة القارعة ، الآيات: ١ ، ٥ ، ٥ ، وينظر: صورة الحاقة ، الآية: ٤.

(٣) علم البيان ، د. عبد العزيز عتيق ، ص ٢٢٣.

(٤) ينظر: معاني الأنبياء في العربية ، ص ١٢٢.

على أن أجلى إحياء للكناية ﴿الْقَارِعَةُ﴾ أنها تفرع القلوب والأسماع بفنون الأهوال والأفزع (١) وتفرع الكون بالدمار والتحطيم، ويعمق هذا الإحياء الجرس الموسيقي المنبعث من حروف لفظ ﴿الْقَارِعَةُ﴾ القاف والمراء والعين المعروفة بقوتها وشدةها، هذا فضلاً عن المد في صوت الألف.

وأصل القرع: " الضرب بشدة وقوة، تقول العرب: قرعهم القارعة وفقرتهم الفارقة، إذا وقع بهم أمر عظيم " (٢)، ووردت ﴿قَارِعَةً﴾ ﴿...وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ (٣) ﴿قَارِعَةً﴾ كناية عن أمر عظيم يقع بهم، وتكثير الكناية ﴿قَارِعَةً﴾ يدل على العموم والشمول في المعنى، قال الزمخشري: " تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا ﴾ من كفرهم وسوء أعمالهم ﴿قَارِعَةً﴾ داهية تفرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلياء والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ القارعة ﴿قَرِيبًا﴾ منهم فيفزحون ويضطربون ويتطايروا إليهم شرارها، ويتعدى إليهم شرورها " (٤).

فهي ذات معنى شامل وصفاً لكل ما يفرعهم ويزعجهم من صنوف البلياء في حياتهم الدنيا بسبب كفرهم وسوء أعمالهم، وبهذا التكثير للكناية تفرق في دلالتها عن ﴿الْقَارِعَةُ﴾ بهذا التعريف في دلالتها المخصصة ليوم القيامة، فهي ليست وصفاً لكل ما يفرع، وإنما هي اسم ليوم القيامة على وجه التخصيص. وعلى الرغم من اشتراكهما في دلالة العذاب إلا أن

﴿قَارِعَةً﴾ خاضعة للوصف والتصوّر، أما ﴿الْقَارِعَةُ﴾ فإنها لا تخضع للوصف والتصوّر لهولها وعظيم شأنها يذهب الخيال في تصوّر شأنها كل مذهب، فهي تفرع قلوب الناس جميعاً وتفرع الكون بالدمار والتحطيم، فيضاعل أزاءها كل هول أو قارعة تفرع الناس وترعجهم في حياتهم الدنيا. فمن شأن الكناية ﴿الْقَارِعَةُ﴾ بأهوالها العظيمة التي لا يحيط بها الوصف أن تحدث الاستجابة النفسية المقصودة التي يقصد القرآن إثارتها في المتلقي ليحقق أهدافه الدينية الكبرى.

(١) ينظر: تفسير أبي السعود: ١٩٢/٩.

(٢) صقوة التفسير: ٣/ ٥٩٥، وينظر: لسان العرب: ٨/ ٢١٥ (قرع).

(٣) سورة القارعة، من الآية ٣١.

(٤) الكشف: ٢/ ٤١٣.

الحاقة:

جاءت ﴿الْحَاقَّةُ﴾ كناية عن يوم القيامة في قوله - تعالى -: ﴿الْحَاقَّةُ وَالْحَاقَّةُ وَمَا أُوتِيَكَ مَا الْخَاقَّةُ ۖ كَذَبْتَ تَسْمُوءَ وَعَادًا قَدْرَارَةً ۖ﴾ (١)

وقد عدل عن التصريح بلفظ ﴿الْقِيَمَةُ﴾ إلى الكناية بلفظ ﴿الْحَاقَّةُ﴾ وذلك لاثبات الشاهد والدليل، وهو أنها تحقق في وقتها فتنزل بحكمها على الناس بالحق وفي ذلك تفخيم لشأن القيامة في النفوس. ولفظ الكناية ﴿الْحَاقَّةُ﴾ يفيد العموم والشمول والشدة والمبالغة في إثبات المعنى، وهو اسم على وجه التخصيص ليوم القيامة، إنها تحقق الحق في ذلك اليوم الذي لا يحيط به العلم والإدراك.

ويعتد الأسلوب الذي تشكلت فيه الكناية معني تفخيم الحاقة وتبويها منذ مطلع سورة الحاقة، وذلك بالاستفهام والتكرار، فالمطلع يبدأ بالكناية ﴿الْحَاقَّةُ﴾ كلمة مفردة لا خبر لها في ظاهر اللفظ: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستعظام لما هيته هذا الحدث العظيم: ﴿مَا الْخَاقَّةُ﴾ ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجهيل، وإخراج المسألة عن حدود العلم والإدراك: ﴿وَمَا أُوتِيَكَ مَا الْخَاقَّةُ﴾ ثم لا يجيب عن هذا السؤال. ويدعك واقفاً أمام هذا الأمر المستهول المستعظم، الذي لا تدريه، ولا يتأتى لك أن تدريه! لأنه أعظم من أن يحيط به العلم والإدراك " (٢)

على أن أجلى إحياء للكناية ﴿الْحَاقَّةُ﴾ هو أنها تحقق في وقتها بالحق والجرس الموسيقي يعمق هذا الإحياء ويجلبه فايقاعها " أشبه شيء يرفع النقل طويلاً، ثم استقراره مكيناً. رفعه في مدة الحاء بالالف، وجدة في تشديد القاف بعدها، واستقراره بالانتهاء بالناء المربوطة التي تنطق هاء ساكنة " (٣). فيستقر معناها في الذهن والحسن والوجدان. وتصعيداً لوصف شدة الحاقة وما تنزل به بالحق من العذاب بالمكثبين قال بعد ذلك: ﴿كَذَبْتَ تَسْمُوءَ وَعَادًا قَدْرَارَةً﴾ التي تقرر التماس بالافزاع والأهوال، والسماء بالانشقاق والانفطار، والأرض والجبال بالنكس والذسف، والتجوم بالطمس والاندكاد، ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع في الحاقة: زيادة في وصف شدتها " (٤)

(١) سورة الحاقة، الآيات: ١-٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٨ / ٢٥٠.

(٣) المصدر نفسه: ٨ / ٢٤٦.

(٤) الكشاف: ٤ / ٤٧٩.

كله قال: يفرّ من أخيه، يل من أبويه، يل من صاحبه وبذيه " (١) على سبيل ذكر الخاص فالأخص.

وأجلى إحياء للكناية **﴿الطَّائِفَةُ﴾** العنف في أهوالها النافذة الخلقة فتصمّ أذان الناس بدواهيها الشديدة، فتقطع الروابط والشائج بين أقرب الناس صلةً ورحماً فتلقي في الحس والوجدان تبعية ما يتحمّله الإنسان مجرداً من الوشائج والصلات إلا صلته بالله **﴿وَتَقَوَّاهُ﴾**

الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى:

تلقي الطائفة الكبرى كنايةً عن يوم القيامة في قوله - تعالى - **﴿إِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾** **﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَئَى﴾** (٢).

وقد عدل القرآن عن التصريح بلفظ **﴿الْقِيَمَةُ﴾** إلى الكناية **﴿الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾** لآثبات الشاهد لها والدليل، وهو أنها تطمّ بدواهيها على الدواهي فتعمّ وتعلو، فهي **﴿الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾** ليست وصفاً لكل طائفة تأتي بالأمور الهائلة الفظيعة، وإنما هي اسم لذلك اليوم العظيم على وجه التخصيص الذي لا يتمكّن معها العقل والإدراك تصوّر طومومها. قال ابن عباس (رضي الله عنهما): " هي القيامة سميت بذلك لأنها تطمّ على كلّ أمر هائل مغطّ " (٣) وقال الزمخشري: " **﴿الطَّائِفَةُ﴾** الداهية التي تطمّ على الدواهي، أي تعلو وتغلب، وفي أمثالهم: جرى الوادي فطمّ على القربوهي القيامة لطمومها على كلّ هائلة " (٤) وبناء الكناية وجرسها الموسيقي بصوّران هذا المعنى ويقربانه، فصيغة الكناية **﴿الطَّائِفَةُ﴾** تدل على العموم والشمول والشدة والمبالغة، لأنها من الأسماء التي ختمت بئاء الناذية فقلّبت من الوصفية إلى الأسمية (٥) فأقادت هذه الدلالة فضلاً عن وصفها بالكبرى **﴿الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾** لتقوى هذه الدلالة ولتميّزها عن أية طائفة أخرى تأتي بالدواهي والأمور العظيمة، كما أن " الطائفة لفظة مصورة بجرسها لمعناها، فهي تطمّ وتعمّ وتربي وتطغى " (٦) على كل شيء في الكون والوجود، أنها تطمّ على السماء المبينة، والأرض المدحوة، والجال

(١) الكشف: ٤ / ٥٥٣، ٥٦٤.

(٢) سورة النازعات: ٣٤، ٣٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٤٧٠.

(٤) الكشف: ٤ / ٥٥٧.

(٥) معني الأبنية في العربية، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٦) مشاهد القيامة في القرآن، ص ١٩٣.

المرساة، والليل المغطش، والضحي المخرج، أنها تطعم على هذا كله، وليغطي مشيها على تلك المشاهد جميعاً^(١)، كما يبرز السياق لنا ذلك قبل مشهد الطامة ﴿عَنْتُمْ أَشَدُّ ظُلُمًا أَوْ أَنْتُمْ بَلَّتُمْ﴾ ﴿رَفَعَ سَعَتَكُمْ فُتُوتَهَا﴾ ﴿وَأَفْطَسَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ ﴿وَالْأَرْضُ بِمَدِّ ذَلِكَ ذَحَبًا﴾ ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ ﴿وَالْجِبَالُ أَوَّاهًا﴾ ﴿مَنْكَا لَكُمُ وَلَا تَتَمَكَّمُ﴾ ﴿وَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾^(٢)، ومن ضمن ما تطعمه الطامة الكبرى هو المتاع الموقوت الذي ينتهي إلى أجله، قال صاحب الظلال: "إن الحياة الدنيا سئاع، متاع مقدر بدقة وإحكام. وفق تدبير يرتبط بالكون كله ونشأة الحياة والانسان. ولكنه متاع ينتهي إلى أجله.. فإذا جاءت الطامة الكبرى غطت كل شيء، وطمت على كل شيء. على المتاع الموقوت، وعلى الكون المتين المقدر المنظم. على السماء المبنية والأرض المدحوة والجبال المرساة والأحياء والحياة وعلى كل ما كان من مصارع ومواقع، فهي أكبر من هذا كله، وهي تطعم وتعم على هذا كله! عندئذ يتذكر الانسان ما سعى، يتذكر سعيه ويستحضره، إن كانت أحداث الحياة، وشواغل، المتاع أغفلته عنه وأنسته إياه، يتذكره ويستحضره ولكن حيث لا يفقهه التذكر والاستحضر إلا الحسرة والأسى وتصور ما وراءه من العذاب والبلوى!"^(٣)

فأجلى إحياء للكناية ﴿الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ الذي يبرز من خلال سياق الآيات ويتجلى فضلاً عن طم كل شيء بما فيها السماوات والأرض وطم كل أمر هائل مقطوع، هو أنها تطعم ذلك المتاع الموقوت الذي يغتر به الانسان فيلهيه عما خلق له ويغطي، فما أحرى بالانسان أن يتذكر في حياته الدنيا قبل مجيء الطامة الكبرى حين لا ينفع التذكر.

(١) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص ١٦٣.

(٢) سورة النازعات، الآيات: ٢٧-٣٤.

(٣) في ظلال القرآن: ٨ / ٤٤٦.

الغاشية:

وردت ﴿الْفَنَشِيَّةُ﴾ كناية عن يوم ﴿الْقِيَمَةِ﴾ في قوله - تعالى -: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَنَشِيَّةِ﴾^(١).

﴿الْفَنَشِيَّةُ﴾ كناية عن ﴿الْقِيَمَةِ﴾ وقد عدل القرآن عن التصريح بلفظ ﴿الْقِيَمَةِ﴾ إلى لفظ ﴿الْفَنَشِيَّةُ﴾ لاثبات شاهدها ودليلها، وفي ذلك تعظيم لها في القلوب والنفوس، فالكناية دالة على أنها تغشى الناس بعذابها وتلبسهم أهوالها.

فالكناية اثبات لهذا النوع من عذاب يوم القيامة على سبيل التخصيص، قال الزمخشري: "﴿الْفَنَشِيَّةُ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها، يعني: ﴿الْقِيَمَةِ﴾"^(٢)، والسياق يجلي ملابسة العذاب وجوه الكافرين ومخالطته لها على نحو من التهويل الذي يفيد الاستفهام بـ ﴿هَلْ﴾ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَنَشِيَّةِ؟﴾ إذ يلفت الاستفهام الانتباه لفتاً إلى استماع خبرها، والاطلاع على شأنها، وفي ذلك تعظيم لشأنها وتفخيم له، والجواب عن هذا الاستفهام الذي يسأل عن "﴿الْفَنَشِيَّةُ﴾"، يعرضه السياق تفصيلاً، فنلاحظ في جانب منه كيف يرسم عذاب ﴿الْفَنَشِيَّةِ﴾ على وجوه الكافرين حيث تفك ج^(٣) فهي وجوه خاضعة ذلاً وإرهاقاً ﴿عَامِلَةٌ نَاصِيَةٌ﴾ ﴿تَمَلَّ نَارًا حَامِيَةً﴾ ﴿تُشَقُّ مِنْ عَيْنٍ مَّائِيَةٌ﴾^(٤) بالغة الحرارة لا تبرد ولا تروى ﴿تُشَقُّ مِنْ عَيْنٍ مَّائِيَةٌ﴾ ﴿لَيْسَ لَهُمْ مَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ﴾ ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾^(٥) فهي تطعم من شوك ترعاه الإبل إذا كان رطباً وتعافه إذا جف، فيجتمع على ذلك الوجوه عذاب الروح بالذل والخزي، فضلاً عن عذاب البدن بالنصب والنار، إلى عذاب الظمأ والطوى، والشراب والطعام، بما هو أشد من الظمأ والطوى. وفي الجانب الآخر نلاحظ ما يقابل هذا على سبيل التضاد نعيم المؤمنين في يوم ﴿الْفَنَشِيَّةِ﴾ وهو يرسم على وجوههم: ﴿وَجُودٌ﴾ ﴿يَوْمَ لَا نَعْمَةٌ﴾ ﴿لَسَعْيِهِمْ رَاضِيَةٌ﴾ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا نَفْيَةً﴾ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ ﴿فِيهَا مَرْوٌ مَرْوَةٌ﴾ ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ ﴿مَوْسُوعَةٌ﴾ ﴿وَمَنَارٌ مَّصْنُوعَةٌ﴾ ﴿وَزَكَرِيَّاءُ مَبْنُوءَةٌ﴾^(٦) فوجوه المؤمنين ناعمة، راضية عن مسعاها، في

(١) سورة الغاشية، الآية: ١.

(٢) الكشاف: ٤ / ٥٩٢. وينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٥٠٣.

(٣) الآية: ٢.

(٤) الأيتان: ٣. عملة ناصية: قد عملت عملاً كثيراً ونصبت فيه وصبحت يوم القيامة ناراً حامية. ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٥٠٣.

(٥) الآيات: ٥ - ٧.

(٦) الآيات: ٨ - ١٦. وينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص ١٦٠.

جنة عالية هادئة لا تسمع فيها لاغية، فيها عين جارية روية عذبة، ولهم الراحة في السرر المرفوعة، والأكواب المهيأة للشراب، بل الرفاهية في الوسائد المصفوفة، والبسط المفروشة^(١). وإبراز نعيم المؤمنين الذي يلايس وجوههم ويخالطها في يوم ﴿الْفَتْحَةِ﴾ العظيمة بافزازها التي تلايس الكافرين بعذابها له قيمته الخاصة^(٢)، إذ يجلى تكرم الله ﷻ لهم، في منجاة بمفازتهم من عذابها الذي يغشى كل شيء.

الآزفة:

جاءت ﴿الْآزِفَةُ﴾ كناية عن يوم القيامة في قوله - تعالى -: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ^(٣).

﴿الْآزِفَةُ﴾ كناية عن ﴿الْقِيَمَةِ﴾، وقد عدل القرآن عن التصريح بلفظ ﴿الْقِيَمَةِ﴾ إلى لفظ الكناية ﴿الْآزِفَةُ﴾ وذلك تعظيماً لشأنها وتعظيماً من خلال إثبات المعنى الذي تحمله ﴿الْآزِفَةُ﴾ ليوم القيامة والذي من شأنه إحداث الأثر النفسي المتمثل بتخويف المتلقي وترهيبه من شأنها، إذ الكناية تصوّر ﴿الْقِيَمَةَ﴾ وكأنها قد ﴿أَزِفَتْ﴾ بالعذاب والهلاك، والتعبير عذبا بالماضي ﴿أَزِفَتْ﴾ يدلّ دلالة بالغة على تحققها وكأنه قد فرغ منها، ومجيء الكناية ﴿الْآزِفَةُ﴾ فاعلاً من مادة الفعل الماضي ﴿أَزِفَتْ﴾ للتحويل على السامع لتذهب النفس كل مذهب ممكن في تعيين هذه التي ﴿أَزِفَتْ﴾، فضلاً عن التعريف في الكناية، فهو تعريف جنس لتمييزها من بين الأجناس لأن في استحضاره زيادة تهويل لأنه حقيق بالتدبير^(٤).

وقال الزمخشري: "﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ قربت، الموصوفة بالقرب في قوله - تعالى -: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾"^(٥)، فهي قد "اقتربت كاسحة جارفة، وهي الطامة والقارعة التي جاء النذير يحذركم إياها أو هو العذاب الذي لا يعلم إلا الله نوعه وموعده، ولا يملك إلا الله كشفه ودفعه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾"^(٦).

(١) مشاهد القيامة في القرآن، ص ١٦٠.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص ١٦٠.

(٣) سورة النجم، الآية: ٥٧، ٥٨. وينظر: سورة غافر، الآية: ١٨.

(٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ١٥٨ - ١٥٩.

(٥) سورة القمر، من الآية: ١.

(٦) الكشاف: ٤ / ٣٣١.

(٧) في ظلال القرآن: ٧ / ٦٣٣.

فأجلى إحياء للكناية ﴿الْآزِفَةُ﴾ هو قرب أروفيها بكل أهوالها وشذائدها التي صوّرتها الكنايات السابقة، فهي الطامة والقرعة والغاشية والحقاقولكن السياق هنا يبرز إحياء قريبها وسرعة وقوعها لأنه إنذار وتحذير من العذاب والهلاك الذي حلّ بالأقوام العابرة: قوم نوح وعاد وثمود ولوط، يذكر به ويُنذِر: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿١﴾ وَثَمُودَ ثَمَارًا ثَانِيًا ﴿٢﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَهْلًا لِّعَذَابِنَا ﴿٣﴾ وَأَلَمُؤُنَا أَنفُسُهُمْ فَشَفَّاهَا عُنًى ﴿٤﴾ يَأْتِيكَ الْذِّكْرُ لَتَمْلَأَنَّ مِنْهُ ذُنُوبًا مِّن مِّنْهُ ﴿٥﴾﴾ (١) فناسب السياق أن يكون الإنذار بعذاب للقيامة بلفظ الكناية ﴿الْآزِفَةُ﴾ الدالة على الإنذار الشديد بقرب وقوعها.

الراجعة والرافدة:

وردت هاتان الكنيتان اللتان تصوّران على نحو شديد ما يقع من الهول والاضطراب في الكون يوم القيامة في قوله - تعالى -: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿١﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٢﴾ تُلَوِّحُ يَوْمَئِذٍ رِّجَفَةٌ ﴿٣﴾ تَبْسُطُهَا تُسَبِّطُهَا ﴿٤﴾﴾ (٢)

﴿الْإِجْفَةُ وَالْإِجْفَةُ﴾ كنييتان، وقد ورد لهما أكثر من معنى تحتمله الكنييتان في أداء الغرض المقصود منهما، قال الزمخشري: "﴿الْإِجْفَةُ﴾ الواقعة التي ترجف عندها الأرض والجبال، وهي النفخة الأولى: وصفت بما يحدث بحوثها ﴿تَبْسُطُهَا الرَّادِفَةُ﴾ أي الواقعة التي تردف الأولى، وهي النفخة الثانية. ويجوز أن تكون الراجعة من قوله - تعالى -: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفٌ لِّكُم مِّمَّا تَشْتَعِلُونَ﴾ (٣) أي ﴿الْقَيْئَمَةُ﴾ التي يستعجلها الكثرة استبعاداً لها، وهي رادفة لهم لاقتربها. وقيل: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ الأرض والجبال، من قوله: ﴿الرَّادِفَةُ﴾ (٤) وجوّج: السماء والكواكب، لأنها تشق وتنتشر كواكبها على أثر ذلك" (٥).

وفي ضوء ذلك نلاحظ أن المعنى الممكن عن بلفظ الكناية ﴿الْإِجْفَةُ﴾ هو:

- الواقعة، وهي (النفخة الأولى) للحدث العظيم (يوم القيامة) ووصفت بالراجعة بما يحدث بوقوعها وهو: رجفان الأرض والجبال والأحياء جميعاً.
- الأرض والجبال، ويعزز هذا المعنى، قوله - تعالى -: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾.

(١) سورة النجم، الآيات: ٥٠، ٥١.

(٢) سورة التازعان، الآيات: ٦، ٧.

(٣) سورة النمل، من الآية: ٧٢.

(٤) سورة المزمل، من الآية: ١٤.

(٥) الكشاف: ٤ / ٥٥٤.

ونلاحظ أن الـكنى عنه بلفظ الكناية ﴿الرَّادِفَةُ﴾ هو:

- الواقعة، وهي (النفخة الثانية) التي تردف (النفخة الأولى)، ويعزز هذا المعنى قوله

﴿تَعَالَى فِي السَّحَابِ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يُنظَرُونَ﴾ (١).

- سماء، وما فيها أي تردف الأرض وما عليها فتتبعها في الدمار والاندثاق وتناثر كواكبها على أثر ذلك.

- قيامة، التي يستعجلها الكفرة استبعاداً لها، وهي رادفة لهم لاقترابها.

وفي ضوء هذا المعنى للرادفة تكون ﴿الرَّجْعَةُ﴾ مقدمة لوقوع الحدث العظيم ﴿الْقِيَمَةُ﴾

ويمكن أن نفهم ﴿الرَّجْعَةَ﴾ على أنها كناية عن يوم القيامة، ووصفت بالراجعة بما

يحدث بوقوعها من رجفان الأرض والجبال وزلزلة لها واضطراب نظام الكون والأحياء جميعاً، وكل هذه مظاهر تنبئ عن شدة ذلك اليوم العظيم الذي نياغت فيه الناس بالراجعة، كما دلّ الإسناد المجازي للكناية ﴿الرَّجْعَةُ﴾: 'إذا أسند الرجف إلى الأرض نفسها،- والأصل أنه راجعة' مرجوة

لا راجعة، فيتحقق بهذا الإسناد مياغة لا يبري معها الإنسان يوم ﴿الْقِيَمَةِ﴾ من أين جاء الرجف، وفيه تركيز للانتباه في أخذة الرجفة (٢).

وأما ﴿الرَّادِفَةُ﴾ فيمكن أن نفهم على أنها كناية عن كل ما يتبع الرجفة من بعثرة ما

في القبور (٣)، للحشر والحساب، ويقوي هذا المعنى أنه يتصل بما بعده: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِعَةٌ﴾ ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾.

ومن شأن هذه الأحداث التي ستقع يوم ﴿الْقِيَمَةِ﴾ أن يحس القلب البشري معها

بالزلزلة والرجفة والهول والاضطراب، وأن يهتز هزة الخوف والوجل والرعب الذي لا ثبات معه ولا قرار، ويدرك ويحس حقيقة قول الله ﷻ: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِعَةٌ﴾ ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾.

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) ينظر: التفسير البياني للقرآن: ١ / ١٣١.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١ / ١٣٢.

﴿ فهي شديدة الاضطراب، يرسم الخشوع في أبصارها فيشير إلى الذل والخوف والانكسار والانهيار ^(١) ﴾

ويتجلى التناسب الفني في التعبير الكناني ﴿الرَّجْفَةُ﴾ مع القلوب الواجفة والأبصار الخاشعة، فواجفة أي: " شديدة الاضطراب " ^(٢) و ﴿خَشَعَةٌ﴾ أي " ذليلة " ^(٣) بما عاينت من أهوال ﴿الرَّجْفَةُ﴾ التي يرحف عندها كل شيء ويضطرب، ويملكه الخوف والرعب فيرسم على الأبصار استسلاماً وذلّة وانكساراً.

ومن خلال ما سبق من كنايات عن يوم ﴿الْيَوْمَةِ﴾ تتجمع معانٍ وإيهامات تصف هذا اليوم العظيم الذي يحدث فيه ذلك الانقلاب الكوني الرهيب بأهواله العظيمة، ويفضل هـ

(الكنايات) يصفها المتعددة بقرب ذلك اليوم إلى العقول والقلوب، وإلا فإن حقيقته وماهيته لا يحيط بها العقل والإدراك البشري.

على أن القرآن الكريم يقدم تعابير كنائية أخرى تصور شدة ذلك اليوم وكرهه على الكافرين في مشاهد يوم ﴿الْيَوْمَةِ﴾ من ذلك:

الكشف عن الساق:

يورد هذا التعبير الكناني في قوله - تعالى - في مشهد من مشاهد يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤﴾ خَشَعَةً آمُرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ^(٤)

﴿يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ كناية عن الشدة وصعوبة الخطب، إذ يشنّ الكرب والضيق على هؤلاء المتكبرين الذين يدعون إلى السجود - هناك - فلا يستطيعون.

فكناية الكشف عن الساق: مدلّ في شدة الأمر وصعوبة الخطب ^(٥) الذي يلقاه الكافرون يوم القيامة، وليس هناك ساق ولا كشف عن الساق كما نقول للأطع السحيح: يده مغلوله، ولا يده ولا غل، وإنما هو كناية عن البخل، وأراد الله ﷻ بهذا التعبير السيلغة في

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٤٤٩ / ٨.

(٢) الكشف: ٥٥٤ / ٤.

(٣) نفسه: ٥٥٤ / ٤، وصفوة التفسير: ٥١٤ / ٣.

(٤) سورة القلم، الآية ٤٢ - ٤٣.

(٥) الكشف: ٤٧٥ / ٤.

حسابهم، وإهانتهم وعقوبتهم، فالكناية تدل على أمرٍ مبهم في الشدة مذكر خارج عن المألوف، كقوله قيل: يوم يقع أمرٌ فظيعٌ هائل (١) والأصل في الكناية "أي من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجدِّ شمر عن ساقه" (٢) فجعل لكل أمر فظيع (٣) وكان من عادة العرب أن يقولوا لكل من يجد في أمرٍ ويبالغ فيه (كشَف عن ساقه) وأصل هذا التعبير، أن من يجد في عمل من الأعمال سواء أكان حرباً أم غير حرب، فإنه يشمر عن ساقه حتى لا يعوقه عن الجد وسرعة الحركة، كما نقول اليوم، فلان شمر عن ساعد الجد، وإن كان لا يرتدي قميصاً بأكمام، فعبّر في الكناية باللازم وهو الكشف عن الساق، وأراد ملزومه الجد والاهتمام بالأمر (٤).

فالكناية تجسد المعنى النفسي وهو شدة الكرب والضيق الذي فيه الكافرون المنكفرون في صورة حسبية مؤثرة، وفوق كربهم وضيقهم فانهم يلجئون للتوبيخ والتكديت ﴿وَيَدْعُونَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَلِيمُونَ﴾. فدعوتهم إلى السجود في يوم القيامة الذي يشمر فيه عن الساعد ويكشف فيه عن الساق يشير إلى تكديتهم وتوبيخهم، فقد فأت أوان السجود، وهم لا يملكون السجود ولا يستطيعون إما لفوات الوقت المناسب، وإما للهول الذي يغشاهم ويعجزهم عن الحراك، وهم خاشعون ذلّة، وقد كانوا يلبون خشوع العبادة ﴿خَتَمَةَ أُمُورِهِمْ رَبُّهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ وَهُمْ سَافِرُونَ﴾. فالتعبير الكناي في فضلاً عن الأيتان اللتين تشكل فيهما يشير إلى الكرب والضيق والعجز والتوبيخ والتحدى المخيف (٥).

جعل الولدان شيباً:

تصور هذه الكناية أحوال يوم ﴿الْيَوْمَةِ﴾ وشدة آلامه، أهوال تشيب منها الولدان، وتنفطر منها السماء، وذلك في قوله - تعالى - : ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝ السَّمَاءُ مَنقُطَةٌ ۖ وَكَانَ وَعْدُهُ مَقْعُولًا﴾ (٦).

- (١) ينظر: الكشف: ٤ / ٤٧٥-٤٧٦، وينظر: القرآن إعجازه وبلاغته، ص ٢٢١-٢٢٢.
- (٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٨ / ٢٤٩.
- (٣) المفردات: ٣٦٣، ٦٥٠، ٦٥١.
- (٤) القرآن إعجازه وبلاغته، ص ٢٢٢.
- (٥) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٣٨٨. وينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص ٥.
- (٦) سورة المزمل، الآيةان: ١٧-١٨.

﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ كناية ترسم في معناها الحقيقي الشيب في نواصي الأطفال في ذلك اليوم، وهي صورة تشير إلى المعنى المكنى عنه وهو شدة ذلك اليوم بأهواله، قال الزمخشري: " فكيف تكون أنفسكم يوم القيامة وهو له، إن بقيتم على الكفر ولم تؤمنوا وتعملوا ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ مثل في الشدة يقال في اليوم الشديد: يوم يشيب نواصي الأطفال. الأصل فيه: أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب " (١). وهي شدائد وأهوال عظيمة بأحزانها وهمومها كما يشير تشكيل الكناية شيب الولدان دون غيرهم، فالولدان كما هو معلوم أقل تحسناً بالهموم والأحزان والشدائد، فارتسام الشيب في رؤوسهم يشكل صورة غريبة مثيرة، تشير إلى غرابة ذلك اليوم في شدائده وأهواله، فهي لا تشبه أهوال الدنيا وشدائدها، هي شدائد وأهوال عظيمة يشيب لها الولدان فكيف بالرجال ؟ وتتفطر منها السماء على عظمها وإحسانها ﴿السَّمَاءُ مُنْقَطِرَةٌ يَوْمَ﴾ وعلى الخيال أن يتملى هذه الصورة المروعة فإنها تحذير شديد من ذلك اليوم المخيف الذي لا ريب فيه ولا مفر منه ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَقْذُورًا﴾.

ومما يَدَّصِلُ بيوم ﴿الْيَمِّمَةِ﴾ من مشاهد، مشهد أصحاب اليمين، وهم المؤمنون الناجون الذين يؤثرون كتبهم بإيمانهم، فهم أهل الثواب يصفهم القرآن بالتعبير الكناي ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٢)، ومشهد ﴿أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ (٣)، فهم الكافرون المعذبون الذين يلقون كتبهم بشمالهم أو من وراء ظهورهم، وهم أهل العذاب يصفهم القرآن بالتعبير الكناي ﴿أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾. ويأتي المشهدان على سبيل التقابل، وذلك حتى يبرز مشهد كلا الفريقين، وتعمق - على سبيل التضاد - دلالتهما في الحس والوجدان بين مصير هؤلاء وهؤلاء.

ونحن إذ نعرض هذه الكنايات فإننا لا ندري حقيقة الكتاب ولا كيفية آتيانه باليمين أو بالشمال أو من وراء الظهر. وإنما يحلّي القرآن الكريم حقيقة (النجاة) من وراء آتيان الكتاب باليمين، وحقيقة (الهلاك) من وراء آتيان الكتاب بالشمال أو من وراء الظهر، وهما حقيقتان المقصود أن تستقيتهما كما أخبر بهما القرآن الكريم (٤).

أصحاب اليمين :

- (١) الكشف: ٤ / ١٣٠.
- (٢) سورة المنثر، من الآية ٣٩.
- (٣) سورة الواقعة، من الآية: ٤١.
- (٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٥١٩.

يستعمل القرآن هذا التعبير كنايةً عن موصوف للدلالة على المؤمنين الناجين من العذاب، فهم أهل الجنة والثواب، من ذلك قوله - تعالى -: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿١﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٢﴾ فِي جَنَّاتٍ يَجْعَلُ لَهَا رِجَالٌ مِّنَ النَّجْمِ ﴿٣﴾ وَعَنِ النَّجْمِ ﴿٤﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٥﴾ قَالَوا لَوْلَا اٰلَؤُك مِنَّا الْمَمْلُوكِ ﴿٦﴾ وَلَوْلَا اٰلَؤُك تَلْمِزُهُمُ الْمَمَالِكِ ﴿٧﴾ وَكُنَّا عَرُوضَ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٨﴾ وَكُنَّا تُكْوِبَ يَوْمَ الْيَمِينِ ﴿٩﴾ حَتَّىٰ آتَيْنَا الْيَمِينُ ﴿١٠﴾ فَأَنفَعَهُمْ شِفْعَةُ الْشَّافِعِينَ ﴿١١﴾﴾ (١)

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ هم المؤمنون أهل الجنة والسعادة (٢)، وهم ﴿أَصْحَابَ الْمَمْنَةِ﴾ (٣)، أي: اليمن والبركة (٤)، وقال الزمخشري في: ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ عدة أقوال:

- الذين يؤثرون صحاباتهم بإيمانهم.
- أصحاب المنزلة السنية، من قولك: فلان مني باليمن إذا وصفته بالرفعة.
- أصحاب اليمن، لأن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم.
- أصحاب اليمن هم الموجهون في الجنة ذات اليمن (٥).
- وأورد الرازي في ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ ثلاثة أقوال:
- الذين يؤثرون صحاباتهم بإيمانهم.
- أصحاب القوة.

- أصحاب النور (٦) لقوله - تعالى - في الآية الثامنة من سورة التحريم: ﴿وَأُولَٰئِكَ يَتَرَنَّ

يَتَرَنَّ أَيْدِيَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ

ومن خلال الجمع بين هذه الأقوال في ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ يتبين أن المؤمنين يأخذون نتيجة الحساب كتاباً بإيمانهم، فيجدون الذم والعيب، فتكون منزلتهم حسنة، ومكافئهم مرسوقة (٧)، وهو المعنى الذي يفهم من وراء لفظ الكناية.

وكانت العرب تتفاعل بالميامين، وتتطير من المشائم، و "ترجر على السائح، وتبرك به، وتكره الأبارح، وتذشانم به" (٨). والسائح: مال ولاك ميامنه، والأبارح: ما

(١) سورة المدثر، الآيات: ٣٨، ٤٨. وينظر: سورة الواقعة، الآيات: ٨، ١٨، ٢٧، ٣٨، ٤٠، ٤١.

(٢) ينظر: التفسير الكبير: ٢٩ / ١٤٢، والمفردات: ٥٥٣.

(٣) سورة الواقعة، الآية: ٨.

(٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ٢٨٥.

(٥) الكشف: ٤ / ٣٦٣.

(٦) التفسير الكبير: ٢٩ / ١٤٢-١٤٣.

(٧) ينظر: الفاظ الثواب في القرآن الكريم، ص ٣٠٤، ٣٠٥.

(٨) الكامل: ١ / ١٨٩.

ولأك

مياسره (١) واليمين: البركة (٢). ويقال: فلان ميمون النقيبة، إذا كان ميمون الأمر، ينجح فيما حاول ويظفر به (٣). ومن المجاز: هو عنده باليمين، أي: بمنزلة حسنة (٤).

واليمين أيضاً: القوة، قال الشاعر:

إذا ما راية رُفِعَتْ لمَجْدٍ ثَلَاثُهَا عَرَابِيَّةٌ بِالْيَمِينِ (٥)

قال المبرد: "قوله: ثَلَاثُهَا عَرَابِيَّةٌ بِالْيَمِينِ، قال أصحاب المعاني: معناه بالقوة، وقالوا

مثل ذلك في قول الله ﷻ: ﴿وَالسَّمَكُوتَ مَطْوِيَّتًا يَمِينًا﴾ (٦) (٧).

والمسوخ لاستعمال (اليمين) للدلالة على القوة على سبيل المجاز المرسل هو علاقة

السببية، فاليمين سبب القوة، أو الآلية عند عدد من اللغويين على اعتبار أن اليمين آلة القوة.

وذكر عبد القاهر الجرجاني أن "الناس يقولون للرجل إذا أرادوا حذّه على الأمر

وأن يأخذ فيه بالجد: أخرج يدك اليمنى. وذلك لأنها أشرف اليدين وأقواهما التي لا غناء

للأخرى دونها، فلا غنى ليدان بشيء إلا بدأ بيمينه فهيأها لنيله، ومدى ما قصدوا جعل

الشيء في جهة العناية جعلوه في اليد اليمنى" (٨) وعلى هذا فاليمين ارتبطت دلالاتها

بالخير والبركة والسعادة والقوة والعناية (٩) وهي المعاني والظلال التي تشير إليها كناية

أَحْمَبَ الْيَمِينِ (١٠).

وكناية ﴿أَحْمَبَ الْيَمِينِ﴾ في سياق الآيات التي أوردناها تدل، فضلاً عما أوجت به من

معان على أن هؤلاء المؤمنين هم المطلوبون من الرهن ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهيناً﴾ (١١)، أي:

"كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك" ﴿إِنَّمَا أَهْمَبَ الْيَمِينِ﴾ فإنهم فكّوا عنه رقابهم بما

أطابوه من كسبهم، كما يخلص الرهن رهته بإداء الحق (١٢) ومن ذلك يتجلى تكريمهم

(١) لسان العرب: ٢ / ٤٩٠ (سج).

(٢) المصدر نفسه: ١٤ / ٤٥٨ (يمن).

(٣) إصلاح المنطق، ابن السكيت، ص ٣٥٥.

(٤) أساس البلاغة، ص ٥١٤ (يمن).

(٥) أسرار البلاغة، ص ٣٠٩. وينظر: لسان العرب: ١٣ / ٤٦١ (يمن).

(٦) سورة الزمر، من الآية: ٦٧.

(٧) المكامل: ١ / ٧٦. وينظر: أسرار البلاغة، ص ٣١٠.

(٨) أسرار البلاغة، ص ٣١٢.

(٩) ألفاظ الثواب في القرآن الكريم، ص ٣٠٤.

(١٠) سورة المدثر، الآية: ٣٨.

(١١) الكشاف: ٤ / ٥٢٣.

وفضل الله عليهم في ذلك الموقف الذي يرتثون فيه المكذبون الكافرون بأعمالهم التي تقودهم فلا يفلتوا منها. وتتصاعد دلالة تذكريم المؤمنين ﴿أَحْسَبَ الَّذِينَ﴾ بأن الله ﷻ قد خولهم حق سؤال المجرمين عن مصيرهم الذي انتهوا إليه ﴿مَا سَأَلَكَ فِي سَعَرٍ﴾^(١) وهو استقحام يُوحي بإهانة المجرمين، وتعمق دلال إهانتهم من خلال السياق الذي يعرض إجابتهم واعترافهم على نحو من الاطناب: ﴿قَالُوا لَوْ كُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكُنَّا نَعْلَمُ الْيُسُفَ وَكُنَّا نَعْرِضُ مَعَ الْخَاطِئِينَ﴾ وَكَانَ كَذِبٌ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿حَقَّ أَنفُسُ الْيَقِينِ﴾^(٢) فهي إطالة في الجواب مقصودة، بين سبب ارتئائهم في موقفهم هذا، وتجلي إهانتهم على نحو عميق، ويبين السياق بالأسلوب الكنائي سبب مصيرهم هذا ﴿قَالُوا لَوْ كُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذه الآية كناية لأنها تفهم على الحقيقة والمعنى: أن هؤلاء المجرمين لم يكونوا من المصلين في حياتهم الدنيا. وأما المعنى البعيد المكنى عنه الذي تلمح به الصلاة هو الإيمان كله، فهم لم يكونوا مؤمنين، وبذلك تشير الكناية إلى أهمية الصلاة في الاسلام، فالصلاة رمز الإيمان ودليله، ويدل انكارها على الكفر^(٣).

ويعزز هذا المعنى المكنى عنه للصلاة ما ذكر بعد ذلك، فإذا ما فُقدت النفس الإيمان بالله - سبحانه - فإدبها تفقد الدافع إلى فعل الخير ومثله: إطعام المسكين، وتفقد توازنها في النياطل مع الخائضين، وتكذب يوم الدين، يوم الحساب والجزاء الذي فيه ترتثون بأعمالها كما ترى المجرمين الآن.

وإزاء صورة هؤلاء المجرمين نقف صورة المؤمنين ﴿أَحْسَبَ الَّذِينَ﴾ على التقابل ليتجلى مصير الفريقين على التضاد ويتعمق المعنى في حس المتلقي ووجدانه.

أصحاب الشمال؛

يستعمل القرآن هذا التعبير كناية عن موصوف هو الكافرون المعشون في نار جهنم، فهم أهل الشؤم والعذاب، نقرأ ذلك في قوله - تعالى - ﴿وَأَحْسَبَ أَشْجَالًا مَا أَهْبَسَ أَشْجَالًا﴾ فِي سَمُومٍ وَجِيمٍ ﴿وَلَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ عَذَابِهِمْ وَلَا يَكْرِهُهُمْ﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿وَكَانُوا يُبْهِرُونَ عَلَىٰ آلِهِنَّ الْعَظِيمِ﴾^(٤).

(١) سورة المنثر، الآية: ٤٢.

(٢) سورة المنثر، الآيات: ٤٣-٤٧.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٣٧٠. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٩ / ١٦٤.

(٤) سورة الواقعة، الآيات: ٤٦-٤٩.

﴿ أَصْحَابُ الْإِيمَانِ ﴾ هم أهل النار والشفاعة، وقال الزمخشري في ﴿ أَصْحَابُ الْإِيمَانِ ﴾ عدة أقوال:

- الذين يؤتون صحائفهم بشمالهم.
- أصحاب المنزلة الدنيا، من قولك: فلان مني بالشمال إذا وصفته بالضعة.
- أصحاب الشمال أشقياء، لأن الأشقياء مشائيم على أنفسهم بمعصيتهم.
- أصحاب الشمال هم الموجهون في النار ذات الشمال^(١).
- ومن خلال هذه الأقوال في ﴿ أَصْحَابُ الْإِيمَانِ ﴾ يتبين أن الكافرين يأخذون نتيجة الحساب كتاباً بشمالهم، فيجدون العذاب والعقاب، فتكون منزلتهم دنياً، فهم الأشقياء المشائيم على أنفسهم، كما قال فيهم - تعالى - في موضوع آخر: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكُونُوا عَنْ أَصْحَابِ الْمَشْأَةِ ﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَمَّسَةٌ^(٢).
- ﴿ أَصْحَابِ الْمَشْأَةِ ﴾ هم: أصحاب الشمال والشوم أي المشائيم على أنفسهم^(٣) و هم: ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَمَّسَةٌ ﴾ من وصدت الباب وأصدته: إذا أطبقته وأغلقته^(٤) أي: مغلفة عليهم فهم فيها محبوسون، هذا هو المعنى الظاهر، أما المعنى المكنى عنه البعيد هو خلودهم في النار لا يخرجون منها بحكم إغلاقها عليهم، وكلا المعنيين ملازمان مقصود.
- إتيان الكتاب من وراء الظهر:

تأتي هذه الكنية (إتيان الكتاب من وراء الظهر) في موطن واحد مقابل إتيان الكتاب باليمين، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَايُحُ إِلَى رَبِّكَ كَذِبًا مَقْلَقِيهِ ﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْتَهُ، يَمِينِهِ ﴿ فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا مَعِيْرًا ﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مُسْرُورًا ﴿ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْتَهُ، وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُسْرُورًا ﴿ إِنَّهُ عَلَّمَ أَنْ لَنْ يَحْزَنَ ﴾ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا^(٥).

تعد الكناية ﴿ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ صورة جديدة في التعبير عن المعذنين المشؤمين وذلك بالنقيض إلى التعبيرين الكنائيين السابقين في القرآن الكريم وهما: ﴿ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ الذين يأخذون كتبهم باليمين، و ﴿ أَصْحَابُ الْإِيمَانِ ﴾ الذين يأخذون كتبهم بشمالهم، فهما الصورتان

(١) الكشاف: ٤ / ٣٦٣.

(٢) سورة البلد، الأيتان: ١٩ - ٢٠.

(٣) ينظر: الكشاف: ٤ / ٦٠٤. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ٢٨٥.

(٤) الكشاف: ٤ / ٦١٤. وينظر: أساس البلاغة، ص ٥٠١ (وصد).

(٥) سورة الاشقق، الآيات: ٦ - ١٤.

المالوفقان في استعمال القرآن. أما الكناية ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ فهي صورة جديدة لا تأتي إلا في هذا الموضع من القرآن.

قال الزمخشري في هذه الكناية: ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ قيل: تَغَلَّ يَمْنَاهُ إِلَى عَذَقِهِ، وَتَجْعَلْ شِمَالَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، فَيُؤَاتِي كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ. وَقِيلَ: تَخْلَعُ يَدُهُ الْيُسْرَى مِنْ وَرَاءِ

ظَهْرِهِ " (١). لذلك لا يمتنع أن يكون الذي يعطى كتابه بشماله يعطاه من وراء ظهره، فهي هيئة الكارِه المُكرِه الخزيان من المواجهة (٢).

والبادي أن الكناية ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ صورة حسية عمق وأغلظ وأعنف في تصويرها للنعنى وفي إحداها عن الخزي والسهانة والذميان، على الرغم من أن الكنايتين (الاشمال ووراء الظهر) تشيران إلى حقيقة الهلاك والثبور.

ولعل في كناية ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ إشارة إلى حياتهم الدنيا التي اتخذوا فيها آيات الله ورسله هزواً بالذميان والإهمال كما تعبّر الكناية الواردة في قوله - تعالى - على لسان رسوله سيدنا شعيب عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿قَالَ يَعْزُبُ عَنْ قَوْمِي أَن يَرْعَبُوا بِكُمْ مِنْ اللَّهِ وَأَتَّخِذُكُمْ وَرَاءَ ظَهْرِكُمْ ظَهْرِتًا لِمَن رَّبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُخِيطٌ﴾ (٣).

﴿وَأَتَّخِذُكُمْ وَرَاءَ ظَهْرِكُمْ ظَهْرِتًا لِمَن رَّبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُخِيطٌ﴾ كناية عن التذمّن والإهمال، قال الزمخشري: "﴿وَأَتَّخِذُكُمْ وَرَاءَ ظَهْرِكُمْ ظَهْرِتًا﴾ ونسيتهم وحملتهم كالشيء المنبذ وراء الظهر لا يعبا به" (٤)، وتقول العرب: "جعل هذا الأمر وراء ظهره أي تولى عنه معرضاً، لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه، فهو كناية عن الإعراض" (٥). فالكناية تجسد صفة هؤلاء في صورة حسية مؤثرة موحية بحماقتهم وغلظتهم وسوء تصرفهم إذ يعرضون عن آيات الله ويهملونها كالشيء الذي لا يعبا به، فهو الجحود للنعمة في أبشع صورها.

وفي ضوء ذلك فإن كناية ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ تشير إلما فعلوه في حياتهم الدنيا، وفيها إحياء بنسيتهم وإهمالهم فيكون الجزاء من جنس العمل.

(١) الكشاف: ٥٨٠ / ٤.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٥١٩ / ٨.

(٣) سورة هود، الآية: ٩٢. وينظر: سورة البقرة، الآية: ١٠١، وسورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

(٤) الكشاف: ٣٣١ / ٤. وينظر: الترويق اللغوية، ص ٢٤٥.

(٥) صفوة التفسير: ٨٤ / ١.

الفصل التاسع

كنايات في موضوعات متفرقة

الفصل التاسع

كنايات في موضوعات متفرقة

يضم هذا الفصل مجاميع من الكنايات، تشكل كل مجموعة منها موضوعاً معيناً قلاماً بذاته، لذلك أسميناه كنايات متفرقة، فهو يدل على معناه، أي موضوعات متفرقة، إذ تشترك مجموعة من الصور الكنائية في معالجة موضوعات يجمعها خيط فكري واحد، فمثلاً المجموعة الأولى التي تحمل عنواناً هو (كنايات عن الشدة والكرب) تصوّر الشدائد والأهوال التي يمر بها الإنسان في حياته وفي أثناء موته وبعثه إلى الحياة الأخرى وغير ذلك. يجمعها خيط فكري وإن اختلف الموقف والأحوال.. وتأتي المجموعة الثانية تصوّر نماذج من مصارع الغابرين التي أهلكها الله. ينوبها، فجعل مصارعهم ذكرى لمن كان له قلب فيعتبر بها.. وتصور المجموعة الثالثة والرابعة طائفة من صور عذاب الله، وطائفة من صور الرحمة الإلهية الواسعة، ومجموعة من الآيات الكريمة منها تتعلق بخلق الكون، كل ذلك يعرضه القرآن بالتصوير الكنائي الذي يحتضن الأفكار والمعاني فيؤديها بحيوية وقوة تأثير في المتلقي تعمل على إحداث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن. وفيما يأتي استعراض كنايات كل مجموعة على حدة، نحاول فيه بيان القيمة البلاغية للفن الكنائي في التعبير عن الأفكار والمعاني بالطريقة التصويرية المؤثرة.

(١) كنايات عن الشدة والكرب:

يضم هذا العنوان ثلاث صور تشترك بإحشاء الشدة والكرب التي تدلّب الإنسان في حياته.. الشدة والكرب التي يواجهها في أثناء حياته وموته وبعثه، وشدة وكرب وهو يواجه الحياة، يعرضها القرآن من خلال مواجهة ذي من الأنبياء (عليهم السلام) قوة الظالمين المنحرفين عن القطرة السوية.

التفاف الساق بالساق:

ترد هذه الكناية في مشهد الاحتضار عند الموت في قوله - تعالى - ﴿كَلَّا إِنَّا بِلِقَىٰ رَبِّكَ الرَّاقِ﴾^(١) وقيل من راق: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾^(٢) والساق بالساق: إلى ربك يومئذ الساق: (١)

فالمعنى التي يتجرعها كل إنسان، يصور القرآن مشهدها بهذا التصوير الموحى. إنه مشهد يكاد يتحرك، فكل آية منه ترسم حركة وتخرج لوحة من حالة الاحتضار التي يرتسم معها الجزع والحيرة واللهفة ومواجهة الحقيقة التي لا دافع لها ولا راد، إنها الحقيقة التي لا مفر منها (٢) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾.

إنه مشهد الموت الذي ينتهي إليه كل حي في أجله المرسوم. وهذا المشهد يعرضه القرآن في سياق إثارة المشركين العاجلة (الحياة الدنيا) وانغماسهم في لذاتها وشهواتها، فهم غافلون عما بين أيديهم من الأهوال والشدائد التي تنتظرهم ومنها الموت في مشهد المعروض. والشدة في المشهد تلمحها بالردع والزجر ابتداء ﴿كَلَّا إِنَّا بِلِقَىٰ رَبِّكَ الرَّاقِ﴾: "كَلَّا" ردع عن إثارة على الآخرة، كأنه قيل: ارددوا عن ذلك وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم، وتنتقلوا إلى الأجلة التي تبقون فيها مخلدين (٣) والضمير في ﴿بِلِقَىٰ رَبِّكَ الرَّاقِ﴾ عائد إلى الروح والراقي: أعالي الصدر (٤)، أي شارف الإنسان على الموت ﴿يَوْمَئِذٍ مِّن رَّاوٍ﴾ أي: فقال أهله: من يرقي ويطب ويشفي هذا المريض (٥) ﴿يَوْمَئِذٍ مِّن رَّاوٍ﴾ أي: وأبشع المحتضر أنه سيفارق الدنيا والأهل والأسال، لسعائته ملاذكة الموت (٦) وتلوي المحتضر من السكرات والنزوع ﴿وَالْقَلْبُ أَسَاقُ بِالسَّاقِ﴾ وهي كناية تكثف فيها معاني المشهد المعروض في شدته وكربه، قال الزمخشري: "﴿وَالْقَلْبُ﴾ ساقه بساقه والتوت عليها عند الموت، وعن قتادة ماتت رجلاه فلا تحملانه، وقد كان عليهما جوالاً، وقيل: شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة، على أن المساق مثل في الشدة" (٧) وما ذكره الزمخشري بجلي المعنى المادي الظاهري والمعنى النفسي الشعوري الذي تطوي عليه

(١) سورة القيامة، الآيات: ٢٦ - ٣٠.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٣٨٥ - ٣٨٦.

(٣) الكشف: ٤ / ٥٣٠.

(٤) ينظر: التفسير الكبير: ٣٠ / ٢٣٠.

(٥) ينظر: البحر المحيط: ٨ / ٣٨٩ - ٣٩٠.

(٦) صفوة التفسير: ٣ / ٤٨٧.

(٧) الكشف: ٤ / ٥٣٠. وينظر: المفردات، ص ٣٦٣.

الكنائية، فالمعنى الظاهري للكنائية هو التفاف الساق بالساق، أي التواء ساق على أخرى عند الموت، وهي حركة تشير إلى المعنى المكنى عنه وهو شدة الموت وكرهه سواء أكان هو ألم الموت ووجعه أم شدة فراق الدنيا وانقطاع أي وسيلة لاستنقاذ الروح من الأقبال على الآخرة في أول منزل من منازلها (القبر)، قال ابن عباس: " المراد اجتمعت عليه شدة مفارقة الدنيا، مع شدة الموت وكرهه، فيكون ذلك من باب التمثيل للأمر الهائل العظيم، حيث يلتقي عليه شدة كرب الدنيا، مع شدة كرب الآخرة، كما يقال: شمرت الحرب عن ساق " (١) دلالة على شدتها وضراوتها. فالكنائية تجسّد بالتصوير الحسي المعاني الشعورية التي تتأب المحضّر من شدة وكرب وهو يقبل على الآخرة.

لتركيبن طبقاً عن طبق:

تأتي هذه الكناية في مشهد من مشاهد الطبيعة التي يقسم بها الله ﷻ في قوله - تعالى -: ﴿ فَلَا أَقِيمُ بِالشَّقِيِّ ۖ وَالْأَيْلِ وَمَا وَسَى ۖ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۖ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ۖ ﴾ (٢)

﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ كناية تخرج المعنى في صورة حسية، والتعبير بالركوب المكنى عنه الذي تشير إليه الصورة الكنائية فهو الشدائد والأهوال والكروب التي يجتازها الإنسان في حياته الدنيا وما بعدها من موت ثم بعث وما يعاقبه من أهوال القيامة وكروبها وشدائدنا، قال الطبري: " أنهم يلاقون من شدائد يوم القيامة وأهوالها أحوالاً " (٣) وقال الزمخشري: " لتركيبن أحوالاً بعد أحوال هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض، وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها " (٤).

والبادي أن المعنى المكنى عنه لا ينحصر بشدائد الموت وشدائد يوم القيامة وأهوالها حسب، وإنما هو ذو مدلول عام يشمل حياة الإنسان قبل موته وفي أثناء موته وما بعد ذلك من منازل حتى يستقر في إحدى الدارين الجنة أو النار، وهو المعنى الذي ذهب إليه الراغب بقوله: " يترقى منزلاً عن منزل، وذلك إشارة إلى أحوال شتى في الدنيا. وأحوال شتى في الآخرة. إلى حين المستقر في إحدى الدارين " (٥) فالشدة والمعاناة التي يركبها

(١) صفوة التفسير: ٣ / ٤٨٧.

(٢) سورة الأنشاق، الآيات: ١٦ - ١٩.

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن: ٣٠ / ٨٠.

(٤) الكشف: ٤ / ٥٨٦، وينظر: روح المعاني: ٣ / ٣٣١.

(٥) المفردات، ص ٤٤٠.

الإنسان ذات مدلول عام، وهو المعنى الذي يؤكد قوله - تعالى - في موضع آخر: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْدِيرٍ﴾^(١) ففيه دلالة كل تعب ومشقة^(٢) أي شدائد ومشقات يمر بها في أحوال متعاقبة مقدرة مرسومة، كذلك الأحوال المتعاقبة على الكون من الشفق، والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق ثمضي وفق مشينة الله تنتهي عند غايته، وفي ذلك يتجلى التناسق بين الكناية وما تشير إليه من أحوال متعاقبة مع الأحوال المتعاقبة مما ذكر من مشاهد كونية طبيعية، إذ يمثل انتقالاً لطيفاً من معنى إلى معنى، وهذا التناسق هو من سمات القرآن البديع^(٣).

ومما يؤكد شدة هذه الأحوال وكروبها ومعانيها توظيف الاستعارة المكنية في بنية الكناية ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ فالركوب استعارة مكنية فيها تشبيه هذه الأحوال بمطابا يركبها الناس واحدة بعد واحدة، ثم حذف التشبيه به (المستعار منه) وأبقى شيئاً من لوازمه وهو الركوب على سبيل الاستعارة المكنية. وبذلك تتواشج الاستعارة مع الكناية في إخراج المعنى بحيوية وقوة تأثير. **ضاق بهم ذرعاً:**

وربت هذه الكناية في موطنين من القرآن الكريم في سياق قصة سيدنا لوط عليه السلام وهي تجلّي بالتصوير الشدة التي عاهاها مع قومه المذرفين عن الفطرة السوية، نقرأ ذلك في قوله - تعالى -: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾^(٤).

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ كناية عن صفة سيدنا لوط عليه السلام ومعناها: "ضاق بشأنهم ويتدبير أمرهم ذرعه أي طاقته، وقد جعلت العرب ضيق الذراع والذرع: عبارة عن فقد الطاقة، كما قالوا: رحب الذراع كذا، إذا كان مطيقاً له، والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه نال مالا يناله القصير الذراع، فضرِب ذلك مثلاً في العجز والقدرة"^(٥)، فالكناية تخرج المعنى النفسي بالتمثيل تصويراً له وتجسداً، وهو المعنى المكنى عنه ويتمثل في الشدة والكرب التي تجاوزت طاقته فعجز عن مقاومة قومه ومدافعته عن ضيوفه الذين حسب أنهم إنس فخاف عليهم من خبث قومه، ومما يصعد معنى الكناية المقصود المجاز العقلي الذي انتهت به

(١) سورة البلد، الآية: ٤.

(٢) ينظر: الكشف: ٤ / ٦٠٢.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٥٢١-٥٢٢.

(٤) سورة هود، الآية: ٧٧. وينظر: سورة العنكبوت / الآية: ٣٣.

(٥) الكشف: ٣ / ٣٥٦-٣٥٧.

الآية ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ قال الزمن ﴿يَوْمٌ﴾ لا يكون عصيباً شديداً، وإنما هي نفسه الله في ذلك اليوم عصيبة مكروبة، ولكن وصف اليوم بأنه عصيب بهذا الاسناد المجازي باعتبار العلاقة الزمانية بصور عمق الشدة والكرب الذي ملأ عليه أقطار نفسه وقاض فشمّل الزمن، فهي لا ترى مخرجاً أو ركناً تلوّى إليه (١) تخلصاً من هذا الكرب.

٢) كنيائات عن مصارع الغابرين:

يعرض القرآن الكريم مصارع الغابرين للعبرة والموعظة، فهي تحذر الناس الوقوع فيما وقعوا فيه من الذنوب والخطايا التي أهلكهم (٢)، فسنة الله لا تتبدل ولا تحابي أحداً ولا تحيد (٣)، فما نزل بالأقوام الكافرة الغابرة من عذاب قد ينزل في الأقوام اللاحقة - إن هي كفرت - وإن اختلفت صور العذاب التي تحل بهم، لذلك يقدم القرآن مصارع الغابرين في مساحة واسعة من آياته تحكي قصص اهلاكهم وفي طياتها التحذير والتخويف. وفيها ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (٤)، فالنفس الانسانية شديدة الحساسية والقادر بمصارع الغابرين التي تحث على الذكرى والاعتبار.

وقد كانت مصارع الغابرين كما يعرضها القرآن بالوان من العذاب والعقاب فكلاً أخذ الله بذنبه، كما قال - تعالى -: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتِ السَّيْلُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّقْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كُنَّا لَنُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٥).

ونحن إذ نعرض مصارع الغابرين فإبما نعرضها في سياقات نصوص وصور كنائية نحاول تحليلها وبيان قيمتها البلاغية في التعبير والتصوير والتأثير. فغشيتهم من اليم ما غشيتهم:

- (١) ينظر: سورة هود، الآية: ٨٠.
- (٢) ينظر: السور الآتية: آل عمران، الآية ١١، ويونس، الآية: ٢٣، ١٤، وغافر، الآية: ٢١، ٨١، ومحمد، الآية: ١٠ مثلاً.
- (٣) ينظر السور الآتية: هود، الآيات: ٨٣، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١١٦، ١١٧، والحجر، الآية: ٢٢، ٨٤، والإسراء، الآية: ٨٨، والفتح، الآية: ٢٣ مثلاً.
- (٤) ينظر: سورة ق، الآية: ٣٧.
- (٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٠.

يبقى هذا التعبير الكنائي مصوراً عذاب فرعون وجنوده، وذلك في قوله - تعالى - : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ فِرْعَوْنُ بِحُجُودِهِمْ فَعُشِّيبُهُمْ مِنْ آلِهِمْ مَا عَشَّيْتُمْ ﴾ (١).

﴿ فَعُشِّيبُهُمْ مِنْ آلِهِمْ مَا عَشَّيْتُمْ ﴾ كناية كُتِبَتْ معاني كثيرة وقامت في بنيتها على التهويل. تهويل المعنى المكنى عنه وهو: شدة عذابهم وقطاعته الذي عَاشَاهُمْ لا يعلم كنهه إلا الله، جاء في التفسير: " ﴿ عَشَّيْتُمْ ﴾ من باب الاختصار، ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلدها بالمعاني الكثيرة، أي: عَشَّيْتُمْ مالا يعلم كنهه إلا الله " (٢). وفصلاً عن هذا التجهيل لشدة العذاب وقطاعته الذي حل بهم، فإن الفعل (عَشَّيَ) يعمق من شدة هذا العذاب الموصوف الذي غمرهم وغطاهم، فالتعشية: التغطية (٣). أي: غطاهم العذاب ولا يسهم بأهواله، وغمرهم بالأوان منه لا يعلم وصفها على حقيقتها إلا الله.

وهذا العذاب الذي صورته الكناية على سبيل التجهيل والتعظيم يتناسب مع فرعون وجنوده في طغيانهم وفسادهم الذي ملأ الأرض (٤). وفرعون الطاغية هو مدعي الألوهية قولاً وفعلًا (٥). فتناسب هذا العذاب جنس العمل، فعشيبهم البحر وما فيه وغمرهم بالعذاب بهذا التعظيم له والتنظيع الذي يترأى من خلاله بأهواله العظيمة.

ويتكرر الفعل (عَشَّيَ) في صورة كنائية أخرى في تصوير العذاب الذي حل بقوم لوط، وذلك في قوله - تعالى - : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَفَجَشَّهَا مَا فَشَّيَ ﴾ (٦) والموتفة هي " القرى التي انتفكت بأهلها، أي: انقلبت، وهم قوم لوط ﴿ أَهْوَىٰ ﴾ رفعها إلى السماء على جناح جبريل، ثم أهواها إلى الأرض، أي: أسقطها " (٧).

والكناية في قوله - تعالى - : ﴿ فَفَجَشَّهَا مَا فَشَّيَ ﴾ تصور عذابهم على سبيل الإيجاز، فالمعنى المكنى عنه، وهو العذاب الفظيع المروع لا يحذره التصوير الكنائي، وإنما هو مطلق على سبيل التجهيل والتعظيم تذهب النفس كل مذهب في تصويره وتخيله.

(١) سورة طه، الآية: ٧٨.

(٢) الكشف: ٣ / ٦١.

(٣) ينظر: لسان العرب: ١٥ / ٩٢٦ (عشأ).

(٤) ينظر: سورة القصص، الآية: ٤.

(٥) ينظر: سورة القصص، الآية: ٣٨، وسورة النازعات، الآية: ٢٤.

(٦) سورة النجم، الآيتان: ٥٣ - ٥٤.

(٧) الكشف: ٤ / ٣٤٦، وينظر: البحر المحيط: ٨ / ١٧٠.

قال الزمخشري: "﴿ مَا عَشْنَى ﴾ تهويل وتعظيم لما صبَّ عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود" (١) فالكنائية موحية بالمعنى المكنى عنه لا تحدده ولا تحصره وإنما يترأى من سجعها صورة النمل والخسف التي تدمر كل شيء فقد لأبستهم بأهوالها وغطتهم، فهي صورة غريبة مروعة من العذاب، ولكنها تناسب فعلتهم الغريبة التي حكاها عنهم القرآن الكريم (٢) فكان عقابهم جزاءً وفاقاً.

فالكنائنان تعرض صورتين من العذاب مروعتين، وقد عملت الكناية متضافرة مع الأسلوب الموجز في كل منهما - والإيجاز من خصائص الكناية القرآنية - على تصوير العذاب المناسب للسياق إذ اعتمدت الكناية في بنيتها على التجهيل والتعميم في إخراج المعنى المكنى عنه لتهويله وتقطيعه، ولتوحي بلسع العذاب الذي غشاهم بأهواله، وتلقي من ثم في نفس السامع أو القارئ الرعب من هذا المصير المشؤوم، فيعمل على تجذبه، ويمثّل لأمر الله، ويعمّ الصلاح والخير في حياة الفرد والمجتمع، وبذلك يتحقّق الهدف المنشود.

قَطْعُ الدَابِرِ:

يعتبر القرآن عن إهلاك الكافرين الظالمين بالتصوير الكنائي الأموي (قَطْعُ الدَابِرِ) في قوله - تعالى -: ﴿ قَطُّعْ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ ﴾ (٣).
﴿ قَطُّعْ دَائِرَ الْقَوْمِ ﴾ كناية تواسجت معها في التعبير والتصوير استعارة (القطع)، والقطع إنما يكون للأشياء المتماسكة الصلبة كالخشب مثلاً وما شابه ذلك، قال عبد القاهر الجرجاني: "إن القطع إذا أطلق فهو لازالة الاتصال من الأجسام التي تلتصق أجزاءها، وإذا جاء في تفريق الجماعة وإبعاد بعضهم عن بعضهم شبيه الاستعارة، وإن كان المعنى في الموضوعين على إزالة الاجتماع ونفيه" (٤) - وهذه الاستعارة القريبة أو شبه الاستعارة كما يقول عبد القاهر تصوّر العذاب النازل بالظالمين على نحو مخصوص لأن القطع يشير إلى "معنى نفسي دقيق هو هذه الوسائل التي تقوم بين الجماعة القائمة في مكان

(١) الكشف: ٤ / ٣٤١، وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ١٥٥، وينظر: سورة هود، الآية: ٨٢، وسورة الحجر، الآية: ٧٤. وصفا لعذابهم بالمطر.
(٢) ينظر: سورة الأعراف، الآية: ٨٠-٨١، وسورة العنكبوت، الآية: ٢٨-٢٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٤٥. وينظر: السور الآتية: الأعراف، الآية: ٧٢، والأنفال، الآية: ٧، والحجر، الآية: ٦٦.
(٤) أسرار البلاغة، ص ٤٤.

واحد، والمجتمعة في أرض واحدة، والتي هي أشبه باللحمة في الثوب^(١)، فالاستعارة تشير إلى تقطيع هذه الصلات المتلاحمة بالعذاب النازل بهم، فهو عذاب شديد وكأه تقطيع وتمزيق للأجسام والأوصال لا يغادر منهم أحداً كما تصور الكناية ﴿ذَائِرُ الْقَوْمِ﴾ فالداير هو آخر القوم، قال الزمخشري: "آخرهم لم يترك منهم أحد، قد استوصلت شأفتهم"^(٢)، فالكناية تشير إلى معناها المكنى عنه والمتمثل في عذاب الاستئصال الذي يروّ عنهم ويفزعهم، وهذا الترويع والفرع توحى به الكناية، بما فيها من حركة، لأن الداير: فاعل من دبر إذ أدبر^(٣)، وفي ذلك تصوير لحالهم مدبرين من الفرع حين نزول العذاب، لعل في الإدبار نجاة أو أمان! ولكنه العذاب الشديد الذي يستأصلهم يأخذ آخرهم، فكيف بأولهم؟ فهو العذاب الذي يعم بالهلاك فلا يترك أحداً من الظالمين على قيد الحياة ﴿وَالْمَعْدَى يَوْمَئِذٍ﴾.

المشي في المساكن:

مما يدل على مصارع الغابرين آثارهم، ومن هذه الآثار ما هي قادمة، ومنها سندثرة كالزرع المحصود، كما يحكي القرآن ذلك: ﴿فَلَا يَكْفُرُ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ نَفْسٌ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾^(٤) فآثارهم معروضة للتأملين والمعذرين فهي ترحم النفس والخيال ﴿وَمِنْهَا قَائِمٌ﴾ لا تزال آثاره شاخصة باقية تروي قصة الكفر والبطر، ومنها ﴿وَحَصِيدٌ﴾ علفي الأثر كالزرع المحصود، وكل منهما دالٌّ على موت أهلها وهلاكهم وزوالهم بعد الحركة والحياة.

والقرآن يتخذ من آثارهم ومساكنهم هذه معرضاً للإنذار والعبرة، كما نقرأ مثلاً في قوله - تعالى -: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبِّدْتُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْلِ﴾^(٥)

(١) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص ٢٠٢ - ٢٠٣. وينظر: الاستعارة في القرآن الكريم، ص ٨٥.

(٢) الكشف: ١٨ / ٢، وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٩ / ٢٧٢ بالكتاب الثاني.

(٣) الكشف: ٢ / ٥٦.

(٤) سورة هود، الآية: ١٠٠. وينظر: سورة يونس، الآية: ٣٤، وسورة الأنبياء، الآية: ١٥.

(٥) سورة طه، الآية: ١٢٨. وينظر السور الأربعة: النمل، الآية: ٥٤، والقصاص، الآية: ٥٨، والعنكبوت، الآية: ٣٨، والسجدة، الآية: ٢٦، والصافات، الآيتان: ١٣٧ - ١٣٨، والأحقاف، الآية: ٢٥.

(يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ) كناية، والمعنى الظاهر الذي تدل عليه هو: أي وهؤلاء المكذبين يمشون في مساكن أولئك المكذبين، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها " (١) فهم يتقلبون في مساكنهم ويعاينون آثار هلاكهم الشاحصة الموحشة لا ديار فيها ولا نافع نار. أما المعنى المكنى عنه المقصود فهو ملزوم المشي في هذه المساكن ويتمثل في العبرة والاتعاض مما تحكيه تلك الآثار والمساكن الخاوية عن مصارع الغابرين الظالمين، عبرة تجنب الذين يمشون في تلك المساكن سنة الله الجارية في إهلاك الظالمين، والعبرة التي تبتعثها تلك المساكن الخاوية الموحشة في الحسن والوجدان تكفي للإنذار والموعظة، فما لهم لا يعتبرون، ولا يتعظون كما يدل الاستفهام التعجبي بالهمزة: **(أَلَمْ يَتَّعِظُوا...)** تعجيب من حال الكافرين الذين لا يعون معنى الإنذار، والعبرة أمامهم معروضة للأنظار، **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّعْتَانِ)** فهي عبرة للمؤمنين أصحاب العقول، وفي ذلك تعريض بالكافرين المكذبين الذين لا يعتبرون بالآيات المعروضة، وإنما هي آيات للمؤمنين العقلاء المتوسمين.

ولا شك في أن القلب المؤمن حين يجول في مصارع القرون، وحين تطالع الحين آثارهم ومساكنهم عن كثب، وحين يتملى ذلك المساكن وقد خلت من أهلها الظالمين، ويتصور شخوصهم الذاتية، وحركاتهم وسكناتهم، وخواطرهم وأحلامهم، وهمومهم وآمالهم.. حين يتأمل هذا الحشد من الصور المزدهمة، ثم لا يرى إلا الخواء الموحش.. حينئذ يستيقظ للعبرة، ويدرك يد القدرة التي أخذت القرون الأولى لظلمها وهي قادرة على أن تأخذ ما يليها، ويعي معنى الإنذار والعبرة التي تبتعثها تلك المساكن (٢) الخاوية.

إرم ذات العماد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذو الأوتاد:

ترد هذه الكنايات الثلاث في قوله - تعالى -: **(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٢﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ فِيهَا الْبَشَرُ ﴿٣﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٤﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿٥﴾ الَّذِينَ سَأَلُوا فِي الْبَلَدِ ﴿٦﴾ فَأَنكَرُوا فِيهَا فَالْعَادِ ﴿٧﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْكَاتِ ﴿٩﴾)** (٣) في هذه الآيات الكريمة تتشكل ثلاث كنايات: **(إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ)** و**(وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)** و**(وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ)** ثلاث أمم غابرة نوات حضارة بلغت مبلغاً يذكر، قوم

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢ / ٤٦، وينظر: صفوة التفسير: ٢ / ٤٠٦.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٥ / ٥٠٤.

(٣) سورة الفجر، الآيات: ١٤-٦.

عاد، وقوم ثمود، وقوم فرعون. يخبرنا القرآن عنها لاتخاذ العبرة منها والموعظة، فهذه الحضارات التي شيدنها هذه الأمم لم تنجها من العذاب والهلاك لما كفرت بالله وعُتت عن أمره. والسياق يُفتح بالاستفهام بالهمزة: ﴿أَلَمْ تَرَ...﴾ للتنبيه وإثارة النقطة للاتفات إلى ما أنزل الله بها من عذاب طاع كما صورته الاستعارة المكنية (صن).

الكناية الأولى: ﴿إِرم ذات النصال﴾ يصف بها "عاد الأولى أهل إرم ذات النبال الرفيع، الذين كانوا يسكنون بالأحقاف بين عمان وحضرموت" (١) وهذه الكناية تشير إلى أكثر من معنى مكنى عنه، فهي ذات إرجاءات متعددة تقرب إلى الذهن ما كانت عليه عاد من قوة وعز وسيادة كما تدل مادة هذه الكناية. قال ابن منظور: "عند الحائط يعمده عمدًا: دعمه، والعمود الذي تحامل الثقل عليه من فوق كالسقف يعمد بالأساطين المنصوبة. وعمد الشيء يعمده عمدًا: أقامه. والعماد: ما أقيم به، وعمدت الشيء فاعتمد أي أقمته بعماد يعمد عليه. والعماد: الأبنية الرفيعة.. وقوله - تعالى -: جففت جف قيل: معناه أي ذات الطول، وقيل أي ذات البناء الرفيع، وقيل: أي ذات البناء الرفيع المعمد" (٢) وقال الميرد في قول الخنساء:

طويل النجاد رفيع العماد عاد عشرينه أمردا

فقولها طويل النجاد، تريد تجاده، طول قامته، وهذا مما يمدح به الشريف. وقولها رفيع العماد، وإنما تريد ذلك يقال: رجل معتمد أي طويل ومنه قوله ﴿إِرم ذات النصال﴾ أي الطول (٣). وهذه المعاني التي تشير إليها الكناية قد ذكرها القرآن في مواضع أخرى، فمما يدل على أبنيتهم الرفيعة المعمدة التي تشير إلى رقي حضاري قوله - تعالى - على لسان نبيهم هود عليه السلام: ﴿أَتَيْتُكُمْ بِكُلِّ بَيْعَةٍ تَشْرُونَ ﴿١﴾ وَتَجِدُونَ مِصَالِحَ لَكُمْ ﴿٢﴾ فَخَلَلْتُمْ ﴿٣﴾ وَمَا يَدُلُّ عَلَى قُوَّتِهِمْ وَيَسْطَنَّهُمْ فِي الْجِسْمِ قَالَ - تعالى -: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَنِي قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴿٤﴾﴾ فعاد بلغت من الحضارة حتى أنها اتخذ المصانع لاحت الجبال وبناء القصور، وتشيد العلامات على المرتفعات، ودلت ليجول في خاطرهم أن هذه المصانع وما ينشؤونه بوساطتها من البديان كافية لدميتهم من

(١) صفوة التفسير: ٣ / ٥٥٦، وينظر: سورة الأحقاف، الآية: ٢١.

(٢) لسان العرب: ٣ / ٣٠٣ (عند).

(٣) الكامل: ٢ / ٢٨١.

(٤) سورة الشعراء، الأيتان: ١٢٨ - ١٢٩.

(٥) سورة الأعراف، من الآية: ٦٠، وينظر: سورة هود، الآية: ٥٢، وسورة الشعراء، الآية: ١٣٠.

الموت^(١) وهم بدلاً من أن يؤمنوا بالله ويشكروه على نعمه عليهم كفروا وحدثوا نعمه وركنوا إلى قوتهم فدمرهم الله وعذبهم عذاباً شديداً بالريح الصرصر العاتية التي سخرها عليهم في أيام نجات^(٢).

والكناية الثانية: في شأن ذمود الذين ﴿الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أي تقطع الصخر، يقال "جاء الثوب واجتأبه: قطعه". وجاء الصخرة: خرقها^(٣)، وتقطيع الصخر وخرقه الذي يدل عليه ظاهر الكناية يراد منه ملزومه وهو المعنى المكنى عنه الذي توحى به ويمثل في رقيهم الحضاري الذي بلغوه من قوة مادية وسيادة، فذمود قد قطعت الصخر لتشييده بيوتاً وقصوراً، وقد أشار القرآن في مواضع أخرى إلى هذا المعنى في قوله - تعالى - على لسان نبيه صالح عليه السلام مخاطباً إياهم: ﴿وَأَنْذَرُكُمْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَنِي عَادٍ وَنَوَّاسِكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْخِذُوكَ مِنْ مَثْوَاهَا مَقُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَوْمًا فَادْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٤) فالكناية تشير إلى رقيهم الحضاري الذي بلغوه بما أذنهم الله عليهم.. ولكنهم كفروا وعدوا عن أمر ربهم ورسوله فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كفوا يكسبون^(٥).

وأما الكناية الثالثة: في شأن فرعون ﴿فَرَعَوْنَ ذِي الْأَوْتَارِ﴾ فقد قيل فيها عدة معانٍ: - أنه كان يوتد من يريد تعذيبه بأربعة أوتاد في يديه ورجليه ويتركه حتى يموت. - المراد بالأوتاد المباني العظيمة الثابتة. - المراد الدلالة على ثبات ملكه. - المراد بأنه صاحب الأهرامات والمباني العظيمة الثابتة التي تقوم في الأرض كالأوتاد^(٦).

ورجح بعض المفسرين المحدثين بأنها الأهرامات التي تشبه الأوتاد الثابتة في الأرض المثينة البنيان^(٧).

(١) في ظلال القرآن: ٥٧١ / ٨.
(٢) ينظر: سورة الحاقة، الأيتان: ٦ - ٧، وسورة فصلت، الآية: ١٥، وسورة الذاريات، الأيتان: ٤١ - ٤٢، وسورة القمر، الأيتان: ١٩ - ٢٠.
(٣) أساس البلاغة، ص ٦٨ (جوب). وينظر: لسان العرب: ٢٨٥ / ١ (جوب).
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٧٤، وينظر: سورة الشعراء، الآية: ١٤٩.
(٥) ينظر: سورة فصلت، الآية: ١٧، وسورة الذاريات، الآية: ٤٤.
(٦) ينظر: صفوة التفاسير: ٥٦ / ٣، وينظر: الكشف: ٥٩٧ / ٤.
(٧) ينظر: في ظلال القرآن: ٥٧١ / ٨، وينظر: ٩٠ / ٧.

والليادي أن الكناية تشير إلى كل هذه المعاني، فهي كناية موحية، إلا أن أقرب معنى ظاهري تدل عليه هو أنه كان يوتد من يريد تعذيبه بأوتاد حتى يموت، والمعنى الأول الذي أوردناه، ويؤيد هذا المعنى ما ورد في القرآن في مواضع أخرى من تهديد فرعون للسحرة الذي آمنوا بموسى (عليه السلام)، تهديدهم بعذاب الصليب في جذوع النخل وتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف^(١)، وفي جذوع النخل إشارة صريحة إلى هذه الأوتاد بوصفها وسيلة تعذيب معروفة لدى فرعون.. ومما يؤيد هذا المعنى الظاهر القريب السياق الذي جاءت فيه الكناية، فهو سياق عذاب، العذاب الطاعي الغامر الذي صبه الله عليهم ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَإِلْمٌ صَرِيحٌ وكان جزاءهم الذي لقوه هو من جنس عملهم.

أما المعنى المكنى عنه البعيد الذي تشير إليه الكناية والذي نرجحه هو ثبات ملكه المرتكز على القوة، ومما يقوي هذا المعنى ويجليه ما ورد في القرآن عن جعل الجبال في الأرض أوتاداً لها لتثبيتها واستقرارها ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْنًا﴾ وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا^(٢)، قالبت والاستقرار هو المعنى الذي تشير إليه الكناية وهو معنى ينطوي على المعاني الأخرى وهو من مظاهر ثبات الملك الدال عليه كالمباني العظيمة الثابتة التي تقوم في الأرض كالأوتاد أو تلك الأهرامات التي تشبه الأوتاد الثابتة في الأرض المثبتة البنيان، وكلها تشير إلى رقي حضاري، وقوة مادية، ولكنها قوة سادية طاغية، فقد أشار القرآن إلى قوة فرعون وجبروته، وأشار إلى البنيان العظيمة والأنهار التي تجري من تحديها^(٣)، وطغيانه في الأرض وتعذيبه لبني إسرائيل بألوان العذاب^(٤)، بل ادعى الألوهية قولاً وفعلًا^(٥) إنه كان عالياً في الأرض من المسرفين^(٦)، فأخذه الله وجنوده أخذ عزيز مقتدر، فلم تصمد قوته الغاشمة أمام قوة الله وجبروته وهذه هي سنة الله في الأقوام الكافرة الطاغية التي تبلغ مبلغاً من الحضارة المادية بكل ألوانها، لأنها منقطعة عن الله كافرة به، فيأخذها بالوان من العذاب الأليم.

نقص الأرض من أطرافها:

- (١) ينظر: السور الإتيية: الأعراف، الآية: ١٢٤، وطه، الآية: ٧١، والشعراء، الآية: ٤٩.
- (٢) سورة النبا، الآيتان: ٦-٧، ينظر: سورة النحل، الآية: ١٥.
- (٣) سورة الزخرف، الآية: ٥١.
- (٤) سورة طه، الآية: ٤٧.
- (٥) سورة القصص، الآية: ٣٨، وسورة النازعات، الآية: ٢٤.
- (٦) سورة يونس، الآية: ٨٣، وسورة القصص، الآية: ٤.

وردت هذه الكناية في قوله - تعالى - : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١).

تتصل هذه الكناية: ﴿ نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بالكنائيات الثلاث السابقة في شأن عاد وثمود وفرعون، إذ تصور لنا عاقبة الأمم الكافرة بالله ﷻ مهما بلغت حضارتها المادية في الرقي والتطور. وجاء في تفسيرها: " ﴿ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ ﴾ أرض الكفر ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بما نفنح على المسلمين من بلادهم، فننقص دار الحرب ونزيد في دار الاسلام، وذلك من آيات النصر والغلبة " (٢). فالكناية تصور هذا المعنى على سبيل التمثيل بالصورة الحسية والمتمثلة بنقصان الأرض من أطرافها، وهذا يمثل المعنى الظاهر القريب لها، أما المعنى المكنى عنه البعيد فهو يلتقي مع هذا المعنى من حيث النصر والغلبة للمسلمين، والدمار والهلاك للكافرين، إلا أنه يتجسد على نحو مخصوص ويقرر حقيقة، وسنة من سنن الله في الأرض، ويتمثل هذه الحقيقة (المعنى المكنى عنه) في أن يد الله ﷻ القوة تفعل فعلها في الأمم القوية الغنية - حين تبطر وتكفر وتفسد - فننقص من قوتها ومن ثرائها، وننقص من قدرها، وتحصرها في رقعة من الأرض ضيقة بعد أن كانت ذات سلطان وسيادة، وإذا حكم الله عليها بالانحسار فلا معقب لحكمه ﷻ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﷻ ولا بد له من النفاذ (٣).

وبذلك فإن الكناية تشير إلى هذا اللون من العذاب البطيء وبه تطوى رقعة الدول المتغلبة وتندمر وتزول أو تكون دويلات صغيرة لا قوة لها ولا سيادة، وكانت من قبل أميراتوريات، فإذا هي مغلوبة على أمرها بعد أن كانت غالبة، وإذا هي فقيرة قليلة العدد بعد أن كانت غنية كثيرة العدد. وهذه هي سنة الله كما تجليها الكناية.

(٢) كُنَايَاتُ عَنِ الْعَذَابِ :

والعذاب الذي تصوّره هذه الكنايات متنوع منه عذاب أصحاب جهنم الذين يغشاهم عذابها من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ومنه عذاب في الحياة الدنيا لأولياء الشيطان تخرجه الكناية بالتصوير الحسي المؤثر، وفيما يأتي عرض لها:

(١) سورة الرعد، الآية: ٤١. وينظر: سورة الأنبياء، الآية: ٤٤.

(٢) الكشاف: ٢ / ٤١٦. وينظر: صفوة التفسير: ٨٧ / ٢.

(٣) ينظر: في ظل القرآن: ١٠٢ / ٥.

من فوقهم ومن تحت أرجلهم:

تأتي هذه الكناية في قوله - تعالى - ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُووَأَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١).

﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ كناية ومعناها الظاهر القريب هو أن العذاب يغشاهم من الجهتين: من فوقهم ومن تحتهم، أما المعنى المكنى عنه المقصود فهو أن العذاب يحيط بهم إحاطة شاملة، فهو عذاب شديد يطبق عليهم فيغشاهم ويلابسهم من كل مكان، ولكن الكناية تصوّره من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، لأن ذلك أبلغ في تصوير العذاب، إذ الكناية تخرج العذاب وكله جسم تنفذهم به من فوق، أو يراكين تنفجر عنه من تحت أقدامهم (٢). وفي ذلك يتجلى هول العذاب وشده، فضلاً عن إيحاء التخويف والفرع الذي تثيره الصورة في نفس المتلقي.

وثمة نلاحظ الكناية في سياق آخر في قوله - تعالى - ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُلْزِقَ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ أَلَنظُرُ كَيْفَ تُصْرِفُونَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَنْقَشُونَ﴾ (٣).

﴿مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كناية عن العذاب الشديد الغامر الذي يحيط بهم، وخص بالذكر: من فوق ومن تحت لأنهما أبلغ في تصوير العذاب الذي يقهرهم به الله ﷻ إن شاء، واشدّ وقعاً في النفس من تصوّره أتياً من يمين أو شمال، فالوهم قد يخيّل للانسان أنه قد يقدر على دفع العذاب من يمين أو شمال، أما العذاب الذي يصبّ عليه من فوق، أو يأخذه به من تحت، فهو عذاب غامر قاهر مزلزل، لا مقاومة له ولا ثبات معه. والكناية موحية بهذا الإيحاء القوي في حس الانسان ووجدانه، كما أنها تقرّر حقيقة قدرة الله على أخذ العباد بالعذاب من حيث شاء وكيف شاء (٤).

والكناية فضلاً عن ذلك لمّاحة إلى ألوان من العذاب التي أخذ الله بها قسماً من الأكوام الكفّرة العابرة، تشير إليها الكناية تخويفاً وتحذيراً. قال الزمخشري: ﴿عَذَابًا مِّنْ

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥٥، وينظر: سورة الزمر، الآية: ١٦.

(٢) ينظر: من أسرار التعبير القرآني، ص ٤٧.

(٣) سور الأنعام، الآية: ٦٥.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٣ / ٢٦٩.

فَوَقَّعَكُمْ ﴿١﴾ كما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة، وأرسل على قوم نوح الطوفان ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ﴾ كما أغرق فرعون وخسف بقلرون ^(١).

فإنه قادر على أن يأخذهم بهذه الألوان من العذاب كما أخذ الأقوام السابقة، وهو المعنى نفسه الذي حذر الله منه المشركين وهددهم به في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ^(٢) وسعى الكناية ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾: "وإذا قيل للمشركين احذروا سخط الله وغضبه، واعتبروا بما حل بالأمم السابقين قبلكم من العذاب بسبب تكذيبهم الرسل، واحذروا ما وراءكم من عذاب الآخرة لكي تُرحموا أعرضوا واستكبروا وذلَّ عليه قوله - تعالى -: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ^(٣) فهي كناية عن عذاب الدنيا بالتعبير ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ وعن عذاب الآخرة بالتعبير ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ وفي ذلك إحياء يقرب العذاب الذي يحيط بهم فهو أمامهم ووراء ظهورهم يأخذهم في أي لحظة فهي صورة كنائية تثير في النفس الترهيب والتخويف من هذا العذاب القريب منهم والمحيط بهم وهم عنه غافلون.

من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمالهم:

يصور القرآن الكريم بهذا التعبير الكنائي محاولة إبليس - لعنه الله - الدائبة لاغواء آدم ﷺ وقريبته، في قوله - تعالى - على لسان إبليس: ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْنَدَنَّكُمْ فَمِنْ وَرَاءِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ ثُمَّ لَا يَنْبَغِي لِي أَنْ يَأْتِيَهُمْ مِنْ آيَاتِهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ^(٤) ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ كناية، والمعنى الحسي القريب لها أن إبليس سيأتي البشر من كل الجهات لاغوائهم وإضلالهم عن طريق الله، عن طريق الحق والهدى، فهو العدو يأتي من الجهات الأربع للإطباق على عدوه.

أما المعنى المكنى عنه فهو تجسيد لوسوسته وتوسيله للبشر ما أمكنه وقدر عليه ^(٥) من الإغواء والتضليل، والكناية تخرج هذا المعنى وتقربه إلى الأذهان في صورة متحركة، نرى فيها إبليس - لعنه الله - في إصراره العتيد على إغواء بني آدم، فهو يترصد بهم قاعداً لهم صراط الله المستقيم، والقعود كناية عن الملازمة، ووجه الكناية هو أن ملازمة المكان

(١) الكشف: ٢ / ٢٥.

(٢) سورة يس: الأيتان: ٤٥ - ٤٦.

(٣) صفوة التفسير: ٣ / ١٧. وينظر: الكشف: ٤ / ١٤، والجامع لأحكام القرآن: ١٥ / ٣٦.

(٤) سورة الأعراف: الأيتان: ١٦ - ١٧.

(٥) ينظر: الكشف: ٢ / ٧٣.

تستلزم الإعياء من الوقوف عنده، فيقعد الملائم طلباً الراحة، ومن ثم أطلق على المستجير اسم القعيد، ومن إطلاق القعيد على الملائم قوله - تعالى - : ﴿ إِذْ يُلْقَى الْمُتَّقِينَ مِنَ السَّمَاءِ قَعِيدٌ ﴾^(١) أي ملازم إذ لا يُوصف بقعود ولا قيام^(٢).

والصراط امتعارة تصريحية تصور الاسلام من ايمان بالله وطاعات في صورة حمية، وابليس سيقعد على هذا الصراط المستقيم يصنّ عنه كل من يحاول اجتيازه إلى الله ﷻ ويرجعهم عنه ويضلّهم في شئى محاولاته كما صوّرت الكناية، فينقلبوا كافرين لا يعرفون الله ولا يشكروئه ولا يفلت منه إلا القليل ﴿ وَلَا تَحْذَرُوا الْكَيْدَ ﴾ ونفي الشكر كناية عن الكفر كما قال - تعالى - : ﴿ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا ﴾^(٣) ووجه الكناية أن إبليس أراد الأدب مع الله - تعالى - فلم يصرح بين يديه بكفر أتباعه المقتضي أنه يأمرهم بالكفر^(٤) ولا يخفى ما في التصوير الكنائي من تحذير من هذا العدو والمترصد الذي لا يني في إضلال البشر للحيلولة بينهم وبين الايمان والطاعة، تحذير شديد يثير النفس المؤمنة بالله الطائعة له أن تنبسط لهذا العدو وتدرأ خطره بتقوى الله وطاعته فتتجو من عذاب الله.

(٤) كُنَايَاتُ عَنِ الرَّحْمَةِ :

وهي كُنَايَاتٌ مَعْدُنَةٌ تُصَوِّرُ رَحْمَةَ اللَّهِ الْوَاسِعَةَ بِعِبَادِهِ، وَفِيمَا يَأْتِي عَرْضَ لِلْمَآزِجِ مِنْهَا:

فَتْحُ الْبَرَكَاتِ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ:

وردت هذه الكناية التصويرية في قوله - تعالى - : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٥) ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ كناية قائمة في بنيتها على الاستعارة المكنية حيث شبه البركات وكذاها محصورة خلف الأبواب المستغلقة، ثم حذف الأبواب وأبقى شيئاً من لوازمها وهي (فتحنا) على سبيل الاستعارة المكنية، وفيها تعمق دلالة تيسير البركات عليهم، قال الرمخسري: " فإن قلت: ما معنى فتح البركات عليهم؟ تيسيرها عليهم

(١) سورة ق . الآية: ١٧. وينظر: سورة الأعراف ، الآية: ٨٦.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٨ / ٤٧ ، الكتاب الثاني .

(٣) سورة البقرة ، من الآية: ١٥٢.

(٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٨ / ٥٠ ، الكتاب الثاني .

(٥) سورة الأعراف ، الآية: ٩٦.

الأكل من فوق ومن تحت الأرجل:

فالكناية ﴿لَا تَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ﴾ نصوير حسي، والمعنى القريب كما جاء في التفسير: "أكلوا الأزراق النازلة عليهم ﴿مِنْ ثَمَرِهِمْ﴾ من السماء بإنزال مياديتها، والأزراق النابتة ﴿وَمِنْ ثَمَرِ ثَمَرِهِمْ﴾ أي مما تحتها من الأراضي الخصبة المنيئة المثمرة" (٣)، وأورد الزمخشري ثلاثة أوجه من المعاني:

- أن يفيض عليهم بركات السماء وبركات الأرض.
- أن يكثر الأشجار المثمرة والزرع المغلة.
- أن يرزقهم الجنان اللينة الثمار يجتنون ما تهطل منها من رؤوس الشجر
ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم^(٤).

(١) الكشاف: ٢ / ١٠٥

(٢) سورة المائدة: الآية: ٦٦.

(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٣ / ١٧٩

(٤) الكُفَّ: ١ / ٦٣٠.

أما المعنى المُكنى عنه بهذا التعبير الكناي في فهو المُنْعَة في الرزق على المؤمنين المتقين، رزق مبروك لا يتحدد بالجهتين المذكورتين (فوق وتحت) حسب، وإنما فيه دلالة الوفرة نعم البلاد بالخيرات والثمار والأرزاق ينالها العباد بشرط الإيمان والتقوى. وبذلك تجلي هذه الكناية، فضلاً عن الكناية السابقة المعنى المُكنى عنه مصوراً بالصورة الحسية المؤثرة يقرآن سنة من سنن الله تتمثل في أن الإيمان والتقوى يكفل للمؤمنين المتقين وفرة في الرزق المبارك في حياتهم الدنيا، فضلاً عن جزاء الدار الآخرة بتعظيمها الدائم الباقي.

وحملناه على ذات ألواح ودسر:

ترد هذه الكناية في سياق الطوفان، وهي تجلي صورة من صور الرحمة الإلهية بالعباد المؤمنين: نوح عليه السلام ومن آمن معه، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ^(١) ۝

﴿ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ﴾ كناية عن السفينة التي حملت نوحاً عليه السلام ومن معه من المؤمنين، قال الزمخشري: " أراد السفينة، وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتتوب منابها وتؤدي مؤداها " ^(٢) أي قدكّني عن الموصوف (السفينة) بلفظين هما: الألواح والدسر اللذان يشيران إلى أنها كانت سفينة محكمة بهما، وهو المعنى الذي يلائم سياق الطوفان الصعب الذي أحاط خطره وأحرق بكل حي ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُقْتَرَبٍ ^(٣) وَجَعَلْنَا الْأَرْضَ عِوَجًا فَآلَقْنَا الْمَاءَ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ^(٤) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ^(٥) ۝ ﴾ فهي سفينة محكمة قد صنعها سيدنا نوح بعين الله ورعايته كما قال - تعالى -: ﴿ إِنْ أَصْبَحَ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ^(٦) وَوَحْيًا ^(٧) ۝ ﴾ والتذكير في ﴿ أَلْوَاحٍ ﴾ يفيد التعظيم والنوعية معاً، فهي من نوع من الألواح غريب وعظيم، وكذلك يُقال في (الدسر) ^(٨).

وقد لاحظ الدكتور محمد أبو موسى معنى آخر مضاداً لهذا المعنى بقوله: " الكناية عن السفينة بذات الألواح والدسر ليس بياناً لمكانتها وقوتها وأنها يأمن من فيها، وإنما هو تهوين لها، وأنها لا تحفظ أحداً، وإنما كان الحفظ بعناية الله وحدها، وكفهم في وسط هذا الموج الهادر الذي ابتلع الحياة والأحياء آمنون وهم على ألواح لا تُغني عنهم من الأمر شيئاً، لأن عناية الله كانت هي التي تحفظ، وفي هذا تكرير لهؤلاء الذين آمنوا، وأنهم لم ينجوا بسفينة ناجية، وإنما نجوا على سطوح ألواح هينة " ^(٩).

وفي هذا يتجلى بيان الكرامة التي كانت من الله لنوح والذين معه ورحمته بهم في ذلك الموقف وهوله العظيم الذي أحاط بالأحياء والحياة.

(١) سورة القمر، الآية: ١٣، وينظر: السور الأدبية: الشورى، الآية: ٣٢، والذاريات: ٣، والرحمن، الآية: ٢٤، والحاقة، الآية: ١١ وفيها كنايات عن السفينة بوصفها آية من آيات الله وتجلي صورة من صور رحمة الله بالناس.

(٢) الكشف: ٤ / ٣٤٥.

(٣) سورة القمر، الآيات: ١١-١٣.

(٤) سورة المؤمنون، من الآية: ٢٧.

(٥) ينظر: التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص ٤١٧-٤١٨.

(٦) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص ٤١٨.

(٥) كُنَايَاتُ أُخْرَى:

يضم هذا المبحث عدة كُنَايَاتٍ، كل كُنَايَة تنفرد بموضوع معين، وفيما يأتي عرض

لها:

التَّنَشِيطَةُ فِي الْحَلِيَّةِ وَفِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ:

وردت هذه الكُنَايَة عَنْ الْإِنَاثِ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿أَوْمِنْ يُنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾^(١) كُنَايَة عَنْ مَوْصُوفٍ وَهِيَ (المرأة)، وقد أبرزت هذه الكُنَايَة فِي الْمَرْأَةِ صِفَاتٍ مُعَيَّنَةً، وَهِيَ صِفَاتٌ ذَوَاتُ دَلَالَةٍ مُهِمَّةٍ فِي سِيَاقِ الْآيَاتِ الَّتِي تَشَكَّلَتْ فِيهَا الْكُنَايَة، وَيَحْسُنُ بِنَا إِيرَادُهَا لِتَجَلِيٍّ صَعْنَى الْكُنَايَة بِوَضُوحٍ: ﴿وَجَعَلُوا اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا لِّإِنْسَانٍ لِّكُفْرِهِمْ فَبُينَ﴾ أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَفْلُكُ بَنَاتٍ وَأَصْفَعْنَكُم بِالْبَنِينَ ﴿وَإِنَّا بَشَرٌ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ الرَّحْمَنُ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أَوْمِنْ يُنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾^(٢).

فَالْكُنَايَة تُشِيرُ إِلَى أَنَّ النُّعُومَةَ وَالرَّخْلَةَ مِنْ صِفَاتِ النِّسَاءِ، وَفِي ذَلِكَ رَمَزٌ إِلَى أَنَّ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ لِبَسَاتٍ مِنْ أَوْصَافِ الرِّجَالِ الَّذِينَ أَحْدَوْا لِلْمَجَالِدَةِ وَتَعْمِيرِ الْأَرْضِ، فَالنَّشْأُ فِي الزِينَةِ وَالتَّعُومَةُ مِنَ الْمَعَائِبِ وَالْمَذَامِ لِلرَّجُلِ، وَأَنَّهَا مِنْ صِفَةِ الْمَرْأَةِ، فَعَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَتَجَنَّبَ ذَلِكَ وَيَأْتِفَ مِنْهُ^(٣)، وَكَوْنُ (المرأة) تَنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ فِيهِ مَشْغُولَةٌ بِظَوَاهِرِ الْأُمُورِ وَزِينَتِهَا. وَفِي الْكُنَايَةِ بَيَانٌ لَتَجَاوُزَهُمْ وَغِيْبَهُمْ حِينَ جَعَلُوا الْإِنَاثَ جُزْءًا مِنَ الرَّحْمَنِ وَبَضْعَةً مِنْهُ - تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا - وَهَذَا يَتَنَلَّقَى مَعَ الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَائِكَةِ وَسَيِّطَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالْعَرَبُ أَعْرَفَ أَقْوَامِ الْأَرْضِ بِمَا تَطْغِي عَلَيْهِ الْمَرْأَةُ مِنَ الضَّعْفِ وَالْعِجْزِ، وَمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْحُبَابَةِ وَالْحَسَابَةِ، وَحَيَاةِ الْحَرْبِ وَالْغَارَةِ الَّتِي كَانَتْ قِطْعَةً مِنْ جُودِهِمْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْأَةِ فِيهَا بِلَاءٌ، ثُمَّ يَجْعَلُونَهَا مَثَلًا لِلرَّحْمَنِ وَهُمْ ﴿وَإِنَّا بَشَرٌ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٤) (٥).

(١) سورة الزخرف، الآية: ١٨.

(٢) سورة الزخرف، الآيات: ١٥ - ١٨.

(٣) ينظر: الكشاف: ٤ / ١٩٢، وينظر: التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص ١٨ - ١٩.

(٤) سورة النحل، الآية: ٥٨.

(٥) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص ١٩.

﴿وَهُوَ فِي الْإِصْبَارِ عَزِيزٌ﴾ تجلّى صفة أخرى للموصوف الذي يترى في الزينة والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجازاة الخصوم ومجازاة الرجال، كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يتأتى بيرهان يحجّ به من يخصمه (١). وذلك لضعفهم فطرة عن الرجال. وبذلك يبرز عجز الموصوف وضعفه في التعبير الكنائي بالذات شاهده ودليله من الواقع الذي يعايشونه، ومنطقهم الذي يؤمنون به، فيتجلى ظلمهم وغبثهم، فضلاً عن شكرهم بالله ﷻ حين يجعلون له ممّا خلق جزءاً من المخلوقين.

تطهير الثياب:

جاءت هذه الكناية خطاباً للرسول ﷺ في قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبُّكَ

كَبِيرٌ ﴿٣﴾ وَيَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿٤﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٥﴾ وَرَبُّكَ تَكْبِيرٌ ﴿٦﴾﴾ (٢). والمعنى القريب لها هو: أن الله ﷻ أمر رسوله ﷺ بأن تكون ثيابه طاهرة من النجاسات، لأن طهارة الثياب شرط في الصلاة لا تصح إلا بها (٣)، والمؤمن طيّب طاهر، لا يذيق منه أن يحمل الخبيث. وقد كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه (٤).

أما المعنى البعيد المكنى عنه، فهو (القلب) كما قال ابن عباس (رضي الله عنهما): كنى بالثياب عن القلب والمعنى وقلبك فطهر من الإثم والمعاصي بقول غيلان: وإني بحمد الله لا توب فاجر - لَيْسْتُ وَلَا مِنْ عُدَّةِ اتَّقِمْ (٥) ونقول العرب: "فلان طاهر الثياب وطاهر الجيب والذيل والأردان إذا وصفوه بالنقاء من المعاصي ومذانس الأخلاق، وفلان دنس الثياب للغادر، وذلك لأن الثوب يلاص الإنسان ويشتمل عليه، فكنى به عنه. ألا ترى إلى قولهم: أعجبتني زيد ثوبه، كما يقولون: أعجبتني زيد عقله وخلقه، ويقولون المجد في ثوبه، والكرم تحت حلتّه، يكونون عن ذسبة المجد والكرم إليه. ولأن الغالب أن من طهر باطنه ونقاها عني بتطهير الظاهر وتنقيته، وأبى

(١) الكشاف: ٤ / ١٩٦.

(٢) سورة المدثر، الآيات: ١-٦.

(٣) ينظر: الكشاف: ٤ / ٥١٦.

(٤) صفوة التفسير: ٣ / ٤٧٤.

(٥) جامع البيان في تفسير القرآن: ٢٩ / ٩١، وينظر: التفسير الكبير: ٣١ / ١٩٣.

إلا اجتنب الذنب وإدثار الطهر في كل شيء " (١)، فلما كان الذنب كالشيء الملازم للإنسان، جعلوه كنايةً على سبيل المجورة، وكناية المجورة هي - كما عرّفها البلاغيون - أن نريد ذكر الشيء فنتركه إلى ما جوره (٢) وجعل الرازي مراد حسن هذه الكناية إلى هذه المجورة بين لفظ الكناية والمعنى المكنى عنه (٣). كما يتجلى حسن الكناية من حديث المعنى في ملأ منها لسباق الانذار الذي جاءت فيه، فطهارة الموصوف (القلب) هي الحالة المناسبة للتلقى من الملأ الأعلى، فالطهارة هي الصق شيء بطبيعة الرسالة، وهي ضرورة لملايسة الانذار والتبليغ (٤).

البهتان المُفترى بين اليدين والرجلين:

وربت هذه الكناية في قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبِيغُكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرَكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِمُهْجَنٍ يَفْشَرُ بِهِ بَيْنَ آبِدِيهِنَّ وَأَؤْمِلِيهِنَّ وَلَا يَصْمِيصَنَّ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعَهُنَّ وَاسْتَغْفِرَنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥).

﴿يُبْهَتُنَّ بِقَهْرِيهِنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَؤْمِلِيهِنَّ﴾ كناية عن موصوف، قال ابن عباس (رضي الله عنهما): "لا يلحقن بزواجهن غير أولادهن" (٦) وقال الزمخشري: "كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك، كنى بالبهتان المُفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذبا، لأن يطنها الذي تحمله فيه بين اليدين، وقهرها الذي تلده به بين الرجلين" (٧). فالموصوف هو الولد اللقيط، وليس المراد الزنا وذلك لتقدمه في السياق بالنهي صريحة ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ ولعل هذا التحفظ - بعد المباينة على عدم الزنا - كان للحالات الواقعة وقتئذٍ من أن تبيح المرأة نفسها لعدة رجال، فإذا جاءت بولد، نظرت أيهم أقرب به شبيهاً فالحقته به، وربما اختارت هي أحسنهم فالحقت به ابنها وهي تعلم من هو أبوه!

(١) الكشاف: ٥١٦ / ٤. وينظر: صفوة التفسير: ٣ / ٤٧٤، والمنتخب من كتابات الأنبياء وإشارات البلغاء، ص ٨.

(٢) ينظر: المثل السائر: ٣ / ٥٨.

(٣) التفسير الكبير: ٣٠ / ١٩٢.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٣٦٠.

(٥) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

(٦) الاتقان في علوم القرآن: ٢ / ٤٧.

(٧) الكشاف: ٤ / ٤١٥، وينظر: روح المعاني: ٩ / ٥٧.

والكناية تشمل هذه الحالة وغيرها من كل يهتان مزور يدعى، ولعل ابن عباس (رضي الله عنهما) خصصه بذلك المعنى لمناسبة واقعة وفذلك (١).
ومن ثم نلاحظ من الكناية والسياق مدى اهتمام القرآن بالمرأة إذ يرتفع بها إلى حيث تحقق إنسانيتها إذا ما تحققت في واقعها باجتناب ما ينهي عنه القرآن.

(١) في ظلال القرآن: ٨ / ٢٠.

بعد أن شارفت - بحمد الله تعالى - نهاية المطاف في كناية هذا؛ وقد كان تجربة عظيمة ممتعة في رحاب القرآن العظيم، وجدنتني أقف على نتائج تمخض عنها؛ أجمالها بما هو آتٍ:

١ - تبين لنا - خلال المهامد - أن الكناية في اللغة هي عدول عن لفظ إلى آخر دال عليه، وهذا العدول لا يعني إخفاء المعنى المقصود للإيهام والتضليل كما هو في (التورية)، ولا يعني - أيضاً - توحي الجمال والتقن والتوسع في التعبير اللغوي، أو ارادة غرض مما يرمي إليه سياق العبارة حسب، وهو بالضرورة يجانب إبراز المعنى وإظهاره وكشفه فيقلب التعبير إلى تعبير مباشر بقرّر معناه بطريقة مباشرة، وإنما يعني أن المعنى المكنى عنه ليس بالواضح وضوح المذكور صراحة، ولا هو بالخفي المضلل الذي لا تكاد تبيّنه بالتأمل وإمعان النظر، وإنما هو أشبه ما يكون مكسوّاً بثوب رقيق شفاف يُوحي بالمعنى ولا يباشر به يلمح إليه ولا يقرّره.

أما الكناية في الاصطلاح فقد أسهم جمع غفير من العلماء وبخاصة أصحاب البلاغة في تطوير دلالتها الاصطلاحية حين استقرت مصطلحاً عند المتأخرين منهم.

ولاحظنا في المهامد أن المفهوم اللغوي للكناية هو الطابع الأساس لها إلى عصر قدامة بن جعفر (ت ٣٢٧ هـ) حيث أريد بها غالباً (الستر والإخفاء) وإن لم تخل من العمق والنضج ومن بعض الملاحظات التي حددت التعريف الاصطلاحية وجدنا أنها قد تطورت من المفهوم اللغوي إلى المفهوم الاصطلاحية عند قدامة، فهو أول من عرفها باسم (الإرداف) ولم يسمها كناية، كما فعل أبو هلال العسكري، وابن سنان الخفاجي، وعبد القاهر الجرجاني من بعده، والشواهد التي ساقها له هي من شواهد الكناية.

وذهب المهامد إلى أن الكناية تعبير مجازي وهو ما ذهب إليه أكثر علماء البيان، وذلك لأن الكناية من أساليب التعبير غير المباشرة، وما يراد منها غير ما

يدل عليه ظاهر اللفظ وهو المعنى الحقيقي، وإذا المقصود معنى آخر يخفي وراء ظاهر اللفظ الكنائي ويرتبط به، وما دام المراد ليس الحقيقة الموداة بظاهر اللفظ فالأولى أن تكون الكناية من المجاز، فضلاً عن أن هناك ألواناً من الكناية يتعدّد فهم معناها الحقيقي أو إيراده، ويتضح ذلك بخاصة مع الكناية بالتمثيل. وتبين أن التعريض هو لون من ألوان الكناية، أو طريقة متميزة من طرقها له خاصية فنية في التعبير عن المعنى إذا جاء في سياق المعين النابع من الموقف الخاص الذي يقال فيه الكلام، وأن دلالة التعريض هي أخفى من دلالة الألوان الأخرى من الكناية كالإرداف والتمثيل والتلويح والإيماء والإشارة، لأن دلالاته تتحقق من جهة المفهوم، ودلالاتها لفظية وضعية من جهة المجاز، وأن التعريض يختص باللفظ المركب وأن صور الكناية الأخرى تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً.

وفي ضوء الوسائط بين المكنى به والمكنى عنه قريباً أو بُعداً أو خفاءً أو جلاءً كان تقويم البلاغيين لأسلوب الكناية، إذ جعلوا معيار جودة الكناية راجعاً إلى هذه الوسائط في بنائها ووضوحها في الدلالة على المعنى المقصود، وعدوا ذلك شرطاً من شروط البلاغة. وقد أسس البلاغيون المتأخرون مصطلحات في ضوء هذه الوسائط التي توصلنا إلى المكنى عنه، فبنوا على ذلك خمسة أنواع هي: التعريض والتلميح والإيماء والإشارة والرمز.

كما نظر البلاغيون في طبيعة (المكنى عنه) الذي يتوارى خلف سجب الكناية فجعلوه ثلاثة أصرب، وتبعاً لذلك فإن الكناية أنواع ثلاثة: الكناية عن الصفة، والكناية عن الموصوف، والكناية عن النسبة.

وكل ما ذكره من هذه الأصرب هو صور بديلة لازمة للمعنى الحقيقي المقصود يتميز الواحد من الآخر بسمة لغوية وفنية في التعبير عن الأفكار والمعاني بحيوية وقوة وتأثير، لأن الكناية من الأساليب البيانية التي تتسم بالإيجاز وغير المباشرة في التعبير عن المعنى، وهي تؤدي المعنى بذكر لوازم حسية تكون دليلاً وبرهاناً في إثبات السعي، ومن ثم كانت الكناية أبغ من

التصريح وأوقع في النفس منه وأكد في إثبات المعنى في الذهن والنفس وهذا سرُّ بلاغتها.

ولاحظ المهاد أن المفسرين واللغويين والنحاة والأدباء والبلاغيين قد عُنوا جميعاً بالكناية القرآنية في الاستشهاد بها، وبيان المعاني التي تنطوي عليها، إلا أن ما ذكره من الكنايات القرآنية كان محدوداً، إذ يكرر - على الأغلب - اللاحق منهم ما ذكره السابق، لذلك ظَلَّت الكناية القرآنية بحاجة إلى استقصاء شامل في القرآن كله، استقصاء يجمعها على صعيد واحد لدراستها دراسة موضوعية شاملة تبيِّن خصائصها التعبيرية والتصويرية بوصفها أسلوباً من أساليب القرآن البليغة المعجزة.

٢ - وفي الفصل الأول (الكناية الجنسية) لاحظ: نقّة القرآن الكريم في استخدامه الكناية، إذ إن كل الكنايات الجنسية تشتبك في المعنى المكنى عنه الرئيس (الجماع)، وتفرّق كل كناية بإيحاء خاص ينسجم مع السياق الذي تكون فيه، فهي موضوعة في موضعها اللائق بها، وهو وجه من وجوه إعجاز القرآن، ويتجلّى في الكناية الجنسية البعد التهذيبي، فالقرآن بالكناية يتسامى ويرتفع عن التصريح بالألفاظ البذيئة المفحشة التي تَحْدِثُ الشعور وتُحِطُّ من الذوق الإنساني وهو يرتفع بالعلاقة الزوجية إلى أفق كريم ينأى بها عن الصورة الحيوانية الغليظة، ومن مجسّم إيحاءات الكناية الجنسية نلاحظ إيحاءاً للإنسان بالصورة الإنسانية في المباشرة والالتقاء.

ولاحظنا أنّ ما ورد من الكنايات الجنسية ينطوي على دلالة موحدة خاصة - إذا ما قورنت بما ورد في القرآن من ألفاظ صريحة دالة على الفاحشة كـ (الزنا والواط) التي تقلّ قلّة ملحوظة إزاء الكنايات الجنسية المشروعة بين الزوجين - وتتمثّل هذه الدلالة في الحث على تضييق النطق بالفاحش من القول والتداول به في المجتمع، لأن تداوله يعمل على إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة، فتشيع في النفوس ثم تشيع بعد ذلك في المجتمع، فهو بُعد اجتماعي مرتبط بالبعد التهذيبي، وهما هدف من أهداف القرآن الذي يُحارب شيوع الفاحشة في الواقع، لأنها لا تُلَبّي القطرة السليمة، وتعمل على فساد المجتمع.

٣ - وعلى صعيد الفصل الثاني (الكناية اللونية) أظهر: أن الكناية باللون نوعان: الأول: ذكر اللفظ الدال على اللون مباشرة في التعبير عن المعاني والمشاهد والمواقف النفسية المتنوعة، كالكناية باللون الأبيض، والأسود، والأزرق، والأخضر، والأصفر.

والثاني: التعبير عن اللون بصورة غير مباشرة، يدرك فيها اللون من خلال الصورة الكنائية التي يتغلغل فيها اللون فيتداعى للمتلقي بطريقة ذهنية، فيشير بذلك إلى المعاني والإيهامات المتنوعة، وتبين من عرض أمثلة الكناية باللون بدلالة مباشرة وغير مباشرة أنها كانت غنية بإيهاماتها، فهي ذات قيمة فنية في تصويرها للمعاني والمشاهد فيما ترسمه من ظلال حول المعنى فتوحي بأكثر من دلالاتها الظاهرة، وهي أكثر ما ترد في مشاهد يوم القيامة بوصفها أسلوباً ذا قوة تعبيرية في تجسيد المعاني النفسية في حيوية وقوة تأثير وإمتاع.

٤ - وبين الفصل الثالث (الكناية النفسية) على نحو جلي الآثار الوجدانية والمشاعر النفسية التي جسدتها الكناية بالتصوير الفني المؤثر، والكناية القرآنية لا تقتف في معانيها ودلالاتها عند التصوير الحسي، وإنما توحي التصوير فيها بضعاف دلالي معنوي ونفسي مؤثر يقرب الأفكار والمعاني إلى الحس والوجدان فتتفعل له النفس انفعلاً من شأنه أن يحدث استجابة نفسية معينة في المتلقي. والكناية النفسية تظهر بالتصوير الحسي دخائل النفوس، والمشاعر الباطنة، والانفعالات النفسية في حركات حسية نابضة بالحياة، سواء أكانت هذه الحركة باليد أم بالراس أم بالعين أم غير ذلك من أعضاء جسم الإنسان، فإنها تشير إلى المعاني النفسية المقصودة من ندم وحسرة وغيظ وحقد وجحود وإعراض، وهزيمة وخوف وهلع وفرع، واحتقار واستهانة، وفرح وسرور وطمأنينة تعرض كل هذه المعاني النفسية في سياقات مختلفة وأحوال متباينة في الحياة الدنيا في مواقف متنوعة، وفي الآخرة في مشاهد يوم القيامة المروعة.

٥ - وحلّى الفصل الرابع (الكناية الخلقية) موضوعات تتعلق بقيم خلقية إيجابية كانت أم سلبية مثل: الغيبة والنميمة، والبخل والتبذير، والشجاعة والجبن، والتكبر

والتواضع، والعفة والصبر على مغريات الحياة الدنيا، وما إلى ذلك من موضوعات تتعلّق بأخلاق الإنسان وسلوكه وهو يتحرك ضمن المجتمع الذي يعيش فيه.

والقرآن حين يعرض هذه الموضوعات الخَلْقِيَّة - على الأغلب - لا يعرضها بتعابير ذهنية مجردة وبتقريرية مباشرة، وإنما يعرضها بالأسلوب الكنالي الذي ينهض بنصيبه الفني الكامل في أداء المعاني وتصويرها بطريقة من شأنها أن تُحدث الاستجابة الوجدانية المناسبة في السامع أو القارئ وهو يتلقّى هذه الموضوعات التي يقصد القرآن إلى تثبيتها في نفسه وقلبه أو تنفيره منها.

٦ - وبين الفصل الخامس (الكناية الساخرة) أن السخرية أسلوب عدائي مصوغ بروح الفكاهة عمد إليه القرآن الكريم لتحقيق أغراض قصد إليها، والسخرية في القرآن الكريم قد ينظر إليها بعضهم على أنها لا تتفق وجلالة القرآن من حيث أنه كلام الله، لذلك لا يسوّغون ذمّة السخرية بمعناها المعروفة إلى الله ﷻ، لكن القرآن يصفّته ناطقاً بلسان المسلمين يجعل الصور الساخرة التي ساقها، ومذهبها (الكنائيات الساخرة) يجعلها كأنها صادرة من المسلمين أو ممثلة لموقفهم، وذلك لأن القرآن في كل اتجاهاته يحشد كل أسلحته وطاقاته ليمرّز مركز المسلمين ويدفعهم إلى النصر، وفي الوقت نفسه يحطّم مركز أعداء الإسلام ويدفع بهم إلى الهزيمة أو الشعور بها أو توقّعها.

لذلك فإن الكنائيات الساخرة التي تُمثّل جانباً ملحوظاً من أسلوب السخرية في القرآن هي ليست أسلوباً تعبيرياً وتصويرياً يبعث على الضحك، وليست هي تهجماً أو هجاءً أو تهوين شأن الخصم حسب، وإنما هي - أيضاً - وسيلة حيوية لتحقيق أهداف على جانب كبير من الأهمية سواء من الناحية النفسية أم من الناحية الاجتماعية.

والكناية الساخرة في طبيعتها سلاح يستخدمه القرآن ضد أعداء المسلمين، وهي في - الأعم الأغلب - تستهدف أئمة الكفر والشرك الذين يسدون ضرياتهم العدائية للإسلام والمسلمين بكل ما أوتوا من قوة.. لذلك سيزرهم القرآن بتعابير كنادية ساخرة تنال منهم نبالاً مؤلماً، إذ نهضت الكناية بوظيفتها الفنية في أداء المعاني

والأفكار التي قصد القرآن إليها، ولو جاءت تعابير حقيقية غير الكناية لما استطاعت أن تنهض بما نهضت به الكناية تعبيراً وتصويراً في مواضعها التي اختلرها القرآن.

٧ - أما الفصل السادس (الكناية المعرفية) فقد تناول ذلك الكنايات التي تتعلق بالحواس من سمع وبصر وفؤاد والتي يتم بها تحصيل العلم والمعرفة التي هي أداة هادية إلى الإيمان بالله ﷻ، فيتميز الإنسان بها من المخلوقات الأخرى، ويبين هذا الفصل من خلال كناياته عالمين مَضادين: عالم الإيمان والهدى وأصحابه المؤمنين، وعالم الكفر والضلال وأصحابه الكافرين الضالين، على التقابل في دلالاتهما الفكرية والنفسية، وقد حَقَّقت الكنايات المعرفية دلالات عميقة في الحس والشعور، ويقدر بساطة التراكيب الكنادية ووضوحها تكون قوة عطائها وعمق إحداثها في المعاني والأفكار، إذ يتقابل أمام الفكر والنفس عالمان متناقضان في دلالاتهما في صورة بياضية كاشفة تفصل كل عالم من هذين العالمين بصفات حسية تشخص رموزاً لا ينقطع إحداها بما أخرجت المعاني والأفكار بحوية ليس لتقريرها حسب، وإنما لتتوغل دلالاتها في كيان الإنسان ليتَمَلَّى معانيها وأفكارها، ولتترسخ معطياتها في الفكر والنفس.

٨ - وأيضاً: أن (الكناية التعريضية) في الفصل السابع هي لون من ألوان الكناية لا تقع إلا في التركيب على خلاف ألوان الكناية الأخرى التي تقع في المفردة والتركيب، وهي تغيب القول بلاغة في سياقها، وذلك لأنها تشير بخفاء ومن تون وسائط ولوازم إلى معنى بعيد فتبعث على إثارة الذهن للتعرف على المعنى المراد، من طريق سياق القول ومقتضياته، ولأنها تمتاز بالإيجاز في التعبير عن المعاني التي تهدف إليها، فهي تحقق معناها الذي ترمي إليه من طريق المفهوم من السياق وقرائن الأحوال من غير ذكر ما يتعلق بالطرف المقابل المعرض به حفاظاً على مشاعره من الإمهان، لذلك تعد من الأساليب البياضية التي تفيض بالأدب القرآني الذي تتطبع به لغته المهدبة تقوياً للخلق، وصيانة للنفس الإنسانية من العبث والغبط والإثارة المؤذية، ولذلك يكون وقع المعنى مؤثراً وأقدر على الاستجابة النفسية المناسبة التي يقصد القرآن إلى إحداثها في النفس الإنسانية المتلقية.

٩. وبين الفصل الثامن (كنايات عن يوم القيامة) أن القرآن يستخدم ألفاظاً كنائية متعددة في التعبير عن يوم القيامة، وكلها تشير إلى انفراط عقد هذا الكون المنظور، واختلال روابطه وضوابطه التي تُمسك به في هذا الظلم البديع الدقيق، وتنفق أجزائه بعد انفلاتها من قيد الناموس الذي يضبطها بقدرة الله وإرادته. وكشف: عن أن كل لفظ من هذه الألفاظ الكنائية عن يوم القيامة يجلي صفة من صفات ذلك اليوم العظيم وأهواله بلقطه وإيقاعه الموسيقي، إذ إن الألفاظ الكنائية عن يوم القيامة من الأسماء التي خُتمت بئاء التأنيث فانتقلت من الوصفية إلى الاسمية، لذا فهي تقيد العموم والثبوت والشدة والقهر، كما أن التعريف في هذه الألفاظ هو تعريف الجنس لتمييزها من بين الأجناس على وجه التخصيص، فيوم القيامة هو يوم عظيم لا تحيط الألفاظ والعبارات بوصف أهواله وأحداثه. إلا أن تعدد هذه الكنايات وتجمعها على صعيد واحد يقرب إلى الأذهان والقلوب على نحو من التوكيد أهوال ذلك اليوم وشدة على الكون والحياة والادسان، فتحدث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن، إذ الملاحظ أن هذه الكنايات قد جاءت في سور مكية التي من أبرز أهدافها تأسيس أصول الدين الكبرى في القلوب والنفوس، وهي توحيد الله ﷻ في ألوهيته وربوبيته للكون والخلق جميعاً، وفي مقدمتها: الإنسان الذي كرمه الله أيما تكريم وفصله على كثير ممن خلق تفضيلاً. وبين الفصل أن هناك كنايات أخرى تتصل بكنايات يوم القيامة تصوّر شدة ذلك اليوم وكربه على الكافرين في مشاهد يوم القيامة، وكنايات أخرى تتعلق بمشاهد الناجين والمعذبين في ذلك اليوم المشهود، مشهد الناجين وهم أصحاب اليمين الذين يؤتون كتبهم باليمين، ومشهد المعذبين وهم أصحاب الشمال الذين يؤتون كتبهم بالشمال أو وراء الظهر. فالقرآن يجلي حقيقة (النجاة) من وراء إتيان الكتاب باليمين، وحقيقة (الهلاك) والذبور من وراء إتيان الكتاب بالشمال أو من وراء الظهر، وهما حقيقتان المقصود أن نستقيهما كما أخبر بهما القرآن الكريم.

١٠. ثم ينتهي: بالفصل التاسع (كنايات في موضوعات متفرقة)، وقد ضمّ مجاميع من الكنايات، شكّل كل مجموعة منها موضوعاً قائماً بذاته، وتشارك كل مجموعة من الصور الكنائية في معالجة موضوعات يجسعها خيط فكري واحد.

المجموعة الأولى: بعنوان (كنايات عن الشدة والكرب) اشتركت فيها ثلاث كنايات بإحياء الشدة والكرب الذي يفتاب الإنسان في حقيقته، والشدة والكرب الذي يواجهه في موته وبعثته، وشدة وكرب وهو يواجه الحياة، يعرضها القرآن من خلال مواجهة نبي من الأنبياء (عليهم السلام) قومه الظالمين المنحرفين عن الفطرة السوية.

والمجموعة الثانية: (كنايات عن مصارع الغابرين) كعاد ودمود وفرعون التي أهلكها الله بذنوبها، فجعل مصارعهم ذكرى لمن كان له قلب فيعتبر بها..

والمجموعة الثالثة: (كنايات عن العذاب) التي تصوّر صوراً متنوعة من عذاب الله، منها عذاب أصحاب جهنم الذين يعشاهم عذابها من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ومنها عذاب في الحياة الدنيا لأولياء الشيطان..

والمجموعة الرابعة: (كنايات عن الرحمة) وتصور صوراً من رحمة الله الواسعة لعباده..

والمجموعة الخامسة: (كنايات أخرى) تنفرد فيه كل كناية بموضوع معين وإذ يعرض القرآن هذه الموضوعات في مجاميعها، فإنه يعرضها بالتصوير الكنائي الذي يحتضن الأفكار والمعاني فيؤديها بحيوية وقوة تأثير في المتلقي تعمل على إحداث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن.

هذه أبرز النتائج وأبرزها، عسى أن نكون قد وفقنا في بيانها، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

- ابن القيم وحسنه البلاغي في تفسير القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار الرائد العربي، ط ١، بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
- الاثقان في علوم القرآن، السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة (د.ت).
- الأدب الرسمي، هنري بير، ترجمة: هنري زغيب، منشورات عويدات، ط ١، بيروت ١٩٨١.
- أساس البلاغة، جار الله محمود بن عمر الزمخشري: عبد الرحيم محمود، مطبعة اولاد اورفاند، ط ١، ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م.
- أسرار البلاغة، الإمام عبد القاهر الجرجاني، صححه وعلق حواشيه: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
- الأسمن النفسية لأساليب البلاغة العربية، د. مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، ط ١، بيروت ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.
- الاسلام والتربية الجنسية، د. وجيه زين العابدين، مكتبة المنار الاسلامية، الكويت (د.ت).
- أسلوب السخرية في القرآن الكريم، د. عبد الحليم حفتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨.
- الأسلوب الكتاني نشأته تطوره بلاغته ، د. محمود السيد شيخون، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، ط ١، القاهرة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
- إصلاح المنطق، لابن السكيت، شرح وتحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، ط ٣، ١٩٧٠.

- أصول البيان العربي رؤية بلاغية معاصرة ، د. محمد حسين علي الصغير ، مطبعة دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٦ (سلسلة كتب شعرية).
- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي ، مطابع دار المعارف بمصر ١٩٧١.
- الإعجاز الطبّي في القرآن، د. السيد الجميلي، مطبعة أشبيلية، بغداد، (د. ت).
- إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، د. حفني محمد شرف، مطابع الأهرام التجارية، ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م.
- الأمثال في القرآن الكريم، د. محمد جابر الفيّاض، دار الشؤون الثقافية العامة، ط ١، بغداد ١٩٨٨.
- أنوار الربيع في أنواع الديق، ابن معصوم المدني، حققه وترجم لشعرائ: شاكِر
_____ هـ
- شكر، مطبعة النعمان، ط ١، النجف ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، شرح وتعليق وتنقيح: د. محمد عبد المنعم خفاجي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ١٩٨٩.
- إيقاع اللون في القصيدة العربية الحديثة، د. علوي الهاشمي (مهرجان المربد
الشعر
_____ عري
- التاسع)، ضمن (الشعر العربي عند نهايات القرن العشرين)، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٤١٠ هـ ١٩٨٩ م.
- البحر المحيط، الأندلسي: أثير الدين محمد بن يوسف بن حيّان، الناشر: مكتبة
ومط
_____ ابع
- النصر الحديثة، بيروت (د. ت).
- البديع، عبد الله بن المعتز، نشر وتعليق: اغناطيوس كراستقوفسكي (د. ت).
- بديع القرآن، ابن أبي الأصبع المصري، تحقيق: حفني محمد شرف، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، (د. ت).
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد ابن الفضل إبراهيم، عيسى الياباني الحلبي وشركاه، ط ٢، (د. ت).

- البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهيب الكاظمي.
- تحقيق: د. أحمد مطلوب، ود. خديجة الحديثي، ط ١، بغداد ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م.
- بصائر نوري التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب القيروزي.
- تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م.
- البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط ٢، (د. ت).
- البلاغة العربية المعاني والبيان والبدیع ، د. أحمد مطلوب، وزارة التعليم العالي و: العلمي، الجمهورية العراقية، ط ١، بغداد ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م.
- البلاغة عند الجاحظ، د. أحمد مطلوب، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية.
- العراقية، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م (سلسلة دراسات ٣٤٢).
- البلاغة فنونها وأفانديا علم المعاني ، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان، ط ١، عمان ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.
- البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطلوب، د. كامل حسن البصير، مطبعة دار الكتب، ط ١، جامعة الموصل ١٩٨٢ م.
- البلاغة الواضحة، علي الجارم ومصطفى أمين، دار المعارف بمصر، ط ٧، (د. ت).
- بناء الصورة الفنية في البيان العربي موازنة وتطبيق ، د. كامل حسن البصير، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد لرون.
- مكتبة الخاتجي، القاهرة ١٩٦٨ م.
- ناول مشكل القرآن، أبو عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط ٣، المدينة المنورة ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.

- التبيان في البيان، الطيبي: شرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله، تحقيق: د. توفيق الفيل وعبد اللطيف لطف الله، ذات السلاسل للطباعة والنشر، ط ١، الكويت ١٤٧٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- التبيان في تفسير القرآن، الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن، صححه ورتبه: أحمد شوقي الأمين وأحمد حبيب قصير، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، (د. ت).
- تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الأصبع المصـري، تحقيق: د. حفني محمد شرف، مطابع شركة الاعلانات الشرقية، القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م.
- التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، واحدة مجيد الأطرقجي، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٨، (سلسلة دراسات ١٤٣).
- التصوير البياني، حفني محمد شرف، مكتبة الشهاب، المطبعة العثمانية، ط ٢، ١٩٧٣.
- التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، د. محمد أبو موسى، دار التضامن للطباعة، ط ٢، القاهرة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، (د. ت)، (د. ط).
- التعبير القرآني رؤية بلاغية نقدية، د. شمع السيد، دار غريب للطباعة، القاهرة ١٩٧٧.
- التعبير الفني في القرآن، د. بكري شيخ أمين، دار الشروق، ط ٤، القاهرة، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة، إدريس مرهون الصفا، مطبعة الآداب، ط ١، النجف ١٣٧٨ هـ - ١٩٦٧ م.
- التفسير الإسلامي للتاريخ، د. عماد الدين خليل، مطبعة أوفست الميناء، ط ٢، بغداد ١٩٧٨.
- تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت).

- التفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، ط ٦، القاهرة ١٩٨٢.
- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ١٩٧٣ م.
- تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجمال الدين عبد الرحمن السبكي، مطبوعات مكتبة محمد نهاد هاشم الكتبي، (د.ت)، بهامش (القرآن الكريم).
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار الجيل، ط ١، بيروت ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، ط ٢، (د.ت).
- تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم)، محمد رشيد رضا، طبعة المنار بمصر، ط ١، ١٣٤٦ هـ.
- تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، تحقيق: محمد عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي، ط ١، القاهرة ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م.
- التلخيص في علوم البلاغة، القزويني: جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن اليرفوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت).
- تهذيب الأخلاق، يحيى بن عدي التكريتي، تحقيق وترجمة: د. ناجي التكريتي، وزارة التعليم العالي و: العلمي، بغداد ١٩٩٢.
- جامع البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط ٢، بيروت ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م.

- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمذكور، ابن الأثير: ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: د. مصطفى جواد و د. جميل سعيد، المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأذصاري القرطبي، الناشر: دار الكتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م.
- جرس الألفاظ ودلالاتها في: البلاغي والتقدي عند العرب، د. ماهر مهدي هلال، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد للنشر ١٩٨٠ (سلسلة دراسات ————— رقم ١٩٥).
- جواهر البلاغة في المعاني والديان والابديع، أحمد الهاشمي، منشورات دار إحياء التراث العربي، ط ١٢، بيروت، (د. ت.).
- جواهر الكنز تلخيص كنز البراعة في أدوات نوي البراعة ، نجم الدين أحمد بن اسماعيل بن الأثير الحلبي، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، الناشر: مدشاة المعارف بالإسكندرية، (د. ت.).
- حلية المحاضرة في صناعة الشعر، محمد بن الحسن الحاتمي، تحقيق: د. جعفر الكا ————— التاني، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد للنشر، ١٩٧٩، (سلسلة كتب التراث ٨٢).
- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط ٣، ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م.
- خزائن الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، دار القاموس الحديث للطباعة والنش ————— ر، بيروت، (د. ت.).

- الخلاصة في مذاهب الأدب الغربي، د. علي جواد الطاهر، منشورات دار الجاحظ للنفسر، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٣، (الموسوعة الصغيرة ١٢١).
- دراسات في علم النفس الاسلامي، د. محمود البستاني، دار البلاغة، ط ١، بيروت ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
- دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني، تعليق وشرح: محمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة الفحالة الجديدة، ط ١، القاهرة ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م.
- دلالات التراكيب دراسة بلاغية، د. محمد أبو موسى، دار المعلم للطباعة، ط ١، القاهرة ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م.
- دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة، القاهرة ١٩٤٥.
- رسائل الجاحظ تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، (د. ت.).
- الرمزية في الأدب العربي، د. درويش الجندي، داتر نهضة مصر للطبع والنشر، مطبعة نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٢.
- الرمزية والأدب العربي الحديث، أنطون غطاس كرم، دجار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت ١٩٤٩.
- الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني، أمية حمدان، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر ١٩٨٩، (سلسلة دراسات ٢٦٧).
- الرؤية البيانية عند الجاحظ، ادريس بلمليح، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ١٤٠٤ هـ ١٢٩٨٤ م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، المطبعة الكبرى الميرية، ط ١، مصر، ١٣١٠ هـ.
- المروض المريع في صناعة الديدع، ابن البناء المراكشي العددي، تحقيق: رضوان بنشقرون، نشر وطبع دار النشر المغربية، الدار البيضاء ١٩٨٥.
- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ١٣٧٢ هـ ١٩٥٣ م.

- سورة الواقعة ومنهجها في العقائد، محمود محمد غريب، دار العربية للطباعة، بغداد ١٩٧٧.
- سيكولوجية الفكاهة والضحك، د. زكريا ابراهيم، دار مصر للطباعة، (د. ت).
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، اسماعيل بن حماد الجوهري، أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط ٤، بيروت ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.
- صحيح البخاري، البخاري: أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر بمصر، (د. ت).
- صفوة البيان لمعاني القرآن، حسنين محمد مخلوف، ط ٣، (د. ت).
- صفوة التفاسير، محمد علي الصليوني، دار القرآن الكريم، ط ٢، بيروت، المجلد الأول طبع في ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م. والثاني والثالث في ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.
- الصورة الأدبية، د. مصطفى ناصف، القاهرة ١٣٧٨ هـ ١٩٥٨ م.
- الصورة الفنية في المثل القرآني دراسة نقدية وبلاغية، د. محمد حسين علي الصغير، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد للنشر ١٩٨١، (سلسلة دراسات رقم ٢٨٨).
- الطب النبوي، ابن قيم الجوزية، صححه: عبد الغني عبد الخالق، مطبعة مثير، ط ٢، ١٩٨٥.
- الطبعة في القرآن الكريم، د. كاسد ياسر الزبيدي، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، العراق، ١٩٨٠، (سلسلة دراسات رقم ٢٣٦).
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي: يحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني، مطبعة المقتطف بمصر ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م.
- عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، د. أحمد مطلوب، ط ١، بيروت، ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، ضمن شروح التلخيص، مطبعة عيسى الياباني الحلبي وشركاه بمصر، (د. ت).

- العقد الفريد، ابن عبد ربه: أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، شرحه وضبطه وصححه: أحمد أمين وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٢، بيروت ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م.
- العلاقات الجنسية غير الشرعية وعقوبتها في الشريعة والقانون، د. عبد الملك عبد الرحمن السعدي، دار الأنبار للطباعة والنشر، ط ٣، ١٤١٠ هـ ١٩٨٩ م.
- علم البيّن، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (د. ت.).
- علم البيان دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، د. بدوي طبانة، المطبعة الفنية الحديثة، ط ٤، ١٩٧٧.
- علم البيان في الدراسات البلاغية، علي البدري، مكتبة النهضة المصرية، ط ٢، ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.
- علم عناصر الفن، فرج عيو، دار دلفين للنشر، إيطاليا، ميلانو ١٩٨٢.
- العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونداه، ابن رشيق القيرواني: أبو علي الحسن بن رشيق،
- تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط ٤، بيروت ١٩٧٢.
- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ضبطه وحقّقه: حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت.).
- فقه اللغة العربية، د. كاسد ياسر الزبيدي، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل،
- ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.
- الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، د. توفيق الطويل، الناشر: دار المعارف بالأسكندرية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٠.
- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيم الجوزية، القاهرة ١٣٢٧ هـ.
- في البنية والدلالة رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية، د. سعد أبو الرضا، الناشر:
- منشأة المعارف بالأسكندرية ١٩٨٧.

- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، ط ٥، بيروت، ١٣٨٦ هـ ١٩٦٧ م.
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م.
- القرآن إعجازه وبلاغته، د. عبد القادر حسين، مطبعة الأمانة، مصر ١٩٧٥ م.
- القرآن والصورة البيانية، د. عبد القادر حسن، عالم الكتب، ط ٢، بيروت، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.
- القزويني وشروح التلخيص، د. أحمد مطلوب، مطابع دار التضامن، ط ١، بغداد، ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م.
- الكامل، الميرزا: أبو العباس محمد بن يزيد، عارضه بأصوله وعلق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، (د. ت).
- كتاب الأبرصان والعرجان والعميان والحوالان، الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٢، (سلسلة كتب التراث).
- كتاب سيبويه، أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنير، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار غريب للطباعة، ط ٣، القاهرة ١٤٠٨ هـ ١٢٩٨٨ م.
- كتاب الصناعتين، العسكري: أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي، ط ١، القاهرة ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م.
- كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٦.

- كتاب المُلَمَّع، صنعة أبي عبد الله الحسين بن علي النعمري، تحقيق: وجيهة أحمد الشَّـطَّـر، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جابر الله محمود بن عمر الزمخشري، المجلد الأول، دار الفكر، بيروت. والمجلدات الثاني والثالث والرابع، ترتيب وضبط وتصحيح: مصطفى حسين أحمد، مطبعة الاستقامة، ط ٢، القاهرة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م.
- الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، محمد الحسن علي الأمين أحمد، بيروت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- الكناية والتعريض ضمن رسائل الثعالبي أو نثر النظم وحل العقد، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي، قدَّم له: علي الخاقاني، دار صعب، بيروت، (د. ت.).
- لباب القول في أسباب النزول، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بهامش تفسير الجلالين، مطبوعات مكتبة محمد نهاد هاشم الكتبي، (د. ت.).
- لسان العرب، ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر، (د. ت.).
- لغة المناقنين في القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار الرائد العربي، ط ١، بيروت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- اللغة واللون، د. أحمد مختار العمري، دار البحوث العلمية، ط ١، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
- اللون، محمد يوسف همام، مطبعة الاعتماد، ط ١، مصر ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م.
- السُّلَّ السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير: ضياء الدين بن الأثير، قدَّمه وعلَّق عليه: د. أحمد الحوفي و د. بدوي طيانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، (د. ت.).

- مجاز القرآن، صنعة أبي عبيدة معمر بن المثنى القتيبي، عرضه بأصوله وعلق عليه: د. محمد قواد سركين، مكتبة الخانجي، دار الفكر، ط ٢، ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م.
- مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية، د. محمد حسين علي الصغير، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، ط ١، بغداد ١٩٩٤.
- المختصر على تلخيص المفتاح، سعد الدين النفلزاني، ضمن شروح التلخيص، مطبعة
- عيسى النابلي الحلبي وشركاه بمصر، (د. ت).
- مدخل الى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، مطبعة الزهراء الحديثة، ط ٣، الموصل ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.
- المذاهب الأخلاقية الكبرى، افراديسوا غريغور، ترجمة: فتية المعروفي، منشورات عويدات، ط ١، بيروت ١٩٧٠ م.
- المذاهب الأدبية من الكلاسيكية الى العنثية، د. نبيل راغب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧، (المكتبة الثقافية ٣٤٣).
- المشاهد في القرآن الكريم دراسة تحليلية وصفية، د. حامد صادق قتيبي، مكتبة المنار، ط ١، الأردن ١٩٨٤.
- مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، دار المعارف بمصر، (د. ت).
- معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، ط ١، ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.
- المعاني الناذية في الأسلوب القرآني، فتحي أحمد عامر، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٧٦.
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب، ط ٢، بيروت، ١٩٨٠.
- المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، المكتبة الأموية، ط ٤، ١٩٨٣.
- مع القرآن في عالمه الرحيب، د. عماد الدين خليل، دار العلم للملايين، بيروت، (د. ت).
- السجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م.

- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
 - معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة البابي الحلبي، ط ٢، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م.
 - المعرفة الصوفية (دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة)، ناجي حسين جودة، دار عمّار، ط ١، عمان ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
 - مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد علي المسكاكي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ١، ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م.
 - المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني، أعده للنشر وأشرف على الطبع: د. محمد أحمد خلف الله، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، المطبعة الفنية الحديثة ١٩٧٠.
 - من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ، د. محمد أبو موسى، الناشر: دار الفكر العربي، مطبعة السعادة، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.
 - من بلاغة القرآن، أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مطبعة نهضة مصر، القاهرة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥٠ م.
 - من بلاغة النظم العربي دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، د. عبد العزيز عبد المعطي عرفة، عالم الكتب، ط ٢، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م.
 - المنتخب من كنايات الأدياء وإشارات البلاغاء، أبو العباس أحمد بن محمد الجرجاني الثَّقفي، عني بتصحيحه: السيد محمد بدر الدين التعمساني الحلبي، مطبعة السعادة، ط ١، مصر ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م.
 - مواهب الرحمن في تفسير القرآن، محمد عبد الكريم المدرس، عني بنشره: محمد علي القره داغي، دار الحرية للطباعة، ط ١، بغداد ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م. وطبع المجدد السليح في ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.
 - مواهب الفتح في شرح تلخيص المفتاح، ابن يعقوب المغربي، ضمن شروح الثلاثة
- مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، (د. ت).

- نصوص قرآنية في النفس الانسانية، د. عز الدين اسماعيل، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، افاق عربية، ط ٢، بغداد ١٩٨٦.
- نظرية الحروف العاملة ومبناها وطبيعة استعمالها القرآني بلاغياً، د. هادي عطية مطر
- الهلال، مكتبة النهضة العربية، ط ١، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.
- نقد الشعر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).
- النكت في إعجاز القرآن، الرماني: أبو الحسن علي بن عيسى، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد و د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط ٣، ١٩٧٦.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب الأنوري، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، (د. ت).
- نهاية الإيجاز في دارية الإعجاز، فخر الدين الرازي، تحقيق: د. ابراهيم السامرائي و د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان ١٩٨٥.
- ثقباً الرسائل والأطاريح الجامعية:
- أساليب المجاز في القرآن الكريم (أطروحة دكتوراه)، د. أحمد حمد محسن الجبوري، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٩.
- الاستعارة في القرآن الكريم (رسالة ماجستير)، أحمد فتحي رمضان، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٨٨.
- ألفاظ الثواب في القرآن الكريم دراسة دلالية (رسالة ماجستير)، عماد عبد يحيى، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٨٧.
- الألفاظ النفسية في القرآن الكريم دراسة دلالية (رسالة ماجستير)، أيمن توفيق الوتاري، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٩٤.
- الينى والدلالات في لغة القصص القرآني دراسة فنية (أطروحة دكتوراه)، د. عماد عبد يحيى، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م.

- منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم (أطروحة دكتوراه)، د. كاصد ياسر الزبيدي، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.
- نشاط الصفدي في الذوق والبلاغة (أطروحة دكتوراه)، د. مناهل فخر الدين قليح، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٨ م.
- ثالثاً المجالات والدوريات:
- ألفاظ النصر والتكئين في القرآن الكريم دراسة دلالية، د. عبد الوهاب محمد علي العدواني وعماد عبد يحيى، مجلة آداب الرافدين، تصدر عن كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد (٢٣) ١٩٩٢.
- التعبير عن اللون في الشعر العربي القديم، د. وولف دتريش فيشر، مجلة التريفة والعل، العدد (٨) ١٩٨٩.
- جدل اللون في شعر خليل حاوي، د. بشرى حمدي البستاني، مجلة آداب الرافدين، تصدر عن كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد (٢٥) ١٩٩٣.
- الجرس والإيقاع في تعبير القرآن، د. كاصد ياسر حسين، مجلة كلية آداب الرافدين، تصدر عن كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد (٩) ١٩٧٨.
- شاعرية الألوان عند امرئ القيس، محمد عبد المطلب، مجلة فصول، العدد (٢) ١٩٨٥.
- الكناية، محمد جابر الفياض، مجلة المجمع العلمي العراقي، (ج ١ - ٣٧)، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- مقومات النصر في القرآن الكريم، د. كاصد ياسر الزبيدي، مجلة آداب الرافدين، تصدر عن كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد (٢٣) ١٩٩٢.
- اللون في الأدب العربي القديم وملاحظات أخرى، علي الشوك، الأدب العراقي، العدد (٢)، بغداد ١٩٦١.
- رابعاً المخطوطات:
- حدائق الزهر والريحان في البيان عن بلاغات التبيان، محمد أمين الخطيب بن خير الله العمري، رقم المخطوط ١١ / ٣ رضواني، مكتبة الأوقاف / الموصل.